رواية

ريحانة

ميسون صقر



ريحانة

بقلم

ميسون صقر

الجزء الأول

الأجنحة لا تترك أثرا في الهواء

بل تهيئ الروح للانفلات

الطفل الموجود في الصورة

- ١ -

كانت "الرولة" في الصورة القديمة للجد الأول موجـودة، يستظل تحتها المحتاجون والآتون بمظالمهم وشكاواهم حتـى طلوع الحاكم فتشهد على خروجه وصدور الأحكـام، كمـا تشهد على ضرب المساجين فوق المدفعين دون أن تنطق.

كان بكاؤها جذورا تمتد في الأرض حتى السجن، فتلامس بعض أجسادهم بحنان أم رءوم.. لهذا حين تغير الحكم هـدم الحصن وقطعوا "الرولة" أيضا، ولأنها رمز أقاموا تمثالاً لها من الأسمنت بدلاً منها.

- ٢ -

في الدور الأسفل داخل الحصن كانـت غرفـة ريحانـة والعبدات الأخريات لا تختلف كثيـرا عـن بـاقي الغـرف المتراصة في الممر، وحين تنام تسـمع أصـوات صلصـلة السلاسل في أقدام المساجين الذين يتحركون من غرفة السجن إلى الحمام بجانب الباب الكبير في الحصن.

كل شيء داخله: الحاكم، والسلطة، والمساجين، والعبيـد، الكل داخله، ومرهون هو الوحيد الذي في يده مفـاتيح كـل شيء: البوابة الكبيرة، الباب الصغير داخل البوابة الكبيـرة، السجن – الغرفة الكبيرة عند مدخل الحصن في اليسـار –، ولا شيء أكثر من كونه حارسا يقف برشاشه الذي لا ينـزل من على كتفه أبدا، هو وآخران يحرسان الحصن من الخارج بجانب المدفعين المتصدرين بوابة الحصن الخارجية، اللـذين يجلد عليهما المساجين كل صباح.

هناك حراس آخرون يداومون على حراسة الحصن مـن أعلى، فوق "المحاوسة"، ذلك البناء القديم الذي يرجع بنـاؤه إلى فترة سابقة ولم يتجدد، ولم يتم تغييره. هؤلاء الحـراس حين يجولون بأنظارهم من أعلى على القادم يمكـنهم رؤيـة البحر من جهة، ورؤية "الرولة" من جهة ثانية، هذه الشـجرة – شجرة الجميز – ارتبط وجودها بوجـود الحصـن، فلهـا التاريخ نفسه، وهي قريبة من عمره، لا تملك مـن السـلطة سوى المحبة. فهي أعرق وأكبر شـجرة، وحيـدة تضـرب جذورها في عمق الأرض، داخلة إلى أعماقها، ومتجذرة في المكان، وممتدة في جميع البيوت القريبة من القصر. حيـث

نجد بعض عروقها في هذا البيت أو ذاك. وهي مصدر البهاء الوحيد، كل من يلفظه الحصن، يستظل تحتها. ويستظل تحتها أيضا من يأتون إلى الحصن فينتظرون إلى أن يفتح مرهون شُراعتي البوابة المدقوقة بفنية عالية، ومسامير ترسم أشكالاً وخطوطًا وهندسة جميلة، البوابة الكبيرة التي لا تفتح إلا في الأعياد وعند حضور ضيوف كبار لدخول الأهالي والضيوف أو لخروج السجناء إلى الباحة الخارجية، أو لخروج موكـب الحاكم أو خروج بعض من كان بالداخل.

وها هو قد هدم الحصن، هدموه ليهدموا تاريخه الحـالي ويبنوا مكانه حصنًا كما كان قديما كي يحمي التاريخ الحديث منه. حيث أزالوا القصر بكامله عام ١٩٧١ ولم يتبق منه إلا البرج الصغير "المحلوسة".

تحصن فيه أجداد الحاكم، ناموا وقاموا وفتحوا صـدورهم للقتال تنازعوا وتحاكموا قاتلوا واقتتلوا. هو رمـز السـلطة المتنازع عليها. وكان الحصن بيت الذاكرة وذاكرة لتـاريخ قديم يعود تاريخه لعام ١٨٢٠ بناه الشيخ سلطان بن صـقر، وكان كل حاكم يضيف إليه ويوسعه حتى بلغ أوجه في عهد سلطان بن صقر الثاني ١٩٢٤.

ظل يتعاقب عليه الحكام منذ الأمير القاسم بن راشد بن محمد القاسم ١٥٧٥ – ١٦٠٠، ثم محمد بن القاسم، ثم سيف بن علي بن صالح، ثم رحمه بن محمد بن القاسم، ثم مطر بن رحمه القاسم، ثم رحمه بن مطر بن رحمة، ثم مطر بن رحمه، ثم راشد بن مطر، ثم صقر بن راشد، ثم سلطان صقر بن راشد، خالد بن سلطان بن صقر، ثم سالم بن سلطان، ثم صقر بن خالد، ثم خالد بن أحمد، ثم سلطان بن صقر، ثم صقر بن سلطان..

له بوابة تبدو أمامها وكأنك أمام حكم أبدي يجرك إلى الماضي، حيث يحكي عن القبائل التي تنزح إلى الخليج من شبه الجزيرة، وتستقر في السكن هنا عند هذه البوابة، وحين تخرج منها تجد حريتك في الطريق وكان البشر يملأون الشوارع بجانب الحصن، وكل يوم يساق المسجونون في الظهيرة أمامهم، كي يجلدوا على المدفع الرابض والذي سمي بالرقاص ويتوسط ساحة الميدان أمام تلك البوابة. كان مدفعا برتغالي الصنع قديما، استولى عليه الشيخ سلطان بن صقر في معركة بين القواسم وآل بوسعيد وكان مداه ١١ كم ولا يستعمل إلا في الأعياد وسمي بالرقاص لاهتزازه عند دفعه.

وفي المناسبات العامة والأعياد يجتمـع الأفـراد تحـت "الرولة" وتبدأ المراسم.

هنا، في هذا العيد رأت حبيبا تحت "الرولة" مباشرة، وهنا أحبته، ومن هنا دخل إلى البوابة ثم إلى الحصن ليكون سائق الحاكم وزوجا لها.

كان حبيب قد أتى من عمان عن طريق "خورفكان" إلـى الإمارة، وسط تضاريس قاسية وكثبان رملية وصحراء قاحلة إلا من أشجار الغاف والسدر. مارا بساحل الباطنة وهو سهل عند مدخل "خورفكان" به مزارع للتمباك الذي يصـدر إلـى أفريقيا والخليج العربي. من الباطنة أتى حبيب نازحـا مـن عمق عمان الداخل ليدخل إلى الحصن مباشرة – بيت السلطة – وهناك أصبح السائق المقرب إلى الحاكم، وزوج ريحانـة عبدة زوجة الحاكم.

كما تشير المصادر:

" ألزم الإنجليز الشيوخ – حكام الإمارات – أولاً بمد يـد العون لهم في مراقبة ما يجري في البحر، وثانيـا بـإعلانهم منح حق اللجوء لأولئك الذين يعتبرونهم عبيدا بـأن يطلبـوا حماية المندوب السامي أو القنصل البريطـاني أو إذا كانـت

هناك ممثلية سياسية لـبلاده، وعلـى هـؤلاء أن يحمـوهم ويعتقوهم ويسفروهم إلى بلدانهم الأصلية. وعليه فقد صدرت التعليمات إلى الوكيل الوطني المقيم في الشارقة أن يعتق أي فرد يطلب اللجوء والعتق – فشهدت الثلاثينيات مـن القـرن توافد عدد كبير من أولئك العاطلين إلـى مقيميـة الشـارقة وغيرها من المقيميات في الخليج وأفادت التقارير البريطانية أن معظمهم لم يأت طلبا في الحرية أو العتق بل للتخلص من الديون المعلقة برقبته لسيده التاجر ".

– ٣ –

" أطلقوا على الإمارات أسماء ومسـميات منهـا "سـاحة القرصنة" و"المشـيخات المتصـالحة"، و"إمـارات السـاحل المتهادن"، و"ساحل الهدنة". فلقد كانت بريطانيا تزعم منذ أن وجدت لها وكالة سياسية في منطقة الإمارات عام ١٨٢٠ إثر تحطيمها قوة القواسم البحرية، التي كانت تهدد أساطيلها التي تمخر مياه الخليج بأنها تتبع سياسة عدم التدخل في الشـؤون الداخلية أي أن سبب وجودها السياسي في أرض الإمـارات

هو للمحافظة على أمن البحار، وأنها لن تتدخل فيما يجـري في الداخل من قضايا وأحوال".

كانت ريحانة قد رحلت مع العائلة التي تمتلكها، تركـت زوجها حبيبا وذهبت معهم، لم تستطع أن تخالف أمرهم حين أمروها بأن تهيئ نفسها للرحيل. هي عبدة تـؤمر فتطيـع، أمروها لأنها عبدتهم، ولم يأخذوا حبيبا معهم.

أعدت ريحانة ثيابها وثياب ابنها، بعد أن قررت العائلـة الرحيل إلى القاهرة إثر انقلاب على الحاكم من قبل ابن عمه، الذي ظل يترصد له، ويتحالف مع الإنجليز آنـذاك لتنحيتـه وأخذ السلطة منه، كان الإنجليز لا يحبون عمها الحاكم لأنـه كان ضدهم دائما، يساند الثوار في ظفار وينتمي إلى حركـة القوميين العرب، بل ويذهب إلى القاهرة التي كانـت كعبـة الثوار والمناضلين، لكي يساندوه ضـد الاسـتعمار وضـد الجهل، وحين اتفق مع جمال عبد الناصر على أن يزور عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية الشـارقة ليـرى عن كثب أحوال المدينة ولإعداد تقرير حول الأوضاع داخلها والترتيب لتوسيع تجربة فتح مدارس التعلـيم والتـي بـدأت

ببعض المدارس الصغيرة وبأعداد متواضعة، كان يطمح في معونة مصر أيضا في أشياء عديدة أخرى.

ما زالت ريحانة تتذكر حين طلب الإنجليز من الحـاكم أن يعتذر عن استقبال عبد الخالق حسونة، وبدلاً من أن يـذعن للأمر بدأ الإعداد لاستقباله كما يليق بحـاكم دولـة آنـذاك. سمعت الحوار الذي دار بين عمها الحاكم وعمتها حين طلبت منه أن يتريث ولا يواجه الإنجليز بعناد زائد، لكنه برغم ذلك أصر على أن يفعل ما يراه دون إذعان لهم، ودون أن يأبـه لتحذيرات أولي الأمر الذين يعلمون مقدار ما يترتب عليه هذا الاستفزاز، ودون الإصغاء لما تنصح به زوجته.

هيئ المطار للاستقبال وانطلقت المظاهرات العديدة التـي رتب الحاكم بنفسه خروجها، بل وقامت حدلة وبعض النسوة في الحصن بحياكة لباسين لابنته شمسة وصـديقتها شـهلة لحضور الاستقبال وتقديم الورد للضيف، حال نزولـه مـن الطائرة. وما زالت تتذكر كيف ألبست عمتها الصغيرة شمسة اللباس الذي على هيئة علم مصر أمـا صـديقتها فألبسـوها اللباس الذي على هيئة علم إمارتها، وكان علم مصر ذا ألوان كثيرة أبيض وأحمر وأسود، وبه نجوم خضراء في المنتصف

فرحت به شمسة، أما شهلة فكانت تلبس علم مدينتها الأبيض ذا المربع الأحمر في الوسط وكانت ريحانة غير بعيدة حـين ارتفعت السيارة وبها الأمين العام، والحاكم، وابـن الحـاكم، وبعض كبراء المدينة على أكتاف الهاتفين بالتحرر والمنادين بأن تساعدهم مصر في ذلك. وكأن الزيارة انقلبت من مجرد فتح مدارس أكثر ومساعدات عينية إلى المطالبة بمسـاندتهم ضد الإنجليز، ورأت عمتها الصغيرة وهي معلقة من إحـدى ذراعيها في الهواء لتستقر داخل السـيارة المحمولـة علـى الأعناق. كان السائق هو حبيب، وكان سعيدا وخائفًـا. رأت كل ذلك وهي الآن تجمع ملابسها وملابس ابنها لتغادر مـع عمها والعائلة، بعد أن أعد الإنجليز مع ابن عم الحاكم انقلابا سريعا حاسما، بعد أن فشلوا في ترويض عمها الحاكم ولـم يستطيعوا نسيان الجهر بالتحرر والاستقلال مخافة إن تناسوا تطفو الرغبة، وتعلو الأصوات في عدة أماكن أخرى متشبهة بما فعله وربما أكثر أيضا.

هي الآن ترحل معهم حاملة طفلها ابن الثالثة وحاملاً فـي شهرها السادس، ها هو هذا الطفل الموجود في الصورة مـع ابنة العائلة شمسة وهي تحمل أخاه الرضيع عاريا فيما يختال

هو بملابس ضابط شرطة، وكانت مـن الملابـس المحببـة للأطفال آنذاك.

" نصور" هذا هو اسم الطفل الصغير المدلل ناصر الـذي ولدته ريحانة في القاهرة فسمي بهذا الاسم تيمنًا بجمال عبـد الناصر، أما محراك، محراكوه فهو الطفل الآخر ذو الملامح الشرسة والطباع الفاسدة منذ طفولته والذي يصـر علـى أن يلبس ملابس ضابط شرطة بيضاء ونظيفة دائما.

لم تربهما ريحانة كثيرا، كانت الأسرة جميعها تربـي محراكًا ونصورا بعد وصولهم إلى القاهرة في رحلة طويلـة وشاقة، يستقرون فيها على أمل العودة التي ظلوا ينتظرونهـا ولا يعلمون متى ستأتي. هم رحلوا لوضع سياسي لا يعلمون متى ينتهي، لكنهم أتوا إلى القاهرة، كعبة المناضلين كما كان سيدها يقول دائما، وفي فترة انتظارهم انشغلوا بتربية طفليها، فبعد أن كان بيتهم يعج بالأطفال والكبار والسادة والعبيد، ها هم وحدهم هنا يدخلون حياة غريبة يكتشفون للمـرة الأولـى أبجدياتها ويعانون من الوحدة والفراق حتى وهـم يتناسـونه بالتذكر الدائم في جلساتهم اليومية، إنه واقع مخالف لطبيعتهم

وعاداتهم، لذلك ينشغلون بقضاء يومهم في العنايـة الفائقـة بأمور صغيرة.

أما هي، ريحانة، فبالإضافة إلى الاعتناء بطفلـة العائلـة شمسة – ابنة عمتها – الصغيرة، كانت تعتني بأمور البيـت والخدم وعمها وعمتها.

عمها وعمتها.. هكذا كانت ريحانة وجميع العبيد ينـادون من يمتلكونهم وأطفالهم وعائلاتهم جميعها، لهذا كانت ريحانة تنادي ابنة عمتها، الصغيرة شمسة، بعمتي شمسة أيضا.

" ولم يكن البريطانيون موفقين في معالجة الأوضاع التي يتدخلون فيها فحينما نادوا بالحرية والعتق للعبيـد وفتحـوا الباب على مصراعيه لهروب عدد كبير من الغواصين مـن أسيادهم فإن هؤلاء الهاربين وجدوا أنفسهم بعد فترة يعيشون في العراء بدون مسكن أو مأكل ففضلوا العودة إلى أسـيادهم والعيش في كنفهم".

في عام ١٩٢٩ كان عدد الأشخاص الذين طلبوا حـريتهم ٤٧ شخصا منح الإنجليز منهم ٢٧ شخصا فقط. " أمـا فـي عام ١٩٣٤ فكان عدد الأشخاص الذين طلبوا حريتهم شخصا واحداً ".

- ٤ -

امتلأ البيت بالضوضاء والتساؤلات العديـدة والصـراخ والعويل، امتلأ بالنساء والرجال علـى السـواء بـالحراس وبالجنود الإنجليز أيضا الذين التفوا حول الحصن.

شردت ريحانة قليلاً وبدت كأنها تتـذكر حلمـا سـحيق الأغوار حين لفتْ حول خصر وظهر عمتهـا أوراق عمهـا الرسمية عند رحيلهم مثلما لفت عمتها شمسة من قبل بـالعلم المصري، فحين سمعت عمتها برحيل زوجهـا لـم تنتظـر لحظة. أمرتها أن تنسل من الجمع. ذهبت معها وحدها إلـى غرفته، فتحتا خزنته وأخذت عمتها الأوراق الموجودة بهـا، وضعتها في قطعة قماش ثم ساعدتها ريحانة على لفها جيـدا حول خصرها وعلى ارتداء ملابسها. أقفلت عمتها الخزنـة وأخذت المفتاح معها ووضعته في صدرها، كانتا قد وجـدتا مفتاحا كبيرا أسود داخل الخزنة عرفت ريحانة أنـه مفتـاح السجن الذي كان هناك مفتاح مثله لدى مرهـون الحـارس فأخذته وخبأته هي أيضا في صدرها مثلما فعلت، لـم تنتبـه عمتها لما فعلته ريحانة كانت منشغلة بحالها حيث انتفخـت

بشكل ملحوظ، لكن مع الضوضاء والجلبة الحادثـة لتسـفير زوجها لم يلحظ أحد سمنتها المفاجئة.

بدأتا بوضع ملابس عمتها وعمهـا الـذي رحـل قـبلهم وملابس عمتها شمسة أيضا في الحقائب وقبـل أن تغلقهـا، فتحت عمتها دولابها وأخرجت ثوبها الجديد الذي أعدته منذ شهور لحفل خاص بعد عودة ابنها وابنتها اللذين يتعلمان في مصر وبمناسبة تحولهم إلى بيتهم الجديد، تأملت عمتها الثوب بسرعة ووضعته داخل إحدى تلك الحقائب.

تذكرت كيف حصلت عمتها على ذلك الثوب حينما كانوا على ظهر مركب عند عودتهم من الهند حملت عمتها بابنتها شمسة وسط الماء. وكان على ظهر المركب مع عمها بعض التجار. كانت عمتها قد رأت بعض الأقمشة الملفوفة تـدخل إلى الكابينة السفلية للمركب فتعلق قلبها بقطعة قماش سوداء ذات نقش ذهبي على أشكال أوراق شجر تلمع. طلبت مـن زوجها أن يهديها لها بمناسبة حملها فارتبك وأشار إلـى أن هذه الأقمشة ليست ملكه وإنما هي ملك للتجار الذين معه ولا يعلم كيف يطلبها منهم. كانت تسمع صـوتها وهـي تدنـدن بأغنية أم كلثوم:

" على بلاد المحبوب وديني ..زاد وجدي والبعد كاويني "

وكان عمها يعلم أن هذه الأقمشة يخبئ الثـوار والتجـار بداخلها بعض الأسلحة وبعض الذهب المهرب من الهند إلـى المنطقة، ظلت عمتها تلح عليه طيلة عودتهم، وعند وصولهم فاجأها بها دون أن يخبرها بما كانت تحمله داخلها.

فرحت عمتها بها كثيرا وظلت تحتفظ بها وفي كل مناسبة تخرجها لتفصلها، ثم تغير رأيها وتعيـدها مكانهـا بعـد أن تضمخها بالعطر والبخور إلى أن حان وقت تحويلهـا إلـى فستان مناسب لها، له مناسبته الحقيقية التي تستحق أن تلبس فيه مثل هذا الثوب الثمين والجميل، والذي لم تر مثل جماله عند كل السيدات اللواتي تعرفهن.

فصلت عمتها قطعة القماش بحيث تكـون ثوبـا مفتـوح الصدر والظهر على شكل سبعة، مكتنزا قليلاً عند الخصـر لكنه واسع من أسفل، تتلألأ عليـه أوراق الشـجر الذهبيـة اللامعة. وتتسع تدويرة الصدر بحيث تستطيع أن تلبس ذلـك العقد اللؤلؤي، الذي أحضرته من الهند وظل معلقًا في عنقها فترة طويلة من العمر.

" كان عالم اللؤلؤ هو العمود الفقري لجميع مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية عند أهل الإمارات والخليج العربي، فهم الذين غاصوا في أعماق البحـر واسـتخرجوا اللؤلـؤ وصنعوه وباعوه وتاجروا به فقدموا للعالم أفضل جـواهره، وهكذا وعلى محور عالم اللؤلؤ دار نظـام العمـل ونظـام التقسيم الطبقي والاجتماعي والكثير من الأنمـاط المعيشـية والممارسات اليومية والحياتية والفكرية عندهم. فلما أفل نجم اللؤلؤ حار الناس في أمرهم وبرزت مشكلات مالية خانقـة ومشكلات اجتماعية كثيرة كانت أهمها مشـكلة البطالـة، إذ سرعان ما وجد الكثير من النـاس خاصـة طبقـة التجـار والممولين أنفسهم بدون عمل، فراحوا يبحثون عن مجـالات عمل جديدة اتسمت معظمها بالمخاطرة، مثل تجـارة جلـب الأيادي العاملة من أفريقيا وبعض مناطق بلوجستان وتجارة الذهب مع الهند وتجارة السلاح والطعام مع إيران.

فالأولى كانت عندهم تجارة عبيد ورقيق، والبقية كانـت عمليات تهريب، لذلك فقد حرموا تداولها. غيـر أن التجـار والأهالي لم يكترثوا لذلك فراحوا يمتهنونها لكن الذي حصل بعد ذلك هو أن طبقة الحكام الذين سبق لبريطانيا أن جعلتهم

يوقعون على معاهدات يحرمون فيهـا هـذا الضـرب مـن الأعمال، أجبروا على عدم ممارساتها. فكـان أن تحسـنت أحوال التجار المادية بينما تدهورت أحوال الحكام.

لكن الصورة تغيرت بعد ذلـك عنـدما جـاء الإنجليـز بموضوع الخط الجوي وطلبوا امتيازات من الحكـام لقـاء مبالغ مالية وأحكموا قبضتهم على فعاليات التجار ".

تذكرت شمسة خروجهم وهي تـروي لهـادف فـي أول تعارف بينهما في الجامعة عن طبيعـة اسـتقرارهم وكانـا يجلسان أمام مكتبة جامعة القاهرة.

لبست أمي عباءتها السوداء فوق ملابسها غطـت نفسـها بالكامل حتى وجهها وضعت عليـه وشـاحا خفيفًـا أسـود وخبأتني معها داخل العباءة، كنت خائفة من العسكر والجنود الإنجليز الذين امتلأ بهم صحن الحصن وعند البوابـة، لـم أستطع أن أصرخ مثلما كنت أفعل دائما في مرهـون حتـى يسمعني ويفتح الباب الصغير لي وأنا قادمة أو ذاهبـة مـن الحصن، ولم أستطع أن أذهب إلى جانب باب غرفة السـجن وأدق عليه بأصابعي الصغيرة وأنا أسمع أصواتهم وصلصلة السلاسل في أقدامهم، ولم أستطع أن أشاهد وجه الحـرس –

حرس والدي وهم يحملون الرشاشات فأركض وأهزها وهي على أكتافهم وهم يرتجفون خائفين أن أضع يدي على زنـاد أحد الرشاشات فتنطلق رصاصة طائشة تصيب أحدا ما، كما أصابت رصاصة ما طائشة من قبل أحد الرعايا فمات فـي الحال، واتهم حاكم المنطقة بقتله بلا دليل إلا دليل واحد وهو أن الإنجليز أرادوا أن يبعدوه فترة عن الحكم فأمسكوا بـه، وهو الحاكم، وسجنوه في عدن سبع سنوات عاد بعدها حاكما وكأن شيئا لم يكن.

خبأتني أمي تحت العباءة لخوفي بعد أن ظللت أبكي كثيرا وأنا أشاهد صورة أبي التي كنت أحملها وأنا صـاعدة سـلم الدور العلوي كي أدخل إلى غرفته تتكسر أمـامي وأسـقط متدحرجة بعد أن دفعني أحد هؤلاء الجنـود مـن الأعلـى فسقطت صورة أبي وسقطت متدحرجة قبلها، وبعد أن رأيت مسدسا موجها لرأسي مهددا أمي حتى تعطيهم مفتاح خزنـة أبي لينظروا فيها. لم تعطهم والدتي مفتـاح الخزنـة ظلـت محتفظة به في صدرها مدعية أنها لا تعرف عنه شيئًا، حتى لا يكتشفوا خلوها من الأوراق قبل خروجها مـن الحصـن. خبأتني لخوفي ولرغبتها في إشغال الآخرين بما يتحرك تحت

العباءة فلا ينتبهوا لكبر حجمها المبالغ فيه مع تلك الأوراق التي أخرجتها عند وصولها إلى القاهرة ملوثة ببعض دمها بعد أن جرحتها الأوراق فظلت تتداوي لعدة أيام.

خرجت في ظلام العباءة يومها لم أودع أحدا ولم أشاهد شيئًا من المكان سوى لحظة السقوط العنيفة ولحظة ركوب الطائرة التي تقلنا إلى القاهرة. رأيت وأنا أختلس النظر، ريحانة تتسلل بجانب باب حجرة السجن وتفتح بابها بهدوء ثم تعود بجانب أمي، لكن مرهونًا الحريص دائما، أحس بصوت صرير الباب وهو ينفتح فركض مسرعا إليه ظنًا منه أنه نسي قفله، ثم تذكر أن ريحانة قد فعلتها من قبل. أقفل الباب مطمئنًا أنه ليس هناك أحد من المساجين يستطيع الهرب حتى في ظل هذه الجلبة الحادثة، ذلك لأنهم مقيدون بتلك السلاسل الحديدية التي تعيق حركتهم، والتي تسمع صلصلتها بقوة إذا ما حاول أحدهم التحرك.

نظر بتحدٍ إلى ريحانة التي بادلته النظرة نفسها، إنه يعلم أنها هي التي فعلت ذلك، إنها لا تكف عن رغبتها في إطلاق سراح المساجين وفتح الأبواب المغلقة حتى وإن كان باب الحصن مثلما فعلت من قبل. كل مرة تسرق منه أحد المفاتيح

وتفتح الأبواب وحين يمسكها متلبسة يذهب بها إلـى عمتهـا ويشتكي منها، تزجرها عمتها وتضربها أحيانًـا مهـددة إن عادت لفعلتها ستخبر زوجها الحاكم الـذي سـيجلدها أمـام الحصن، وها هي لم تتب برغم خوفها السابق.

عند وصولنا إلى القاهرة، دخلت أمي إلـى غرفـة فـي المنزل الذي كانت ضيفة فيه ومعها ريحانة، خلعت ملابسها وأخرجت تلك الأوراق التي وضعتها داخـل حقيبـة جلديـة سوداء صغيرة ملفوفة مع فستانها الأسود ذي أوراق الشـجر الذهبية إلى حين عودتنا.

من هذه الأوراق بعض رسائل بـين الحـاكم والمعتمـد الإنجليزي، أو بينه وبين بعض الحكام في الخليج أو المنطقة العربية ومنها أيضا رسائل إلى جامعة الدول العربية وبعض الأوراق التي تدل على حقه في الحكم بعد وفاة والده، كما أن بعضها الآخر هي أوراق خاصة بأملاكه المتنـاثرة والتـي صودرت فور خروجه. كذلك أختام الإمارة وبعض الأحكـام الصادرة وبعض جوازات السـفر أو شـهادات المـيلاد أو الطوابع الأولى التي صدرت للإمارة أو شهادات الجنسية أو أوراق المراسلات المطبوعة والمختومة.

قلة حيلتي

- ١ -

أنا ملك لعمتي، لهذا فأنا لست أمة لسيدي، لست مما ملكت يمينه ولم تهبني عمتي له، ومن ثم لا يستطيع أن يطـارحني الفراش، لكنني أخدمه كعبدة مخلصة وأمينة ولهذا اسـتطعت أن أتزوج حبيبا دون أية عقبات، عبدة ورثتني عمتـي مـن أبيها وحملتني معها كأمتعتها حين تزوجت. وحـين رحلـت كنت في البداية سعيدة بالسفر والمكان الجديد وكـأنني فـي رحلة سأعود منها وكنت أحمل داخلي حزن خروجنـا أنـا والعائلة بشكل متعسف، وحزن فراقي لزوجي، ومع طـول الوقت وزواج حبيب من فطوم فقدت السيطرة على نفسـي. دخلت حالة اكتئاب شديد، انزويت عن العائلة بـل أظهـرت عدوانية شديدة تجاههم خصوصا مع ازدياد إحساسي بالفرق عن والدي سعيد وقلة حيلتي تجاه زواج حبيب، وتربية ولديه بدون أب بالرغم من وجوده في بلد آخر واهتمام العائلة بهما وبي، العائلة التي تمتلكني، لكن للصبر حدودا وللملكية حدودا أيضا.

أنا أنتمي لهذه العائلة لا أعرف غيرها منذ طفولتي كل ما أعرفه أن أبي سعيدا كان خادما مطيعا لهم ورثوه عن أجدادهم، أصبح العبد المشترى ملگا لابن الحاكم ثم للحاكم ذاته بعد وفاة أبيه ككل العبيد الذين كانوا معه في الحصن ذلك الوقت.

لم أعرف أمي مهيرة، لكن أبي عهد بتربيتي إلى إحدى العاملات بصناعة البراقع تسمى عذيجة وكانت تحب أبي حبا كبيرا، تزوجها ثم تركها وتزوج مباركة بعد أن كبرت ودخلت الحصن كعبدة لصاحبته التي تعهدت بتربيتي وتزويجي وتربية اثنين من أطفالي حتى أنها حتى رحلت مع عائلتها، لم تأخذ معها غيري باعتباري التي تربيت في كنف هذا البيت، الحصن، وأنني بمثابة الابنة والعبدة أيضا، أعرف أسرارهم وأحفظها فمن سيكون أكثر حرصا عليهم في الغربة مني.

- ٢ -

بالطبع كنت سعيدة بالسفر والإقامة الجديدة. إنني أكتشف عوالم جديدة على، أرى نسوة يضعن ألوانًا على وجـوههن، يقصصن شعورهن، ويلبسن ملابس قصـيرة، وأحذيـة ذات كعوب عالية، يحملـن بأيـديهن حقائـب صـغيرة وينـتفن حواجبهن. كنت قد رأيت مثلهن حين أتت بعض المدرسـات من القاهرة للمرة الأولى في مدرسة في الشـارقة. ذهبـت وجميع النسوة إلى بيت الحاكم لنرى هؤلاء النسوة المعلمات اللاتي حضرن من مصر ليعلمن الفتيات القراءة والكتابة بدلاً من المقرئين الذين يحفظونهن القرآن ويجلدونهن إن إخطأن.

كان عرسا حقيقيا نساء بلا رجـال يـأتين ليسـكن فـي المضيف وهو مسكن للحاكم يجعله كاستضافة لهن أثناء أداء واجباتهن المهنية لكنني لم أحتك بهن هكذا مثلمـا هنـا لقـد تغيرت الحياة حولي. أشكال النساء والرجال أيضا، أحاديثهم ولهجتهم، طريقة أكلهم ونوعية الأكل. للمرة الأولى أعـرف ما يسمى " ساندويتش "، عندما عادت عمتـي شمسـة مـن المدرسة وهي تبكي وتطلب أن أعطيها " ساندويتشًا " معهـا

في المدرسة لأنها تجوع وجميع التلاميذ يحضـرونه معهـم سألتها:

- شو " الساندويتش " هذا؟

فقالت عمتي شمسة:

- خبز داخله شيء.

سألتها:

- أي شيء؟

فقالت عمتي:

- إيه، أي أكل.

في الصباح أخذت الخبز ووضعت داخلـه أرزا ولحمـا وخضروات كثيرة ثم لففته ووضعته في حقيبة عمتي. هكـذا ستسعد عمتي شمسة اليوم ولن تجوع.

حين عادت عمتي من المدرسة كانت حقيبتهـا متسـخة ومبللة بالمرق كذلك ملابسها وقميصـها الأبـيض وكانـت عيناها مثل كاسات دم أحمر.

سألتها لماذا تبكين قالت إن الأطفال ضحكوا عليها كثيـرا ولأنها جائعة اضطرت أن تأكل الخبز والأرز مع ضـحكهم المتواصل.

تعلمت بعد ذلك كيف أصنع " سندويتشًـا " ملائمـا مـع مساعدة الخدم، خصوصا عم زكي وعم عبده النوبيين اللذين كانا يشاغبانني كثيرا.

- ٣ -

أحسست بعد عدة أشهر من سفرنا بآلام المخـاض، ولـم تعرف عمتي كيف سألد في المنزل كما كنا نفعل في بلادنـا ولا نعرف من يستطيع توليدي ومع اشتداد الألم اسـتنجدت عمتي بالجيران وأخذوني إلى أقرب مستشفى إلـى البيـت، هناك، أرقدتني الممرضة فوق سرير في غرفة بهـا سـرير آخر عليه امرأة أخرى في حالة مخاض أيضا، لا يفصل بيننا سوى ساتر من القماش الأبيض.

مع خروج رأس الطفل ركضت الممرضة وفي يديها كتلة من القطن تحاول إعادة رأس المولود إلى الـرحم بالضـغط عليه إلى الداخل انتظارا لحضور الطبيب.

لم تفهم عمتي ولا أنا التي استنجدت بها صارخة ما الذي تفعله تلك الممرضة لكنها بفطنة المرأة العارفـة، أسـرعت بجذب يد الممرضة الضاغطة بالقطن علـى رأس المولـود

الخارج توا من بين فخذي كي ينزلق الطفـل منـدفعا إلـى الخارج في الوقت ذاته بين صراخ المرأة الأخرى وصراخي الذي كانت عمتي تزجرني بأن أخفضه لا بل أكتمه، وبـين صراخ الطفل، واندفاع عمتي لحمله، وتوبيخ الممرضة لهـا على جذب يدها قبل مجيء الطبيب الذي سيوبخها حتما فور وصوله ككل مرة لا تستطيع فيها تأجيـل الـولادة للحظـة دخوله.

استغربنا أنا وعمتي انتظار الولادة للطبيـب وفـي تلـك اللحظة دخل وهو حانق ونظر بغضب إلى الممرضة التـي ارتعدت فرائصها كلها وقالت بخنوع شديد:

- وا   هما اللي شدو إيدي يا دكتور.

فرد بانفعال هادئ:

- حصل خير، حمد ا   على السلامة.

هكذا ولدت نصورا في شبه احتفال الصرخات والذي لـم يكن قد مر علينا من قبل، لا علي ولا على عمتي أيضا.

أخذنا الدواء الذي كتبه الطبيب لي، وعـدنا إلـى البيـت مستغربتين أن الطبيب لم ينصحني بأن أضع الملح على هيئة بيضة صغيرة يتم عجنها بقليل من الماء وتركها حتى تجـف

ثم وضعها كل يوم مكان الطفل كمطهر طبيعي، حتـى يـتم شفائي وتندمل جروحي دون خوف من حمى النفاس، والتـي أصابت كثيرا من النساء في بلادنا، كما أصابت الكثير مـن الحوامل والوالدات بهلع ورعب أشد من رعبهن مـن تلـك البيضات الحارقات وكأنهن يضعن نارا متقدة داخل أجسادهن تسير معهن طيلة النهار والليل بل وتجعل ولاداتهن التاليـة أشد صعوبة وألما، ومع ذلك لم يكن هناك مفر منها.

لم نقتنع أن تلك الحبوب البيضاء التي وصفها الطبيب لي، والغسول الذي طلب مني أن أغتسل به كل يوم ثلاث مرات هما بديلان لبيضة الملح اليومية.

أخذت عمتي الورقة من يدي ونظرت إلى قائلة:

- ما فينا تموتين هنا بعد، وقطعت الورقة.

رددت متهكمة:

- هذا ولا يعرف شيء يا عمتي، خلينا منه.

نصف ليمونة

أخذت عمتي نصف ليمونة ووضعت بها قليلاً من الملـح ودخلت إلى الحمام فدخلت وراءها ابنتها عمتي شمسة وهـي تسألها:

- أميه، شو تسوين؟

وضعت عمتي مرودا من العاج داخل نصـف الليمونـة بالملح وتكحلت به في عينها اليمنى، غسلته ثم وضعته فـي نصف الليمونة مرة أخرى وكحلت عينها اليسـرى دون أن ترد عليها، صرخت عمتي شمسة فزعة وهي تـرى دمـوع أمها تنساب غزيرة، وعينيها مثل قطعتي دم.

قالت لها:

- شو اللي تسوينه، هذا بيلهب عيونك.

وركضت عمتي شمسة تنادي أختها وتناديني كـي ننجـد أمها، فقالت لها عمتي:

- لا ها بيطهرهم من التراب، وبيقوي نظري.

ضحكنا على عمتي شمسة، فوضعت هي أيضا المرود في الليمونة بالملح ووضعته في عينيها، صرخت، وظلت عيناها ملتهبتين أسبوعا، أما عمتي فكانت عيناها مثل عقيق يلمع.

بيضة الملح اليومية

- ١ -

لم أستخدم أدوية الطبيب بل تحملت آلام وحريق بيضـات الملح اليومية خوفًا من حمى النفاس، زائرة النساء الوالـدات وقابضة أنفاسهن وأرواحهن، واعتقادا بأن الطب الذي يحاول إيقاف الولادة بإعادة المولود ساعة ولادته إلى رحم أمه حتى مجيء الطبيب ليس هو الطب الذي يوثق فيه، وكيف يمكـن هذا والحكيمة " سارة هوسمان " التي حضرت مع كل مـن الحكيمة " سوزانة " والممرضة " مريم خاتون " فـي حملـة تبشيرية من أمريكا حين ذهبن إلى عمان ومن ثم أتين إلـى هنا، لم يعترضن أبدا على تلك الطريقة في المعالجة.

لقد التقين المعتمد البريطاني في ذلك الوقت والذي عرفهن بدوره على حاكم المنطقة الذي أهدى لهن عمه بيتًـا أجـره خصيصا من أحد التجار في دبي لكي يسكن في دوره العلوي ويمارسن عملهن كطبيبات في الدور السفلي منـه باعتبـاره مستوصفًا مصغرا للولادة وعلاج بعض الجروح وأمـراض النساء.

الحكيمة " هوسمان " كانت الأكبر سنًا ذات قـدم خشـبية واحدة، تتكئ في سيرها على عصا تسـتخدمها أيضـا فـي معاقبة بعض الصغار الذين يقتربون من جلستها في بيوتـات الأسر المعروفة ليلمسوا قدمها الخشبية ويحركوها. كـل مـا هنالك أنها تضع صورة يسوع وبجانبه الكثير مـن الشـمع وصليبا واحداً ثم تضع على السبورة التي أمامهـا صـورة أخرى للمسيح وتشير بعصاها إليه وهي تقول: إنه " اللهوا "، وتطلب من المريضات لديها أو المتعسرات في الـولادة أن يصلين له وأن يضئن شمعة من أجله لكي تتسهل ولاداتهـن ويشفين، مرددة صلاتها " أبانا الذي في السماء ".

كانت تلك المحاولات لا تقرب النسوة لها، ولا تجعلهـن يعتقدن في ذلك، لكنهن يذهبن إليها لاقتناعهن بقدرتها علـى مساعدتهن، وما إن يشفين حتى يذهبن إلى الحصن ليشـتكين من محاولة تنصيرهن أو تبشيرهن كما كانت تعتقد هـي، أو تغيير دينهن كما كن يرين.

لم تستطع دكتورة " هوسمان " أن تنصر إيا منهن لكنهـا ظلت تحاول إيمانًا منها أن ذلك لصالح الـدنيا والـدين، لـم تستطع أن تشكك إيا منهن في إيمانها، ولم تتقاعس أيضا عن

العلاج حتى بعد أن أنذرها الحاكم بعدم تدخلها في إيمان تلك المنطقة بعد أن اشتكيت له بعد ولادتي الأولى بمحراك لكنها تعاملت بشكل واعٍ وهدوء مع سكان المنطقة وعدم الخضوع المباشر لتلك الأوامر.

حتى الممرضة " شـاهناز " التـي تقـوم بـدور الدايـة الباكستانية المسلمة التي تذهب إلى بيوت تلك النسوة لتولدهن دون الذهاب إلى المستوصف وهـي الأكثـر اقترابـا مـن عاداتهن وتقاليدهن لا تحاول أن تتكلم في الدين سواء دينهـا أو دين الحكيمة " هوسمان " وهي التي تعمل عند الطبيـب " ماكولي "، الإنجليزي الأصل السكير الذي مات علـى يديـه الكثير، ومرض الكثير أيضا من سكره الدائم وإعطائه الحقن الطبية وهو يسأل المرضى: أيأور؟ أي هل يوجعك " إيعور " أم لا. لم يعترضا هما أيضا على الملح كمادة مطهرة يمكـن استخدامها كغسول للولادة دون أضرار.

عدت إلى المنزل مع ابني المولود وعمتي التـي تركـت للمرة الأولى محراكًا دون أن يذهب معنا، وبدأت تداعب هذا الابن المدلل نصورا.

حين دخلت عمتي غرفتها كان محراك يلبس أحد قمصان نومها ويجلس أمام المرآة واضعا كمية من بـودرة الجسـد البيضاء على وجهه وكمية من الفازلين على شعره وملونًـا شفتيه بأحمر الشفاه، وقد رش كل ما تبقى مـن عطـر فـي الزجاجة الموضوعة أمام المرآة على جسده، ذهلت عمته من منظره، ومن اتساخ قميصها الذي يلبسه، ومن حالة الغرفـة وقد انسكبت كميات كبيرة من العطر والبودرة والفازلين على أرضيتها.

ذهلت من تفكير طفل صغير يهفو إلى أشياء امرأة وليس إلى ملابس رجل ينظر إليها وقال:

- ليش جيتي؟ وخرج مسرعا مختبئًا في أحضان زوجها حتى لا تعاقبه.

ضحك زوجها كثيرا وقال لها إنه مـا إن تخـرج حتـى يتقمص شخصيتها.

لم تمر هذه الواقعة بسهولة فكان محراك معاقبا ومهـددا بأنه إن فعل ذلك مرة أخرى فسيكون العقاب أشـد. خاصـة وهي تخاف على بعثرة الأوراق وضياعها مثلما تخاف على

فستانها من الاتساخ، لكن تلك الغرفة كانـت تشـده دائمـا والألوان والروائح التي أمام المرآة وملابس عمته.

ليس ذلك فقط لكنه كان متعلقًا بها فلم تكن تخرج إلا وهو في يديها ولا يعود إلا وفي يديه الحلوى والملابس.

برغم تدليل العائلة لمحراك و" نصور " فـإن شخصـية محراك كانت مربكة في المنزل، لا يهـدأ ولا يسـتقر فـي مكان، وكل يوم يعاقب بأنواع شتّى من العقاب الذي يستحقه أحيانًا والذي لا يستحقه أحيانًا أخرى.

يوما ما عاود دخوله إلى غرفة عمته في غيابها، كانـت تعاقبه بعدم أخذه معها كما عودته من قبل، فعاود لعبته وكأنه هو أيضا يعاقبها. خرج للعائلة بتلك الملابس وتلوين الوجـه وتقليد العمة في طريقة كلامها ومشيتها، ذهب يومهـا إلـى عمه وقال له:

- عمتي ماتت خلاص، أنا اليوم عمتي.

كان في تقليدها مغرما بها، وكأنه في تلك اللعبة يـتلمس تحقيق وجوده وتقليد حالاتها ووضعها في السلم الاجتماعي.

هل كان يقلدها أم يتطلع إلى الخـلاص منهـا بـتقمص وجودها؟ ربما حاول أن ينتقص من جبروتها الواضح لـه،

ومن هالة العظمة التي تبدو في هيئتها. فرغم سنواته الخمس كان يرى ذلك الحبل الخفي الذي يقيده وأمه بهذه الأسرة التي تقتنيه مثلما تقتني الأشـياء دون إحسـاس، وهـو يـتقمص وجودها لعله يفلت من الشرنقة التي تضيق عليه كلما اتسعت مداركه وكلما انفتحت مسارب الحياة، فلا يمتلك غير التطلع المرهون بما يمن به أعمامه عليه.

إنها العبودية التي أدركها بإحساسه البادئ في التفتح.

ضبط مرةً يجمع أعقاب السـجائر مـن شـرفة المنـزل ويدخنها حين سألوه ماذا تفعل، قال:

- أخمس.

انزعجت عمته مما فعله أكثر من مرة فأخذته إلى شـجرة في الحديقة وربطته فيها طيلة اليوم كعقاب له، بعد أن لحقوه في اللحظة الأخيرة قبل ذلك بساعات وهـو يـركض مـن المطبخ ممسكًا بسكين كبيرة إلى غرفتهم وحين سألوه:

- ماذا ستفعل بالسكين يا محراك؟

أجابهم بأنه سيخلص نصورا من السرير، وحين ركضـوا وراءه كان يهم بقطع رقبة أخيه ليفصل رأسه الـذي اختنـق بين أعمدة سريره وهو يحاول النزول منه.

كيف يفكر الأطفـال هكـذا..؟ أيقتـل أخـاه كمحاولـة لتخليصه..؟

ربما من فرط مشاعره الدفينة قد تنفلت منه هذه المشاعر، وتصبح ضده حين يكشف عن أفكاره فقد يتنبأ وقـد يلـتقط صورا ثابتة يحركها ثم يلتقط طريقة الحركة وبكثيـر مـن النقصان قد تكتمل فقط في ذهنه كطفل حين تصـبح المـادة جاهزة.

هو يفكر كيف يخلص أخاه لكنه لا يفكر ماذا بعـد ذلـك، فقط صورة واحدة ثابتة ثم ينتقل مباشرة إلى صورة أخـرى مبنية في ذهنه بأن أخاه بلا أعمدة سرير. هكذا فكر محراك، لهذا ظل طيلة يومه مربوطًا في جذع شـجرة فـي حديقـة المنزل، الشجرة المقابلة لباب المنزل. كل من يـدخل يـراه وكل من يخرج أيضا، لم يصمت صراخه الذي عـم البيـت والحديقة والمنطقة كلها.

كان يريد أن يحرر أخاه من ذلك السرير الشرير، يخلصه من البكاء والصراخ ولقد حاول جذب رأسه فلم يتحرر، ثـم حاول جذب جسده فلم يفلح فماذا عساه يفعل سوى أن يفكـر

بفصل الاثنين حتى يستطيع أن يحرر نصور مـن اشـتباكه المعقد بهذا السرير.

رجلٌ بنطلون

- ١ -

لقد علمت بزواج زوجي من أخرى بعد أن فقـد صـبره على تحمل حياتنا، كل في مكان مخالف للآخر. لـم تصـبح الوحدة دائي بل أيضا المرارة والانكسار. لقد تزوج بفطـوم الصغيرة ابنة عوشانة صاحبة دكان العطور والدخون التـي كانت دائما تخجل ويحمر وجهها كلما رأت حبيبا زوجي يأتي ليأخذني من عند أمها وتنظر إليه باستحياء ودلال مفرطين.

فطوم التي دخلت الحصن متشبثة بثياب أمها، دخلت طفلة وظللنا جميعنا نتعامل معها هكذا إلـى أن تركـت المدينـة، ورحلت. لم أتصور أبدا أن هذه الطفلة التي تمسك بتلابيـب أمها ستكون في يوم من الأيام ضرة لي، حين كبرت وظلت تتغنج وتتكلم بدلال مفتعل لم يكن في حسباني أن ذلـك كلـه سيكون من أجل حبيب، حتى حين كنت أضحك معها عنـدما أذهب إلى الدكان لأشتري لعمتي العطور والدخون وأعود بها إلى الحصن إن لم تأت عوشانة إلينا وأقول:

- لن تحصلي عليه ولا على غيره، أنت كرجل بنطلـون لا يسير إلا بصاحبه وأقصد أمها القوية التـي تـتحكم فيهـا. أضحك وأحيي الأم التي تبتسم هي الأخـرى وأخـرج إلـى زوجي الجالس في السيارة اللاندروفر التي يقودهـا، أفـتح الباب بثقة وافتخار وأدخل كي أجلس بجانبه، أفـتح النافـذة وأحييهم ثم أنظر إلى حبيب وأشير إليه أن يسير، فرحة بـه وبنفسي، فأنا عبدة زوجة الحاكم لي أن آمر وأنهي الكثيرين باسم عمتي وأنا زوجة سائق الحاكم، وهو ليس بعبـد لكنـه تزوجني ولم يتزوج بأية واحدة من الأخريات في المدينة.

في ذلك اليوم حين ردت علي فطوم دون خجـل بعـد أن طفح الكيل بها:

- سأسرقه منك يا ريحانة وسأسرق جميع الرجال الـذين سيتوددون إليك الواحد بعد الآخر، سأجردك مـنهم جميعـا، انتظري أنا شابة جميلة وسأتزوج حبيبا يوما لأغيظك وآخذه منك وسترين رجل البنطون هذه ماذا تفعل، أنا لا أدرى مـا الذي أعجبه فيك أنت؟

أسكتتها أمها، فضحكت لأنني استطعت إغاظتهـا، كنـت أظن الأمر مجرد فكاهة نتندر بها، لكـن مـن الواضـح أن

الفكرة ظلت داخلها ولم تنمح، وأن كلماتي ظلت توجعها وها هي اليوم بعد أقل من ثلاث سنوات حققت ما تريد.

ها هي تتزوجه ويتركني لأجلها، ها هي تجرعنـي ألمـا أشد، كان يجب أن أغلق فمها في تلك اللحظـة ولا أجعلهـا تختزن كل ذلك الإصرار على سرقة حبيب مني.

ربما أخطأت حين أخبرت حبيبا، فمن الواضـح أن ذلـك صادف هوى في داخله هو أيضا ولم يفصح عنه في حينـه وإلا فلماذا تزوجها الآن بعد أن ذهبت أنا.

نظرت إلى وجهها في المرآة، هل هي كبيرة حقا؟

قالت لنفسها وهي تتأمل هذا الشـحوب الـذي اعتـرى وجهها:

- عندما يكون المرء كبيرا فعليه أن يفعل ما يريد، بـأي شكل وبأية طريقة فالوقت ليس في صالحه تماما.

وكانت تسأل نفسها وهي محتجبة في غرفة السطح:

- كيف أسترد ما سرق مني، كيف أعيد حبيبا إلـى دون أن أفكر الآن في الذي فعله، لدى وقت طويـل بعـد ذلـك لمحاسبته، إذن سأتقبل ما فعله الآن فقط لأرد عليـه وعلـى السارقة فطوم.

هم يهتمون بأطفالي كدمي وأنا أهتم بطفلتهم كواجب لكنني اليوم حين علمت بزواج حبيب لم أستطع أن أذهب لأحضر عمتي شمسة من المدرسة، ولم أشرف بنفسي على البيت ولا على أي شيء. ظللت في غرفة في السطح أبكي وأضع للمرة الأولى سيجارة في فمي ثم بدأت أدخن وأدخن، بعد ذلك لم أبك لكنني خرجت أشتري زجاجة خمر، أي نوع منه، المهم زجاجة خمر وبدأت أشرب، لأول مرة أشرب خمرا ثم بدأت أشرب وأشرب. لكن الاكتئاب لا يزول. بدأت أبتلع بعض أدوية الكآبة والنوم والمهدئات. للمرة الأولى أستخدمها وبدأت أدخن وأشرب وأبتلع المهدئات وأفقد سيطرتي على نفسي وسلوكي، لا أهتم بالعائلة ولا بطفلي لكنني رفضت أن أتركهما لهذه العائلة، وضعتهما في غرفة السطح وانزويت في ركني.

لم يحتمل جسدها تلك الروح المعذبة المهزومة المنهكة، ولم تتحرر أيضا روحها من الجسد. كان خلاصها شكلاً من التحرر وكان التحرر بالنسبة لها مستحيلاً، والمستحيل هو الاستمرار في هذه الحال.

الحب علاقة خيانة مع الذات وحين أحبت حبيبـا خانـت عبوديتها لهذه الأسرة، ظلت روحها تهفو هناك عند الحبيـب يظهر لها كصور تتتالي ثابتة الدلالة تناديها أن تخلع خنوعها وتعود إليه، كانت تحسب ذلك كارثة حقيقية تسحقها، كيـف يمكنها أن تتخلص من ذلك وكيف تختزل موقفًا نهائيـا لهـا ولأسرتها الصغيرة بشكل فريد واستثنائي لم تتعوده من قبل، أن ترفض انسحاقها في تلك العائلة حيث يمكنهم أن يستبدلوا بها أخرى وأن يتركوها، أن يتنازلوا عنها من أجـل نفسـها التي تجدها بقرب زوجها الذي خانها وتزوج غيرها... وهم كيف يتنازلون عنها وهم يحبونها؟ هي أيضا تحـبهم لكنهـا تحب حبيبا أكثر مما تحب نفسها فكيف تفشل في هذا الحب؟ إن حبهم مضاد للإنسانية والطبيعة أنهم يحبونهـا كعبـدة لا تقرر مصير نفسها إذن لابد من الشك في هذا الحـب وهنـا تتكون طبقات عديدة من الشك في كل تفصيلاته.

القاعدة الأساسية التي يمكن من خلالها التعبير عن الحب لديها هي التنازل، تنازلهم عن حقهم فيها ولا يعني ذلـك أن التعبير المماثل في حبها لحبيب هو أن تتنازل عنه لغيرها بل أن تمتلكه أكثر، أن تحيطه بها وبأولادهما وبحياتهمـا، هـذا

حب متوازن بين زوجين أما الآخر فهو حب الأعلى للأدنـى لأنه ملكه، وحب الأدنى للأعلى لأنه مملوكه، إنه حب مفتعل غير صادق وغير حقيقي مثل العملة لها وجهـان، الحنـان والحب مقابل الملكية والقسوة.

الحب عقد ضمني للعبودية بدون أدلة.. يكاد ذلك يكـون عكس ما تراه أصلاً لكنها لا تفهم غيره أيضا.

- ٣ -

بعد الولادة جلست في غرفتي أرضع نصورا حين سمعت صفارات الإنذار وصراخ عم عبده العامل النوبي في البيـت وهو يقول:

- غارة يالا يا ريحانة أنت والولاد انزلوا البدروم. طفوا النور عندكم، أحسن يشوفوكم وشهلوا يالا السـت الشـيخة بتسأل عنكم.

أطفأت الأنوار سريعا، نزعت ثديي من فم نصور وأدخلته سريعا في ثيابي، ظل ناصـر يصـرخ، أمسـكت محراكًـا وناصرا وخرجنا من الغرفة. مررنا على ممر طويـل إلـى

السلم. كان البيت كله مظلما إلا الشمعة التي أمسك بها عـم عبده حتى نستطيع السير.

كل زجاج المنزل كان ملونا باللون الأزرق ظلت أنـوار السيارات تشع عليه حتى خبا نور الشمعة وأصبحنا في شبه ظلام دامس أزرق. نزلت إلى الدور الأول ثم إلى البـدروم كانت العائلة جميعها هناك تجلس بجانب بعضها بعضا. عند دخولنا مباشرة انتزع محراك يده من قبضتي وركض إلـى عمته، جالسا جانبها وبـدت أصـوات طلقـات الرصـاص والمدافع قريبة وكثيفة جدا مما جعله وعمتي شمسة يرتعدان خوفًا.

هذا ما حكته أيضا شمسة لهادف ضـمن حكاياتهـا عـن أسرتها، وعن تاريخها الذي كثيرا ما كان يتجـادلان حـول تحليله.

قالت: – هزيمة ٦٧ جعلتنا ننخلع من هزيمتنا الصـغيرة إلى هزيمة الوطن العربي بكامله. لم يستطع أبي أن يتكلم في هزيمته بعد ذلك. كيف يتكلم عن هزيمته في حكم إمارة وها هو الشعب الذي يؤمن به، الشعب العربي، يهزم بكامله. وها هو عبد الناصر يمر بأزمة، وها هي كعبة الثوار والمناضلين

تدخل حالة استنزاف حاد، سيدخل هو أيضا فيها لتستنزف حياته.

قالت أمي بصوت مرتعش ونحن في البدروم:

- شو هالحالة اللي إحنا فيها هاي.

فرد سكرتير أبي الذي جاء لزيارتنا هو وزوجته حين بدأت الغارة فنزل معنا:

- جيبتك يا عبد المعين تعيني لقيتك... أهو إحنا اللي تعلقنا كده، الموضوع مش باين له حل سريع.

كان يرى أن خروج أبي من بلده على أساس ما يشده سياسيا إلى هنا، وأن هنا الآن أصبحت تبعده كثيرا عن هناك. فنظر له والدي بغضب مما أربكه، فصمت. كانت زوجته إحدى المدرسات اللاتي حضرن في أول بعثة مدرسات. حضرت هي وزوجها مدرس اللغة الإنجليزية الذي تقرب سريعا إلى الحاكم ومن ثم أصبح سكرتيره الخاص وحين ترك أبي الإمارة عاد معه إلى القاهرة على أمل أن يعود معهم حين يعودون.

كانت فكرة الرجوع تراود أبي كثيرا رغم أن الوحدة، والقومية، وعبد الناصر، انشغلوا في الهزيمة، فهي بوتقة

الصراع الأساسي. أصبح الخليج وتهديدات إيران بشأن الجزر الثلاث التي تدعي ملكيتها مسألة مؤجلة بعد التحرر من عبء الهزيمة. إلا أن هذا لم يستمر طويلا إذ لجأ عبد الناصر بعد ذلك لتحرير المناطق الأخرى وتصدير الثورة إلى كل من عدن وظفار، وليبيا كمحاولة لتضييق نطاق الهزيمة بالالتفاف عليها ببدائل التغيير في تلك المناطق لعمل حزام قومي يساعد على إنعاش فكرة الناصرية والانشغال بها إلى أن تتم إعادة تقوية الجيش والاستعداد للحرب مرة أخرى.

– ٤ –

- لم أتكلم وأنا أرى ابني مربوطًا إلى جذع الشجرة، بل كنت أساعد على ربطه معهم. لكن قلبي كان ينزف وينفطر. وأعلم أن ولدي بلا أب وأن أباهما هناك في بلاده متزوج من أخرى لأنني تركته وجئت مع عمتي التي تعاقب ابني الآن.

حبيب ليس بعبد عندهم مثلي، لا يفهم كيف تتركه زوجته لمجرد أن تذهب معهم أينما ذهبوا، تاركة زوجها سنوات عدة

ولا تعرف متى ستعود بل لا تعرف أصلاً إن كانت ستعود أم لا، مجرد سديم زمني لا أعرف كيف أتخلص منه.

وكان الخيط في يديها تلفه مثل دائرة على إصـبعها، ثـم تفرده إلى آخره وتلفه دائرة على إصبعها، ثم تفرده بطولـه، مثل الزمن دائريا لكنه كالسهم.

تعبت العائلة من حالي وشربي وتدخيني وإدماني، ظللـت طيلة النهار منكوشة الشعر لا أخرج من غرفتي لا أنـا ولا ولدي إلا لشراء الخمر والسجائر والمهدئات والعـودة. بعـد ذلك ظللت أرسل من خدم البيت من يجلب لي ذلك وبـدأت أنزوي.

تدخلت أخت عمتي في زيارتها الأخيرة لنا بأن يتركـوني أعود معها أنا وولدي لأنني أصبحت حِملاً ثقيلاً عليهم بهـذه الحالة المزرية فلا يجوز أن يظهروا كمن يأوي فـي بيـتهم مدمنًا كما قالت وأردفت: - وإذا كان ابنها وهو ما زال طفلاً بهذه الصورة فما بالك حين يكبر؟ وحفاظًا علـى صـورتكم وعجزكم عن حل مشكلاتها أو مشكلاتكم معها سآخذها معي. وأثنت ابنة عمتي الكبرى على كلام خالتها، متواطئة معهـا على ترحيلي، هي التي لا تطيق وجودي بتلك الحالة.

فرضيت عمتي أن تتنازل عن ملكيتي مجبرة إلى أختهـا الشقيقة الوحيدة، التي أخذتني معها في رحلة عودتهـا إلـى بلادها حاملة ناصرا بين يدي، ومحراك ممسك بثيابي ومرتد ملابس بيضاء لضابط شرطة، وواضع الكاب علـى رأسـه ومسدس بلاستيك في جراب حزامه.

تماما كما في الصورة السابقة وكما في الصورة التي لـم تلتقط.

- ٥ -

ظهرت عمتي في الشرفة، جلست على كرسي عـريض ونادتني، أتيت لا أعي، مغيبة عن العالم، لم تنظر إلى عمتي لكنها قالت:

- ستسافرين غدا مع عمتك صفية، جهزي نفسك.

احتجت إلى لحظات كي أعي ما أسمعه، لـم أسـتطع أن أفرح أو أحزن، الوقت قليل حتى في التفكير في أحدهما.

عدت إلى غرفة السطح، لملمت أغراضي وأغراض ولدي ووضعتهما في حقيبتين، ثـم حممـتُ محراكًـا ونصـورا،

وغسلت ملابسهما التي سيلبسانها في الغد. استحممت، وحين نزل الماء على رأسي كنت كمن يقشر جلدا سميكًا.

في الغد، بدأت صباحي بكي ملابسي وملابس ولدي ثـم ألبست الصغيرين ملابسهما مغسولة ومكوية. لم أهتم بـأمر الغرفة وكيف سأتركها، كانت ممتلئة بزجاجات الخمر وعلب السجائر الفارغة، أما أعقاب السجائر فكانـت متنـاثرة فـي جميع أنحاء الغرفة وعلى السطح المقابل، كنت بعد أن أرميها يركض محراك ويدخن آخر نفس فيها وكنت أراه ولا أعقب أو أنزعج.

قبل خروجي نزلت عند عمتي وأسرتها، حاولت أن أُقبـل رأسها فرفضت، اكتفيت بتقبيل عمتي شمسة قُبلـة سـريعة، وركبت السيارة بعد أن أعطيتها مفتاح السجن الذي ظل لدى فترة من الوقت منذ أن تركنا الحصن. كنت قد علقتـه فـي رقبة محراك كما كان يفعل هاشم زوج أختي عليونة، كـان البعض يشير لها بأن هاشما يحمل مفتاح الجنـة الـذي قـد أودعه له الإمام في إيران لتوجهه إلى القتال لكنه هرب وجاء إلى هنا، والبعض قال إنه أخذه من الإمام لأنه جاء لتهريـب الأسلحة إلى هناك لمحاربة الشاه وأنه اعتبر مجاهدا ومن ثم

فإن مات فهو شهيد، لم نكن نعرف الحقيقـة، ولـم تكتـرث عليونة إذا كان هاشم شيعيا أم سنيا، ولم تكترث إن كان قـد فر من القتال أو أنه يمتلك مفتاح الجنة.. إنها منشغلة عن كل ذلك. فرحت عمتي شمسة بالمفتاح. هي تعرفه جيدا ورأتنـي حين فتحت به السجن يوم خروجنا. أمسكته بيديها وهي تنظر إلى. أدركت الآن أنني سأرحل دون ترك أية مسافة يمكننـي من خلالها العودة، لقد تقطع كل خيط بيننا اليوم.

قال السائق لي:

- وا حتوحشينا يا ريحانة.. ابقى اكتبيلنا جوابـات والا ابعتيلنا حاجة من هناك عشان نفتكرك بيها.

رددت بانفعال، وكان عم عبده ينظر إلى من بعيد وهـو حزين جدا:

- لا أبعث رسائل ولا غيره ما أريد أتذكر هاي الأيام ولا اللي فيها، وأشحت بوجهي متجنبة نظرات عم عبـده التـي تخترقني. وهو واقف برداء أبيض وعمامة بيضـاء أيضـا مشيرا بيديه نحوي وحين ابتعدت العربة بي نظـرت إلـى الوراء، كان عم عبده بتلك الملابس مثل شراع مركب فـي مهب الرياح.

" على بلاد المحبوب وديني .. زاد وجدي والبعـد كاويني ".

- ٦ -

حين سافرت ريحانة وعمتها الجديـدة وبعـض عبـداتها اللاتي حضرن معها. اختفت الأوراق والثوب. وجدت عمتها الحقيبة ملقاة تحت سريرها ظنت أن محراكًا عـاود لعبتـه وحين سجنتها صرخت غاضبة:

- سوتها ريحانة، سرقت الأوراق وثوبي وسافرت.

لكن الوقت كان قد انتهى. سافرت ريحانـة مـع عمتهـا الجديدة ولم يعد بالإمكان اللحاق بها فأوصت إلى أختها صفية أن تبحث عن الأوراق عندها، فأخبرتها صفية فـي الهـاتف أنهم وجدوا ذلك الثوب، وأن ريحانة لم تنكر وجـوده لكنهـا أخبرتهم أنها فوجئت به في ملابس محراك، وحين سألته قال لها إنه وجده مرميا تحت سرير عمتهم ولم يكن في الحقيبـة أصلاً، أما الأوراق فهي لا تعلم عنها شيئًا.

لم تصدق عمتها كلامها، وظلـت تتهمهـا بسـرقة كـل تاريخهم ودليل عودتهم .

- ٧ -

لم تتسرب العاطفة من بينهم، لم يبكـوا، لا العائلـة ولا العمة ولا ريحانة أو ولداها. كان وداعهم مشوبا بكثير مـن نقصانه.

قد تنفلت رعشة صوت يمكن إعادة تكرارها لنلتقط حالـة أحدهم. كان ما هو مدرك أقل بكثير مما هو غير مدرك فـي المشاعر والأحاسيس، تماما كما لو أنها حالات إنسانية فائقة الروعة في لحظة تدمير أرواحها كلما سكنت إزاء وجودها، لكن ريحانة تهفو إلى حياة تعوضها ما حرمت نفسـها منـه لأجلها، حياة تخلقها وتعيش الوهم مقابل تركها الحيـاة أيـا كانت.

كيف تعي تعقيد الأشياء، بالعودة إلى ما كانت عليه..؟ هي لم تع أن هناك عناصر مفسدة دائما تدخل لتهـدم مقابـل لا شيء. لم تع أن المعرفة من خلال العالم، معرفـة جارحـة، وحين نتوغل تخدش ملمسنا الناعم، وحين نمتلك تلك الصبارة التي اسمها الوهم ويذهب بنا الحلم وتنفرط حبـات الحنـين

سيقتنيها الآخرون ظنًا منهم أنها السعادة، يظلون هناك علـى أطراف أصابعهم حاملين أرواحهم على شفرة حادة.

هكذا ريحانة تعيش الإحساس المؤقت بالزمن بين الخـط والدائرة. الوهم يتحقق لأنه لا وجود له، وهي عـابرة فـي المكان هناك، خارج سياق أي شيء. هامـت روحهـا ولـم يحتملها الجسد. مشت كثيرا في القاهرة سيرا علـى قـدميها حتى خفت روحها في السير، كانت تسير مع عمتها وكأنهما ستصلان نقطة ما حتما سيكون هذا السير إلى شيء ما، بحثًا عما هو خفي عنهما، إهلاك الروح وتصفيتها كل يوم.

والمسافة بينها وبين ما ترغبه ليست مستوية ولا متصـلة أيضا، حيث لا يمكن في الأساس العمل على وجود خط بين النقطتين.

الجزء الثاني
لم أر السمراء وإن رأيتُها

مقطع من أغنية

في المكتبة ابتسمت المشرفة عند دخولنـا أنـا وهـادف وحيتنا، كانت تحب علاقتنا، علاقة الحب التـي تنشـأ فـي الوعي، بين طيات الكتب وبين المدرجات، ربما كـان لهـا علاقة قديمة مثل هذه، وربما تشتاق إلى الحب كمـا نحـب نحن، جلسنا، أنا أكمل بحثًا عن المعتزلة، وهـو يقـرأ فـي كتاب. أمامنا جريدة اليوم كتبت له عليها:

- " مشتاقة وعندي لوعة "

ضحك وكتب لي:

- وأنا كذلك.

قلت:

- هذا مقطع من أغنية لأم كلثوم.

فكتب: إنها قصيدة لأبي فراس الحمداني يا أستاذة، عرفي المكتوب بالكاتب.

فكتبت: حاضرين.

وقفت المشرفة على رأسي، ارتبكت، فدفنت رأسي بـين أوراقي.

لكنها بادرتني بابتسامة وهي تقول:

- ممكن الجرنال عاوزه أقراه.

شطب هادف ما كتبناه على الجريدة بسرعة قبل أن يجيبها باسما:

- طبعا لحظة، وهو يبتسم.

ابتسمت وقالت:

- ما فيش داعي، أنا بس كنت عاوزه أقراه.

كان قد انتهى من شطب جميع الكتابات بيننا وكأنه يمحـو بسرعة كبيرة ما بنيناه في فترة طويلة.

خجلت وأنا أقوم مع هادف تاركين أوراقنا على الطاولـة، ركضت المشرفة لتعطينا الجريدة، فقال لها هادف:

- خليها، إحنا فقط رايحين نشرب الشاي ونرجع.

حين نزلنا عند بطة في الركن الصغير داخل مكتبة جامعة القاهرة في الدور السفلي، الركن الدافئ بالعاطفـة وبـدفء الشاي والبوتاجاز ابتسمت في وجهنا محيية:

- يا صباح الفل.

بطة تحبنا، تحب علاقتنا، تقدم لنا شـايا خاصـا، شـاي كشري غير مغلٍ، تضع الشاي في كـوبين وتضـع عليـه

ملعقتين من السكر ثم تترك الملعقة في أحد الكوبين وتصـب الماء الساخن ثم تضع بجانبهما علبتي بسكويت، يحمل هادف الكوبين وأنا أحمل البسكويت ونقف أمام الغرفة فـي الممـر ونضع الكوبين على حافة الشرفة التي أمامنا حتى يبردا قليلاً وننعم بالدفء في هذا الجو البارد، كـل مرتـادي المكتبـة يعرفون بعضهم بعضا تقريبا خاصة من يأتون إلى بطة.

- بطة شبه ريحانة، الخالق الناطق. قلت لنفسي، تحـس حين يطلبون منها الشاي أنها تتكرم عليهم وتختار من تميزه في الأكواب ووضع السكر وطريقة وضع الشاي، هناك مـن تضع له الشاي المغلي، وهناك من تقدم له الشاي الكشـري، هناك من تضع له بنفسها السكر، وهناك من تقدم لـه آنيـة السكر ليضعه بنفسه من ملعقة موضوعة فيه عموما، وهناك من تخصه بملعقة خاصة مغسولة وأكواب غيـر مكسـورة حوافها، فبرغم صغر سنها، تستطيع أن تختار مـن تميـزه حسب قلبها ومعاملاتهم معها.

- أيوه يا سيدي حتى المشرفة وبطة بيحبوك.

- أنا؟

- طبعا.

دخل صديقه طه وقال:

- تبقى عبيطة لو افتكرتِ إن ده كله لهادف.

- أُمال لمين يعني.

- ده ليك وحياة عينيك.

ضحكت بابتسامة حيية وقلت:

- ده مقطع من أغنية جديدة؟

فغضب هادف منه ومني واعتبر التبسط يعيب الاحترام فعدت إلى وجومي، أما صديقنا فنظر إلى مودعا:

- ا يعينك عليه، سلام.

- ا يعيني.

دخلت الجامعة. هكذا تركض السنوات بي منذ أن دخلت المدرسة في الصف الأول إلى اليوم، وحين التقيت هادفًا كان ذلك الطالب الذي يكبرني بعدة سنوات، يتكلم في السياسة التي تركتها في المنزل فوجدتها مشتعلة أكثر في الجامعة.

كنت أرى تلك المشاحنات الدائمة بينه وبين صديقه طه، أحد زملائي الذين أستطيع الحديث معهم، كنت أقف أمام إحدى صحف الحائط بجانب المدرج أقرأ ما فيها فاقترب مني وقال لي:

- أنا إسمي طه، معاكِ في الكلية، ولي مقالة في المجلـة دي.. لما تقرئيها قولي لي رأيك.

نظرت إليه بتمعن ثم ابتسمت نصف ابتسامة بتحفظ شديد وكأنه اقتحم علاقتي بالصحيفة، وحين انتهيت وجدتـه عنـد باب المدرج يسألني: - ها ايه رأيك؟

رددت: - كويسه.

فقال: - يعني إيه، بس كده...؟

ابتسمت نصف ابتسامة أخرى، ودخلت المدرج.. بعد ذلك أصبح طه يأتي إلى ببعض الكتب، ويحكي لي عن أصـدقائه وصديقاته، وعن بعض المظاهرات التي تحدث في الجامعة.

قال لي: - يا ريتك يا شمسة كنت دخلت الجامعـة مـن بدري، كنت شفت النضال على أصوله.. وعنـدما عرفنـي على هادف كانت يدي ترتعش في يده وحين عدت إلى البيت كنت محمومة أهذي.

رجل أسمر ضعيف

- ١ -

كان بيتنا يطل على شارع المطار، دخلت على أمي وهي جالسة في الشرفة المطلة على شارع كبير يصـل المطـار بوسط البلد، الطائرات فوقنا لا تكف عن التحليق الواحدة إثر الأخرى.

- صباح الخير.

نظرت إلى وقالت: - مساء الخير، الحين الظهر

ابتسمت وجلست بجانبهـا. أمسـكت الجريـدة وبـدأت أتصفحها دخل عِلى السباك علينا، رجل أسمر ضعيف لـيس وسيما لكن ابتسامته طيبة إلى حد ما.

- مساء الخير يا شيخة.

- أهلاً يا علي، شو الحمام بعده خربان.

- عاوز له شغل كتير، إزيك يا ست شمسة.

نظرت إليه بابتسامة عريضة: أهلاً، إزيك انت.

- أنا الحمد ، حمد ا على سلامتك أنا سـمعت أنـك مريضة.

- كنت، بس الحمد ا   أنا دلوقتي بخير. قلت ذلك، وأنـا أنظر إليه فانقلب وجهه محمرا وارتبك، وظل واقفًا متسمرا، وأمي تحادثه. نهضت وأنا أضع الجريدة على الطاولة وأنسل من بينهما.

قال: - يا ست شمسة، فيه ورد عشانك

- لي أنا...؟

- أيوه عشان قمت بالسلامة.

- شكرا يا علي، ودخلت غرفتي.

ظل علي يأتي كل يوم إلى أن انتهى من تصليح الحمـام وفي هذه الأثناء لاحظت أنه بدأ يتغير قليلاً لا يصلح بيـده، أحضر معه أكثر من صنايعي وهم الذين يعملون وهو فقـط يشرف عليهم.

مرة قلت له: - إيه يا علي أنـت بقيـت أسـطى كبيـر دلوقت...؟

فقال لي: - دا أنا باشمهندس يا سـت. ودول الصـنايعية بتوعي وكمان شويه حفتح محل سيراميك

- ربنا يوفقك.

- ا   يخليك، دا أنا كمان حابني عمارة.

....

وظل على يأتينا كل فترة متحججا مرة بالحمـام ومـرة بالمطبخ ومرات بالسؤال.

مرة حاملاً الورد ومرة حاملاً عـروس حـلاوة المولـد ومرات علب شيكولاتة لي.

قلت لهادف: الظاهر علي ده بيحبني.

قال لي: يا مبروك خلينا نخلص منك.

- تصور بالأمس جاب لي عروسة حلاوة وابتـدا يلـبس بِدلْ شيك، قال لي إنه أدخل أولاده مدارس أجنبية واشـترى سيارة مرسيدس، قلت له: وما لها الفيات اللي كانت معـاك، قال: لا.. الفيات للصنايعية لما بييجـوا شـايلين الحاجـات، والبيجو للمشاوير بس المرسيدس دي لما آجي ليكم .

تغير وجه هادف وانشغل بـالتخطيط فـي أوراق علـى المنضدة .

قلت: - خلينا في المذاكرة .

رماة الحدق

حين أخذت ريحانة أكواب الشاي من أمـام أمـي وأبـي ودخلت المطبخ كان عم عبده يغسـل الصـحون. وضـعت الأكواب في المغسلة أمامه وانشغلت بإعداد العشاء فقال لها:

- ومالُه أغسلك الكبايات والصحون والـدنيا كلهـا بـس ارضي يا جميل، سيبك من التُقل دا أنا حاهنيك واستتك بـدل الشحططة ديه.

فقالت له:

- وحبيب يا عم عبده؟

- سيبك منه إيه حبيب ده حتى اسمه مش حلـو، شـوفي عبده أحلى كتير. فقالت وهي تنظر إليه باستخفاف:

- مب كافي إننا عبيد، بعد اسمك عبده.

رد عليها:

- لا أنا مش عبد، أنتِ بس اللي عاوزه تبقي عبـدة، مـا تيجي أتجوزك وأكسب فيك ثواب، وأخليك كمان حرة.

ابتسمت وقالت له:

- ليش انت مب عبد؟

اشتط وترك الأطباق والصحون والأكواب، نزح الماء من على ذراعيه ونظره في الهواء بغضب وقال لها:

- عمر أهل النوبة ما كانوا عبيد، السواد ده أصلي يا بت دا إحنا كنا سادة وحاربنا، إحنا أولاد حابي اللي ضامم بـلاد الذهب بين كفيه من آلاف السـنين وإحنـا نخيـل الـوادي المتغربين لكن جبال النوبة ممكن تنطق أسامينا.

قاطعته قائلة:

- بس استعبدوكم.

- بعد إيه، إحنا دلوقتي أخذنا حريتنا مـش زيـك مـش عارفة تاخديها لحد دلوقت.

- أخذتوها ورجعتوا تشتغلوا عبيد.

- لا بإرادتنا نشتغل ولو مش عاوزين نسيب ، بس إنـت لا، يا بنت الحلال سيبك من وجع القلب وحبيـب والهـم ده ونتجوز، ده أنا شغال في الحكومة، ده أنا سفرجي قد الـدنيا ولما أسيب حيبقى لي معاش كويس.

ضحكت ريحانة بصوت عالٍ وهي تقول:

- ما أتعس من سيدي إلا ستي، تاركة المطـبخ، حاملـة الصينية العشاء لعمها.

بدأ عبده يردد لها الموالية النوبية بصوته الرخيم:

- " أنا لم أر السمراء وإن أراها، ولكنني أتغزل فيها مـع من رأوها إن ضحكاتكن للداخل تجعل الرجل مـع زوجتـه يرقصان أنت دائمة الضحك لا تغضبين أبدا وقد تعـودت – لحبي لك – هذه العادة فأنا أضحك دائما بلا سبب أنا لـم أر الفاتنة السمراء ولكنني أبكي الغرام من رأوها ".

- بلاد الذهب النوبة، بلاد الذهب، أشري أشري.

ابتسمت ريحانة وظلت تدندن بالكلام وهي حاملة الصينية متذكرة زوجة أبيها مباركة الزنجية التي اختطفت من زنجبار وأتت إلى مدينتها، مباركة عبدة أيضا ومن أفريقيا وعم عبده كذلك ربما كانوا من أصل واحد وربما ترجع عروقهم إلـى الجد نفسه مثلاً، لكنها لا تعرف عنها سوى أنها من زنجبار.

دخلت إلى عمتها وهي تدندن بكلام عم عبده دون أن تنتبه فقالت لها: شو هالخربطة شو أشرى أشري هاي...؟

- ها عم عبده كل ما يشوفني يقولي أشري أشري. كـلام نوبي يتكلمونه عم زكي وعم عبده ولما سألتهم قالوا لغـتهم القديمة النوبية وكل ما أتخانق معاهم قالوا لي إحنـا رمـاة الحدق، يعني شو يا عمتي رماة الحدق...؟

حطبة التوبة

سألت طه صديق هادف الصعيدي القـادم مـن جنـوب مصر:

- أتعرف رماة الحدق؟

قال بدهشة:

- وأنت إيه اللي عرفك بيهم؟

فقلت:

- " أشري أشري ".

نظر إلى بعين فاحصة:

- م أنت أهو بتعرفيهم.

- لا صحيح ليه اسمهم رماة الحدق ...؟

اعتدل في جلسته كأي حكاء قديم بدأ يروي لـي بعـد أن وضع قدما واحدة تحت الأخرى وأشعل سيجارة وهو يقول:

- لزوم الشيء يا ستي نبتدي من الأول، بعـد أن فـتح عمرو بن العاص مصر جهز جيشًا بقيادة عبد ا بن سـعد بن أبي سرح لفتح بلاد النوبة فشلت هذه الحملة بسـبب مـا أبداه أهلها من شجاعة ومهارة في رمي السهام. هـم قـاتلوا

المسلمين في الفتح الإسلامي كانوا يصوبون علـى الأعـين بسهامهم مباشرة وقد برعوا في تصويبها إلى حدقات العيون لهذا سموا " رماة الحدق " وكان أحد القادة العرب الذين فقدوا عيونهم في الحرب سهم بن أبرهة بن الصباح ومعاوية بـن جريح.

بعد فشل الاستيلاء على أرض النوبة لم يجد عبد ا بـن سعد بدا من أن يرضي بالحد الأدنى فعقد اتفاقية معهم يقـدم النوبيون بمقتضاها القوة العاملة من الفتيان والنساء ويحصل رماة الحدق من فرسان النوبة على معاهدة متكافئة نصـها " وللرعايا من كل الطرفين حق عبور الحدود على ألا يكـون قصدهم الإقامة " وبعد الاتفاقية أهدى ملك النوبة إلى عبد ا بن سعد منبرا للصلاة لوضعه في مسجد عمرو بن العـاص وظل هذا المنبر إلى عهد ذات قرة بن شريك أحد قادة الفتح الإسلامي.

ظلت النوبة على ديانتها المسيحية حتى عصر ابن قلاوون حيث جهز جيشًا كبيرا بقيادة الظاهر بيبرس الذي اسـتطاع فتح بلاد النوبة فسقطت دنقلة وقتل من أهلها الكثيـر وبـاع

الأسرى كعبيد وإماء، انتقاما لما فعلـوه فـي الفـتح الأول، ولرفضهم الاستسلام.

هكذا كان النصر هو بوابـة الهـزائم وكاشـف ثغـرات الضعف ومهيج الغرور في النفس الـذي تحسسـه الظـاهر بيبرس، فحمل عليهم بخيرة جنده، سادة باعهم من كان يريد أن يشعر بتخلصه من عبوديته التي لم يـتخلص منهـا وإن جلس على عرش القلعة.

- ماذا تقصد أتريد أن تقول إن المملوك بـاع الأحـرار حتى يصبح الكل عبيدا في عبيد؟ أهمل ملاحظتي وواصل:

- هم يا ستي بقايا الدولة الفرعونية، في عهدها حكمـوا مصر لفترة طويلة في عهد ملكهم قوش ولا يزال هذا الوهم يعشش في أفكارهم، فهم لا يزالون يتزاوجون رجالاً ونسـاء من قبائلهم حتى اليوم. ولما دخلت المسيحية اعتنقوها لأنهـا التقت مع ديانتهم التي قامت على الثالوث المقـدس إيـزيس وأوزوريس وحورس.

بعد انتصار الظاهر بيبرس دخلوا الإسلام. وظلوا حتـى حررهم الخديو إسماعيل حين منع تجارة العبيـد، يسـكنون جوار قصر عابدين، والحقيقة أنهم أحـرار ويـرون أنهـم

العنصر الوحيد غير المختلطة دماؤه، فكل أبيض في مصر مختلطة دماؤه بدماء أخرى، وما زالوا يذكرون دولة قوش ملك النوبة الذي استطاع أن يحكم لفترة طويلة في العهد الفرعوني.

- افدتمونا، شكرا، أتعرف أنتم حررتهم العبيد منذ أيام الخديو إسماعيل وظلت العبودية في مجتمعاتنا إلى بداية السبعينات والآن ما زال العبيد موجودين في بعض الأسر....

وين راح يروحوا، كان لدينا عبيد في البيت وكانت جدتي تحكي لي أن في أيامها كانت هناك حطبة داخل بيت المعتمد البريطاني في فناء بيته مباشرة من يريد امتلاك حريته من العبيد والإماء عليه أن يأتي إلى بيت المعتمد البريطاني ويلمس هذه الحطبة فيعطي صك حريته وكأن يا أخي الحرية تؤخذ بصك أنت أحق مني، نحن جميعا عبيد، والا أقول لك عبيد ا وخلاص.

- تأخذون حريتكم بلمس حطبة وفين في بيت المعتمد البريطاني..!

- تصور ! لقد كانت لدينا خطبات كثيرة، كانـت هنـاك أيضا خطبة التوبة، هكذا سميت، فـي السـاحة الخارجيـة المقابلة للقصر أمام شجرة الرولة يحدها في المقابـل بـاب القصر العتيد الذي يقف أمامه مدفع قديم جدا، كانت خطبـة التوبة هذه للزناة يجلد عليها الزاني والزانية والسكارى أيضا.

- إيه الرعب ده...؟

نظر إلى بدهشة مفتعله وكأنه يتقن دوره وقال:

- أي رعب هذا يا سيدتي..؟

- الرعب..؟ لا هذا مثلث الرعب بين الخطبة والمدفعين والسجن الذي يوجد داخل الحصن، لم تكن مسألة قطـع يـد السارق مطروحة هنا كما في مناطق أخرى في الخليج لكـن في فترات سابقة كانوا يسملون العيون أي يكحلونهـا بالنـار حتى العمي وألغيت هذه العقوبة في فترات لاحقة، لكن الجلْد ظل إلى فترة قريبة. وأذكر أن المحكوم عليه بالجلـد كـان يساق إلى أحد المدفعين بعد أن ألغيت الخطبة ويربط علـى أحدهما في الظهيرة ويجلد، ولا فوكو يا أخي في " المراقبـة والمعاقبة ".

- وأنت من أحفاد هؤلاء؟

- تصور.

- تصورت، وأريد أن أقابل جدتك أكيد لديها الكثير، أكثر منك.

قلت: - بالتأكيد.

فقال له هادف:

المادة التاريخية لديهم غنية لا كمادة أرشيفية لكن كمـادة معاشة، والتجربة الإنسانية فيها وعي وإدراك كبير.

رددت:

- اتفضلها يا سيدي.

فرد:

شكرا، أنا إنسان واقعي، مع الإنسان وتطـوره ويمكننـي استيعاب هذا الواقع، لكن لا يمكن له أن يستوعبني، لأنـه واقع يعني بالحفاظ على شكله الخارجي فقط مـع فقدانـه شكله بالداخل وكأنه حالة استاتيكية.

وردة حمراء

- ١ -

قطعت وردة حمراء من الحديقة وحملتها وأنا ذاهبة إلى الجامعة، وضعتها جانبي على المقعد المجاور في العربة حتى لا تذبل ووضعت حقيبتي على المقعد الخلفي وكتبي أيضا.

- الوردة أولاً، هكذا قلت. يعني السباك يجيبلي بوكيه ورد وأنا اللي أجيب له وردة. مفروض هو اللي يجيبلي الورد مش أنا، نفسي يبقى رومانسي شوية، نفسي يحسسني إنه مهتم بي بشوية هبل حتى.

عند باب الجامعة أوقفت العربة ونزلت. حملت الحقيبة والكتب وأمسكت الوردة بيدي. لم تذبل بعد.

- أيوه يا ورد، الورد شايل ورد النهارده.

- ده انتي اللي يتجابلك الورد.

- الوردة دي من مين؟

هكذا بدأ أصدقائي يشاكسونني، خجلت وبحثت عن هادف كي أعطيه الوردة، لم أجده لفترة وحين أتى كان نصف نائم.

- صباح الخير.

مددت يدي بالوردة. أخذها وقطف منها أوراقًا، وأكلها.

- يا نهاري انت بتاكل الوردة.

- أمال أعمل بيها إيه، أصلي لسه مفطرتش.

ثم أخذ بقيتها المهلهل ووضعه في وسط كتاب بيده.

- أنا اللي أستاهل.

- طب دوقي طعمها وقوليلي.

قدم لي ورقة من أوراقها، أخذتها وأكلتها وأنا أقول:

- ما همه برضه بيعملوه مربي، يالا زي الخرفان ناكـل أي حاجة قدامنا.

- هو أنا لما آكلها مش أحسن من لو أخليها تدبل؟

خليه نافرة لا تشبه خلاياي الأخرى مجرد خليـة غيـر مشبعة لا يدركها هادف، لا يظن أنها ذات أهميـة قصـوى لدي، بحاجة إلى وردة، فقط وردة. فكل فلسفة الجمال التـي كونت لدى رؤية إنسانية ومنهج حياة لم تستطع أن تملأ مكان الوردة. يقول إنني رومانسية وكأن ذلك عيب فـي، وأقـول أنني بحاجة إلى مجرد إحساس بسيط تسـربه الـوردة إلـى

روحي وهي تتفتح، برائحتها، ولونها، ورهافتها التي تـذبل سريعا.. فينك يا باشمهندس عِلِي.

- ٢ -

خرجت مسرعة، ركبت سيارتي ووصلت إلـى كافيتريـا الجامعة قبل هادف، انتظرته ثم أخرجت كتابا أطالع فيه بدلاً من مواصلة التحديق في وجوه الآخرين، أحضر لي النـادل كوب الشاي الذي طلبته.

أمسكت قطعة سكر ووضعتها في الشاي ثم وضعت قطعة أخرى في فمي، تماما كما كنت أفعل في طفولتي حين أضع قطعة سكر في فمي والأخرى في فم حصاني، ذلك الفـرس القوي في نادي الجزيرة والذي كان يأخذني أخي معه ليتدرب هو على القفز وأتدرب أنا على ركوب الخيل.

ليس من عادة هادف أن يتأخر هكذا ربما حدث له طارئ أو ربما فاجأه أحد أصدقائه. أمسكت القلم وكتبت: عادي زي كل مرة، وأقفلت الكراس.

أطل علي برأسه مع صديق لـه، ابتسـما وكـأنني أنـا المتأخرة لم أبدِ غضبا شديدا.

- فيه إيه؟
- عادي ولا حاجة بس طه جه وجابني معاه.
- طيب اتأخرتم ليه..؟
- أبدا.

اتفقنا أن نكمل حديثنا ونحن نسير ككل يوم من مكان إلى مكان وكلما تعبنا جلسنا في مقهى أو كافتيريا. قادتنا أقـدامنا خارج الجامعة إلى حديقة الحيوانات.

قلت:

- أنا مش عاوزه أدخل.
- ليه بس، دي النعامة اللي جوه تمام زيك، بتشبهك قوي.
- أنا لا أخبئ رأسي في الرمل يا أستاذ.
- صحيح لكن عينيها حنينة زي عينيك تمام.

لم أستطع أن أرفض هذه الدعوة إلى الدخول على الأقـل لأتأكد من أن النعامة تشبهني فعلاً في العيون والاختباء.

ونحن نسير تحدثنا كثيرا عن علاقتنا، عن نفسـي، عـن الوجود والعدم، كان يقول دائما: - أنت وجودية، وأنا أقـول له: – أنت معقد. كان يعلمني أبجديات الحياة، وأنا أضـيف إليها الكثير.

قرأت بالأمس مذكرات بابلونيرودا – أشهد أنني قد عشت – وسألت نفسي هل حقًا سأشهد يوما بأنني عشت. بـالطبع اليوم أقول إنني عشت. ألم أحب وأحزن وأفرح؟ أنا أخـذت وأعطيت، عشقت وعشقت، تعلمت عمق الحياة بكاملهـا إذن أنا عشت حتى وإن لم تكتمل هذه الحياة لكنني عشـتها. قـد أكون لم أولد بعد، لكنني أيضا ولدت مرات عديدة، ولدت في الغابات والأحراش ومرة أخرى أذكرها جيدا حين خرجـت من بيضة سمكة حمراء.

هذه الولادة التي عمدتها الشواطئ في بلدة الحيرة التي لم أرها في حياتي إلا مرة واحدة فقط كـان عمـري يتجـاوز السابعة عشرة، جلست أجمع القواقع يومها فذكرتني بحيـاتي تحت الماء، كانت الحيرة بين إمارتي الشـارقة وعجمـان، هناك فقط سلك حديدي يفصلهما. وقفت بمحـاذاة الشـاطئ أسترجع ذاكرتي حين خرجت سمكة من البحـر – السـمكة نفسها التي خرجت للفتاة التي كانوا يحكون لي عنهـا وأنـا صغيرة – كانوا يقولون لي إن فتاة يتيمة كانت تعـيش مـع زوجة أبيها القاسية والتي تجعلها كل يوم تذهب إلى الشاطئ تنظف الأسماك التي يجلبها الأب وتغسل الأطباق والأوانـي.

مرة تحدثت معها سمكة من السمكات التي تقوم بتنظيفها خافت الفتاة وارتعدت طلبت السمكة منها أن تتركها في البحر وستلبي لها الكثير من الأمنيات وتزوجها بأفضل الرجال خافت الفتاة أن تعود إلى زوجة أبيها دون تلك السمكة فتعاقبها أشد العقاب لكن الحلم والرغبة كانا أقوى لديها من خوفها لذا حررت السمكة بمجازفة أكبر كي تستطيع تحقيق بعض أحلامها.

ها هي السمكة تخرج إلى مرة أخرى لكن لتخبرني عن تاريخي في البحر. سحبتني إلى الأعماق وعرفتني بالعالم أسفل الماء، قالت لي: إنني سمكة بحر. أنا أيضا أستطيع أن أتنفس من خياشيمي وأن أعوم بذيل رائع، انتظرت أن تهديني هدايا البحر مثلما فعلت مع تلك الفتاة أو تعدني على الأقل بما وعدتها به، لكنها اختفت منذ ذلك اليوم وبعد أن عدت مبللة من البحر أجمع القواقع في حِجري. استدار جسدي في شكل سمكة وأصبحت أسير كما لو أنني أسبح وكل من يراني يقول لي: أنت تشبهين سمكة بحر. ولا أعرف كيف أشبه سمكة.

التفت إلى نفسي، نظرت لها في المرآة بحثت عن خياشيم اختفت وقلت أنا سمكة بحر. ملت تحـت سـريري، فتحـت حقيبة بيضاء بها محارة كبيرة كانت قد أخذتها عنـوة مـن هادف، سمعت أصوات الموج تناديني فأرتج وتـرتج معـي الغرفة كلها، هدير الموج في أذني إذن هأنا سمكة البحر التي تحب أن تتحلى باللؤلؤ وتنام في حضـن صـدفة، وتـؤمن بالصدف والأساطير والتي تخبئ تحت وسادتها البحـر فـي شكل محارة وتغرق في الماء سريعا.

أنا ابنة اليابسة أيضا. هذه الأرض حملت بي وحملتنـي، أنتمي إلى ترابها ولي رئتان ضعيفتان لا تحـتملان ملوحـة البحر، إذن من قال إنني سمكة بحر؟

كان يقول دائما أنني أشبه النعامة لأن لي عينين ساحرتين ووجها نحيفًا.

كنت أغضب لأن النعامة تخبئ رأسها فـي الرمـال ولا تواجه أبدا، كنت أخاف على نفسي أن أظل أشـبهها حتـى أراني أخبئ رأسي في الرمل مثلها.

كنت أرفض تشبيهي بالنعامة – برغم جمالهـا – ولهـذا أرتعد كلما مررت بأزمة في حياتي وتذكرت شكل النعامـة التي أشبهها. ومع ذلك يظل هناك شبه ما.

مرة وأنا أقلب صفحات مجلة ما رأيـت أحـد رسـامي الكاريكاتير يشبه الشخصيات المعروفة بحيوانات تقترب من شكلها فرسمهم كقردة وكلاب وديكة منذ ذلك الحـين ومنـذ قراءتي ألف ليلة وليلة وسماعي بعـض القصـص القديمـة ونسميها " الخراريف " ومفردها خروفـة، أي قصـة غيـر حقيقية وربما جاءت من كلمة خرافة وكان الساحر يتحـول فيها إلى قط أو حيوان أليف في البيت، أقول منذ ذلك الحـين ظلت عيناي تلتقطان الأشكال والتفاصيل وتحاولان ردها إلى منابع أخرى أي المقارنة أو التشبيه، وكنت في دراستي أحب بحوث المقارنة حيث أجدني أفرق بين نظامين أو بحثين من حيث التحليل والمقارنة، لكنني كنت أقنع ذاتي بأن التحليـل مادة ذات خبرة عميقة وأنا أقل من تحملي لـذاتي بوجودهـا التحليلي إذ تجد ذاتك تخضع في علاقاتك وما يمـر عليـك ضمن منظومة تحليلية تجعلك في مختبر حياتي معقد، وأنـا أدخل ضمن الإبداع والتحـرر والسـذاجة الجميلـة أحيانـًا

والجرأة المرتبطة بالتخبط بعض الشـيء وكسـر التحليـل والتقييم والانطلاق من منطلق الطيران لا الخضوع لنظريات ومنظومات مقررة وموضوعة سلفًا، أسـير عليهـا خطـوة خطوة ولا يعني هذا أن أسير دون هدى ودون حـدود فـي التصور، لكن لي أن أشطح وأتجاوز وأخطئ وأكون نعامة.

– ٣ –

لم يأت باشمهندس عِلي منذ مدة.

لم يرسل وردا ولا عروسة حلاوة ولا شيكولاتة

لا أرى أية عربة من عرباته أمام المنزل

المرة الأخيرة التي أتي إلينا أخبرني أن ابنه الأكبر دخـل الجامعة وأن بقية أولاده ما زالوا في المدرسة وأنه اسـتطاع أن يبني لهم عمارة، لكل فرد شقة فيها وسـيهتم بحالـه الآن بعد أن اطمأن عليهم وأن المحلين محـل السـباكة ومحـل السيراميك يكفيانه.. بعد عدة أيام سألت أمي:

- وين باشمهندس عِلي ...؟

فردت علي:

- سأرسل إليه، منذ مدة لم يأت.

دخلت المستشفى مصابة بأزمة حادة فـي التـنفس كـان أصدقائي يهدونني وردا أبيض كل يـوم ويقولـون صـباح الورد، أشكرهم وأظل أشمه طيلة اليوم زهور اللافندر كانت رائحتها جميلة وقوية. بعد أيام قليلة أصابتني أن أزمة حـادة في التنفس وحين جاءوا إلى زيارتي قلت:

- ابعدوا محبتكم عني، وأقصد الورد الذي حملوه معهم.

زرع أبي أيضا شجرة جميلة اسمها ملكة الليل في الصباح يذبل وردها وحين تغيب الشمس يتفتح وردها الأبيض ويشع ويطلق رائحة مذهلة في أركان البيت كله.

كنت أنا ملكة الليل، أتفتح حين تغيب الشمس وأكون أجمل وأرق لكنني لم أحتمل ملكة ليل غيري، أصابتني أزمة حادة في التنفس أزمة أخرى وقلت اختاروا بيني وبينها.

ملكة ليل، وسمكة بحر، ونعامة، وماذا أيضا....؟

اضطراب قلبي

في الجامعة اليوم رأيت د. سـامي، فـتح بـاب قاعـة المحاضرات، أدخل وجهه وجال بنظره ثم أقفل الباب ورحل، لا أدري عمن كان يبحث، لكنني أحسست أن قلبي يدق كثيرا كلما رأيته، أنا معجبة به، لكن لا أتصور أنني أحبه، كيـف ذلك لا أدري، أنا فقط أحب اضطراب قلبي كلما رآه.

عندما فُتحت القاعة كانت هناك أصوات عديدة والطـلاب جميعهم داخل الكلية، والكلية مغلقة أبوابها من الداخل سألت:

- فيه إيه...؟

قالوا هناك مظاهرات والحرس يطـوق بالجامعـة ومـن يخرج يضرب.

انفتح الباب قليلاً وجدت أكثر من عصـا تسـقط علـى رؤوس الطلبة وكثيرا من الدماء، وقع أحدهم علـى الأرض وسمعت أصوات هتافات بعض المتظاهرين في الخارج:

- " خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعـود "، إذن هي مظاهرات الجماعات الإسلامية في الجامعة ضد ذهـاب أنور السادات إلى إسرائيل.

وجدت طه أمامي فقلت له: - صباح الخير، خيـر فيـه إيه..

كان متضايقًا وحادا.. قال: - أبـدا الـولاد دولـه مـش هيجيبوها البر كل ما نتفق معاهم على حاجة يخالفوها..

فقلت له: - أنتم أصلاً مختلفين، إزاي عـاوزهم يتفقـوا معاكم.

رد: – مش وقت كلام دلوقت بس إحنا كلنا ضـد حاجـة ومتفقين على أن المظاهرات تكون سلمية وبدون عنف لكـن الظاهر مافيش فايدة، السلطة عاوزة العنف عشان ترد بعنف زيه، هي كده على طول، المفروض العنف ده يكون موحـد تجاه العسكر مش ننقسم على بعضينا كده. وتركني.

عند بوابة الجامعة الداخلية وجدت أحد زملائي يسلم علي فأجبته محييةً إياه، هو طالب خجـول لا يـتكلم مـع أحـد واستغربت حين حياني ثم اقترب مني وقدم لي كيسـا وهـو يقول لي:

- هذا لك، أرجوك اقبليه.

سألته: – ما هذا..؟

قال: – أرجوك لا ترديني.

لم أفهم، واختفى.

فتحت الكيس، كان به جلباب طويـل وخمـار ومسـبحة وقرآن. بحثت عن هذا الطالب طيلة النهار لكن دون جدوى.

في نهاية اليوم الدراسي وجدته منسـحبا مـن المـدرج، أوقفته وأرجعت له أشياءه قلت له:

- التحجب لابد أن يأتي من داخلي.

فقال: – ده فرض عليكِ.

قلت: – أنا سآخذ القرآن، بس الباقي أعذرني لا أسـتطيع أن أقبله.

أخذ أشياءه ممتعضا وهو يقول: - ا   يهديكِ

ولم أره بعد ذلك.

ا   يهديني..!

ا   يهديه.

ولكن مثلي لا يذاع له سِر

كانت رائحة الطعام تملأ البيت وكنت جائعة. ذهبت إلى غرفة جدتي قبلتها، كانت تقرأ القرآن أقفلت المصحف واعتدلت على كرسيها كانت عاجزة لا تتحرك إلا بمشاية خشب صنعها لها د. صالح حين أتى ليدربها على السير، وجد ركبتها مكسورة ولا تستطيع السير بمفردها نصح والدتي أن تصنع لها مشاية خشب، كانت ثقيلة وحين تسير بها في الليل إلى الحمام يصحو كل من في البيت بسبب صوتها العالي وهي تتلو:

- بسم ا الشافي، بسم ا المعافي، بسم ا الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء.

جلست بجانبها مسندة يدي على المشاية التي أمامها، سألتني:

- اليوم اتأخرت وايد.

فحدثتها عن المظاهرات والعسكر ولم أخبرها عن محمد الذي أعطاني الخمار أو عن هادف فسألتني.

- وشو صار.

- أبداً حاصروا الجامعة وهدأت المظاهرات، علـى كـلٍ هي مظاهرات سلمية تقريبا.

دخلت أمي فزعة وقالت:

- من بكرة ما بتروحين الجامعة إلى أن تهدأ المظاهرات وبعدين أنت ما تتدخلين مالك دعوة إحنا هنا ضيوف.

- بس هذي قضية عامة.

- أنا قلت ما تعمليلنا مشاكل.

- يعني أنا بس اللي أعمل مشاكل...!

أمسكتْ جدتي بيدي وضغطت عليها ونظـرتْ إلـى أن أسكت.

كنا منذ فترة أمام التلفاز أنا وجدتي وأمي وأختي وبعـض الأصدقاء حين نزل السادات من الطائرة في القدس فإذا بفردة حذاء تطير وتضرب التلفاز كانت أختي منهارة تبكي وحـين صافح مناحم بيجن سحبت فردة حـذائي وصـوبتها للتلفـاز التفتنا إليها مندهشين نعم كلنا غاضبون لكن ما ذنب التلفـاز ركضت إليه بسرعة وجذبت حذاءها الثاني وظلت تضـرب الشاشة بكعب الحذاء. حاولنا تهدئتها وإقفال التلفاز وخافـت أمي أن ينفجر في وجهها لم أكترث كثيـرا بخـوف أمـي

وحذرها سكت وأنا غاضبة وقلت: – أنا هاتغدى مع جـدتي، وقلت لها:

- شفتي يا جدتي شو أمي تقول لي؟ يعني أنا بس اللـي تعمل مشاكل؟

قالت: – هي أكبر منك وتعرف مصلحتك وبعـدين هـا الحين أبوك وأمك ما تقوليلها إلا حاضر قلت لها:

- يعني أنا بس اللي ما أشتغل سياسة، أبويا كان سياسـي وأخويا وهي وأختي وإنتِ بعد، بس جت عندي ولا.

ضحكت وقالت: - هي السياسة شغل، واللي يشتغل يتكلم؟

نظرت إليها بتمعن وفهمت وسكت.

أكلنا وهي تقول: - " ولكن مثلي لا يذاع له سر ".

فقلت لها: - خلصينا من أبي فراس الحمداني هذا.

فقالت: – أبو فراس الحمداني وبصوت أم كلثوم شو تبغين بعد؟

فقلت: - أبغى أشياء وايد.. أبغى أكون أنتِ.

ضحكت من قلبها وقالت: - هذا الشيء الذي لا تقـدرين عليه

- ليش طيب...؟

- لأنك شمسة مب مريم.

- وشو لو كنت مريم؟

فقالت: - كنت بتجلسين على هذا الكرسي وأمامك هـاي المشاية وبجانبك القرآن وشريط أبو فراس الحمداني.

كم هي امرأة قادرة وقوية لو كنت مكانهـا هـل كنـت أستطيع أن أتحرك في مساحة الغرفة والحمام فقـط دون أن أجعل روحي محصورة في مكانها هكذا؟

كانت قوتها ورباطة جأشها تبدوان واضحتين في نظرتها التي احتوتني بها، فسرت جرأتها إلى، اندفعت قائلة دون أن أحسب ما أقوله:

- أنا أحبه وأريد أن أتزوجه.

- ماذا...؟

- أريد أن أتزوج هادفًا.

قالت: - عليونة اتزوجت هاشما، عليونة الخادمـة عنـد جدتك.

- جدتي، هي عليونة شمسة، والا هادف هو هاشم.

- شو تقولين؟

صرخت:

- أنا أريد أن أتزوج هادئًا، وخرجت.

عليونة والنار مشتعلةٌ بها

عليونة إحدى بنات فرقة خموس كانت عكس أخوتها بيضاء وجميلة أحبها الإيراني القادم من طريق البحر وظل يسكن في القصر ويهتم بالحظيرة، يطعم البقر والأحصنة والجمال والتيوس والخرفان. يجمع بيض الدجاجات، يحلب البقر والجمال، يحمل البيض والحليب كل يوم إلى القصر إلى إحدى سيدتَي القصر زوجة الحاكم أو أمه ومع المنافسة الشديدة بينهما أصبح ميزان القوة في يد الأم برغم اعتكافها وانزوائها، انزواء محتشدٍ في ذاته كشكل قوي في الحضور، وظل هاشم يحمل كل يوم البيض واللبن إليها وهي التي تتصرف به، ترسله إلى المطبخ عن طريق العبدات أو تستبقي ما تستبقيه كوسيلة لإغراء بعض النسوة والأطفال بأن تقدمه كهدايا لهن أو لهم.

حضر عن طريق مركب صيد إلى تلك المنطقة من ميناء المحمرة بشط العرب، وكان يسمى " خورمشهر ". وأسقطوه

في البحر بعد المياه الإقليمية بقليل في ليل ما، ظـل يسـبح حتى وصل إلى اليابسة وانتظر هناك.

شك بعضهم في أن يكون جاسوسا، واستدعاه الآخـرون ليتقصوا عن سبب حضوره. وكان لا يتكلم العربيـة، لكـن وجهه البشوش وشعره الأحمر وسكوته بل صمته الدائم أدخله بهدوء إلى تلك المدينة وإلى القصر مباشرة. إلا أن المفتـاح الذي كان يعلقه في صدره جعل الأهالي تشـك فـي سـبب وجوده هنا، خاصة أن هناك مشكلات على السلطة في إيران وكانت المنطقة في تلك الفترة مكانا لبيع الأسلحة.

لم يحتك بأحد غير حيوانات الحظيرة خصوصا الخيـول التي كان يعشقها فيدربها ويحممها، والإبل التي تتدرب هـي الأخرى على السباق الذي يقام كل شهر.

كانت تلك الإبل المعدة للسباق لا تشرب إلا السمن واللبن وحين تفوز الواحدة منها يصب على رأسها العطور الثمينـة والزعفران الأصفر ذو الرائحة الحادة فيصبح لـون رأسـها وبعض من رقبتها ذهبي اللون، خاصة الإبـل البيضـاء أو الفاتح لونها حين تسطع عليها شمس الظهيرة. كان يسـتمتع بصيد الصقور التي يلبسها البرقع ويضعها على ذراعه فـلا

ترى إلا وقت الصيد حيث يرفع عنها تلك البراقع ويفك قيدها فتطير لتصطاد الغزلان والحباري والدجاج البري والأرانب.

حين دخل القصر لم يجد أحدا، ولم ينظر إلى أي من تلك العبدات. كان يعلم أن وظيفته لا تتعدى علاقته بسـيدته فـي القصر، وإن ساعد قليلاً في حمل بعض المـواد الغذائيـة أو تدريب الصغار على ركوب الخيل أو شرب حليـب الإبـل طازجا.

عليونة أخت ريحانة والابنة الأصغر لمباركة الزنجية التي اختطفت منذ طفولتها من أفريقيا. أحضروها إلى عمان فـي سفن صيد ظلت في البحر عدة أشهر ثم بيعت هنا من قبـل صاحبها الذي اشتراها في عمان، اشترتها منه جدة الحـاكم لأبيه وربتها مع ابنتها، ظلت معهم تخـدم وتطـبخ وتـتعلم العربية بلكنة تتكسر أحيانًا والتي كانت حين تسـمع طبـول الفرق الكثيرة ينتفض جسدها كله كمن مسه جان وتسقط على الأرض مغشيا عليها وفمها يزبد ويرغي وتتهـدج بكلمـات زنجية لا يفهمونها. في تلك الأيام كان شراء العبيد لا يكلـف شيئًا.

منذ اختطافها وهي تحمل في رقبتها حرزا متواضعا مـن جلد حيوان وحين كانوا يسألونها عنه كانت ترد عليهم بلغـة سواحيلية لا تتذكرها جيدا أي إنه حرز من العين الحاسدة.

كانت مباركة من قرية الكايا التـي تحوطهـا الأسـوار بقوائمها الخشبية المدببة لتحتمي فيه القبائل من بطش القبائل القوية مثل الماساي والجالا والبرتغاليين قديما، وكانت تخاف كثيرا من الظل فهي ككل قبائل البانتو الـذين يعتقـدون أن الإنسان روح وظل. وأن الظل يتحرك وحده ويمكن الإمساك به وسجنه وهذا ما يتشابه مع عقائد الفراعنة عن الكا والبـا كما أخبرني طه.

وكان سعيد زوجها منسجما مع هذه الفكرة وكلما خـرج أخبر مباركة أنه سجن ظلها تحت حجرة فـلا تسـتطيع أن تتحرك من مكانها حتى يعود.

كانت حين تفيق لا تعلم شيئًا عما حدث لها، لكن صـوت تلك الطبول كان كمن يستدعيها إلى بلادهـا فـي الأدغـال البعيدة، حيث كان العمانيون يذهبون هناك للتجارة واختطاف الأطفال والعودة بهم كتجارة رائجة لديهم، ثم بـيعهم مـرة أخرى لتجار العبيد حيث يتم شحنهم إلـى السـعودية ودول

الخليج. وربما هذا ما يقصده المسعودي في سياق حديثه عن المحيط الهندي:

" والأسافل من بحرهم، هي أقاصي بلاد الـزنج وإليهـا تقصد مراكب العمانيين وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية البربري من بلاد الزنج والحبشة ويسمى " الخليج البربري "، وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة " قلنبو " من بحر الزنج. هـؤلاء القـوم الـذين يركبون البحر من أهل عمان، عرب من " اللازد " وينتهـي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قلنبو وإلى بـلاد السـفالة والواق الواق من أقاصي أرض الزنج وهي غاية مقاصدهم " ولقد وصفهم القلقشندي بقوله " ولهم متاجر مربحة وواصلهم إلى الهند لا ينقطع ".

تلك الطبول التي تشبه تماما طبولاً سمعتها في صـغرها حين كانت تعيش مع والديها في الأدغـال الأفريقيـة. كـان والدها واسمه العقل مال، قناص أفيال أصله من منطقة تسمي ياوو. اختطف هو أيضا، لكنه هرب في نجوجو ومنها أتـى إلى الكايا، استقر وتزوج وأنجب مباركة، وها هي تختطف.. ومنذ أن اختطفت وفي كل مرة تسمع هـذه الطبـول تعـود

روحها إلى الرحيل إلى هناك وظلت هكذا حتى بعد زواجهـا من سعيد بعد أن كبرت ريحانة قليلاً وأخذتها صاحبة القصر لتربيتها.

أنجبت منه كلثوم وعليونة، وحدها عليونة التي لم تشبههم بل تشبه هاشما لهذا حين رآها للمرة الأولى تزور مباركة في القصر هفا قلبه لها وظل متيما بها وهي التي كانت متزوجة وابنة ليل تعمل في فرقة خموس، ترقص وتغنـي وأحيانًـا كثيرة تكون علاقات خاصة برجال كثيرين تشرب كثيرا إلى حد السكر لكن روحها الجميلة وضحكتها الواضحة الصريحة تلف قلبه بحبل ناعم من الدلال، لم ير أحدا بمثل دلالها الفاتن والوقور أيضا لم تكن كمومس بل هي امرأة تختار حياتهـا، تتكلم بشكل هادئ وممتع تنظر بحياد وحـدة، ولا تبتسـم إلا قليلاً ربما لأنها تلبس البرقع على وجهها فلم ير فمها إلا في المرات التي كانت تلبس برقعا قصيرا حيث يرى سنا ذهبيـة واحدة تبرز من بين صفوف أسنانها كان يحلم بهـا كثيـرا، وحين طُلقتْ ارتعـدت أعضـاؤه كلهـا، ركـض لسـيدته واستعطفها أن يتزوجها، شتمته سيدته، كانت تريد له عبـدة صالحة لكنه يحب علياء، تزوجها في هدوء لم تكـن تحبـه

فروحها معلقة بالخمر والغناء، وجسـدها معلـق بـالرقص والرجال. لكنه كان يحبها كثيرا تحمل منها خيانتها وسـكرها الدائم تحمل ذهابها مع الفرقة. حاول كثيـرا أن يمنعهـا، أن يقنعها لكنه رضخ في النهاية لها وظل صابرا محبـا حتـى شوهدت والنار مشتعلة بها ورائحة الجاز تملأ المكان.

قالوا لقد سكبت على نفسها الجاز وهي سكرانة، واحترقت لكن حكايتها ظلت سرا لم يبح به على الإطـلاق، كثيـرون اتهموه بها، وكثيرون اتهموها بعد رحيلها بأكثر من تهمـة، لكنها أثرت كثيرا على فرقة خموس حيث كانت أجمل بنـات فرقتها وأحسنهن رقصا أو حتى دلالاً، تشرب حتـى تثمـل، لكنها تظل في جلستها كما هي وحين ماتت ظل هاشـم فـي الحظيرة فترة ثم اختفى تماما.

قلت: - أريد أن أتزوج هادفًا.

قالت أمي

– ١ –

لم تتجاوز المظاهرات حدود الجامعة، هكذا كان مقـررا لها وهكذا صار، بعض الأفراد فقط اقتربوا من باب الجامعة ثم تراجعوا بسرعة مذهلة.

كان يجب أن تكون أقوى كما كانت في نوفمبر ١٩٧٦.

وجدتُ طه، فقلت له: - طه.. " ما أنزلنا عليـك القـرآن لتشقى.. "

قابلته في الجامعة.. كان يوزع بعض الأوراق المصورة، قدم لي إحداها فسألته:

- إيه ده؟

- دي فسيلة خدى ازرعيها، " فمن كان في يده فسيلة يوم القيامة فليغرسها ".

ابتسمت وقالت:

- يا عيني، دي بقى فيها أي ثمر؟

فرد:

- دى يا ستي فسايل أنور كامل في آخر عمره وثمرهـا المرة دي ليبرالي.

- وقبل كده كان إيه؟

- كان " الخبز والحرية ".

- ومين بقى أنور كامل؟

- وا ما تعرفهوش؟ أمال هادف بيهرش دماغك طـول الوقت في إيه؟ في الحب من غير خبز ولا حرية؟

- عمره ما جاب سيرة حد..

- سيرة حد؟ يا بنتي دي سيرة حركة مش حد.

- سيبنا من أنور كامل كنت عاوز أتكلم معاك.

- أنا مش فاضي دلوقت.

- يا أخي إفضالي شوية، عاوزة أتكلم معاك، هادف مش عاوزني أتناقش معاك في أي حاجة خايف منك علي، فيه إيه بينك وبينه؟

- أبدا، اختلاف أيديولوجي يا ستي.

- أنا كل ما أكلم حد منكم يقول اختلاف أيديولوجي، فيـه إيه؟

- إحنا متخانقين من إمبارح.

- ليه؟

- في الأفكار، مالكيش دعوة.

- يعني إيه ماليش دعوه وهو أنا مش لـي رأي كمـان وبعدين تتخانقوا انتوا وأنا ذنبي إيه. وأفكار إيه اللـي انتـوا اتخانقتوا عليها؟

كان ذلك الحوار ما بين الماركسيين والتروتسكيين دائـم الحدوث. يرتفع أحيانًا إلى حد الاتهـام بالخيانـة، وتجنيـد بعضهم بعضا هذا الداء المتمكن في حركة اليسار عموما منذ الثلاثينيات لا يزال ينخر قوتها ويجعـل الهـم الاجتمـاعي يتراجع مع اندفاع الصراع الفكري.

فمنذ التقى " هنري كورييل " ذلك الفتى الصغير أخضـر العينين ذو الخصلة الساقطة على جبينه عند سفح الهرم لـم يتوقف أتباع هنري عن النظر إلى أنور كامل ومن معه على أنهم جماعة من الفنانين ذوي تعاطف مع الطبقة الفقيرة.

قال لي طه: - هذا حق يراد به باطل فمع جورج حنـين واطف ا سليمان والبير قصيري كان هناك أفراد من سلاح الطيران ونقابات العمال انضموا إلى أنور كامل لاقتنـاعهم بالأفكار التي يطرحها وليس تعاطفًا مع ما كتبه.

أحببت أن أفهم تغيرت أمور كثيرة حول حركة الطلبـة، حاولت أن أتساءل وأنتقل من كلية إلى كلية ومن جماعة إلى أخرى، أن أجد من يجيب عن أسئلتي.

كلفت نفسي هذا الصيف بالكتابة حول ثورة ظفار، ذهبت إلى د. سامي وطلبت منه مساعدتي في البحث، نظر إلى من وراء نظارته بتمعن شديد وقال: ابدئي.

تجرني قدماي مع حركـة المظـاهرات دون إرادة نحـو العمق، أبحث عن هادف، عن وجوده، عن ظله، كـأن يـده على كتفي، هكذا سأرى العالم ما زال هادئًا بـرغم قسـوته الواضحة.

– ٢ –

فتحت عيني اليوم على صوت أمي. لا صوت لهـا فـي أذني، لكن وجودها مؤثر ومتحكم في البيت، ومع ذلك كلمـا كبرت استطاعت أن ترى قسوة العالم، كانت تقـول: لمـاذا يمتعنا ا بقوتنا ثم يسحبها منا، وكأنه يظهر لنا ضعفنا هكذا، وكلما كبرنا انسحبت منا القوة والسـيطرة حتـى علـى أدق الأشياء وأبسطها، وكانت تدعو أن تموت وهي ما زالت قوية

وعلى فراشها ولا تحتاج إلى أحد. حـين ماتـت أوصـتني وصية واحدة فقط قالت أمي: لا تذلي نفسك لأحد وماتت.

تقول أمي دائما: إن الحياة مثل غرفة بها بابان تدخل من أحدهما لتمر فيها وتخرج من الآخر وكأنك لـم تـدخل، أو كمجرد ضيف عابر، وكانت مع ذلك تقبل على الحياة برغبة عارمة في الاستمتاع بها بأشكال بسيطة وعميقـة، تمـثلان فرحها في تجمع البشر حولها، ومع ذلك كانت تؤمن بالمثـل القائل " لكل مقامٍ مقال " فلا تخلط الأشكال مع بعضها بعضا، ولا تجالس الضدين مع بعضـهما بعضـا. كانـت الحالـة الإنسانية هي التي تدخل من خلالهـا، وكانـت تقـول: إن الإنسان البسيط أجمل وأصدق في محبته فهو لا ينتظر منـك إلا المحبة الخالصة فقط، ومع ذك فهي تتعامل بهذه البساطة دون أن تنسى في لحظة أنها أميرة عليهـا أن تـوازن بـين حالتين بشكل هارموني جميل، لم أستطعه أنا التـي تتناسـى ذلك وتفاجأ به كل مرة، وكانت تعيب على ما تفعلـه هـي، لأنني أقوم به دون النظر إلى ما تحت قدمي. وكأنني أحبس الظل تحتي. أمي على حق، وربما كنت أنا أيضا على حـق، هذا ما أراه. فأنا أحاول بعقلي اقتلاع قدمي من جذورها، لكن

ذاتي ترنو إلى البعيد وإلى هذه الجذور، تتأملها وتمتص منها تراكمات ماضٍ بدأ يجمع ذراته على متـون الحيـرة مـارا بالإمارة ليستقر هنا في القاهرة لالتقاط أنفاس المقاتل، وكـأن الموج يمسح معه تلك الحيرة التي تغمرني كـي ألقـي درع المحارب وأرتكن في انتظار ما يوحي القدر.

لم تحدثني يوما وهي تلمس جذورها الممتدة إلى الحصـن والعابرة منه إلى سفن القواسم لكني ألمحـه كالشـفق فـي عينيها، أحداثه متداخلة لكنها تزيدها قوة، وحين ألمحها ترنو إلى البعيد وتتحسس بطنها أدرك تماما أنها تتحسـس أوراق أبي السرية التي لفتها قبل أن ترحـل عـن الـوطن الـذي غادرته، ولم تعد له إلا في تابوت ومعها أحداث طمست ولم تبح بها كما لم يبح بها أبي أو أخي من قبل حتى يتخففوا من ذلك الحمل.

ما زالت جالسة تستقي من مريم حنكتها، كي تخفـي مـا يدور بداخلها وتظل ملامح وجهها ثابتة لا تتغير على عكس ملامحي التي تفضح توتري وتدفعني إلى البوح والذي جعلها تمنعني من الذهاب إلى الجامعة حتى تتوقف المظاهرات التي

يحلم أفرادها بما كان زوجها يحلم به وتشاركه هي ومـريم ذاك الحلم.

محمد دولار

كنت أهم بالخروج، حين فتحت باب البيت وجدت محمـد دولار أمامي حاملاً بيديه سلة بها بعض الـدجاج المـذبوح، فقلت له:

- اللي مالوش أول، مالوش تاني. إيه ده يا محمـد أنـت رجعت تبيع الفراخ؟

- أيوه يا ست شمسة خلاص أهي دي الشغلة اللي الواحد عارفها من الأول مضمونة وفي حالها لا تدخل السـجن ولا تخليني هربان وكمان مـا عنـديش فلـوس كتيـر أعمـل مشروعات زي نجم كده.

- ياه هوه نجم بقى عنده مشروعات !

- يووه، هو إنت ما سمعتيش عنه، ده ربنا فتح عليه من وسع.

- لا وا ، أنا كل اللي عارفاه منك ومنه بس.

- ده بقى الحاج نجم، وعنده محلين صرافة قـد الـدنيا، وبقى أكبر مستورد للأدوات الكهربائية.

- نجم؟

- أيوه، ده اللي باين بس، ده بقى عنـده بـزنس كتيـر وعمال زي المنشار في السمسرة والعقارات وفي كل حاجة.. ربنا يرزقنا.

- طيب وانت..؟

- أنا..؟ ما لِعِبِتْش معايا.

- هي إيه دي...؟

- الدنيا يا ست شمسة، كان الداخل زي الخارج أنا كنـت بشيل البضاعة وأوصلها لكن معنديش مسالك هو اللي كـان عارف الأساتذة الكبار اللي بيجيب منهم الفلوس.

- ليه هوه مش كان زيك...؟

- أيوه، بس هو فهلوي أكتر مني، وغامر ودخل سـكك كتيرة عشان كده اتسجن أكتر من مرة وهرب أكتر من مرة من البوليس.

- ليه كل ده، وانت يا محمد؟

- أنا بخاف وعندي عيال عايزهم يعيشوا، بس لو كنـت أعرف السكة صح وكان عندي فلوس ألعب بيها، ياه كنـت زماني زيه كان عنده ناس واثقة فيه وبتديله يلعب بفلوسـها وياخد المكس ليه وبعدين دخل المكسب في اللعبـة ضـربت معاه، أنا كنت بس بوصل وبصرف ومـا عـرفتش أسـاك أموري.

- أمال إيه حكاية محمد دولار محمد دولار، ده الواحـد فاكرك الكل في الكل.

- سمعة بس وا .

- ودلوقت؟

- دلوقت اللي كانوا بيسموني محمد دولار بقوا بيسموني محمد فراخ. شايفة الزمن بيعمل إيه.

- معاش، ربنا يرزق.

- آه وا نفسي أعمل مزرعة فراخ، ما تشاركيني يا ست شمسة ده مكسبها مية مية.

- آه دى اللي ناقص كمان، أنا مستعجلة يا محمد معاش، ماما جيالك بعد شوية ألا قولي، هو أنت جبت كام فرخة؟

شخص طارئ في الحياة

لبست أمي فستانًا أسود وخرجت، سألتها حين عادت:

- أين كنت؟

قالت إنها ذهبت إلى التعزية في الأسطى عِلي السباك.

- علي مات؟ شو كان فيه؟

سكتة قلبية، رحت أعزي أهله والحين مسكين ابنه خالد يدرس في الجامعة ويشتغل في المحل ويصرف على البيت وعلى إخوانه.

- علي مات؟ لم أكن أعلم أنني سأحزن على شخص طارئ في الحياة هكذا. في لحظة أصبح هذا الشخص جزءا من عاطفتي. لقد كان يهتم بأشياء صغيرة، مناسبات لا يتذكرها أحد مثل العيد، المولد، رأس السنة، كان يبحث عن أية مناسبة ليرسل الورد لي، أية مناسبة.. وحين لا يجد مناسبة يأتي بالورد ويقول إن هناك مناسبة سعيدة عنده أحضر لأجلها الورد، وكانت أمي ترسل الورد إلى غرفتي وتقول: - من الباشمهندس علي. أنظر إليه باستخفاف وأطلب

منهم أن يضعوه في أي مكان إلا غرفتي متحججـة بضـيق التنفس.

هأنذا اليوم لن أتحجج بشيء لأن باقات الورد قد انتهـت، ولم أعد أقطف الورد لهادف أيضا. بعد عدة أيام أرسلت أمي إلى الباشمهندس خالد ليحضر، هناك مشـكلة فـي الحمـام، حضر وكان يركب سيارة أبيه، ويلبس الملابس نفسها، هـو علي لكنه أصغر بأكثر من ٢٠ عاما ربما أكثر قلـيلاً، لقـد تزوج صغيرا وأنجب صغيرا حتى ابتسامته كانت مثل أبيـه إلا الورد لم يحضر وردا ولم يحضره بعد ذلك أبدا. تخـرج في الجامعة وبنى عمارة أخرى جعل دورها الأرضي كاملاً محلاً آخر للسيراميك وانتقل إلى العمارة الجديدة وجعل لكل ولد من أولاده شقة ولم يرسل لي هو ولا غيـره ولـو وردة واحدة.

قدم مريم

- ١ -

فتحت رواية " بجعات برية " وقرأت:

جدتي " رصيدها الأكبر كان قدميها المربوطتين تسـميان باللغة الصينية زنابق ذهبية بطول ثلاث بوصـات، سـان – تسون – عن – ليان، وكان هذا يعني أنها تمشي كأنها عـود صفصاف طري، غض في نسمة ربيعية كما كـان خبـراء النساء الصينيون يقولون تقليديا إذ كان يفترض بمنظر المرأة التي تتهادى على قدمين مربوطتين أن يكون له تأثير مثيـر في الرجال لأسباب منها أن انكشاف ضعفها يثير لدى الناظر إحساسا بالاحتماء. ربطت قدما جدتي عندما كانت في سنتها الثانية إذ قامت أمها التي كانت نفسها مربوطة القدمين بلـف قطعة من القماش الأبيض طولها حوالي عشرين قدما حـول قدمها طاوية كل الأصابع باستثناء الإصبع الكبير إلى الداخل تحت بطانة القدم ثم وضعت حجرا كبيرا فوقها لسحق قـوس القدم وكانت جدتي تصرخ من العذاب، وحين كانت تستعطف أمها أن تفك رباطها كانت أمها تأخذ في النحيب وتقول: لا..

إن القدمين غير المربوطتين ستخربان كل حياتها. وعندما أنهت جدتي صلاتها سجدت لبوذا ثلاث مرات ولدى نهوضها فقدت توازنها قليلاً حيث كان ذلك سهل الحدوث بقدمين مربوطتين ".

عندما أنهت جدتي صلاتها سجدت داعية من قلبها، ولدى نهوضها من الكرسي الذي سجدت من فوقه لأنها لا تستطيع السجود على الأرض فقدت هي أيضا توازنها قليلاً حيث كان ذلك أيضا سهل الحدوث مع قدم مكسورة لا تنثني أبدا.

تركت الكتاب وركضت لأساعدها على التوازن أمسكت بها وأمسكت هي بالمشاية التي أمامها ومن ثم استطاعت أن توازن نفسها وتقف.

- ٢ -

كان والدي يقول لي دائما:

- سنضعك في صندوق صغير حتى تكبري لا يظهر منه إلا رأسك حتى لا تطولي أكثر مما أنت عليه، شو نخلة بتستوين؟

فقد كنت أطول من في البيت أنا القصيرة بالنسبة إلى الآخرين، وكلما جلست معه نظر إلى قدمي وقال:

- لو كنت صينية لما تركوا رجلك تكبر هكذا.

إذن هو يعلم أشياء كثيرة عن الصين وأنا أتعرف عليها من خلال " بجعات برية ".

ذهبت اليوم إلى الجامعة ورأيت هادئًا، اتفقنا أن نسير مشيا على الأقدام من الجامعة إلى وسط المدينة لنشتري بعض الكتب من مكتبة تتوسط الميدان الواسع الكبير، لم أستطع السير كثيرا، قدمي موروثة من جدتي ومن جدة " يونغتشانغ "، إذْ أنها برغم كبرها، وبرغم أن والدي يسخر منها ويقول لي:

- كان لازم نربطها لك مثل الصينيين.

فإنها أصبحت مثلهم ولا أستطيع السير بها طويلاً.

أوقفت هادئًا وقلت له:

- لا أستطيع السير أكثر.

نظر إلي وقال:

- نحن ما زلنا في البداية، إيه ده بتتراجعي بسرعة وتضعفي، خليك جدعة شوية والا تربيتك تربية متدلعة؟

نظرت إليه بضيق وقلت:

- عمر الدلع ما كان عيب، أنا متدلعة بس جدعـة أكتـر منك ومتربية في المصاعب مش في السهولة، وتحملـت آلام قدمي وواصلت السير إلى جانبه.

– ٣ –

مرضت مريم اليوم كانت ترتجف بحرارة عالية، يعاودها هذا الحال كثيرا، تنام عدة أيام، تهذي قليلاً وتقرأ القـرآن إن أمكن لها ذلك. لا تأكل إلا قليلاً لكنها تواظب علـى شـرب القهوة وعجن الزعفران بماء الورد ووضعه على قمة رأسها وفي أنفها ووراء أذنيها، وحين تنام تصفر الوسـائد بلونـه ويختمر مع دهن العود الذي تضعه في ثيابهـا وفـي جلـدة شعرها. حين تدخل غرفتها تبدأ بشم رائحتها المميزة ورؤية اصطباغ ثيابها وشراشفها باللون الأصفر.

منذ أيام تعاني من صداع شديد، أهملته كالعادة، ثم ازداد عليها فبدأت طقوسها. ستبقى هكذا عدة أيام أخرى ثم تصحو تنفض الغطاء من على جسدها كأن لم تكن بها علـة أبـدا، وكعادتها تومض عيناها بالوهج الذي يوحي بسطوتها وقـوة روحها.

- خالتي مريم.

هكذا كان يناديها الحاكم دوما لكن هذه المـرة رأت فـي عينيه قلقًا يوحي بأمر مهم، فتبعته إلى غرفته التـي انتظـر على بابها حتى دخلت وأغلق الباب خلفها.

- شو علومك...؟

- مب زينه.

نظرت إليه مليا وأيقنت أن الأمر مهم، بل وربما يكـون خطيرا.

صمت قليلاً ونظر في عينيها مباشرة، ومنذ تلك اللحظـة أصبح منزل مريم مأوى لثوار الجبل الأخضر، لأن بيتها نعم المكان وهي بعيدة عن أعين الإنجليز وجواسيسـهم دون أن يلاحظ أحد ذلك بالرغم من أن بيتها مفتـوح دائمـا وكـان المترددون عليها كثيرين لكنها بقوتها المعهودة وثقتها بقدرتها هي العاجزة عن الحركة استطاعت أن يكون الأمـر لـديها عاديا جدا، يظلون لديها حتى تأتي عربات الفاكهة بالموز في الليل تحملهم في الخفاء إلى مدينة رأس الخيمـة " جلفـار " حيث تنتظرهم السفن والقوارب لتنقلهم إلى السعودية وبغداد. لم يكن هذا المنزل إلا مأوى كبيرا لثوار الجبـل الأخضـر

يأتون إليها يسألون عنها بالإسم ليختبئوا عندها هربـا مـن عمان والإنجليز وكل ما يمكنه الوشاية بهم فيفشـي سـرهم ويمسكون بهم ليعيدوهم إلى عمان مرة أخرى، حيث ينتظرهم مصير لا يعلمونه ربما السجن في قلعة ما وربمـا غيـره. فاتفقت مع والدي أن يختبئوا لديها لأن النظر موجه كله إليه وهو ذو سلطة ولهذا كان اختيار الحاكم لهـا. وكـان ممـن اختبأ عندها طالب وغالب.

لم تكن إذن مريم بالمرأة الضعيفة، بل امرأة قوية قادرة لا ينظر إلى جمالها برغم وضوحه لكـن شخصـيتها القويـة وعائلتها تجعلانها ذات مكانة لا يستطيع الآخر التعامل معها من منطق الرجل والمرأة.

- ٤ -

كانت مريم آتية من منزل إحدى الأسر القريبة من بيتهـا حين طلبوا منها مساعدتهم في توليد إحدى بنـاتهم فشـمرت عن يديها وتقدمت تسخن الماء وتمسد المتعسرة في الـولادة بحل الياسمين وهو زيت الياسمين ذو الرائحة الطيبة النفاذة. ظلت تضع أطراف أصابعها فيه ثم تبدأ بوضعها على بطـن

الوالدة تمسحها بحركات دائرية حتى يستدير الطفـل داخـل بطنها مع حركة أصابعها فيستطيع الخروج بسهولة بدلاً من اضطرارهم إلى الذهاب به إلى مستشفى الحكيمة " هوسـمان ".

بعد الولادة مباشرة أمسكت الوليد وربطت حبله السري ثم قطعته بموسى حادة ثم بسملت عليه ورفعت الأذان في أذنيه قرأت بعض سور من القرآن ثم عادت إلى منزلها.

كانت تداوي المريض وتسم بالنار بعض الأمراض التـي تحتاج إلى الوسم، وهو الكي بالنار، مرة تضع عصـا فـي رأسها دبوس حديدي تضعه في النار حتى يحمر ثم تضـعه على الإصبع الأصغر في قدم المريض ومرة تضـعه وراء أذنه اليمنى ومرة تحت الحجاب الحاجز بأربعة أصابع. لكل داء مكان للكي لا يعلمه إلا ذوو الخبرة والعارفون به مثـل مريم.

ولكل عضلة طريقة لتخديرها وتـدليكها مـثلاً إذا كـان المريض يعاني من عضلة تضايقه عند التنفس فـيحس بـأن هناك نغزة في القلب كلما بدأ في الشهيق فتنصحه بل تـربط له زنده الأيمن وسط العضلة تماما وبعد ساعات تختفي آلامه

أما من يحس بعضلة في كتفه فتدوسه بأطراف أصابع قدميها – قبل عجزها وقد استعاضت بيديها بعد ذلك – في إبطه ثـم في قاع يده بطرقة معينة، هكذا تعلمت بعض الطب الشـعبي وكيفية ممارسته واقتنع المرضى بذلك لأنهم يمارسونه أيضا كما تمارسه إذ إنه معروف لديهم.

" رسالة الحاكمة فاطمة بنت محمد " البيوت والعقول

" لم تكن المرأة غريبة عن دهـاليز الحكـم فـي العـالم الإسلامي، وفي سياق الأرض السواحيلية لم تكـن الحاكمـة فاطمة استثناء بأي شـكل مـن الأشـكال، فهنـاك ملكـات مشهورات في الساحل الشرقي منذ قديم الزمان وقد وصـلتنا أسماء منها السيدة عزيزة صاحبة زنجبار، والسيدة مكيسـي صاحبة ممباسا، والسيدة ماسورو صاحبة سيو.

وتقول أصل الرسالة بالسواحيلي:

بسم ا الرحمن الرحيم

١ – ميمي مقام أو كلو السلطان فاطمة، ابنـت السـلطان مقام محمد مكب ٤

٢ – ياندبل ١٥ موجب وات ميني ٦ جمع ٧ بن المرحوم السيد ٨ ميني كاج ٩ سلام بعد

٣ – يا ورق ١٠ كوجف ١١ كب نون ١٢ وال يامام ١٣ نوكيل يامام الشيخ على وترجمة الفقرات الثلاثة إلى العربية كالآتي:

بسم ا الرحمن الرحيم

١ – أنا الحاكمة فاطمة بنت السلطان الحاكم محمد الكبير.

٢ – هذا الكتاب موجه إلى السـيد/ جمعـه بـن السـيد المرحوم كاجي. بعد السلام:

٣ – هذا الكتاب لتعريفك أنني رأيت والي الإمام ووكيلـه الشيخ علي".

البيوت والعقول

لماذا تحكم النساء البيوت وعقول رجالها؟، هكذا فكرت أول مرة حين تذكرت جدتي، جدتي الأولى أُم أبي التي تزوجها جدي الحاكم بعد اتفاق تم بينه وبين جدي والد جدتي عبد الرحمن حاكم الحيرة بمساعدته على استعادة حكمه والذي استولى عليه أولاد عمه وكان الاتفاق يقتضي أن يتزوج الحاكم وأخوه ابنتي حاكم الحيرة، مقابل الولاء الكامل والمساعدة في الانقضاض على الحكم وعودتها إلى حاكمها الشرعي، والشرعية هنا مستقاة من الوراثة أي من الأب إلى الابن.

كانت جدتي هذه قد تزوجت من قبل حاكما آخر وكان عمرها آنذاك تسع سنوات وهو رجل يقارب الستين وله من الأولاد كثر، لكنها رفضته وعادت دون الدخول عليها إلى أهلها أما زواجها الثاني فكان بالحاكم والذي ستنجب منه عمتي وأبي والذي سيحكم بعد وفاة والده لكن جدتي هذه برغم قوتها ورباطة جأشها كانت الزوجة الأولى وتلتها زوجات أخريات كانت أهمهن خولة والتي كانت المحببة

والمقربة، وهي التي تحكم وتأمر وبيدها زمام الأمور البيتية بل وتنسحب إلى الخارج في كثير من الأحيان.

لم تكن جميلة كما قيل لي، لكنها ذات قوة ساحرة في انجذاب جدي لها، أما جدتي وكانت ذات قوام ضئيل وأنف معقوف وشعر ناعم وأسود وذات بشرة بيضاء تميل إلى الاحمرار وعيناها الساحرتان تسميان بالعيون الشهلاء وهي العسلي الفاتح ذات الرموش السوداء الكثيفة والطويلة يزينها حاجب كثيف أسود أما شفتاها فكانتا رقيقتين مثلها يذبلان سريعا كأوراق وردة حمراء.

جدتي هذه ظلت زوجة في الصمت ولم تكن جدة أمي بأحسن حظًا في زيجتها وهي التي تزوجت أخ الحاكم والذي تزوج معها ثلاثًا أخريات ومن المضحك أن جميعهن يسمين مريم ولكن جدتي انفصلت عنه وسكنت بمفردها وربما طلقت.

جدة أمي كانت الأصغر وكانت بيضاء البشرة، ذات سمنة ملحوظة. قصيرة القامة، ذات فم مكتنز أحمر وأنف يشبه أنفي أما شعرها فكان يميل إلى اللون الكستنائي، كانت ترى

الجن وتتحدث معهم بل كانت تعاندهم وترد عليهم وتطردهم من بيتها وكان من معها يسمعون صراخهم.

أما جدي فأيضا لا اذكر منه إلا يوما ذهبـت فيـه مـع والدتي، كان شيء ما ممددا على السرير لا أذكره، لا أذكـر له وصفا لكنني أعلم أن ما كان ممددا هناك كان جدي وكان مصابا بكسر في قدمه وحين عدنا من عنده إلى منزلنا قـالوا لنا إنه مات لم أذكر من جدي غير لحظة واحدة قبل موته، لا أدري لماذا كتب لي أن أراه ليظل معلقا في ذاكرتي بقدمـه المكسورة وجسده الممدد على السرير لحظة واحدة قبل موته، لحظة واحدة في الذاكرة، مجرد لحظة تعلقني في الماضـي، الذي أقرأه في عيون أهلي وكلامهم، وفي كتب التاريخ.

لكن لحظتي مختلفة، لحظة أرى فيها الشـخص بحالتـه الإنسانية وهو عاجز وراقد على فراش الموت كما لو أننـي رأيته هكذا كي أقي نفسي التاريخ المقروء الجامد السلطوي.

كانت الأقرب روحا لي وكنت الأقرب لها أيضا.

- كل هذا يا مريم.. " ولكن مثلي لا يذاع له سر ".

حين مرضت مرضها الأخير قامت بعد عدة أيام قضـتها في غيبوبة لم تنتبه فيها سوى لشرب القهوة ووضع الزعفران

على رأسها وفي أنفها ثم استنشاقه وإن استطاعت أكل بعض الأرز باللبن الرائب أو أكل بعض التمر مع القهوة لا تـتكلم لكنك تسمعها تدعو:

- يا أ   شوف حالي، ثم تنقلب على جنبها الآخر.

لم تكن لمريم غير أختها التي تزوجت وكان عمرها تسع سنوات رجلاً يقارب الستين له الكثير من الأولاد لم تسـتطع الرفض، زوجوها وحملوها كما كانت العادات آنـذاك فـي سجادة إلى غرفة زوجها حين رأته رفضـته وعـادت دون الدخول عليها إلى أهلها وكانت تسير فوق جمل بجانب البحر مع خدامها وخادماتها، وقفت أمام البحر رمت كل ذهبها الذي أهداه زوجها لها قبل التخلص من هذه الزيجة وكانت معها " مباركة " الخادمة الزنجية.

حين يذهب أهلها إلى البر للمصيف تسير بجانب مباركـة وأحيانًا مع أختها مريم بين التلال في الليل.

وكما يروون، قيل أنها ممسوسة وأنها وهي صغيرة قـد نطحها جدي أمام شاطئ بحر أمام خيمتهم كانت مع أختهـا وكانت معهما مباركة، ويقال أيضا إن هـذا الجـدي كـان ساحرا، يقال إن هذا الجدي كان ساحرا تحول من الشاة إلـى

الجدي ثم إلى ثور، حين رأتـه ركضـت فسـقطت وقبـل الوصول إلى الأرض نطحها فوجدت نفسها تطيـر مسـافة طويلة ثم تنزل على قدميها وتجلس وكأن أحدا ما يحتويهـا، كان القمر يومها مستديرا ومنيرا الدروب والمنحنيات وهـا هي حين يستدير القمر تتشنج أحيانًا وتضرب برأسها الحائط وكأنها تنطحه حتى يشج وتنزف أياما، أما مباركة فظلت كلما سمعت طبولا تدق، يشدها صوتها ممسوسة. وأن الجني الذي يتحدث بلسانها وبصوت رجل وبكلام غيـر مفهـوم، ربمـا يكون كلاما زنجيا، هو الذي أصاب عمتها وأن مباركة هـي الممسوسة وأن ذلك الجدي كان لها وليس لعمتها لذلك زوجـوا عمتها سريعا للحاكم وأقاموا الولائم والأعراس أما مباركـة فأرسلوا بها إلى منطقة أخرى مع بعض الخادمات والنسـوة لعمل زار بعيدا عنهم لعل الجن ينسل من جسدها، هذا الجن الذي حضر مع ساحر قادم من بهله في عمان وكان جائعـا فاختارها ليأكلها، لكنها ورثت مـع زنوجتهـا قـوة الـدفاع الطبيعية فيها، وحين تحول إلى ثور بعيـدا عنهـا دفعتـه، فأصاب عمتها ثم طار عائدا إلى مدينته قبل ظهور الشـمس، وتلبسها شيطانه منذ ذلك اليوم، والذي كانت تتحدث بصـوته

قالوا إنه ملك الجان ولهذا حين يحضر وتتكلم بصوته، كانت مباركة تتكلم وكأنها ملكة، تأمر وتزجر وحين يقوم برحلات ويتركها، يترك معها من يحرسها وهو جني مشلول لهذا تظل مشلولة لا تتحرك وحين يسألونها تقول إن زوجهـا سـعيدا سجن ظلها حتى يقرأوا عليها سورا من القرآن ثم يتلون: " يا موسى إني أنا ا فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طـوى " ثلاث مرات يكررون فيها قوله: " يا موسى إني أنا ا " سبع مرات فتستطيع أن تتحرك بعد ذلك.

برغش والعهود نامه

في زنجبار ١٧٧٣ ألغيت العبودية باتفاقيات " العهود نامه " بين ماجد وأخيه برغش وبريطانيا كان من قبل تجارة العبيد ثم ألغيت لكن بعد إلغائها صار الاقتصاد ضعيفًا.

وحين انضربت تجارة القرنفل بوجود مزارع في جـاوا " اندونيسيا " وتغيرت التجارة بدخول منافس قوي حيث دخلت زنجبار كميناء لتصدير العبيد، زنجبار العاصـمة، يجلبـون إليها العبيد من أعماق أفريقيا إلى السفن الراحلة من مـوانئ السواحل لتغير تجارة العبيد اتجاهها إلى الغـرب الأفريقـي ومن ثم إلى ليبيريا ثم أمريكا بدخولها كمنافس قوي فصارت زنجبار عاصمة تجلب إليهـا العبيـد مـن عمـق أفريقيـا لتصديرهم.

ولقد حرص برغش ابن عمه والي السواحل علـي بـن سيف على أن تتم التجارة كسوق سوداء كتجارة ثانيـة إلـى السواحل الشرقية ومن ثم إلى الخليج ثم إلى كلكتا في الهنـد وبدأت التجارة مع برغش الذي حكم زنجبار لمدة ١٨ عامـا منذ ١٨٧٠ والتي تتمحور حولها بلدان عديـدة منهـا تشـاد

والكونغو وتنجانيقا وتنزانيا " زنجبار " وهنا تتغير المـوانئ باتجاهات السفن، ففي الغرب الأفريقي من ليبيريا إلى أمريكا والثانية من سواحل الشرقية " زنجبار " إلى الخلـيج، كلكتـا كان عدد الأفارقة الذين سرقوا من أفريقيا وتوجر بهم كرقيق إلى مختلف بقاع العالم ٣٠ مليونا من الرقيق.

في زنجبار عاش العرب وتكلموا اللغة السواحيلية وهـي مزيج من العربية والأفريقية نشطوا كتجار خاصة في منطقة " أجانبوا " حيث كان الصيادون العرب يسكنون فيها كمحطة تجارية وأقاموا مستعمرات في مقديشو وبمبا.

كان العبيد يجمعون في بيت كبير في زنجبار ومنـه يـتم توزيعهم على السفن والتجار.

" اتجهت أفواج العمانيين بدءا من القرن الرابع الهجري، وذلك إلى زنجبار وكينيا والكونغـو وتنجانيقـا والجزيـرة الخضراء وموزمبيق. غير أن أول هجرة عرفها العمـانيون هي هجرة سليمان وجيفر حفيدي الجلندي بن المستكبر بعد ما دارت الحروب الطاحنة بينهما وبين الحجاج بـن يوسـف، وهجرتهما إلى شرق أفريقيا دون سائر بلدان العالم تدل دلالة واضحة على أن العلاقة بين العمانيين وبين أفريقيا الشـرقية

علاقة قديمة وأن للعمانيين وجودا هناك وإلا فما الذي كـان يدعوهما إلى ترك أرض فارس أو الهند وغيرها من بلـدان العالم والذهاب إلى شرف أفريقيا لولا أن العمانيين وجـدوا هناك، ويؤكد مصداقية تلك العلاقة اكتشاف أقدم مسجد فـي جزيرة بمبا أو الجزيرة الخضراء ويعود إلـى القـرن الأول الهجري، ومن المؤكد أن هذين الرجلين قد بنياه، وذلك دليل واضح على قدم تلك الهجرات ".

" وبعد تلك الهجرات الأولى، تدفقت الهجـرات وازدادت تبعا للظروف التاريخية والحضارية وكانت أكثـر هجـرات العمانيين تكثيفا إلى شرق أفريقيا في عهد الدولـة الأمويـة وهي هجرات كانت بغـرض التجـارة، إذ سـاعدت علـى وجودها الرياح الموسمية التي تدفع السفن في فصل الخريف في اتجاه الجنوب الشرقي ثم تعود في فصل الربيع متجهـة إلى الشمال الشرقي فتصل بها إلى بر العرب قادمة من بـر الزنج وهو اسم من أسماء زنجبار".

" علاقة عمان البحرية بأرض السواحل، علاقـة مغرقـة جدا في القدم. وأرض السواحل هي ما كانت تعـرف قـديما

بأرض الزنج، وتمتد من مقديشو شـمالا إلـى مـا يسـمى بجمهورية موزمبيق جنوبا، وتشمل سواحل كينيا وتنزانيا ".

يقول المسعودي:

" وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمـان، عرب من اللازد، فإذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بـين مـا ذكرناه، والأمواج ترفعهم وتخفضهم يرتجزون ويقولون:

بربرا وحافوني وموجها المجنوني

حافوني وبربرا وموجها كما ترى ".

الجزء الثالث

الجن لا يأتون هكذا بل يرتدون أشكالنا لكيلا نخافهم

الطفلة التي أخذتها السمكة

- ١ -

كانت ريحانة تسير معي، وتحكي لي

مرة عن البئر التي أسقط فيها يوسف

مرة عن الشجرة التي تدلت عليها الحية وتحولـت إلـى امرأة جميلة للرجل الذي كان يسير تحتها، عشقته وصـارت له زوجة أرضية.. مرة وجد ورقة شجر مكتوبا عليها بعض حروف حاولت أن تخطفها لكنه وضعها في كوب ماء، شربه وابتلع معه الورقة ومن ثم اختفت من حياته وعند اختفائهـا ظلت تنشد:

" لأوقفن على الطريق وأشتكي من أي مظلوم وأنـت ظلمتني حاولتني حتى ملكت حشاشتي ولما ملكت حشاشـتي تركتني يا من هواه أعزه وأذلني ، كيف الوصـول إلـى وصـال دلني " ومرة عن علياء التي يحبها جنـي فـي البيت وكان يأتيها على شـكل قـط يتسـمح فيهـا ويلعـب بضفائرها الطويلة وحين مرضت وماتت ظل يبكي بصـوت إنسان فنادي عليه الجن:

- يا مهنا واش لهاكم اليوم عنا..؟

فرد عليهم:

" لهتني علياء العلوية، مقرونة الحيية أم الشعر الطويـل، تتمر جحبه عليه "

مرة عن مريومة التي كانت تربيها، ومرة عـن كلثومـة التي كانت أمها الثانية، وعن السحرة الذين يطيـرون مـن عمان.

كانوا يقولون إن في عمان منطقة اسمها بهلة كل سـكانها جن وسحرة، إذا أتى الليل بدأوا يطيرون مثل الخفافيش مـن مكان إلى آخر.

وكانت تغني معي:

" يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر ما اباه

أبي وليد عمي بغترته وارداه "

إذ أن الصياد لا تريده لي وإنما ابن عمي الـذي يحمـل الخنجر والرداء.

- انت منذورة لابن عمك، لازم تتزوجينه.

- لا، كانت ريحانة تغني لي وأنا صغيرة.

" يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر ما اباه

أبي وليد عمي بغترته وارداه "

وكانت تحكي لي عن الطفلة التي أخـذتها السـمكة إلـى البحر وأعادتها جميلة وقالت أنها مثلي.

- إذن أنا ما أبى وليد عمي هكذا سأقول لهم. لا أريده

- لكنك منذورة له...؟

- أنا منذورة للأحلام.

الأحلام ليست في كونها تجسيدا ولكن بما تأويه في جوفها وبما تحمله من مكتسبات وبما تعنيه من لغو، أو تجميـع، أو إدراك، أو ربما ما خفى منه تسريب للعاطفة وتضـاد مـع الواقع إذا اعتبرنا أحلامنا هي التعويض الضروري لنا عـن الواقع الذي تفتقده.

البارحة حلمت أن طائرا كبيرا بأجنحة كبيرة حملني إلـى أعلى الجبال، وضعني في منطقة غائرة، وطار عني. لم يكن معي أحد، كانت الصخور حولي والسماء غطـائي، انتبهـت خائفة وركضت عند جدتي. نمت قربها، فانتبهت، وضـعت يديها على رأسي، ظلت تقرأ القرآن حتى هدأت نفسي.. أينك يا محمد لترى جدتي وهي تقرأ القرآن على رأسي وتمسـح على شعري. نحن أيضا مسلمون.

- ٢ -

حين رفضت ريحانة إحضاري من المدرسة ذهبت مع عم خالد الجنايني أركبني وراءه على دراجته طوقت بكلتا يـدي بطنه حتى لا أقع، كان يلبس ملابس كاكيـة اللـون وكأنـه شاويش يضع على رأسه قبعة كبيرة باللون نفسه تقيه الشمس عندما يعمل في الحديقة.

كنت أركب وراءه على الدرجة وبجانبي سلة من القـش وفأس اضطر أحيانًا أن أمسكها بإحدى يدي.

وصلت إلى المدرسة، سألني التلاميذ مين ده يا شمسـة، أبوك...؟ لم أرد عليهم كنت سعيدة بركوب الدراجة وراء عم خالد. للمرة الأولى أذهب إلى المدرسة بالدرجة ومـن دون ريحانة.

بعد أن انتهى اليوم الدراسي كان عم خالـد ينتظـر فـي الخارج، وأنا ما زلت على سلم الطابق الثاني. حين وصـلت إلى الفناء الخارجي سمعت بعض الطلبة ينادون:

- يا شمسة باباك الجنايني وصل.

ركضت لآخذ مكاني وراء.. باباي الجنايني، وعدنا إلـى البيت.

تعودت أن أذهب وأجيء مع عم خالد الجنـايني. أركـب وراءه دائما إلا في أيام أخرى قليلة نجر الدراجـة ونسـير مشيا على الأقدام ثم يقف أمام فيلا قريبة من بيتنا يتحدث مع البستاني الذي في هذا البيت وأسمع أنا صوت البيـانو مـن الداخل.

يعطيني البستاني وردة وأنا ذاهبة إلى المدرسة، ويتبادلان هما الحديث حول الدنيا والزراعة والورد والأسمدة.

لم آكل الوردة التي أعطاني إياها لكننـي أبـدأ بقطفهـا سأنجح، لن أنجح، سأنجح، لن أنجح.. تطيـر الأوراق فـي الهواء، تصبح مسربا من البيت إلى المدرسة، خطـًا أحمـر أستطيع أن أعود عليه من المدرسة وحدي بدون عم خالد.

لون أحمر.. من الورد وليس من الدم.

تقسيم العبدات

- ١ -

عدت أخيرا بعد خمس سنوات من التجربة والعذاب.

ظللت في منزل عمتي الجديدة، أتى إلى حبيب وهو مشتاق وبلا لوعة ويعلم أنني أحبه وبرغم ابتعادي وغيابي أحيانًا وعدم اعتنائي بنفسي لكنه كان يحب روحي القوية وجرأتها.

حين قلت أنني أريد أن أتزوجه كان سائقًا جديدا لم يعص أمرهم وهو يراني أختاره وأدفع من يأمره بزواجي. أحب أن يكون مرغوبا هكذا من فتاة قوية وجريئة، ومع قربي من عمتي وحبها لي جعلته أيضا مميزا لديهم. وحين تزوجنا أحس كم أنا حرة برغم عبوديتي، فأحبني.. وها هو اليوم حين رآني مرة أخرى لم يستطع إلا أن يضمني إليه ويعود إلى حبي ولأنني رفضت أن أكون زوجة ثانية. طلق زوجته التي تزوجها في غيابي معبرا بذلك لي أن زواجه كان زواجا بلا حب لأنه لم يستطع العيش بدون امرأة، مجرد امرأة. وها هو يعود إلى حين عدت إليه. لم أصدق ذلك لكنني أبديت

تصدقي كي أبدأ معه مرة أخرى.. إذن هأنا أنتقم منـك يـا فطوم فاخرجي دون عودة من حياتي.

قال لي: - بسك يا ريحانة، أنا بعدني حبيب، حبيبك.

نظرت إليه بعينين ينفجر منهما الغيظ، تـذكرت عمتـي وهي تعاود ترديد:

" إذا المرء لم يرعاك إلا تكلفًا

فدعه ، ولا تكثر عليه التأسفا

ففي الناس أبدال، وفي الترك راحة

وفي القلب صبر للحبيب، ولو جفا "

أو وهي تردد بصوت أشبه بالهمس:

" احرص على ود القلوب من الأذى

فرجوعه بعد التنافر، يعسر

إن القلوب إذا تنكر ودها

شبه الزجاج كسره، لم يجبر "

صاحت ريحانة وهي تبكي: - هو لم يحـرص علـى ود القلوب يا عمتي بل نكر محبتي وكسر قلبي.

لم تستطع أن تتسامح معه وهي تعلم أن وضعها شارك في انهيار سعادتها معه، وحين اختارته، انهارت علاقتها بعمتها

وبأسرتها التي ربتها. لقد عادت إليه لكنها عادت مجروحـة منه ومقطعة الأوصال مع عمتها التي لم تعرف الحياة إلا من خلالها ومن خلال حياتها كيف تسـتطيع أن تحقـق حياتهـا الخاصة دونها الآن، ودون تلك الحياة العميقة فـي القصـر. القصر الذي تربت فيه، والذي كان تاريخًا وليس مكانا فـي الجغرافيا فقط.

حين وصلت لم تجد تلك الحياة التي تركتها بلا ظلال حياة فقط ليست كما كانت تتصورها. حتى القصر الذي يـذكرها بتلك الحياة، هدم كما هدمت حياتها السابقة وها هـي تهـدم جزءا آخر من حياتها بقوة وقسوة وها هي تعود مـن أجـل جزء من حياتها تخرب من أجل أن تكـون بقـرب حبيـب ووالديه.

أصبح المكان جوهرة الألم، ارتبط بتاريخ يحركها فيـه. وكما ترى الأماكن تمر في ذهنها، تعتقد أن ذلك من تـأثير إغماءة بسيطة ستنتبه منها حال دخولها حالة السكر والهذيان.

- أنني أشتاق إلى حبيب كرجل يضمني ويقبلني، وأشتاق إلى الحياة في هذا المكان الذي ألفته، أشتاق إليه كما كان يوم كنت فيه. ذهبت مع عمتي إلى القاهرة فانفصلت عن المكان

ودخلت مكانًا لا علاقة لي به.. عمتي في القاهرة لها أسبابها، وأنا لا صفة لي خادمة نعم، ولكنني عبدة.. قال لي عم عبده إن العبودية في القاهرة قد ألغيت منذ زمن، فكيف تقولين إذن إنك عبدة في مكان لا عبيد فيه...؟

إذن أنا حرة.. ولكنهم لا يعترفون بحريتي. فهل أعامـل كعبدة أم كحرة...؟

- كل من يتعامل معك يعاملك كخادمة من حقهـا تـرك عملها والعودة إلى وطنها يوما ما. هكذا قال لي عم عبـده، وحتى أم عايدة التي تبيع الذرة المشوية أمام مدرسة عمتـي شمسة حين كنت أقف بجانبها ونتحدث في انتظـار خـروج عمتي الصغيرة من المدرسة قالت لي:

- وليه يا أختي الشحططة دية..؟ ما ترجعي لجوزك مـا دام قادر يصرف عليك ويستتك، الست مالهاش غير جوزها وستك بقى زي ما جابتك، تجيب غيرك.

حقًا لماذا لم تصطحب غيري..؟ وما ذنبي في مأساة هذه العائلة.. نعم لقد ربتني مثلما ربت غيري؟ إذن لماذا أنا التي تتدمر حياتها وليست إحدى العبدات الأخريـات. لمـاذا أنـا وليست مريومة أو عذيجة أو سلموه. وهأنذا يمكنني العـودة

وهم يستطيعون أن يجلبوا غيري، أربع سنوات ظللت معهم، هذا يكفي لتأتي واحدة غيري وأعود أنا إلى زوجي.

وما دام لا عبيد هنا فأنا حرة، وأستطيع تقرير مصـيري، ومصيري أن أعود هناك، بذرة في أرضي حتى وإن عـدت عبدة فأنا حرة بين جدران بيتي، في سريري وفي أحضـان زوجي. أما هنا فأنا حرة لكنني عبدة وأكثـر عبوديـة مـن هناك، هناك أرضي وزوجي.

الزمن تغير. ظنت أن تجربة القاهرة هي التي غيرتها، لم تعرف إلا حين عادت أن الزمن تغير سريعا هذه الأيام، وأنها حين كانت هنا لم تلحظ التغيرات السريعة كما تلحظهـا الآن بعد خمس سنوات قضتها بعيدة وعادت.

- انتقلت مع ولدي وحبيب إلى بيت صـغير أعـده لنـا وظللت أخدم في منزل عمتي الجديـدة وحاولـت أن أعيـد توازن روحي معه ومع عمتي الجديدة ومع المجتمـع الـذي أعيش فيه الآن، لكن كل ذلك باء بالفشل الذريع، فأنا لم أحب هذه العمة التي تحاول فقد استدراجي في الكلام عن عمتـي السابقة، ولم أستطع أن أتسامح مع حبيب وإن عدت إليه لأنها عودة ناقصة، أما النسوة اللائي كنت أراهن في بيت عمتـي

صفية أو في الشوارع أو عند بعض المحـال التـي أذهـب لاشتري منها، فمن كن يكرهن عمتـي السـابقة وأسـرتها اعتبرنني دخيلة عليهن فلم يضممنني إليهن بل ابتعدن عني، ومن كن يحببن تلك العائلة اعتبرنني عديمة الأصل والأخلاق لأنني لم أضح بنفسي من أجلهم وهم الذين ربوني وتـركتهم لكي أعود إلى رجل تركني وتزوج غيـري حـال سـفري، وعلى كل فجميعهن ابتعدن عني مع إحباطاتي وعدم تكيفـي مع الوضع الحالي وإدماني الذي تفاقم، مما جعلني عدوانيـة للغاية إزاء أبسط تصرف تجاهي وصارت الرغبة في تحقيق ذاتي مسعورة إلى حدٍ كبير.

- ٢ -

عدت أخيرا، جلست في منزل عمتـي الجديـدة، عمتـي البيضاء التي تتكلم كثيرا وتتحدث إلى النسوة اللاتـي أتـين لزيارتها بحماسة وادعاء بطولة لأنها أحضرتني وأعـادتني إلى بلادي وزوجي.

- شو ذنبها تتغرب وتترك زوجها وبلادها.

قالت ذلك بكثير من الدهاء والمكر وهي تنظر إلى بطرف عينيها:

- معلوم هي خادمة أختي ولازم تطيعها لكن عاد ريحانة ما تحملت وهي سوت لهم مشكلات كثيرة، مسـكينة أختـي ربتها وما ثمر فيها مثل ما يقولون: " يا من شراله من حلاله عله ".

كان غمزها يمضي باتجاه إدانتي بشكل أو آخر خاصـة أنني لم أصن معروفها كما يرون، ولم أحسبه أيضا، كل مـا هنالك أنني انتقلت من عبدة لسيدتي التي ربتني إلـى عبـده أخت عمتي التي كانت دائما تكيد لي، لأننـي أخـدم أختهـا وأحبها وعبداتها لا يحببنها لهذا أصرت علـى أن تأخـذني معها، وهي ترى أن علي أن أتعامل معها بشكل أفضل ممـا كنت أتعامل به مع عمتي الأولى خصوصا أنها قد أعـادتني إلى بلادي وزوجي، بل جعلت حبيبا سائق لديها وضـغطت عليه كي يطلق فطوم لتكون ذات فضل علي، لكنني أعلم أن عمتي هذه تفعل كل ذلك من اجل أن تكون أفضل من أختها، التي كانت زوجة الحاكم في يوم ما وأن تمتلـك شـيئا مـن

ممتلكاتها وكأنها تحصل على ما هو حق طبيعي كـان مـن المفترض أو ربما كان لها.

ورثتني عمتي من أبيها كما ورثت عمتي الحالية سـعادة، لكنني كنت أكثر اقترابا ومحبة لعمتي، أكثر كتمانا لأسرارها، أكثر نشاطًا. بعكس سعادة التي كانت اكبر سنا ولا ترى جيدا وكسولة كما أنها لا تحب عمتها.. فكانت ترى أن أباهـا لـم يكن منصفا في تقسيم العبدات بينها وبين أختها. وأن أختهـا حظيت بأكثر من حقها لأنها فقط تزوجـت الحـاكم وهـي تزوجت أخاه الأصغر.

كان الحاكم يملك السلطة، ولكن إخوانه يعملون بالتجـارة والتي يملكون من خلالها المال الذي يفتح لهم آفـاق سـلطة كبرى إلا شرعية الحكم. ولهذا فكثير من الانقلابـات التـي تحدث هناك في المنطقة تكون من أخوة الحاكم الذين يملكون المال ويرغبون في امتلاك السلطة، أو أنهم يرون أنهم أحق بالحكم سواء لثرائهم أو لخوفهم من ضياع السلطة بتوريثهـا من الأب إلى الابن الأكبر الذي سيورثها لابنه الأكبر أيضـا فتضيع من الأخوة.

أعطتني عمتي صفية غرفة بجانب كراج السيارات التـي يخدم فيه حبيب بجانب الفيلا، كنت أذهب لأنام فيها مع حبيب وولدي وكثيرا ما كان محراك، أو محراك ونصور ينامـان في الفيلا مع أولاد باقي العبيد وأظل مع حبيب هناك.

- ٣ -

في هذا العالم كثير من العبدات يرضـعن أولاد عمـاتهن وأعمامهن مع أولادهن. هي علاقة مجتمع خاص لا تنفصل فيه الطبقات وأيضا لا تنمحي، وكثير من العبدات كن أيضـا إماء لأعمامهن ويظللن في المنزل كما هن عبدات، ويسـمين بالسرايا جمع سرية أي يسرى إليها سيدها في السـر حـين يريد ذلك، فإذا حملت منه واعترف به أصبح ابنه وامتلكـت حريتها، وتحررت.

كثير من البيوت تضم بين عبيدها المخنثين أيضا، الـذين منهم من يلبس كالنسوة يتقصعون في حركـاتهم ويتكلمـون كالنساء تماماً أكثرهم مخصي.

لم يكن في هذا العالم مجانين كثيـرون وحـدها مهيـرة، مهيرة الخبلة أم ريحانة وذلك العبد الأسود رشود الذي يعيش في حجرة قميئة تتوسط المدينة.

على يمينه منزل زوجة الحاكم الأخيرة وأمامـه منـزل الحاكم وزوجته الأولى وهناك يظهر الحصن أمامه مباشـرة بجانب منزل عم الحاكم والذي كان حاكما، بعد موت أخيـه إلى أن كبر الحاكم الأصلي الابن فتنازل له عن الحكم طوعا.

كان رشود ينام ويجلس في تلك الحجيرة القذرة ومعه كلب أسود، يتمدد دوما على عتبة الباب. أسود مثله ونحيف مثلـه أيضا ودائم النوم.

كلما خرج رشود خرج يتبعه وحـين يـدخل حجرتـه لا يسمح لأحد بزيارته وهم لا يزورونه أصلاً فلم يدق بابه أحد، ولهذا قرر رشود المجنون ألا يسمح لهم بزيارته في هذا القبو الذي لا يحده شيء، لكنه حين يختفي أياما يأتون إليه ويدقون بابه حتى يسمعون صوته بالداخل، فيضعون له بعـض مـا تيسر من الطعام ويذهبون وهو لا يسمع سوى هدير البحـر الذي يتسرب في أعماقه، ولا يرى سوى جذور الرولة التـي ترتطم أقدامه بها كلما تحرك داخل حجرته. يناديه الأطفـال

بالمينون عكس مهيرة التي يلقبونها بالخبلة. وكلما مر أمـام الحصن زجره الحراس وقذفوه بالحجارة وكلما ضرب أحدهم هددوه بالمحلوسة لو عاد مرة أخرى. المحلوسة ذلك السجن الذي دخله من قبل وظل كلبه في الخارج يعوي.

– ٤ –

هل كان ما قامت به مجرد حيلة، حين اختـارت العـودة وحين حاربوا انسلاخها ثم وافقوا عليه، مجرد حيلـة تنظـر إليها الآن بعين قط لئيم. أو ككاهنة في معابد الفراعنة، ولـم لا.. أو كأميرة أو كناسكة وطدت علاقتهـا بالغيـب وحـين تمتلئ بأرواح شاردة وشريرة أحيانًا تتقمص بداخلها قوة من قوة الرب داخل نطاق يضيق بمعالم تكوينها حتى ينفرج آخر جرح قابل للنزف. كل مرة كانت ريحانة تطمئن جسدها الذي لم يحتمل هذه الروح كثيرا، الروح المشاكسة، تقاوم أمراض نفسها والتي لا تدل على شيء سوى على ضـعف جسـدها تجاه هذه الروح من خلال فكرة تالفة عـن البسـاطة وعـن النموذج، نموذج عمتها.

المدينة تهادنها كي تبلغ روحها الهائمة، تلك القـوة التـي تطمئن لها في ضعفها، ولمستها بحنان جارح. حين مات أحد قادة الأسطول ودفنوه في البحر مثلما مات القراصنة قـديما، القراصنة الذين حاربوا الهولنديين في البحر وقتلوهم.

أو مثل صيادي اللؤلؤ الذين يرحلون عن اليابسة لأشـهر عديدة يركبون المراكب ويرحلون إلـى البحـر يصـطادون اللؤلؤ ويعودون بوجوه يابسة وأجساد نحيلة أكل منها الجوع والخوف وربما أسماك القرش أيضا وربما أيضا لا يعودون.

مغمضة العينين تبدو في توهانها وهذه الروح المجنونـة تختار العزلة لتندمج ثانية كأعمى يفقد بصيرته بعد بصـره، أعمى يراود أحلاما كان يظن أنها سوف تأتي إليـه، لكنهـا وقعت في هوة عميقة.

– ٥ –

كان حبيب يدري أن ريحانة عادت، لكنه لم يـأت حتـى بعثت إليه عمتها أن يأتي لتحدثه.

لبس ملابسه البيضاء، الجلباب الذي أقفله حتـى آخـره، زرر يديه بأزرار ذهبية، وضع الطاقية ثم الغتـرة والعقـال الأسود ثم ثنى طرف الغترة الأيمن على ناحية اليسار.

نظر في المرآة وقال:

- ما زلت يا حبيب حلوا، وريحانة تحبك. أنـت أيضـا تحبها، تحب حياتها وحياتـك معهـا، هـي التـي رحلـت وتركتني.. أنا رجل لا أستطيع الحياة هكذا بدون امـرأة ولا أستطيع أن أستمر في علاقات نسائية خارج نطاق الـزواج أنها علاقات باهظة الثمن لا أقـدر عليهـا ولا أسـتطيع أن استمر فيها وأنا أعمل طوال الليل والنهار.

ها هي ريحانة عادت وسأعود إليها، وربما استطاعت أن تجعلني سائقًا عند عمتها الجديدة لا بأس بها هكذا أكون قـد عدت لزوجتي وولادي.

أتى حبيب إلى منزل عمة ريحانة الجديدة، هـو يعلـم أن ريحانة تحبه، ويعلم أنه أيضا يحبها، يحب حياتهـا وحياتـه معها، لكن ما ذنب فطوم التي تزوجها كان يريد زوجة بدون حب، امرأة.. فقط امرأة، فتزوج فطوما التي كانت تتغنج لـه فهي صغيرة وجميلة ولم تطالبه بكثيـر يكفـي أنـه جميـل

ويعمل، والديه دخل، إذن لم لا تتزوجه...؟ كان يحاول أن يثبت لنفسه أنه من العادي أن يتزوج الرجل بأكثر من واحدة، أبوه تزوج غير أمه التي كانت غنية وتعاونه ولم تنجب له غير حبيب، فتحجج بأنه يريد أولادا وتزوج فتاة صغيرة لم تتجاوز أربعة عشر عاما وترك أمه تعاني من فقدانه، وهامت في حبه وظلت تهيم حتى أواخر أيامها. كل صديقاتها ظللن ينصحنها أن تنساه وتربي هذا الطفل وحين تركها تماما مرضت ولم تشف من مرضها وحين نادوه كي تراه لآخر مرة، رفض. تذكر حبيب حال أمه فخاف على ريحانة ما زالت هي التي يحبها، هي التي تستحوذ على جسده، وتمتعه أكثر من فطوم الحرة، تمتعه لأنها تحبه، ولأن عبوديتها ليست ضمن الجسد بل إن جسدها يتمتع بحرية كاملة ويمتعه أيضا لأنه يحبها.

حين رآها كانت ذابلة تماما، عيناها شاردتان بعيدا، شعرها منكوش، لم تعتن بنفسها لأجله، هي مجروحة منه لكنها مثلما تزوجته بأمر سيعود إليها بأمر. هي واضحة وهذا ما يحبه فيها، روحها القوية وجرأتها التي جعلته يتزوجها حين كان سائقًا جديدا، لم يعص أمر عمتها وهو يراها تختاره

وتدفع من يأمره بزواجها. أحب أن يكون مرغوبا، أن يكون الجانب الأضعف في العلاقة، هذا يمتعه أكثر.. يشده إليها من عجز أمه الضعيفة التي لم تعتن به كثيرا والتي لم تقو روحها لأجله. هذه المرأة هي الأقوى، هي التي تحميه مـن عجـزه السابق لهذا يشتهيها ويتمتع معها بقوتها.

ومع قربها من عمتها وحبهم لها جعلته مميزا لديهم وحين تزوجها أحس كم هي حرة برغم عبوديتها.. جسدها يسـتمتع بإرادة كاملة وينتفض برغبة عارمة ويحس بحرية حقيقيـة، وهي تعبر عن نفسها وعن جسدها بشكل متحرر وواضـح، وضوحا يخاف منه ويهابه، بعكس فطوم المتغنجة المفرطـة الدلال وبرغم أنها حرة فان جسدها ليس حرا.. وها هو اليوم حين رآها مرة أخرى ورأى ولديه نظر إلى محراك وقبلـه على رأسه ثم احتضن نصورا الذي لم يره منذ ولادته وقبله، كان " نصور " شبيها له، كأنه هو، ولم يستطع إلا أن يضمها إليه بشدة ويعود إلى هذه الأسرة التي تفتح له أيضا أبـواب العمل مع عمتها الجديدة التي لها قوتها فـي المنطقـة هـي أيضا.

حين أمرته عمتها أن يحضر لم يعـص أمرهـا، وحـين طلبت منه أن يستقر معها ومع أسرته في الغرفة التي ستكون بجانب الكراج والذي سيعمل فيه منذ اليوم لم يعص أيضـا، هو يعمل أن بإمكانه الرفض لكن معنى ذلك أن يترك المكان بأكمله إذن سيفقد عمله وريحانة ووالديه وأيضا فطوما لأنـه لن يستطيع حملها معه إلى مكان آخر لا يعلمه ولا يعلم كيف سيبدأ ثانية فيه. إذن كان من الأفضل أن يستقر مع عائلته ما دامت عادت إليه وأن يعود إليها.. أما فطوم فهـي صـغيرة وستجد من يتزوجها.

كان في البداية يساوم في عـدم الطـلاق لكـن ريحانـة رفضت أن تكون زوجة ثانية لها أي ضرة.

قال لها: - بسك يا ريحانة أنا بعـدني حبيـب، حبيبـك، وعماتك الحرات لديهن ضرائر، تجين أنت وترفضين. شـو أسوي فيها.

قالت له: - طلقها، أنا ما برجع لك وأولادك ما بتشـوفهم إلا يوم تطلقها.

حاولت عمتها أن تقنعها بأن تقبل الوضع القائم لكنها كانت تريد أن تجبر حبيبا على طلاق فطوم، فمثلما أمرته أختها أن

يتزوج ريحانة، ها هي تجبره على أن يطلق زوجته من أجل ريحانة. إذن هي أقوى من أختها لها الأمر الآن بعد أن كانت هي وجميع العائلات يؤتمرن فيطعن وكأنهن عبدات لأختها، أختها الكبرى التي حظيت بجمال أخاذ وشخصية قوية وزوج ذي سلطان ولهذا لم تستطع إلا أن تكون الأخت التـي فـي كنف أختها هي التي ربتها وزوجتها وربت أولادهـا وهـي الأقوى. ها هي الآن تمارس دور القوة وتتذوقه.

نظرت ريحانة بعينين ينفجر فيهما الغيظ، هي عبدة لكنها كانت عبدة زوجة حاكم، إذن هي أكبر من العبيد الآخـرين هي فوقهم هي عبدة داخل الحصن لكنها سـيدة تـؤمر مـن عمتها فتأتمر، لكنها تأمر باسم عمتهـا فتطـاع حتـى مـن الحرائر الأخريات ومن أهل عمتها، من تذهب إلـيهم بـأمر منها. إذن هي تملك الأمر وتملك قوة تميزها لهذا لا تستطيع أن تكون ضرتها ابنة عوشانة التي تدخل عندها وتأمرهـا أو حين تأتيهم في القصر تتعامل معها وكأنها العمة حين تكـون عمتها منشغلة فهي التي تحاسبها وهي التي تطلب منها وهي التي تتحكم في الشراء.. هذا غالٍ وهذا رخيص، هـذا جيـد وهذا لا. وكانت عوشانة تذعن لها طلبا في محبتها حتـى لا

تفقد بيعتها أو دخولها الحصن وكانت فطوم تجلس بجانبهـا تتحمل استهزاء ريحانة لها إذا بكت أو طلبت شيئًا.

- ٦ -

لم تستطع أن تسامح حبيبا وهو الذي أهانها بزواجه لكنها تعلم أن وضعها وذهابها مع العائلة شارك في انهيار سعادتها معه، بل وانهيار وضعها كعبدة متحكمة وقوية في الحصـن الذي تتشارك فيه أكثر من سلطة: عمتها، وأم زوج عمتهـا، وضرة أم زوج عمتها.. كل منهن لها مناطق نفـوذ وعبيـد يأتمرون بأمرهن. إذن كيف ستتعامل معها عوشانة وفطـوم وهي الجانب الأضعف اليوم، منسلخة من سـلطة عمتهـا، متروكة من زوجها، عمتها الجديدة ليست بقوة عمتها القديمة ولا تحبهـا فكيـف تسـتطيع أن تتحمـل ذلـك وكيـف سيعاملونها...؟

حتما سيدفعونها إلى الجنون وسيدفعها حبيب أكثر لـذلك كلما ذهب إليها.

حين اختارته وعادت انهارت علاقتها بعمتهـا وأسـرتها التي ربتها، وحين عادت لم تجد تلك الحياة التـي تركتهـا.

عادت مجروحة منه ومقطعة الأوصال مع عمتها التـي لـم تعرف الحياة إلا من خلالها ومن خـلال حياتهـا.. جـاءت لأجله، لكنها جاءت إلى عالم آخر وإلى عمة أخـرى وإلـى حبيب آخر.

هي أيضا تغيرت فكيف تستطيع أن تحقق حياتها الخاصة دون كل ذلك مجرد مكان في الجغرافيا فقط، والذي تربـت فيه منذ أن دخلت من بوابته الكبيرة مع أبيها سعيد حين نادى بأعلى صوته:

- مرهون يا مرهون، فك الباب.

فتح مرهون البوابة الصغيرة. ظهر أمامها رجـل أسـود سمين ذو كرش، يعرج، فرفض سعيد أن يدخل معهـا لأول مرة من البوابة الكبيرة. ضحك مرهون وقال له:

- ليش يعني منوه هي، عمتي...؟

ومع ذلك فتح البوابة الكبيرة كنوع من المزاح مع والدها.

كانت عودتها عودة للحياة القديمة، لنظام اجتمـاعي مـن خلاله كونت علاقات ها هي تتهدم الآن وترى تغيراتها معها، بل فيها، فهي كذلك تغيرت دون أن تعي، لكنها تحس بالتغير داخلها، وعليها الاعتراف به.

على الكرسي يسقط جسدها ينام طويلاً، الخمـرة علبـة النسيان حمالة السر، ربما لتتزود بكراهية أكثر تجاه التصاقه بها وكأنها الحياة.

تقودها أقدامها نحو المطبخ لتجاب كأسا نظيفة، تفتح درجا تمسك بسكين حادة وكبيرة تنظر إليها طويلاً وترى محراكًـا ممسكًا بالسكين ليخاص نصورا من السـرير، تـرى سـعيد مذبوحا أمام بوابة المسجد الكبير انتقاما للثأر وتـرى حبيبـا مضرجا في دم خياناته لها، تسقط اختياراتها الداخلية حـول إمكانية أن تجعل من نفسها شخصا مهادنًا، تتـرك السـكين وتتذكر أنها تريد كأسا تحملها وتخرج مرتبكة إلى الشرفة.

المساء يهطل على جسدها الأسمر، كتفاها العاريتان فـي قميص النوم تسبح فيهما إضاءة بسيطة من أضواء الشـرفة العلوية تجعل جسدها يرتاح على جمال أخاذ بسيط.

منذ أسبوع لم تدعه يلمسها ولم يظهر رغبته فيها. همست لنفسها:

- نحن نلتقي وجها لوجه لا نسلم. فقـط يرانـي وأراه لا ألتفت ولا يلتفت فقط لحظة ونعبر كالعابرين لابد من خطـوة ثانية..

تلاحظ أظفارها تخربش الكأس، تسمع صريرا مـا، لقـد نسيت، الكأس فارغة.

كانت عيناه ترعبانها وكذلك صمته، أما حديثه فهي جديرة بأخذه على محمل الكراهية، قبل أن تضعه في تابوت مناسب وتدفنه مع الذكريات. هكذا تصبح للحضور دلالـة الغيـاب، الغياب الكامل، أما ذاتها ففي الطريق وهي مدركة أن الحنين خيط تجره بقوة في داخلها وتحملها معها إلى البيت.

عادت إلى كرسيها أمامه، هو نائم وهي كأنها تتحدث إليه: أجمل ما في الأمر الآن أننا هنا في هذه الغرفة مبتعدان عن الخارج.. وبالرغم من أن روحي بعيدة فإنني هنا معك كمـا في الصورة الأولى.. أنا وأنت فقط.

بالرغم مما تقوم به فهي تعتبر ما فعله مراهقات صـغيرة لأنها قادرة على تدمير كل حيله تجاه فطوم أو غيرها بعد أن أصبحت الآن معه، قريبة منه وتستطيع مراقبته. وهو يحاول الوصول إليها مرة أخرى، ليس لأنها أجمل أو أذكى، لكنهـا

امرأة أخرى هنا، تفتح له باب جسدها بأكمله وتتغنج محاولة إثارته.

ريحانة لا تعرف كيف تتغنج.. لكنها تحـاول أن تثبـت لذاتها أنها قادرة على أخذ حبيب منها ليس لأجله، فهي تعلـم أنهما يبحثان عن طعم آخر للذة، لكنها ها هي هنا الآن وعليه أن يختار ولا يتراجع. إما هي، أو فطوم بـلا عـودة وهنـا ستفتح باب جهنم عليه ولن يستطيع تبديل الأدوار، ريحانـة هي التي أدخلت فطوما إلى حياته، هي التي قربتها بغبائهـا، فاستدرجته فطوم لها، وها هي تجدها في مواجهتها. فلينتظر إذن منها ما ستفعله إن لم يعد بكامله لها.

لم تستمتع بنوم هادئ طوال الليل لا بسـبب خلافاتهمـا اليومية على تفاهات صغيرة وإنما لأسباب تخص جسـديهما اللذين يثريانهما بالعناق ولا تتورد الشهوة فيهما.

قالت له: - لابد لي الآن، أن أستمتع لا بك بل بنجـاحي تجاهك وتجاهها.

ودت أن تكون زوجة من طراز خاص أن تكون ضـمن سياق عاطفي ولا تتورط في خلق حزام العفة حول جسـدها أو أحلامها، ليست ضد القيم، وليست معها لكنها لا تضـعها

في احتمالها إلا من أجل المتعة. هي تعطيه كل ما يريده من امرأة، إذن لا حاجة لأخرى. وهي تتعامل معه كطفـل وأم، كعاشق وغانية لكنها تمارس أيضا دور الرجـل فـي هـذه الأسرة، الدور الأهم لاستمرارية الحياة وتقبلها كما لو أنهـا تقول له:

- أنت تحتاج إلي، تمر بدوني بأزمة ثقة كاملة فألبس لك صورة تحبها أتقدم إليك كملجأ، وبالرغم ممـا تفعلـه مـن مراهقات صغيرة فإنني قادرة على تدمير كل حيلـك تجـاه الوصول إلى فطوم، كامرأة أخرى تفتح لك باب جسدها. هي أيضا تحاول أن تثبت لنفسها أنها قادرة على إغراء من يكون معي، تريدك لإغاظتي وليس لأجلك لكنني أذكى منكمـا. لا أستطيع تبديل الأدوار لأنني أنا التي جعلتك تهتم بها. لتترك لي إذن فرحي الصغير باختيارك لي الآن وتركها، ونجـاحي تجاهها وتجاه هذا المجتمع الذي كان ينظر إلي باستهزاء.

علي أن أفعل أحيانًا أشياء لا أحبها، مثلاً أن أحدق فيـك بهذا الود الذي خلفته علاقتنا المنتهية أصلاً، والتي لا نعترف بنهايتها بل نعيشها كأكمل حياة تعاش، أشبه صورتي الحقيقية

بدون أي حيل، لكن أنت لا تعجبك إلا فكرتـك عنـي كمـا رسمتها وقدمتها لك.

ما زال نائما، لا تحب إيقاظه، فقط تطفئ أنوار الصـالة وتذهب إلى غرفتها، تنام على سريرها مستمرئة تلك الأفكار، وممتلئة بالفائض المتناثر مـن رغباتهـا المكثفـة لصـالح روحها .

ترقب زمنًا لا تعده لكنها تنفصل بطيئًا عـن نفسـها ولا تكون غيرها لا تكون بشرا.

تبدأ في دخول غربتها، مكان مختلف فـي هـذا الكـون الواسع. لا تتحول من بشر لبشر لكنها تصقل لمعانها لتصير حفنة تراب قبل أن تموت. تستعجل اختفاءها دون أن تغيب. تختفي بانطفاء وهج بجانب شمعة وعود ثقاب.

على جبل راحت تسحب الحجارة التي تسقط فجأة وتطلع، الهواء يشح عند القمة صوت غناء ينوح على فقد. تصـعد، الوحدة وحدها، ترافقها الملائكة ودونهـم بعـض شـياطين صغيرة يجردونها من عبء هذا الجسد الذي أتلفته الثيـاب، الجسد الذي انحنى وبانت عروقه، هكذا تستطيع الانفصـال الآن. الانفصال الفجائي الذي يؤهلها لأن تمكث فجـأة فـي

الكون بدون تسمية أو كينونة، تلمس القمـيص الـذي يعيـد استداراتها بكيمياء دمها. اللحم تمزق وبرزت العظام. يداخلها رعبها مرة ثانية وتفقد السيطرة على تفكيرها، ثمة جـراثيم ترعب هذا الحيز منها، لا تقاوم تدميرها لكنها تفكر في مدى فقدانها في هذه الحياة.

وجود له دراميته

أزمة ريحانة أن حبيبا لم يكن منقذها كان يمكن أن يعالجها لكنه وقع في أزمتها، أزمة مرتبطة بواقعها وشرطها الذي تهرب منه، ومرتبطة بالآخر الذي كان من المفترض أن ينقذها فورطها أكثر في عدم انخلاعه عن نموذج حياته السابقة بالكامل. حين عاد إليها لم تكن في نموذج العائلة المستقرة ولم تختبر أدواتها بالكامل لهذا أصبحت شخصية مشوهة، الجميع لجأ إلى حسابها بشكل عنيف ومعقد ومن ثم تحولت أزمتها مع الخارج إلى أزمة داخلية مع جسدها.

هكذا حدثت هادئًا وكنا نسير معا. أتكلم، وهو يضرب بقدمه حبات الحصى التي يصادفها، كان ينظر إلى بين الحين والحين وأنا أحرك يدي في الهواء وكأنني استمد القوة

لأبوح له بذلك الثقل الذي يعذبني، قلت إن ريحانة لم تكن عبدة بالنسبة لي بل جزءا من حياتي رافقتني عبر تجاربي الأولى. لم تكن عابرة، بل كنت أشعر بأنها تود لو يقف الزمن عند خروجها وحين تعود، تعود كما كانت، وكما كان الجميع. لم يحدث ذلك، فانتظرت من علاقتها بحبيب أن

تكون المنقذ لها، لكن الواقع حكم بغير ذلك لأنه تغير حتـى في نظرتها له، وتحول المجتمع بأكمله. إذن لم يعد بإمكانهـا سوى أن تعتمد على طاقاتها الخاصة لتخلص نفسها. عليهـا ألا تعول كثيرا على الآخر الذي فشل هو أيضا. وهذا ما لـم تستطعه هي.

كانت تعلم أن الحظ وحده قادر على إعطائها ما تسـتحقه دون عناء. ربما كان وجهها الذي لم يكن جميلاً بمسـاحيقه وضوضائه لم يحتمل أوصافًا تحفره في الذاكرة.

هي امرأة عادية تنظر إلى العالم كجزء من غنيمة الوجود وتحسب خساراتها بالشهوات المتناثرة حولها، لكنها تعـرف عمق الحب حين يتضاعف في هذا الكـون مئـات المـرات فتصاب بالذعر حين تغرق ويفشل هذا الحب المعبر عنهـا، فتبدأ في الشك. توقفت نظرت إلى هادف الذي ربـت علـى كتفي وكنت أود أن يلملم خوفي أن أكون مثلها لكن خطواته سبقتني أوقفته وكأنني أردي أن أقول له مـا قالتـه ريحانـة لنفسها

إلى متى أؤجل حياتي؟ أفتح يدي ولا أملك سوى هذه اليد المفتوحة لتعيد صياغة نفسها واتزانها ومع ذلك لا تسـتطيع

أن تخرج من أسر وجودها الحالي، تحرر الروح من جسـد عبوديته أم تحرر الجسد من روح عبوديته...؟ كانت تعلم أن كليهما لغز الآخر، بل ربما لغز الوجود كله. فالمستحيل هـو الاستمرار كأيقونة تثبتها. كصورة ثابتة ذات دلالات كثيـرة. كيف تختزل موقفًا نهائيا وهي تعلم استحالة تحقيق الشـرف من خلال النسيان ومسح الذاكرة.. ومع ذلك فالباب مشـرع على احتمالات عديدة كمركب تدخل العاصفة. أولادها

حين تطرقنا أنا وهادف في الحديث عـن ريحانـة التـي ربتني وأولادها وكيف تركتنا كي تعود، قال لي هادف:

- لو عرفت ما تريده لكانت اليوم تملك مفاتيح سـعادتها لكنها كانت تبحث دوما عن مستحيل لا يتحقق، فتحققه يعني نهايتها هي بالطبع.

أي إنسان حين يخرج من مجتمعه يدمره هاجس تكوينـه يثور على وضعه. في مصر، لم تعش ريحانة واقعهـا بـل ثارت على وضع إنساني، اكتشفت المادة التي تملؤه ولأنهـا على صلة بتاريخها أصبحت محددة ضمن نظام هذا التاريخ، وأصبحت قدرته على محاكمتها قدرة مأساوية.

فقلت له: - الفرق بين حياتها وسهولة تضمينها وبين حياة متكررة ومتشابهة مع تجارب إنسانية أخرى هنا. إن أزماتها تؤهلها لخلق وجود له دراميته. فهي ليست متحـررة لكنهـا تعبر عن نفسها بشكل متحرر، انهارت لأنها لم تفهـم هـذا التحرر إلا من خلال التقليد، فبين حياتها وبين حياة متكـررة ومتشابهة مع آخرين كان الفرق بين الحياة العادية والشـكل الدرامي المؤثر، المحدود ضمن نظام هذا التاريخ فأصـبحت قدرة هذا التاريخ على محاكمتها قدرة مأسـاوية، ولكـن لا تجربة أخرى تنقذها من نموذجها الخاص.

فقال لي: - هي نموذج لا يحمل قضية خاصة، اختارت، واختيارها كان تجاه سلطة عائلية ومن ثم عاشت تحت ضغط العودة، فوجدها العودة ستحقق مشروعية علاقتها مـع هـذه القضية. حتى ذلك قد يكون نموذجا سائدا لكن ليس هناك من تجربة أخرى تنقذها من نموذجهـا الخـاص، لا يمكنهـا أن تحتمل نفسها وأعباءها ولا حتى روحها.

طموحها القوي فرصة لبناء ذات جديدة لكن مشكلتها عدم الاعتراف الاجتماعي الذي يعيدها إلى حالتها القديمة.

نظر إلي هادف، لم أتكلم.. أحسست أننا في حالة أقـرب إلى الانسلاخ، هادف يتكلم بموضوعية شديدة وصارمة أبعد ما تكون عن الشعور الإنساني الذي شعرت بحنوه ذات يوم. قلت لنفسي ريحانة تملك ذاتًا إنسانية كبيرة ومشاعر متراوحة بين الفقد والامتلاك لكن هادفًا لا يرى إلا ما هو نظري فـي ظاهرة العبيد لدينا، شردت قليلاً فأحس بذلك، لذا أمسك يدي وهو يقول:

- هيه سمعت اللي بقوله....؟

هززت رأسي بالإيجاب فابتسم موحيا انه يعرف بأنني لم أستمع لشيء مما قاله فأعاده مرة أخرى:

- حدث تعامل برجوازي من خـلال التوجيـه والتعلـيم وأصبحت علاقتهم الطبقية والعبودية تشكل عقدهم التاريخية، ربما هي التي حولتهم – أحيانًا – إلـى مرضـى يصـابون بخيبات أمل أو زهايمر علشان كده بقولك أهم شيء الـوعي كيف نبني الوعي إذن...؟

رغبتي في الحديث تلاشت ولكني قلت له:

- تعرف، محراك شايف انه موضوع ضروري لتخلص حقه الطبقي هو شخصية معلنة عن نفسها في أقصى انفعالاته

وهو أكثر من مرة يصل لأقصى القطبين أما ناصـر فهـو شخصية غير موجهة لذاته الخاصة لتكون قادرة على تـوفير مقومات إرادته، هو بحاجة ماسة للآخر، للخـارج، لشـيء سماوي مع مراقبته الدائمة. إن هناك حكما مسبقا على الحياة لديه.

- التوجيه يجعل الإرادة في يد الموجه

- آه تقصد التلقين.

- طيب وأنت فين...؟ ما هو إنت عارفة تحللي كل حاجة أهو علمناها الشحاته سبقتنا على الأبواب.

- أنا، دا أنا غلبانه، بس بجد، أنا لست ضـمن النمـوذج السائد ولست خارجة أيضا مضطرة أن يكون النموذج السائد كفرا لا يمكن تخطيه.

- إذن أنت غير مدركة وغير متجاوزة.

- ما انت شايف النماذج اللـي بتخـرج مـن فتراتهـا المرتبكة.

- أنا شايف أن محراكًا نموذج في الحياة، علاقته، بنيته، طموحه، ليس مع السائد ومن ثم كان يعيش نموذجه بشـكل آخر خفي، وموافق أيضا جبريا على الشكل السائد ومعايشته

لاعتبارات عديدة لكنه كغطاء فقـط ولـيس واقـع وجـوده الإنساني، ده اللي فيه الأزمة الإنسانية.

- هو موافق على الشكل السائد..؟ فين ده، ده بيشوه مـا يصنعه ويعيد صياغة ما يشوهه من جديد ليشوهه أكثر، لديه رغبة فظيعة في التحطيم، هو نموذج قـادر علـى تـوريط الآخرين، هو بحاجة لتمرد، ولهذا يعـيش النمـوذج السـائد وتحته نموذجه الخاص به والذي يدمر النموذج السائد أساسا ويدمره هو أيضا.

- كلنا ضمن نموذج عربي فاشل لا يسـتطيع أن يحمـل نفسه وأعباءه.

- أيوه ابتدينا مانشيتات لا إحنا نماذج سائدة ليست لـدينا تجربة مخالفة تنقذنا من نموذجنا الحالي.

- نماذج لا تحمل قضية خاصة، أنت مثلاً اختيارك تجاه سلطة عائلية ومن ثم مشروعية علاقتك بيه مثلاً هو القضية، قضيتك الخاصة. أما ريحانة فكانت قضيتها العودة.

- يعني تقصد إننا أصحاب قضية لأننا نحب بعض.

- طبعا.

- يا سلام ده إيهام بمشروع حب قوي.

- الواقع غير محدود بجغرافيا عربية مصغرة.

- إيه ده، إيه النضال ده.

كمان هادف يشل تفكيري، لا أستطيع التفكير إلا بـه، ولا أرى إلا من خلال عينيه. لا أستطيع التحرك إلا بمنطقه هو. حياتي جزء من حياته، ابدأ يومي حين أراه وينتهـي حـين أودعه وأذهب إلى البيت، ما يحدث في البيت بدونه خـارج عن روحي، في اليومي من العلاقات أما هـو ففـي العمـق الداخلي.

عكس حياته التي تبدأ صباحا حين أجيء إليه، فيبدأ يومه وحين أودعه تبدأ حياته الثانية: السياسة والأصدقاء، الشوارع والعالم كله.

لا أدرى كيف انسلخت من قوقعته واسـتطعت أن أسـير خارج رقعة جبروته، حين التقيت به مصادفة كـان العـالم حولي مجرد فكرة تشكلت داخلي عن وضعي كفتاة تـتقاص أعضاؤها مع كل لحظة صمت تنبع من أفكار أمها: لا تحني ظهرك وأنت تسيرين، لا تجرجري قدميك وكأنك تسـحبين حملاً وراءك، استقيمي في سـيرك، أسـقطي الكتفـين ولا ترفعيهما، لا تهدلي شفتيك وأنت تتحـدثين، إجـذبي بطنـك

للداخل. كانت تعتني بملء رأســي بالأفكــار الســائدة فــي السلوكيات الأنثوية والأخلاقية لكن عقلــي كــان مهمــلاً لا يعرف النقد ولا التدقيق إلا مع هادف، هــذا الــذي جعلنــي أعرف أن هناك أطروحات متعددة ومتصارعة علينا أن نعمل العقل فيها لكي نختار منها ما يناســب تركيبتنــا النفســية. الاختيار يشعرك بالتميز، يخرجك من الإطــار الــذي تــراه يتأرجح تبعا للمتغيرات التي تعترضها الظروف. هكذا أسمعه مع طه يكونان لي مسربا لتحريك العقل والبحث عن كينونــة لا تعتمد فقط على تاريخها وإن كان صلبا.

الإنسان في حد ذاته متغير، والتاريخ وإن كان حقيقيا فهو يتشوه مع من يرويه، وحين نســير وراء المتغيــرات التــي يفرضها الواقع، علينا أن نتغير معه بما يتواءم مع ما نــؤمن به، وإن لم نتغير سنصبح في الهامش، نحيا على الأطــلال. لكن هذا الهامش الذي نرفضه قد يكون أكثر التصــاقًا مــع ذواتنا من الواقع الذي لا يتواءم مع تفكيرنا.. ويظل هــادف يشل تفكيري.

أسمع الآن صوت أمي تقول: - إنها كبرت، لهذا لم يبــق لها الكثير من الوقت. أصبحت أكثر فتنة وأرق روحا، لم تعد

تدربني على أن أجذب نفسي إلى الداخل، ولا أظهـر مـن حقيقتي إلا القليل، لا يعينها الأمر الآن، كانت تختار الملابس الملونة وتهتم بحالها كثيرا...

أحضر هادف كتاب شعر، وجلسنا إلى طاولة في مقهى.. طاولة لا تكفي لوضع كوبين من الشاي وحملنا الكتاب بـين أيدينا وقرأنا منه قليلاً.

الرقاص

سألني طه:

- ألا قولي لي يا شمسة همه المدفعين دول كانوا ماركـة إيه...؟

الجزء الرابع

" الأولة في الغرام "

كراسي الحكم

صباح اليوم أفضل من صـباح أمـس، وأفضـل مـن الصباحيات الماضية بعد أن عاد الببغاء إلى صاحبه الأصلي وظلت حديقة حيواناتنا تنكمش وتصغر حتى ظللنا فيها نحـن البشر فقط.

قالت أمي لأبي بالأمس:

- أنت ليش تسجن الطيور، مب كفاية إنك انسجنت، أنت مفروض ما تسجن حد بعد ما ذقت السجن. وحين جلسنا على منضدة الطعام، مكان اجتماعنا الأثير، جلست على الكرسـي ذي المسندين وأرجعت ظهرها إلى الخلف بعد أن وضـعت يديها على مسنديه، ونظرت إليه بابتسامة ماكرة قائلة:

- على فكرة، هي كراسي الحكم شو تفـرق عـن هـذا الكرسي، ولا شيء، ليش تتمسكون بها وهذا لا. أمسكها من ذراعها وسحبها عن الكرسي وتبادلا الأدوار وابتسـم وهـو يجلس مثلها.. يرجع بظهره إلى الوراء، واضعا يديه علـى المسندين وهو يقول:

- يفرق كثيرا جدا، بس أنت ما ذقته، لهذا لـن تعرفـي الفرق.

كلما أمسكت بتلك الحمامة البيضاء لمدة طويلة حتى أفلتها لأنظر إليها، وهي ترفرف وكأنها تتعلم الطيران لأول مـرة، ترفرف كما يرفرف العلم ونحن تحته في طـابور المدرسـة لنحييه. كأنها تتعلم كيف تعاود الطيران، كيف تمتلك حريتها من جديد، وكانت عيناي تنظران إلى البعيد كمن يقرأ الغيب حين ألبسوني العلم، وكلما وقفت أمام الحائك لبست العلم في مخيلتي لأشعر بالانتماء. حلمت مرة في أحد الأيـام، أننـي لبست فستانًا بكتف واحدة فاضطررت أن أترك عري منسدلاً على الكتف الأخرى كي أخفي ما يظهره سقوط الجانب الذي لا يحمله سوى الحلم.

لو كنت أطول قليلاً

– ١ –

سألني هادف:

- قرأت جاك بريفير؟ ده أجمل شاعر علـى الإطـلاق، خذي بعض قصائد له واقرئيها، هو شاعر جميل..

فقلت له: - وأنت مش جميل يا جميل..؟

- أنا بكره نفسي وحياتي بكره الشعر والمثقفين.

- مش ممكن، أنت بتموت في الشـعر وبتحـب نفسـك لدرجة العبادة، بتحبها لدرجة إنك بتحبني ولدرجة إنك دايمـا نظيف في أفعالك وداخلك وبراك كمان.

- انت واثقة من نفسك ومخدوعة فيها

- لازم أكون واثقة في نفسي ومخدوعة فيها، لازم أكون واثقة من نفسي معاك.

كنت حين أسير بجانبه أصل إلى قلبه، لا أتجـاوزه أبـدا وأسعد بأنه طويل لدرجة أن عيني تصل إلى قلبه، هذا هـو الطول المناسب هذا هو المكان الذي أستطيع أن أكون قريبة منه، أحس بالحنان الذي لا يظهره أبـدا، أرى قلبـه وهـو

ينتفض، تنفسه وهو يخرج ويدخل فيظـل صـدره يصـعد ويهبط.

لو كنت أطول قليلاً أو لو كان هو أقصر لكانـت رأسـي ستتجاوز كتفه، وهنا سأجد العالم حولي، سأرى من خلفه إذا اختفيت.. أما الآن، فأنا لا أرى إلاه هو فقط، وحين أختبـئ من العالم يكون هو من يحميني.

ظللت داخل هذه القوقعة التي ظلت تقفل علـي صـدفتها حتى اكتملت الآن.

هادف لا يتصل بي، لا يأتي إلى، لا يقـدم لـي هـدايا، وينسى أن يلمس حتى أصابعي، يتكلم قليلا، لكن كلامه دائما منطقي ثابت ومحدد.

مرة صرخت في وجهه:

- أنت زي أبويا تماما، بتحاول تعلمني وبس. يـا أخـي الدنيا حياة نعيشها مش جد وتعليم وبس.

- مين قال أنها جد بس، ومين قال غير كلامك ده...؟

نظرت إليه متحققة من سوء فهمي فبدأ بمحاضرة حول.. لا أذكر، فقط أذكر كم كان واثقًا من نفسه بالرغم من ادعائه العكس.

أنا أتحدث كثيرا، كلما بدأت الحديث حضرت إلي مـريم وهي تقول:

- وأما الزبد فيذهب جفاء.

أسكت وأتمعن في الكلام الذي أقوله، لماذا يصبح الحديث زبدا...؟

الحديث مروحة الهواء.

- ٢ -

حدثت هادقًا عن حياتي أخبرته عن أفكاري وكيف أتعامل معها، أحلامي وكيف أهفو لتحقيقها، عن رغباتي المخبـوءة ضحكت بصوت عال وقلت:

- أتمنى أن أطير إلى هناك.

كنت جالسة معه على أسوار الجامعة وأشرت إلى سـاعة الجامعة وهي تدق.

قال:

- بسيطة، أنت في الزمن أساسا.

أحد أصدقائه قال لي:

- كيف تحبين هادقًا، إنه شيوعي.

- وأنت..؟

- أنا قريب من أفكارك.

- تقصد أفكار والدي..؟

- ولكن..

سألت صديقه الآخر:

- هادف يساري..؟

وكنت أريد أن أخفف من وقع الكلمة عليه وهو المتدين فقال:

- ا أعلم أنا دايما أشوفه يصلي، ويصوم، وما بيشربش.

حين كنا على سور الجامعة قلت لهادف:

- أنت شو...؟

ضحك قائلاً:

- بني آدم بيحب وبيكره، بيحب الدنيا والبلد دي، وبيكره الظلم والتخلف.

- وأنت منضم لإيه...؟

- منضم لنفسي وقناعاتي طبعا.

وبدأ يغني:

- يا داره دوري بينا، دوري دوري بينا، لننسى أساميهم، وننسى أسامينا.

صك انعتاقِها

- ١ -

حين طلبت ريحانة من عمتها الجديدة صفية أن تعتقهـا، أعتقتها بصك تثبت فيه أنها أصبحت حرة، بـل وتوسـطت لزوجها حبيب كي يعمل في الجيش الموحد الذي تم إنشـاؤه في العاصمة بعد أن ظهرت الدولة وخرج الإنجليـز منهـا، ظهر النفط وألغيت العبودية فتنفست ريحانة الصعداء. هـي حقا لم تكن تذهب لعمتها كثيرا، وعمتها الجديدة أيضا لم تهتم بها، فهي فقط أخذتها وأعادتها لتكون لها المنقذ.

كانت التجارة، والملاحة، والغوص بحثًا عن اللؤلؤ، هـي الأعمال التي يزاولها أهل المدينـة، أمـا الآن فبعـد قيـادة السيارات وبعد الحرية، صار العمل بالجيش هو الوحيد الذي يعطي لحريتها معنى، خاصة أن الراتب الشهري مجز إلـى حد ما.

فرحت ريحانة فهي تريد أن تبعد قلـيلاً، كانـت وظيفـة حبيب تعطيهم الحق في ملكية بيت مناسب في حي صـغير، وراتب شهري مناسب لبداية حياة كريمة. كان ذلـك بدايـة جديدة للخروج من مأزق تلك المنطقـة، والابتعـاد بحبيـب وابنيها عن حبال فطوم التي تحاول أن تعيد حبيبا مرة أخرى إليها وللخلاص أيضا من كل ذلك الماضي الذي ظل يتعقبهم.

لم تترو بل سحبت وجودها قليلاً من الخارج، اختفت دون غياب، الغياب كما في القاهرة يقلقها، أما الاختفاء كمـا فـي العاصمة فهو استراتيجية ضد الشحوب والحزن، وللعودة من جديد.

لم يتغير المجتمع بل انقلب ولم يسمح بالتطور على مهـل من خلال فكرة مطروحة، لكنه تطور مـن خـلال الشـكل الاجتماعي السائد والمعاش بدون تغييرات جذرية تـذكر إلا بمعنى نفسي، ومن ثم كان النكوص أحيانًا يزداد فـي اتجـاه تعقيد السؤال الخاص بوجودها.

ظهرت الدولة، ومات جمال عبد الناصر. عاد أبي ومعـه بعض الحرس بعتاد قليل لترتيب انقلاب صغير على الحاكم،

ظن أن خروج الإنجليز سيعبد له طريق العودة. أليسوا هـم من طردوه من إمارته بسبب اختلافه معهم...؟

الآن بعد موت جمال عبد الناصر ومـع ظهـور الدولـة وخروج الإنجليز هل يستطيع استعادة حقه الضائع، مثلما عاد عبد الرحمن حاكم إمارة الحيرة بعد أن سجنه الإنجليز سبعة أعوام في عدن في سجن ربما يشبه سجن الكوت...؟

لم يعرف أبي أن الإنجليز لم يقيلوا عبـد الـرحمن مـن حكمه، لكنه هو وبعض الحكام الآخرين لم يرض الإنجليـز عنهم كحكام فأقاموا، قبل خروجهم بفترة ليسـت قصـيرة، انقلابات عديدة.. من خلالها تمت إقالتهم تماما من حكمهـم، ووضعوا في أمكانهم حكاما آخرين من أولاد عمومتهم حتى لا تصبح مسألة شرعية الحكم مثار صراع كبيـر، وهكـذا عملوا من وجهة نظرهم على استقرار حال المنطقـة كمـا يريدونه هم لا أصحاب المكان، لهذا كان لزاما على انقلابـه أن يفشل حتى وإن ضحى بحياة الحاكم الآخر ليـأتي حكـم جديد، حتى وإن أصبحت مسألة الشـرعية مجهولـة كمـا الأوراق التي اختفت فجأة ولم يعثر عليها إلى الآن.

في بيان وزع من جماعة الدفاع عن عروبة الخليج فـي فبراير ١٩٧٢ حول حقائق موجزة عن الأحداث تعرضـت الجماعة إلى فكرة الشرعية والحكم من حاكم إلى آخـر فـي فترة تغير الأوضاع السياسية والاجتماعية في تلك المنطقة.

عش لأمك زمانًا

- ١ -

على طاولة الطعام جلست بجانب أمي، أنـا علـى رأس الطاولة وهي على يميني وأختي على يساري. عندما مـات والدي صار أخي هو الذي يتـرأس الطاولـة وبعـد موتـه أصبحت أمي هي التي تترأس الطاولة.

كبرت أمي كثيرا بعد موته، لكنها ظلت صلبة ومتوازنـة ترفض أن تتنازل عن قوتها حتى على حساب نفسها.

الضعف أيضا إنساني لكنه في الأسر الكبيرة ذات التاريخ خاصة السياسي يعتبر انهزاما.

حين اضطررت لأن أجري عملية جراحية علـى قـدمي تنازلت لي أمي عن الكرسي بحجة أنني أستطيع مد قدمي هنا

أكثر أمسكت بيدي ووضعتها على يـد الكرسـي، الكرسـي الوحيد الذي على الطاولة بيدين هو كرسي المنصة وأخلـت مقعدها لي كأنها تقول:

- أنت الآن مفوضة مني بأن تحملي راية العائلة، أنت من سيتحمل زمام البيت.

أية مسئولية تضعها على كتفي وهي تعلـم أنني أحـب الضعف أكثر من القوة والفقد أكثر من الامتلاك والفشل الذي أخافه أيضا أكثر من النجاح.. هكذا علمني هادف.

الضعف قوة إنسانية أكبر بكثير من القوة التـي نـدعيها وهكذا كانت مريم وهي تقول لي " ولكن مثلي لا يـذاع لـه سر ".

لكنك لست كذلك يا هادف، أنت مثلهم تدعي القوة والقسوة أيضا، تعلمت كيف تقسو على ذاتك كثيرا إلى الحد الذي لـم تر انك تقسو على الآخرين، أنت قاس على الآخرين دون أن تلاحظ ذلك، قسوتك الموجهة لـذاتك اخترقتـك، وطفحـت خارجك.

- أما الفشل فهو شيء عادي، هكذا قلت لكي أبرر عـدم استطاعتي فعل أشياء خارقة.

ضحكت يومها وقلت لي:

- أنت أصلاً بتموتي في النجاح، بتموتي فيه.

قلت لك:

- في مين

- في النجاح

- لا وا أبدا، دا أنا بأموت فيك أنت.

- يا فاشلة.

النجاح يتطلب أن ننجح وننجح، وكلما أخذنا نطلب المزيد، عكس الفشل يستقر الفرد في مكانه ويصمت، مثل الخوف والشجاعة، الشجاعة تستلزم الإقدام، أما الخوف فأمان أكثر، كانت أمي تقول قولتها الشهيرة:

- " استوي جبانًا وعش لأمك زمانًا ".

لماذا أمجد ما هو ليس بحقيقي داخلي، الشجاعة جميلة حقا، لكنها خرقاء. الملكية أجمل، لكنها تستلزم الدفاع عنها، النجاح حلو، لكنه يستلزم أن نحافظ عليه، إذن أنا أبحث عن انسحابي من العالم وأن أخلد إلى الضعف والانهزام.

لاحظت أن أمي تسعل كثيرا هذه الأيـام وحـين تجلـس بجاني على منضدة الطعام تمسك ورق " الكلينكس " في يديها كلما سعلت وضعته على فمها.

تذكرت الأفلام القديمة التي تسعل فيها البطلة فينتهي الفيلم بوضعها في المصحة، ثم باكتشاف داء السل وموت البطلـة. كنت أضحك بداخلي وأقول: " أنا كارنينا " تعيد نفسها أمامي.

هذه التهيؤات لا تطفو على السطح أبدا حتـى لا يختلـف الشكل العائلي المنتظم أمام طاولة الغداء.

نحن نجتمع مرة واحدة فقط على طاولة الطعام لهذا كنت أحاول جاهدة ألا أكـون فـي المنـزل، أتحجـج بمواعيـد المحاضرات التي تكون جميعها ما بـين السـاعة الواحـدة والنصف إلى الرابعة وبما أن كليتي بعيدة عن المنزل فأحتاج إلى ساعة إضافية حتى الوصول. هذا يعني انه لا أحد فـي المنزل يستطيع انتظاري، ولكن سينتظرني التوبيخ والكثيـر من المناقشات الحادة والكثير من الاسـتفزاز والطـرد مـن طرف والدي خاصة إذا كان مزاجه متعكـرا وكـان الحـل الوحيد ألا يراني ولأنني شجاعة، كما كنت أظن، كنت كثيرا

ما أرفض ذلك خاصة انه لكي أصل إلى غرفتي لابـد مـن المرور على القاعة التي ينتظر هو فيها ويجلس طيلة يومه.

في كثير من الأيام التي أكون قد استوفيت فيها طاقتي في الشجار مع هادف لا أستطيع أن أتحمل أكثر، أضعف وأدخل غرفة جدتي وانتظر فيها الليل حتى ينام هو، لكي أذهب إلى الغرفة أو يأتوا إلي بملابس البيت، ألبسها وأظل هناك حتـى يسأل عني فآتيه وكأنني جئت منذ فترة طويلة. كنت أرى هذا كذبا لا أستطيع فعله، كنت أتظاهر بالقوة ممـا جعـل كـم الشجار كثيرا ومحبطًا وجارحا أحيانا كثيرة. أكثر من أربـع سنوات مرت في هذه الدوامة المحيطة بي ما بين مقولة أمي " عش جبانًا تعش لأمك زمانًا " وبين جدتي وهـي تـردد " ولكن مثلي لا يذاع له سر ".

اليوم أمسكت يدها وهي تبتعد عن فمها لأرى كـم الـدم الذي تنزفه، دم أحمر بلون الورد، ورد أسطى علي، وعـم خالد، والبستاني الذي في الفيلا التي يسمع منها صوت البيانو صباحا في رحلتنا إلى المدرسة كل يوم.

دم والدي وأخي وتاريخنا الذي يتفتح كـل صـباح فـي المرآة، دم أمي الذي لم تنزفه إلا في شكل وردات صـغيرة.

أصبت بالرعب، لا أظن انه السل الـذي أصـاب الأفـلام العربية.

- ما هذا...؟

- لا شيء، أسناني توجعني.

وعندما أتى الطبيب كانت تنزف بحـدة اضـطررنا لأن ندخلها المستشفى ولأن أرقد بجانبها فترة طويلة لم أر فيهـا أحدا، أنا وهي فقط لأكثر من شهر.

غنت لي ريحانة فيها:

" يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر ما اباه

أبي وليد عمي بغترته وارداه "

" يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر ما اباه

أبي وليد عمي بغترته وارداه "

وأنشدت أم كلثوم لحظتها:

" نعم أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سر "

وقالت أمي:

لقد أبليت بلاء حسنًا ويكفي أني أكلت شبابك.

أخذت معها مقولتها " عش جبانًا تعـش لأمـك زمانًـا " وأسرت لي.. ألا أخضع لأحد ولا أذل نفسي.

حملت ألبوم صوري وذهبت أقابله، وحمـل هـو أيضـا بعض صور له في ظرف صغير وأتى إلي.

جلسنا أنا وهادف في الحديقة المقابلة لجامعة القاهرة هذه المرة كان احتفال الربيع. ككل سنة، الحديقة مليئـة بـالورد والأشجار وشجر الظل والشمس، كان احتفالاً بنا أيضا ولـم تكن ملكة الليل غائبة ولا الورد الأحمر بلون الدم ولا باقات الورد، لكن أبي وعم خالد والبستاني وطفولتي كانوا كلهم في مكان أمين داخل ألبوم صوري.

أظهرت صورة لأمي على كرسي كبير مذهب وقلـت: - هاذي أمي.

فتح الظرف الذي حمله وقدم لي صورة صـغيرة لوجـه هادئ وعرفها: وهذه أمي.

قلبت صفحة من الألبوم وأشرت بإصبعي على رجل يلبس الملابس الخليجية ويحمل سيفا. قلت: - انه جدي. أخرج من الظرف صورة أخرى صغيرة هي أيضا وقال:

- وهذا أبي.

قلبت صفحة أخرى وأشرت إلى صورة الحصن وقلت: - هذا هو بيتي الذي ولدت فيه.

نظر إلى بأسى قائلاً: - إبنة سلطة.

قلت بتوتر وكأنه أهانني: - أنا لست ابنة سلطة، وحياتي مؤسسة على الفقد.

أقفلت الألبوم ونظرت إليه قائلة:

- يريدون أن يزوجوني لابن عمي.

- طيب.

- يعني شو طيب.

- يعني أنت ماذا ستفعلين...؟

- كل شيء علي أنا...؟

قال:

- أنا لا أستطيع التدخل.

سيدة البيت

- ١ -

حملت ريحانة في تلك الأيام بابنتها الأولى حليمة وظلـت هناك تعيش في شبه هدوء سنة، سنتين، أربعا، خمسا، وكـل يوم يتكثف إدمانها شرب الخمر والسجائر. لم تستطع بـرغم حياتها الهادئة أن تخفف من إدمانها خاصة أنها اسـتطاعت توفير بعض المهدئات والمخدرات أيضا، كان منزلهـا مـن البيوت الشعبية، يضم غرفتي نوم وصالة، علقت على أحـد حوائطها إطارا ذهبيا به صك انعتاقها، ومطبخًا وحمـامين، يشبه البيوت التي بجانبه وجميعها في حي خاص بالعـاملين في الوظائف الخاصة في الجيش.

حين علمت بأن الدولة تريد هذا الحي لإعادة بنائه بشـكل آخر وأن بيتهم أحد تلك البيوت التي ستهدم لشق شارع كبير في مكانه، فرحت كثيرا وفرح حبيب وأولادهما لأن الدولـة ستعوضهم مالاً كثيرا يمكن أن يؤمن لهم بيتًا أكبر وعيشـة أرغد.

ترك حبيب الجيش وأخذ المال. كان يحلم بإيداعـه فـي البنك لكن حلم حبيب بأن يترك الجيش ويأخذ بيتًا صغير آخر ويصرف من أموال البيت لا يليق بريحانة التي أصرت على أن تعود مرة أخرى فتشتري أرضا كبيـرة جـدا وتـرهن الأرض للبنك لبناء بيت فسيح يشبه ذاك البيت الذي سـكنته في بداية عمرها لتصبح هي سيدة البيت. أخيرا ستعود أفضل مما كانت، قالت لنفسها أخيرا سأربح.. سأشعر بطعم أسـمي ريحانة وسأربح الدنيا وحبيبا ومحراكًا وناصـرا وحليمـة، سيحبني حبيب وسيخاص لي محراك وسيجاهد ناصـر مـا استطاع لأجل سعادتنا أما حليمة، حلوم فهـي الحلـم الـذي تمسكت به حتى كسبت عودة حبيب لي، وهـي حلمـي الآن الذي بدأ يتفتح. نزعت الصك من إطاره، الصك الذي ظـل يذكرها بأنها عبدة والذي رفض حبيب تعليقه وكسره محراك من قبل، وها هو الآن لا حاجة إليه في البيت الجديـد. هنـا صك آخر – المال – الذي ستصبح من خلاله سيدة المكـان. ومع ذلك خافت أن تمزقه، ما زالت تراه قيمة قد تحتاج إليه برغم مرور الوقت. لفته جيدا وخبأته في احد الأدراج. لـم

تكن مخلصة لفكرة عبوديتها كما لم تصبح مخلصـة أيضـا لفكرة حريتها.

اشترت سيارة فخمة واستخدمت كثيرا من الخـدم الـذين أحضرتهم من مناطق مختلفة وأصرت على أن تحيط نفسـها بهم لتصبح سيدة حقيقية تعزم النساء اللاتي رفضنها من قبل وتقيم الولائم وتجلس في صالون قصرها والخدم من حولهـا يتماوجون.

أما حبيب فقد اشترى سيارتي أجرة أجرهما ليعـودا لـه بعائد معقول يمكن من خلاله اعتماده كراتب يومي مناسب.

- ٢ -

كانت وليمة كبيرة عندما سكنا المنزل، بعثت للجميع مـن كان ضدي ومن لـم يكـن. لعمـاتي وللعبـدات السـابقات وعوائلهن، لبست فستان عمتي الأسود ذا الأوراق الذهبيـة، المفتوح الصدر على هيئة سبعة ورفعت شعري مثلما تفعـل ولبست عقدا من اللؤلؤ.

حين أقلد عمتي ليس ذلك بدافع الغيرة لكن بدافع الحب لأنني أرى أن عمتي هي الأجمل والأكمل لهذا أهفو من خلال تقليدها بأن أتجمل وأكتمل.

أقلدها لأنها النموذج فلا أرى إلا من خلالها ولا أفعل إلا كما كانت تفعل.

الملابس، الزينة، البيت، الحركة والمشي، تسريحة الشعر كله مثلها لأنني في داخلي أحبها مثلما أحب حبيبا لأنني لم أر غيرهما، لكنني دمرت هذا الحب من أجل استعادة حياتي وحين عدت إليه لم أجد داخلي سوى بقايا امرأة محطمة. اضطررت للهدم من أجل البناء، أن أفقد من أجل أن أمتلك، وحين امتلكت كانت نفسي جشعة في الامتلاك، أنا أريد امتلاك نفسي من خلال هذا العالم، لكن لا أعرف كيف أسجن بحريتي. كنت عبدة بجسدة حر، شوهت علاقتي بالعائلة، لن أعود لهذا، كان لابد أن أتركهم وابني داخلي حاجزا من الغلظة والكراهية أحاول ألا أتخطاه حتى لا أضعف، أنا أحبهم وها هو الحب يظهر بأشكال أخرى لم أدركها من قبل.

كل من أتى ظل يهزأ بي وظلت إشارات الغمـز واللمـز كثيرة للدرجة التي لم أحتملها تركتهم في صـالون منزلـي ودخلت غرفتي فانسحبن جميعهن الواحدة تلو الأخرى.

لم تتشوه العلاقة فقط بل كان التشوه مصـبوبا داخلـي، أغرقني ولكي أنسى لم أجد غير ملـذات حاصـرتني فيهـا الخمر والإدمان.

عدت لكنني لم أعد كما كنت، ولم يكن المكان كما كـان وحتى حبيب ما عاد حبيبا.

الحلم حارق والمكان يتغير بتغيير الروح والجسد والظل، والنهر يعدو حتى يصب دائما في البحر، والبحر كما يقولون ليس بملآن أبدا.

كان المكان من قبل أرضا وفكرة. أصبح الوطن أرضـا وسلطة والتزاما بنظام غير النظام الـذي ألفتـه، أصـبحت نموذجا آخر لم تحلم به وعليها الآن أن توجد أحلاما تناسبها كما هي الآن. لم يكن النموذج سهلاً لهذا استعانت بمـا فـي ذاكرتها أصبحت نموذجا لآخرين وحين تحقـق نموذجهـا. أصبح قنا خارجيا إذا قبلت به انتهت وانتهكت، وإذا مارست من تحته اللحظة أضحت مثار سخرية.

تذكرت عمتي شمسة وسيرنا على الأقدام كل يـوم إلـى المدرسة. كنت ألبس ملابسي التي طورتها لتناسب القاهرة ؛ السروال الأبيض المطرز في نهاياته، والفستان الذي انحسر إلى ما بين الركبة أو تحتها، ووضعت الطرحة علـى رقبتـي بدلاً من رأسي وكنت كلما ارتديت ملابس تذكرت أول مـرة سرت بالملابس نفسها مع عمتي على نيل منطقة الجيزة حين صرخ أحدهم من بعيد معاكسا إياي:

- تعيش أنديرا غاندي

فطنت أن ملابسي أقرب للملابس الهنديـة والباكسـتانية. ضحكت، وظلت تلك النادرة تعاودني كل فترة كلما وضـعت الطرحة على رأسي.

لم أنس أول زيارة لأنديرا غاندي إلى القاهرة حين وصلت إلى المطار مرتدية الملابس الهنديـة التقليديـة " السـاري " ومنتعلة صندلاً، كانت أول زيارة لها وكان ذلك في مـؤتمر الحياد الإيجابي وعدم الانحياز.

بعد سنوات زارت أنديرا غاندي مصر للمرة الثانية. كتب أحد الكتاب في اليوم التالي لزيارتها أنها وهي تتقدم لمأدبـة

العشاء التي أقيمت لأجلها وكان هو خلفهـا انثنـت قـدمها وكادت تقع للوراء فسندها، فقالت له: لقد استطعت أن تسندني قبل وقوعي، فرد عليها قائلا: - لقد استطعت أن أسند ظهر إنسانة تسند بحكمتها ظهر مليار من قلوب المساكين.

دخل " نصور " عليها، كانت ترضع حليمة نظر باستحياء لثديها المتكور في يد حلوم، تذكر نفسه. لم تفطمـه إلا بعـد فترة طويلة وكان دائما يصر على الرضاعة حتى وهو فـي عمر الخامسة وكانت تعطيه ثديها حتى تتخلص مـن بكائـه خاصة عند النوم.

جلس بجانبها فبدأت تحكي له.

- اليوم جاني في الحلم مرهون فتح باب الحصن، البـاب الصغير، وما خلاني أدخل، كانت عمتي نايمه، أخذت ثيابها ولبست ما لاءمني وأحرقت الباقي. بعد أن احتفظت لنفسـي بفستان زفاف أبيض. كل العبدات صرخن وقلن: هذا ليس لك وأخذنه مني. لم أستطع أن آخذه عنوة منهن، دخلن في الحلم وبقيت أتقلب في سريري. انقلبت فسقطت في البحـر تحـت السرير، كنت أعلم أنني لا أعرف السباحة، لكن حلوما لبست فستانًا أبيض أيضا وركضت ورائي، سقطت في الماء وكـل

العبدات لحقن بها وتحلقن حول البحر وانتشلنني بشبكة صيد، خرجت أضحك أما حلوم فلا أعرف من حملها مـن المـاء، كانت غريقة وبلا ملابس أمسكنها من قدميها وظللن يـربتن على ظهرها كان حبلها السري يشتد على رقبتها ما أعرف يا ناصر هاي البنت شكلها ما بتعيش.

أمسك ناصر بأخته قبلها وأخذ يلاعبها سأل عن والده ثـم خرج سريعا.

– ٥ –

رن الهاتف رددت عليه، كانـت مريومـة علـى الخـط أخبرتني بعودة صالحة من السعودية. صالحة صديقتي التـي أمضينا مع بعضنا أوقاتًا جميلة وحميمة هي اكبر مني بكثير أخت مريومة التي تربت معي لكنني كنت أغار من مريومة لأننا كنا نتنافس على حب عمتنا أما صالحة فلا.

إذن عادت صالحة بما جمعته من تجارة والتي اسـتفادت فيها من علاقتها بخالتها أخت أمها أمة إحـدى الشخصـيات الكبرى هناك، وأم ابنه. استفادت من سفرها معهم ودخـولهم جميع الدول بدون تفتيش أو ضرائب، كانت تـاجرة شـنطة

ماهرة مثلما تبيع الذهب والأقمشة تبيـع الخمـر والأسـلحة الخفيفة.

لم أسمع عنها شيئًا منذ مدة طويلة إلا ما كان يتردد حول تجارتها ولم أحاول أن أتقصى عن ذلك.

- قد اغتنت كثيرا فعادت واشترت بيتًا جميلاً ومحـلات عديدة تدر عائدا كبيرا وأحضرت خادمة لديها في المنزل يا بختكم يا ريحانة أنت وصالحوه. اغتنيتوا وعشتوا وإحنا اللي تمينا مخلصين لعماتنا حتى بعد ما أخذنا حريتنا ما أخـذنا إلا الفقر.

" ويعزي السبب في انتشار تجارة الأسلحة واشتغال عـدد كبير من التجار بهذا النوع من التجارة إلى وجود طلب عليها في المناطق الثائرة ضد سلطة الحكومة داخل إيـران. ففـي الثلاثينات كان الكثير من مناطق إيران الفقيرة قـد رفعـت السلاح بوجه الحكومة فطلب السلاح. ممـا حـدا بالتجـار الإيرانيين، التوجه إلى كل مكان يمكن أن يحصلوا منه عليه، والذي لم يكن يتجاوز البنادق والمسدسات وعتادهما، وعليـه فقد جرت اتصالات مع الشاطئ العربي للحصول عليه مـن هناك وتهريبه إلى داخل إيران. فانتشرت مراكز بيع الأسلحة

في الكويت، وقطر، والبحرين، وكانت إمارة دبي احد أهـم تلك المراكز. وكانوا يحصلون عليه وهو عبارة عن بنـادق قديمة ومستعملة ألمانية الصنع أو بلجيكية من مصادرها فـي أفريقيا ويتم إدخالها إلى الحجاز ثم إلى دبي ثم فتحت أسواق أخرى مع انتشارها بين أفراد القبائل البدويـة فـي داخـل الإمارات مما أقلق الإنجليز خاصة القبائل التي تعـيش فـي المناطق الداخلية للإمارات " .

- ٦ -

كان يداعبها الشوق، يهزها فترتعد، يعصـرها بضـغط يخفق له القلب فتنتفض.

ها هي المكومة في شبه غيبوبة هنا حيث العـالم يـدور حولها والليل أقرب لأن يغمض أحلامها على هذا السـرير، أصبحت شبه عاجزة عن تجاوز حالتها الخاصة.

صديقتها صالحة التي حين كانتا عند الشاطئ يومـا مـا دخلت البحر وجذبتها الأمواج إلـى القـاع، بحثـت عنهـا وتذكرت قصة الفتاة التي تنظف الأسماك كل يوم، فسـرقتها الأسماك إلى القاع، غسلوا جوفها وأطعموها اللؤلؤ وأعادوها

إلى الشاطئ، ظلت تتقيأ لؤلؤًا وحين تجرح عروقها يتسـاقط الدم على هيئة لآلئ جميلة كوردات بيضاء، وحـين تبكـي كانت اللآلئ تتساقط دموعها أغنت بها أهلها ومدينتها، وحين أحبت كانت كلمات الحب لؤلؤة كبيرة، وعمتها تلـبس عقـد لؤلؤ.

خافت ريحانة عليها وكانت تلبس فستانًا واسعا فظلت مثل وردة في الماء، غطست تبحث عنها حـين خرجـت كانـت صلوحة بجانبها تصرخ: يا ريحانة، يا ريحانـة.. ضـحكتا بعمق وتعانقتا. أحست ريحانة أنها تحضن امرأة بلا ملامـح أنثوية، أمسكت بحمامة لمدة طويلة وحـين أفلتتهـا نظـرت لأعلى كانت تفتح لها الأفق وهي تشق السماء بطيرانها انفتح لها التاريخ حين ذهبت ريحانة إلى بيت المعتمد البريطـاني، ولم تكن إلا عبدة تبحث عن تحررها، رأت كثيرا من العبدات يذهبن هناك ويلمس تلك الخشبة المدقوقة فـي فنـاء البيـت المعتمد البريطاني وعلى أثرهـا يمـتلكن صـك حـريتهن، كثيرات لم يستطعن أن يفعلن الكثير بهذه الحرية فعدن إمـاء وعبدات لمالكهن أو لغيره، لكنها كانت تبحث عن شيء آخر، أن تكون حرة حرة حرة.

صالحة لم تمتلك من النساء الحرائر لا الجمال ولا الذهب والمال ولا حتى القوة والسيطرة، لكن كانت لـديها الرغبـة والطموح والنداهة التي تناديها كثيرا وتسعى خلفها.

حين خرجت من بيت المعتمد البريطـاني حاملـة صـك حريتها كانت كمن به داء، الكل ينفر منه وكانت تحلم وتحلم. خرجت بحريتها إلى العالم الخارجي دون قـوة، دون حتـى أدنى إحساس بالرعب، لم تدرك أبدا أن هناك من يتربص بها في الوديان البعيدة التي لا يلبد فيها سوى قطاع الطرق، لـم تنتبه لهذه الطرقات إلا وهي مسروقة ومحمولة إلى السعودية لتباع هناك هي وكثيرات غيرها أخذن حريتهن المسلوبة كي تسلب حياتهن كلها.

ضاقت الأرض البراح قبل أن تراها وانغلقت مسامها قبل أن تتنفس بعمق هواء لم تستطعمه أبدا.

بأحد أماكن البيع بيعت صلوحة لأحـد بيوتـات الملـك الكبيرة، هناك وجدت إحدى المتحررات من أسـر عبوديـة الخليج أمة للملك، ومن ثم تحررت مع أول مولود ذكر لهـا، أخبرتها بأن عمتها أخت أبيها هي كذلك إحدى الإماء – مـا

ملكت يمينه – وأنها حررت مع أول مولود ذكر لها، ذهبـت إليها فاشترتها وأعتقتها.

كانت صالحة تبحث عن حريتها لتظل عبـدة لمعـروف العمة وتظل تسكن بمفهوم العبدة لكن بإحساس الحرة الـذي سكن داخلها واستقر. لقد اعتقت مرتين مرة بـالمنح، ومـرة بالشراء.. ومع ذلك ظلت تخاف أن تسير وحيدة في أمـاكن غير مأهولة لأنها سوداء، ويمكن أن تسرق مرة أخرى وتباع ولا تعرف حينئذ أين سيسوقها القدر، لذا كان أمانها أن تمتلك حريتها قرب عمتها.

أما ريحانة فكان رد فعلها تجاه إحساسها بالماضـي فـي تاريخها معاكسا لما تفعله، تشعر بأنها مثار سخرية. شـعور خاص بالتمرد والعودة تكثف بينها وبين نفسها. لم تكن تنظر إلى المستقبل، ما ينفتح أمامها هو الماضي.. كل ما هو ماض يتجلى ويتضح وتستمتع بتذكره، الماضي المرتبط بالمكـان. لهذا أرادت العودة لأن الحاضر في حضن الماضـي، أمـا الآتي فلم تضعه في حسبانها إلا من خلال ذكرياتهـا وأنـه سيأتي من خلال الاستقرار والعودة والحب الـذي سـيجعل للاستمرارية إمكانية ما. ربما لهذا كله، كان الحسم في العودة

انتصارا على كل تعقيدات حياتها. إذن العودة إلى العبودية.. هزمت تماما، ففي القاهرة كانت تحلم بـالعودة، أمـا حـين عادت فما الذي تحلم به..؟ جذورها أصبحت جذورا مقطوعة مما جعلها، وبعد حريتها، إنسانًا عاما. لم يتفهم أهلها وسكان منطقتها حتى أفضل صديقاتها حالتها بـل جعلوهـا مثـار سخرية.

في أحد الأيام التقت ريحانة بصالحة بعد فترة طويلة مـن الغياب، كانت صلوحة صديقتها التي طارحتها الغرام أحست أن الأيام تعود بها إلى سعادتها وطموحها، ها هـي تحقـق بعض طموحها وتستطيع من خلاله أن تعيش حريتها والقدر قد فتح لها ذراعيه بل أنعم عليها بالمال والـزوج والمكـان والثروة لكنها مع ذلك لم تتحرر من الداخل، ولـم يتحـرر المجتمع برغم إلغاء قانون العبودية فإن النظام ظـل علـى الأوراق، أما في المجتمع ذاته فما زالت القيم كما هـي لـم تتغير، وظلت في نظرهم كما هي عبدة وإن امتلكت حريتها، وإن اشترت وجودها وأسست له، لكنها لم تعرف كيف تتحقق من خلال ذلك ولم يساعدها المجتمع على التحقـق، كـذلك صالحة لم تتعلم كيف تعيش لا تحلم فقط أن تعيش بسلام لـو

حلمت بذلك لتترك لها مساحة واسعة، لكنها تريد أن تتقمص أدوار آخرين وتصعد السلم الاجتماعي إلى آخره. طموحهـا أكبر بكثير مما حققته وإن كان ما حققته أيضا كثيرا.

لم تكن تبالغ في ذلك، لكن مع انشغالاتها الكثيرة عـادت صلوحة بما جمعته من تجارتها التي نجحت بفضل علاقتهـا بعمتها، أخت أبيها، أمة الملك، أم الأمير. وسـفرها معهـم ودخولها جميع الدول دون تفتيش حقيبتها، فكانـت " تـاجرة شنطة " مثلما تبيع الذهب والملابس تبيع الخمر والمخـدرات والأسلحة الخفيفة أيضا. اغتنت كثيرا، فعادت، اشترت فـيلا ومحلات عديدة تدر عليها عائدا كبيرا، أحضرت خادمة لديها في المنزل، وكانت تذهب كل عام لزيـارة عمتهـا وللمـرة والعودة بعد ذلك. وحين تسافر تترك خادمتها عند صـديقتها التي ترددت الشائعات عن علاقتهما الشـاذة والتـي كانـت موضع شبهة بل كانت مبرر عودتها الثانية.

حين عادت من عمرتها ووجدت خادمتها حاملاً من سائق صديقتها الذي هرب أبقتها حتـى وضـعت. لـم تلـد فـي المستشفى بل في البيت وأنجبت طفلة صغيرة أخذتها صلوحة وأصرت على عودة الخادمة لبلادها وحدها، وهي التي لـديها

زوج وأولاد في بلدها، لا تستطيع أن تعود بطفلة دون أب معها. حاولت الخادمة أن تستبقيها صالحة معها لتربي طفلتها وتكون بجانبها لكن صالحة هددتها بأن تشتكيها بالزنا فتجلد وتسجن قبل أن يتم تسفيرها.

في المطار ألغت فيزتها وختمت على جواز سفرها بعدم العودة مرة أخرى، حتى لا تعود لأي منزل آخر وتزعجها، فتربت تلك الطفلة في كنفها.

نحن السادة

- ١ -

بدأ حبيب يشارك زوجته زهوة الحياة واعتبـرا نفسـيهما الملاك الجدد للحياة.

- انقلبت الدنيا وصرنا نحن السادة

هكذا تعاملا مع العالم وكما شاركها هذه الزهوة شـاركها أيضا المخدرات وبدلاً من أن تخرج مـن حالاتهـا انـدفنت داخلها أكثر، خاصة مع مشاركة أولادهـا لمزاهـي الحيـاة الغامضة التي أخذت تتقاب عليهم يمينًا ويسارا.

جلبت أسرة للخدمة مكونة من امرأة وأخيها وابنتهـا. الأم والابنة للعمل في المنزل والأخ كسائق لهم. ومع اختلاط القيم ولخبطة الحياة ظلت هذه العائلة في غرفتهـا فـي الطـابق الأخير.. ومع إدمان حبيب الحبوب المخدرة وأنواعا أخـرى كثيرة، اعتمد كثيرا على رام السائق في تقضـية مصـالحة اليوميـة وشـراء الأغـراض ومتابعـة سـائقي التاكسـي ومراجعتهما ومحاسبتهما كل يوم، مما جعله يخفـي بعـض الأموال ويتاجر بها في أشياء أخرى عن طريق بعض الخدم

الموجودين في المدينة. اشترى دكانًا في بلده وظل كل فتـرة يبعث بمواد غذائية من هذه النقود تملأ دكانه هناك وجعل ابن أخته وشقيق الابنة كليانة مسؤولاً عن الدكان.

خافت الأم على كليانة من محراك، لم تخف من ناصـر لأنه هادئ الطبع قليل الكلام والشراسة، لكن محراك الشرس ذا المشكلات العديدة، خافت منه لذا حاولت أن تقربهـا مـن خالها كي يكون حماية لها ضدهم، لكن هذا الاقتراب أشـعل بصيص الرغبة التي كانت مزيجا من حب مختلط بين كليانة ورام، مزيجا من حب الابنة لخالها، ومن الحماية من رجـل قوي وأيضا جميل وصغير إضافة لامتلاكه الأمـوال التـي أسس بها نفسه كتاجر عند عودته لبلده، كان رام لا يسكن مع العائلة في القصر الكبير لكنه يجلس في غرفة صغيرة بحمام مستقل في حوش المنزل.

وكانت كليانة تذهب إليه لتتحدث معه وتتسلى حين تنشغل أمها مع ريحانة وأطفالها خاصة أنها لا تخدم محراكـا بـل تجعل أمها هي التي تتعامل معه.

ذات مرة ذهبت إلى خالها، كان يغتسل في الحمام. ظلـت تنظف له الغرفة فوجدت بعض المجـلات الجنسـية التـي أربكتها وازدادت ربكتها مع خروجه من الحمام عاريا. لـم يلحظ وجودها لكنه أيضا ارتبك خاصة وهي تترك الغرفـة مسرعة تاركة مجلاته الجنسية على السرير.

لم تأت له بعد ذلك لفترة، وكان يتحاشى أماكنها لكنها في تلك الليلة بعد أن نامت أمها لم تجد نفسها إلا وهي مخـدرة تفتح باب غرفته وتندس بجانبه على السرير كما تفعـل كـل مرة لكن بإحساس آخر منها ومنه هذه المرة.

أحس محراك بتلك العلاقة السرية بين كليانة ورام، بـين الابنة وخالها، حاول أن يحول الدفة ويعتدي عليها لكـن الأم دافعت بضراوة ضد ذلك، وحين علمت بعلاقة الابنة بأخيهـا كان ذلك مناسبا لأن تدافع عنهمـا ضـد شراسـة محـراك وريحانة واستسلمت لذلك الوضع مع ظهور بـوادر الحمـل على كليانة.

تركت كليانة ورام المنطقة وذهبا إلى بلادهما لـم يعـودا لمدينتهما لكنهما ذهبا إلى منطقة أخرى تزوجا فيها وعادا إلى أسرتهما كزوجين يحملان طفلهما الأول اشتريا منزلاً كبيـرا

ملآه بالأجهزة الكهربائية والأثاث الفخم وفتح بـاب دكانـه وجلست كليانة كسيدة منزل ترعى أطفالها.

تحت وطأة الواقع والقوة المسيطرة الآتيـة مـن المـال اضطرت العائلة إلى أن تغض النظر عن مفهوم العلاقة بين الخال والابنة واعتبارهما زوجا وزوجة لديهما القدرة المالية والمحل الذي يعمل معه فيه أخ الزوجة وسيارة للشحن عمل عليها أخ له ومواد غذائية لدكانه ويمكنه أن يبيعها بقيمة أقل لدكان والدته وأشقائه لتحسين أحوالهما المادية هم أيضا.

وظلت والدة كليانة في منزل ريحانة بعد كل تلك المعاناة بل وأحضرت أخاها الآخر ليعمل مع حبيب بـدلاً مـن رام، وظلت هي تعمل لوحدها كخادمة في المنزل.

– ٣ –

انشغل حبيب بحالاته وانشغلت ريحانة في تقليد ملابـس عمتها وتسريحات شعرها وتقليدها فـي الحـديث، المشـي، والمكياج، وكلما أخفقت عادت لشربها وإدمانها.

نظر محراك إلى جلستها في غرفة المعيشة كانـت تقلـد تسريحة عمتها وتلبس قميص نوم يشبه تماما ثـوب عمتهـا

ذاته الذي لبسه ذات يوم، أعاد القميص إليه إحساسا غامضـا خرج من ذاكرة بعيدة حين خرجت ريحانة في اليوم التـالي إلى السوق، دخل محراك غرفة نومها فتح خزانتهـا وظـل يقلب ثيابها ويشمها ثم فتح الدرج الأخير في الخزانة أخـرج ملابسها الداخليها ولمسها بيديه أخرج قمـيص النـوم ذاتـه ولبسه ثم فتح دولابها، وأخرج ثوب عمته أخذ يشمه ويضمه ثم خلع قميص النوم ولبسه ووضع وشاحا على رأسه ونظر في المرآة مليا. اتجه إلى المرآة وضع كمية من البودرة على وجهه وأحمر الشفاه على فمه ووضع العطر ثم جلس ينظـر إلى وجهه في المرآة.

دخلت ريحانة عليه الغرفة نظرت إليه مندهشة، ثم قالت:

- عادتك والا بتشتريها. اللي فيه داء..

غير ملابسه وأشاح بقميص نومها على السـرير وهـو يتمتم:

- وانتو شو أصلا....؟

أسرعت ريحانة وأخذت ذلك الثـوب وأعـادت ترتيبـه وتعليقه في دولابها بهدوء شديد.

كانت سرية العلاقة العائلية بمـا فيهـا مـن تعارضـات وانشقاقات لم تدخل ضمن تحديد حياة محراك.

خرج من الغرفة ووجهه مليء بالمكياج وأحمـر الشـفاه اتجه نحو غرفته، كان صديقه إسحاق قد حضر لتوه، اندهش إسحاق حين رآه هكذا، لكنه هو أيضا شخص غير سوي لـه العديد من الإخوة المدمنين والده " بلوشي " الأصل وكـذلك أمه، لا يتكلمون العربية إلا خارج المنزل، والدته دلالة تدخل البيوت الكبيرة حاملة صرة من الثياب والذهب وفـي يـدها إسحاق الذي يرى النسوة وهن يتضاحكن ويتغامزن، يـراهن بملابس نومهن وبلا براقـع أو أوشـحة. يـرى شـعرهن ووجوههن وتخرج من فتحات الثياب أثداؤهن مكشوفة بـلا حرج في نفس المنزل الذي نشأ فيه محـراك، ومـن قبـل ريحانة.

إسحاق ابن علي أكبر.. بائع كبـاب، وقماشـة أو هكـذا تسمى المرأة المفضلة داخل البيوتات التي تبيع بعض قطـع الملابس والأقمشة وتأخذ الذهب لترهنه عند البانيـان لتأخـذ عمولتها، أو توصيها النسوة بشراء بعض الأغـراض مـن الأسواق وتأتيهن بها، فهي بجانب ذلك تنقـل لهـن أخبـار

البيوتات الأخرى ومن فيها وماذا كن يلبسن وفيمـا يـتكلمن وعلاقتهن بأزواجهن، وغيرها من الحكايات الصغيرة التـي ينشغلن بها وتصبح مثار حديث، خاصة وهن لا يخرجن إلا لماما، وكانت الدلالة والماشطة هما أهم شخصيتين في تلـك المنازل، إذا جاءتا رحبن بهما وإذا ذهبتا اشترين سكوتهما.

سمي أبوه بعد ذلك بالصفار حين ترك الكباب واشـترى محلاً لتبييض النحاس وعندما كبر ظل يداوم على فتح المحل كل جمعة بعد الصلاة، يجتمع معه أصدقاء له ثم يبدأ مباشرة بالعمل. لم يكن يستطيع العمل كثيرا، لكنه كان يقـوم بعمـل غطاء لبراد شاي وربما اثنين فقط ثم يقفل الدكان إلـى يـوم الجمعة التالية ويعود إلى بيته. لا يقوم بذلك لبيعه فهو يعلـم أن لا أحد سيحتاج إلى ذلك الآن، لكن يده يناديها النحاس.

تجلس قموش كل يوم جمعة على سـطح بيتهـا تنتظـره وحين يمر الصغار ينادونها:

- قمووووش

ترد عليهم:

- واش تبغون، بلكنـة تتكسـر فيهـا اللهجـة العربيـة فيتضاحكون عليها، وهي تردد بنفس الصوت وكأنه صـدى

لأصواتهم يرتد إليهم وها هي لا حيلة لها غير هذا الصـوت الآن.

نظر محراك إلى إسحاق بغضب ودخـل غرفتـه، تبعـه إسحاق مندهشًا لكنه لم يستطع أن يتساءل، كل ما قاله: اليوم فيه جمعة عند ربيعنا إلماس.

لم يتكلم محراك، لكنه استلقى على الفراش شابكًا كلتا يديه وراء رأسه ناظرا إلى سقف الغرفة الذي انفتح أمامـه مثـل بوابة الحصن، وخرجت له عمته، أمسكت بيديـه ودخلـت السقف، انغلق السقف مرة أخرى. حين انتبه نظر كان راشد منشغلاً بوضع شريط في المسجل الموضوع أمـام المـرآة ووجهه في المرآة مقابلاً لوجه محراك وهـو يجلـس علـى السرير نظر إلى تفاصيل وجهه بياضه هو أيضا لـم يكـن عبدا، أمه ريحانة صفراء قمحية ليست جميلة لكنها ذكية.

هو ورث صفارها وعنف تعابير وجهها وأيضا ذكاءهـا، أما نصور فقد ورث بياض أبيه وهدوءه وصـمته واتـزان جسده، أما محراك فكان أشبه بخيال مآتة وضع فـي حقـل ألغام، من يقترب منه ينفجر معه إلا الطيور والغربان التـي تنقره وتتآلف معه بالرغم من هلعها.

الطيور والغربان التي مثل إسحاق، أما عمتـه فالوحيـدة التي تأتي له في هيئة ملاك أو شيطان لتفرغـه مـن القـش وتنفخ فيه حتى يطير، ويصبح هواء.

- ٤ -

كانت عمته تحبه، تشتري له كل ما يريده وأيضا تعاقبـه وهو لا يرى غيرها، لا يرى ابنتها التـي تكبـره بسـنوات ويمكنها أن تلعب معه، لكنه يفضل أن يظل بجانـب عمتـه ككلب مدلل وحين تعاقبه يقسم بأن يعاقب ابنتها وأن يضربها أو يجذب شعرها. لم يفعل كل ذلك لكنه يقسم فقـط كعقـاب لعمته.

حين وصل نصور كل دلع العائلة وجه لناصـر الجميـل الصغير الهادئ الذي دخل إلى العائلة وهم بحاجة إلى شـيء جديد. ظل كل من بالعائلة يهتم بنصور يصـنع لـه الأكـل ويحمله إن صرخ أو بكي ويعنفون محراكًا إن اقتـرب منـه وأزعجه ويهشون عن وجهه الذباب.

تدليل محراك مختلف تماما عن تدليل نصور، لهذا حـين كبرا معا لم يتفقا أبدا كان كل منهما في طريق مختلف. كان نصور يرى محراكًا كشيطان ومحراك يرى نصورا وكأنـه

ضمير متضخم وكان يقول له: أنت لم تعش الحياة من أولها. أنت أتيت في النعمة، نعمة وجودنا أحرارا تتحـرك دون أن يكون داخلك العبد الذي في داخلنا أنت مثل أبيك، وحدك مثل أبيك أما أنا فمثل ريحا...، عمتي

نظر ناصر إلى مكياج محراك وقال له: - واضح

افتعل محراك من تلك المناقشة الحادة مادة للعراك، بداية بالألسنة، ثم بالوسائل، ثم بالأيدي لكن ناصرا لم يكن بـالقوة التي يمتلكها محراك، هو يعلم أن الشر هو محراك لذلك كان يتحاشى كثيرا الوصول إلى عراك حقيقي بينهما، ولهذا حين حاول إسحاق أن يترك المسجل ويفضـل العـراك تخلـص نصور من يد محراك وخرج مغلقًا الباب وراءه.

- قوم نطلع، قال إسحاق لمحراك، اغتسل محراك وغير ملابسه وخرجا معا.

كانت هناك مسافة حقيقية بين جسم محراك في تفكيـره، وقدرته على ترجمة هذا التفكير.

الزمن أصبح لديه سهما نافذًا وليس لحظات متقطعـة أو خيطًا يلفه كدائرة حول إصبعه ثم يفرده مرة أخـرى مثلمـا تفعل ريحانة.

الحياة تفترض المتعة، إذن ليتمتع عن طريق تدمير نفسه من خلال الخارج، وبشكل قاسٍ، لدرجة لم تعد لديـه معهـا ذات خاصة أو عامة، كل محاولات إثبات الذات كمؤشر قوي تفترض وجود هدف. ثم ماذا بعد ذلك الإثبات هـذا مـا لا يعرفه. فوجوده عائم، خفيف دوره ليس له ثقل عام، لكـنهم جميعا منذ طفولته كانوا يفتحون له مساحة للإرضاء سـواء رغب في شيء أو لعدم تجريحهم في حبهم. محـراك فـتح مساحة كبيرة للإرضاء من خلال الاعتـراض الـدائم مثـل ريحانة تماما، تعترض على أشياء كثيرة، وترضى بالقهر في مقابل الحب. لكنه وبعد هذه السنوات لم يجـد سـوى ذاتـه وقبض الريح، لا شيء في يده، تجربته مشـروطة بأسـس نجاحها داخله. وقدرته على السخرية تجعله مسيطرا بـالقوة، أما ناصر فمهيأ للإنساني بشكل مفتوح ولهذا ربما كان فريسة لأنه يمارس على نفسه الصمت غصبا عنه.

بذرة عائلية محبة في أرض متحجرة تملك بنيـة مـدمرة بهاجس تكوينها، بذرة لم يعش تكوينها، لكنه يـرى واقعهـا مباشرة. لذلك يثور على هذا الوضع بتدمير ذاته أولاً.

يلفونني بالعلم أنا وابنة عمي ثم أترك الوطن. تلبس هـي علم بلادها فيموت والدها في السجن داخل الوطن، وألـبس علم مصر فأترك الوطن وأذهـب إليهـا.. كانـت النداهـة تناديني. يشد أخي يدي من بين الجموع لأستقر فـي سـيارة مرفوعة على الأكتاف.. ينقذني أخي، ويموت في سيارة على طريق يؤدي إلى الوطن. وتسحبني يد العلم إلى مصر التـي التف بعلمها وتبدأ الهزيمة، أجد الشهداء تلتف أجسادهم بذات العلم، علم مصر الذي لفوني به من قبـل. كانـت هزيمتنـا صغيرة بحجمي وكانت هزيمة مصر كبيرة بحجم شـهدائها. شرف الوطن في الدم المراق حوله وأعود إلى المكان علـى سبيل الحنين فقط.

نظر إلي هادف وهو يسألني عن مفهوم الوطن.. كانـت أمي تنام وبجانبها راديو صغير وعبد الحليم يغني " نبتـدي منين الحكاية ".. ضحكت وقلت له: - عبد الحليم مات مـن زمان.

ثم أردفت: - أريد أن أكتب سيرة عبدة من خلال العـالم القديم منذ الستينات إلى الآن، أكتب عن العالم الهامشي الذي

ينمحي من الذاكرة رغم أن العبودية ألغيت. لكن هناك حالات تصل إلى أقصى صراع وجودي، ريحانة مثلاً لم تكن تنظر إلى المستقبل كحلم، ما ينفتح أمامها هو الماضي، كل ما هو ماض يتجلى ويتضح وتستمتع بتذكره، الماضـي المـرتبط بالمكان لهذا أرادت العودة لأن الحاضر في حضن ماضـيه، أما القادم فلم تعرفه إلا من خلال ذكرياتها، وسيأتي من خلال الاستقرار والعودة والحب الذي سيجعل للاستمرار إمكاناته، من هنا كان الحسم في العودة انتصارا لها على كل تعقيـدات حياتها، العودة إلى العبودية هذا التوافق بينها وبين الرجوع.

قال لي: - مهم أن تكتبي عن خصوصية حالات تصـل إلى أقصى صراع وجودي لها وكل حالات هـذا الصـراع تؤكد وجودها وحركة الانفجار في الأعماق.

فقلت له: - سأكتب عن الحرية التي نحلم بها وهي قيـد آخر.

- المهم الهوية، كل الكائنات في السيرة لها نفس التأثير.

- لا.. أنا أريد أن أكتب عن ازدواجية الشخصية.

- أنت ترصدين عوالم شبيهة بعوالم البطلة، يمكنـك أن ترصدي أيضا التغيرات الاجتماعية والسياسية الحادثة ومدى

تغير الطبقات زحزحة القيم بين السادة والعبيد المهمشين، بين المواطنين والوافدين المقيمين والوقوف عند صعوبة التعايش بينهم.

- هذا موضوع كبير أنا أريد أن أكتب عن الصراع مـع المحو والمواجهة القدرية مع الذات، هذا ليس تحولاً طبقيـا إنما تحولات ممسوخة ومفصولة عن طبقتها أساسا. من ينجح في هذا النموذج ينجح من خلال إعادة بناء نفسه، أما الباقون فيعانون من عدم الانسجام مع الذات، ذواتهم.

- من الأفضل أن تكتبي البطل والبطلـة كلسـان حـال البشر، قيمة، زمن..

- أريد متاهة بلا نهاية لأن فوضوية الكون تجعـل مـن العبث الوصول إلى شيء. الوجود مخيف وسـيطرة المـال عنصر مفسد لأيديولوجية الاختيار.

- لابد أن يكون هذا دون كتابة تاريخ مهزوم أو ذاكـرة معادة.

- ماذا أفعل إذن، توازن...؟

- سأكتب عن التحول من العبودية إلـى الحريـة لكنهـا للأسف حرية منقوصة، ظل العبودية كامن فـي الأعمـاق،

تتشوه فيها أفكار فعالة. الطموح قوى وفرصة بنـاء الـذات الجديدة والقوية مطروحة، لكن الهدف كان هـو الاعتـراف الاجتماعي فقط فتتقلب الحياة مثل جورب.

- نظام متآكل أساسا ومع ذلك يحاول أن يظـل لأطـول فترة قبل انهياره. منجز السيرة لا يبدو مشجعا هكذا لابد من حتمية الصراع والتغيير والتي تفرض نفسـها. فـي القـرن الماضي كان الاستعمار وتم التحرر منه، الآن تقـدم العلـم وتراجعت الأيديولوجيا، على كل يمكنك أن تقسمي السـيرة إلى قسمين سياسة التشويه وبناء الشخصيات.

- لقد تبدلت المفاهيم وأصبحت الفردية هي التـي تعمـل وليست الجماعة، قرأت عن العولمة ما يعرفها بأنهـا فقـدان الكائن لاتجاهه والمجتمع لانتظامه والاقتصاد لنظامه، بل هي فقدان الشأن السياسي لصدارته وأولويته من جراء الشـبكات الإلكترونية التي جعلت علاقة البشر تتغير.

- زي ما قلت حتمية التغيير تفرض نفسها، فـي القـرن الماضي كان التوسع الاستعماري والتحرر منـه. الآن تقـدم العلم وتراجع الأيديولوجيا، محراك مثلاً زي ما بتحكيلي عنه نسبة كبيرة من تعامله مع الآخر فـي الخـارج أيـا كانـت

صورته عبارة عن أداة يستخدمها ليستهلكها والشيء الـذي يوصله بها الأداة، يوما كانت السكين ليخاص أخـاه، ويومـا المرآة وانعكاس صورته فيها كأنثى بـالرغم مـن القسـوة الموجهة تجاه الآخر في الخارج وتجاه استهلاك جسده فـي نظام آخر، تعلقه بأن يكون امرأة في المرآة ربما كان تاريخه يقدم إجابة سببت له نوعا من التوجه الداخلي ضد فرصته في الحياة بشكل طبيعي، لم تكن لديه أدوات للرد على الخـارج هو في الداخل ضعيف، مغترب عن وعيه بذاته، يمسك بيـد عمته وهي تسيره معها، الآن هو وحيد ومن ثم لجأ إلى العالم طبقًا لشخصيته باللجوء إلى حماية أو انتهاك ما أو اسـتهلاك النظام القديم.

- انتهازيته لم تكن موجودة بقصد وجودها لكنها بقصـد ثقل الماضي عليه، آليتها زمن يحركها والحصول على فكرة وجود نفسه من جديد غير متحكم فيه من الخـارج. منطقـة معروفة وسهلة بالنسبة له تصبح أكبر منطقة صالحة للهروب منها، وأصبح رد الفعل لديه لا يختلف عما حدث من قبـل، أي أنه رد فعل لفعل سابق. فعله كمرحلة لابد من المرور بها لعمل اتزان ما بين الفعل. ورد الفعل، الجريمة لديـه فكـرة

مبكرة بها عنصر كامن داخل شخصيته لا يسـتخدمها لكنـه يحاول مسخ هذه الشخصية في الخنوثة.

أما نصور فلم تكتمل شخصيته ولا مشروع حياته، لأنـه يعيش الفكرة كطاقة داخلية أكثر منها كطاقة خارجية ومن ثم يستنفد طاقته الداخلية، والتي تقوم على عمل خارجي مستمر يستنفدها في جزء غير مكتمل من العمل، ومن ثـم يكـون الجهد المستنفد داخليا أقوى بكثير من الجهد الخـارجي بـلا حلقة وصل، ربما هو جهل بالحيـاة فـي الخـارج. حياتـه مأسورة بزمن أعاشه الآخرون فيه. رغبة الحياة أكثـر مـن الحياة ذاتها هكذا كانوا يعيشون وكأن الحياة لحظة.

مراكب زعفران وعود

- ١ -

عند إلماس لاحظ محراك عدة طبـول موضـوعة علـى جانب الجدار، كان إلماس يتكلم في الهاتف بصـوت عـالٍ وضحكاته منفلته من فمه، تتردد في أرجاء الغرفـة كأنهـا طبول تدق، كان يتحدث مع امرأة ما، لكنه يتحـدث معهـا بمحبة عارمة هل هي أمه أم صديقته أم ماذا...؟ كان يـدخن وأمامه كؤوس ممتلئة بالخمر، دخل إسحاق ثم أشار بالسـلام وجلس على الأرض أمام الطاولة، وبدأ في صب كـأس لـه وأخرج سيجارة أشعلها، وبدأ يحتسي الخمر ويتقاسم ضحكاته مع إلماس وقف محراك بعناد أمام الباب نظر إلـى إلمـاس، للطبول، للخمر وجال بنظره داخل الغرفة، حتى شده إسحاق من يديه فجلس بجانبه صب له كأسا فشربها مرة واحدة ثـم ثانية ثم ثالثة، لم يكن في حالة جيدة كي يدخل معهما حالـة الضحك والبهجة أشار إسحاق لمحراك على الطبـول التـي بجانب الجدار وقال: هذه طبول الفرقة، الطبل الكبير اسـمه الرحماني الأكبر والطبل الصغير هذا اسمه الكاسر. أمسـكه

واخذ يدق عليه وهو يغني ثم قفز إلى " منحاز " القهوة يـدق فيه أيضا وقال: وهذا الهاون وهو يستخدم بدلاً من الصاجات مع التصفيق. بدأ يغني ويهتز بكامل جسده وهو يميل مـيلاً خليعا تارة على إلماس الذي يلامس بيده بعض جسده كلمـا اقترب منه، وتارة على محراك الذي ظـل يبتسـم ويشـاهد المشهد باستمتاع غريب وابتسامة بدأت تظهر على وجهـه. سأله إسحاق: - شو يا محراك ما تعرف تتشمت وتزفن...؟ " ترقص بشكل خليع وتغني " فظل محراك مبتسما، حين أقفل إلماس الهاتف سلم على إسحاق ومحراك وبدأ حـواره مـع إسحاق:

- وينك ماحد شافك من أيام...؟ خموس تسأل عليك وقلت لها بتيجي ويايه اليوم، عندها عرس وتبغينا وياها.

- حاضرين. رد إسحاق

قال إلماس بعد أن نظر لإسحاق بطرف عينه:

- هات محراك وياك

- حاضرين. رد مبتسما ومنتظرا من محراك أن يوافـق أو يرفض.

لم يعقب محراك كان ما زال مندهشا من إلماس هذا العبد الطويل العريض الذي ينم شكله عن احترام تام لكنـه فـي لحظة ضحكته يتحول إلى شخص آخر شـخص لا يعـرف بماذا تصفه.

- ٢ -

كانت خميسة صاحبة الفرقة، فرقة المعلاية، لديها أكثـر من امرأة ترقص وتغني والأخريات يشلان عليها، أي يتعاقبن الغناء والقصائد المغناة وكان لديها الكثير من الذكور أيضـا يرقصون أحيانًا مثل النساء أو فقط يهـزون أكتـافهم فـي لحظات الانتشاء، والأكثر هم من يدقون الطبـل ويصـفقون ويرددون الغناء.

خموس هذه، سوداء داكنة السواد سمينة بحيـث يعوقهـا وزنها عن الحركة، وهي امرأة تعدت الخامسة والخمسـين. حركتها بطيئة تجلس، على يمنيها صف من فرقتهـا وعلـى شمالها صف آخر وأمامها اثنتان في الوسط ترقصـان بهـز أردافهما، وفي لحظات النشوة تقومان بحركات خليعة. وفـي لحظات أخرى يقلد أحد أفراد فرقتها حركات النسـوة بهـز

أردافهن ومؤخراتهن، مما دفع حاكم المنطقة في فترة ما إلى منع نشاط هذه الفرق في منطقتـه، لكـن بعـض المنـاطق الأخرى كانت لا تمنعه، مما جعل خموس وغيرهـا يـتجهن إلى هناك لإقامة حفلات الزواج أو الاحتفالات الخاصـة أو بعض الحفلات العامة وإن كان ذلك في القليل النادر.

كانت إحدى المغنيات تنشد في دخول محراك وإسحاق:

" وا   لابني قصر للوالدة خموس

وا   لابني قصر غم على الحسود

وا   لاشحن مراكب زعفران وعود "

وإلماس بجانبها يدق بأقصى طاقته علـى طبلـة كبيـرة مربوطة في عنقه وبجانبه أحدهم يحمل مزمارا ويـنفخ فيـه فترد خموس بصوت أكثر خشونة ودربة:

" أول شريت الهوى واليوم بابيعه

شروات زين المعاني خان بربيعه ".

تذكر حين كان جده سعيد يحكي أمامه عن الفرق العمانية، فالمعلاية من أصل عماني انتشرت في الإمارات الشـمالية.. فرق من المواطنين وبها عمانيون أيضا. أغلبهم من الرجـال الذين يلبسون ملابس نسائية وعادة ما تكون أصولهم غربية،

كل فرقة لها مسئول أو مسئولة تسمى " الماما " أو " البابا "، أما أغانيهم فهي معروفة لكل الفرق، لكن بعضها يبدع أثنـاء الغناء على نفس الألحان المعروفة أيضا..

يقومون بأداء المعلاية في الزار، والأعراس، وأوقات دق الحب " القمح " في المواسم، أو عند عودة الصيادين كاحتفال بهم، وفي مناسبات الختان، والنذر، وعودة المسافرين. حكي له عن احتفالات عودة الغواصين وكيـف يسـتقبلون عنـد الشاطئ بالغناء والفرح والبكاء أيضا على المفقـودين مـنهم فكيف يمتزج الفرح بالحزن بالغناء.

وكثيرا ما كان يتم في الغناء المدح أو الهجاء كتحد للفرق الأخرى.

سميت بالمعلاية نسبة إلى أول فرقة أقامتها أم علاية فـي عمان، ثم بدأت تنتشر على اسم الأم الأولى لها.

لا تقل الفرقة عن ثلاثين شخصا أما رجـالاً أو نسـاء أو فرقًا مختلطة تضم الشواذ وسيئي السمعة.

وكانت أم خماس في الزمن القديم، كما كان قد حكي لـه جده سعيد، ذات فرقة قوية في دبي، لها نفوذ قوي على بنات الهوى أو عيال الهوى.. وكان لها قوة كبيرة فإذا هرب أحـد

أو شرد من عمومته، ولجأ إليها لا أحد يستطيع أن يـرده.. وكأنها " بيت دولة " أخرى وهي أيضا تأمر وتنهي في الفرق وعلاقاتهم الشاذة المتشابكة.

أم خماس أشهر صاحبة فرقة معلاية، لكنه يعرف أيضـا أن بابا علي وماما صالحة مدية وماما خميسة سـالم وبابـا سليمان سيف لهم أيضا فرق قوية ومشهورة في دبي ومامـا جرموزه في الشارقة. وإن بن زيتون في عجمان أشهر مغني في المعلاية حيث كان مبدعا ويلحن في الوقت نفسه، يبـدع كلاما موزونًا سواء الكلام الشعري أو الخارج أي الذي بـه بوح.

ترددت أغنية " أم كلثوم " في أذن محراك:

" الأوله بالغرام والحب شبكوني، بنظرة عين

والثانية بالامتثال والصبر أمروني، وأجيبه منين

والثالثة من غير ميعاد راحوا وفاتوني، قولولي فين أقابل حبيبي "

كان قد سمعها للمرة الأولى حين ذهبت ريحانـة إلـى أم عايدة التي تبيع الذرة أمام مدرسة طفلة العائلة والتي تعرفت عليها في رحلاتها اليومية وانتظـار عمتهـا شمسـة حـال

خروجها من المدرسة وحديثهما المشترك حول الحياة والأزواج، ومن ثم القاهرة وكيف ستعرفها عليها والحشيش الذي كانت تأتيها ببعض سجائر ملفوفة منه، وعندما بدأت ريحانة تأتيها ببعض سجائر ملفوفة منه، وعندما بدأت ريحانة تطلب أكثر منه عرفتها على صنعو السنهوري زوج بسيسة جارها الذي يسكن البيت ذاته، عزمتها عندهم على غداء واتفقتا أن يتقابلا هنا أمام المدرسة ويذهبا معا وذهب محراك في يد ريحانة، دخل الثلاثة شارع التبليطة الكائن خلف جامع الأزهر، مالت أم عايدة على رجل يقف على نصبة شاي استقبلها ببشاشة سألته عن صنعو وعندما أخبرها أنه سبقهم إلى المنزل عادت إلى ريحانة قائلة:

- ده خليل أخو صنعو بيبيع الشاي والحشيش.

ضحكت وهي تقول: - نصبة الشاي دي، بيداري وراها الحشيش المازوق في لوح الخشب المرصوصة عليه الكبايات.

نظرت ريحانة وراءها إلى حيث النصبة، لكنها لفتت وجهها بسرعة خوفًا وهي تتساءل في ارتباك: - وشو بيشتغل صنعو....؟

في الطريق بدأت أم عايدة التعريف بصنعو:

- صنعو السنهوري ده بياع حلاوة. رجل شهم وابن بلد، بيشتغل طول النهار في محل الحلاوة عند الحاجـة جمعـة. والحاج جمعة ده راجل بيعرف ربنا وكان متجوز بنت عمـه بس دلوقتي بقى حاجة تانية، اتجوز الست زينـب.. تعرفـي الحاجة زينب دي ما خلفتش منه ولما مات ورثـت المحـل وشقة في أرض الشريف على شمال شارع العشماوي اللـي كان فيه المحل.

لم تتكلم ريحانة وظلت أم عايدة كعادتها لا تتوقـف عـن الكلام في طريقهم إلى المنزل:

- أهو صنعو بقى دلوقت بيشتغل عندها في المحل، ومنه برضه بيوزع كام سيجاره هناك في العتبة أصل التوزيع هنا بقى صعب قوي. وكان معاه راجل اسمه أبو شهبا.. راجـل بعيون ضيقة كده، كان مطرب فـي فرقـة تلـف الموالـد والأفراح، مونولوجست يعني، أصله كان كومبارس في فيلم لعبد الوهاب ولسه بيحلم يبقى مغني كبير. كان قوموسيونجي بيوزع البضائع على عجلة ويوزعها قطاعي على المحـلات بالعمولة، وبالليل مونولوجست بس ساب ده كله من يوم مـا

اتجوز واشتغل حلواني مع صنعو فـي المحـل بـس لـو تروحيلهم يوم الأحد، بتبقى كل المحلات قافلة، يقوم أبو شهبا ده يا ريحانة يقف في الشارع قدام المحل ويغنـي بصـوت عالي، تقوم الحاجة زينب تشخط وتنطر وهو ولا كأنه هنـا، ست قوية خالص شغلت المحل هي واتنين من إخوانها بعـد موت جوزها، كان عندها اللهم احفظنا دوالي فـي رجليهـا وبتلبس شراب طبي وكان عنـدها فـي المصـنع، مصـنع الحلويات اللي قدام المحل شيال إنما أيه مرمطـون. شـيال وبينضف ويجيب الطلبات والخضار وكل حاجة، جابته مـن البدرشين، كان رفيع قوي وأبيض قوي وشعره ناعم كمـان بس بيحلقه على الزيرو، عشان النظافة يعني، وكان يومـاتي يشيل شوالات السكر والحمص والفول السوداني والسمسـم لزوم المصنع. وكان بيلبس جلابيته على اللحـم، يـاختي ده لوحده فيلم. كانت بتعمل فيه عمايل سودة تضربه علـى أي غلطه وتهينه وتقوله أنت مش راجل، كل شوية تديله علـى دماغه وتبقى عاوزه تمحيه من على الأرض قدام الحلوانيـة ولما تيجي تروح يوصلها لحد شقتها ويدخل معاهـا أوضـة نومها وتسيبه يقلعها الشراب، أصل لبسه وخلعه صعب قوي،

أهو بقى فكري ده كل يوم يخلعها ويلبسها الشـراب وهـي محتاجة له قوي بس برضه مش ساكته له، اضـحكي بقـى، مرة جه لصنعو وهو مكسوف وسأله، قاله: - يا عم صـنعو الحاجة بتخليني أخلعها الشراب وألبسه لها كل يوم ولما آجي أخلعه لها تلم رجليها جامد وتقولي بشويش وبعد كـده تقعـد تشتم فيه وفي اللي خلفوني والنبي قولي ده حرام والا حلال. آل مالاقاش غير صنعو يسأله حلال والا حـرام ده قمرتـي وبتاع كوتشينه وحظ، بس الحقيقة مش بتاع خمرة وشـرب وحشيش. هو صحيح بيتاجر فيه بس ما بيلمسهوش.

نظرت ريحانة بحدة إليها فتداركت سريعا قائلة:

- ما أقصدش ياختي وا ، ده حتـى الحشـيش أعشـاب ومش حرام، تعرفي قاله ده يبقى حرام لو أنت سبتها يا بنـي خليك راجل، سبع كده ومتخافش.

دخلت أم عايدة وريحانة ومحراك عمـارة فـي أسـفلها مخبز. اشترت أم عايدة بعض الأرغفة. أمام الباب في الدور الأول كانت تقف امرأة سمينة جدا وبيضاء. سـمنتها تشـبه خموس لكنها بيضاء، وبدلاً من دقها على الطبل كانت تحمل أرغفة دائرية تضع فيها فولاً نابتًـا وأخـرى أرزا ولحمـا،

حواجبها مثل خيط رفيع جدا وشعرها مبتل ومفـرود وهـي تلبس قميص نوم أسود " لاميه ". حين كانوا عند باب العمارة نظرت أم عايدة لأعلى وجدت غسيلاً منشورا فـي الطـابق الأول عبارة عن ملابس داخلية نسائية ورجاليـة. زغـردت بصوت عالٍ وطلعت أمامهم هنأت تلك المرأة وباركت لها ثم اقتربت من ريحانة وهي تقدم لها الرغيفين:

- أصله نذر من أم حسن لما يرجعلها جوزهـا، كانـت واحدة غاوياه متجوزة صاحبه، مبيض النحاس في الحسـين، واتفقت مع جوزها يطلقها وتتجوزه وتسحب منه كـام ألـف جنيه كده، أصله كسيب عنده عقبال أمالتك محل كشري فـي الجمهورية، وبعدين ترجعله، انشغل بيها وساب أم حسن لحد ما أولاد الحلال ضبطوا جوزها الأولاني معاها قاموا قالوا له وكانت خناقة لرب السما الحمد طلعوهم مـن بـين إديـه بسلام والا كان راح فيهم. المهم رجع لأم حسن وأهيه ياختي متهنية بيه وناشرة غسيلها وغاسلة شعرها، يخليلهـا سـبعها أحسن الوحدة وحدانية من غير راجل يلمها، ثم نظرت إلـى ريحانة متسائلة: - هو جوزك فين يا ريحانة.......؟

انتقضت ريحانة وأحس محراك بأصابعه تنضـغط فـي يدها، تأوه من الألم فانتبهت ومسحت وجههـا سـريعا ثـم شهقت:

- مسافر.

- ٣ -

حين وصلا إلى الدور الثاني كان على الباب يافطة عليها اسم صنعو السنهوري. فتحت فتاة في الخامسة عشـرة مـن عمرها الباب. كانت جميلة ونحيفة وتربط يدها اليمنى:

- اتفضلوا.

قالت أم عايده لأنهار وهي تهم بالدخول:

- هي إيدك اليمين النهارده....؟ طب سلامتك يا جميل.

ابتسمت أنهار وقالت:

- ا يسلمك.

نظرت أم عايدة لريحانة وهي تقول:

- آهي كل يوم على الحال ده كده. تربط إيد مـن إديهـا وتخرج تتقصع في الشارع عشان الرجالة تعاكسها ويقولـوا لها سلامتك يا جميل، بت صايعة من يومها.

مرة جبت واد مش معبرها، حطت بين صوابعها دبـوس وسلمت عليه قام غزه في إيده ولما صرخ قالت له ما أنـت أهو بتحس أمال مش حاسس بي ليه.....؟ شايفة بنات الأيام دي يا اختى.

دخلت عليهم بسيسة أم أنهار.. زوجة صنعو، وفي يـديها حلة محشي وهي تقول مش حتمر عليها السـنادي والنبـي لأجوزها وأخاص منها، دي مطلعة أيمـاني. نظـرت إلـى ريحانة وقالت: إزيك يا ست ده احنا زارنا النبي النهـارده، ونادت:

- يا صنعو تعالى فيه ضيوف عندنا.

أطل صنعو من وراء باب غرفة الضيوف المغلق وعندما رأى ريحانة قفز مرحبا بها وبابتسامة قال لها: يا أهـلاً يـا أهلاً بالعرب....؟

كان منزلهم عبارة عن غرفة وصالة. الغرفة للنوم وأيضا للتخزين، كانت مهنة صنعو الأساسـية أنـه مخزنجـي، أي يخزن الحشيش ويـؤجر تخزينـه بـاليوم، ويعتمـد علـى ناضورجي في أول الشارع فإذا ما حضر البـوليس أو مـن يشتبه به يخبره بسرعة كي يتخاص منهـا. أدخلهـم غرفـة

الضيوف وكان بها مجموعة من الرجـال والنسـاء، كانـت مأدبة لتغطية تجارة الحشـيش فهـم يخـافون أن يحملـوه ويخرجوا من الباطنية، لذلك يأتون ويحششون ثم يعودون.

سمع محراك لحظتها، حين فتحوا المذياع، أم كلثوم وهي تغني:

" الأولة في الغرام..

كان اللحن والموسيقى في " المعلاية " شـعبين عكـس " الليوا " التي تعتبر دخيلة والتي أتت من أفريقيا ومـا زالـت فيها أغان ذات كلمات أفريقية سواحيلية أتـت عـن طريـق البوابة العمانية أيضا وانتشرت في كـل الخلـيج والبصـرة واليمن.

أما " الحربية " و " العيالة " فهي عربيـة يـرقص فيهـا الرجال ومن الرقصات التي في الخليج أيضا " الهبـان " و" النوبان " و" اللارو " وهي رقصة بلوشـية و" الـيلال " و" الوهابية " و" الرواح " التي اشتهر بها الشحوح في الجبال.

دق الطبل بصوته العالي وتحركت المجاميع، انتبه محراك لصوت خموس ووراءها الفرقة كلها.

" خطبناها من القبلة وجينا

شعاع الشمس يا نور المدينة

خطبناها والمعرس وراها

يجلب حظيتها بأيديه اليمينه "

في الزفة، بحث محراك عن إسحاق وعن إلماس لكنهمـا كانا منشغلين في طقوسهما ورأى محراك إسحاق ينتفض مثل سمكة وهو يرتعش، لم يفكر للحظة من قبل أنه مخنث. لـم يلاحظ ذلك أبدا لكنه اليوم يراه، يراه فعلاً هكذا هو وإلمـاس وكل هذا العالم، عالم الفرقة والعالم السفلي.

سبع ليالي وليلتين وليله

حتى وصلنا دار أبوك يالزينه

من باسها العرسي ومن سطر اللولو على رأسها

سبع ليالي وليلتين وليله.

حين رجع إلى البيت كانت ريحانـة نائمـة فـي غرفـة المعيشة منكوشة الشعر أمامها عدة كـؤوس وعلـى الأرض

تنام خادمتها مع أخته الصغيرة أما والده فكـان نائمـا فـي سريره مطمئنًا، لم ير نصوا ولم يلحظ اختفاءه أيضا ذهـب إلى غرفته، أغلق بابها وحاول أن ينام. كان شـكل والدتـه وهي نائمة يذكره بها حين أخذت لأول مرة إبرة مخدر. حين ذهبوا إلى شقيق صنعو صاحب نصبة الشاي الـذي أخـذهم معه إلى مكان جوار سور الأزهر إلى مكان يسمى سبيل أبي الدهب أمام وكالة الغوري، دخلوا خرابة مظلمة بهـا رجـل وفتاة شمرت الفتاة يد ريحانة وأمسكتها بقـوة بينمـا حقنهـا الرجل بالمخدر في الظلام ثم عادا إلى البيـت، حملـتهم أم عايدة إلى أول الطريق وأشارت لتاكسي وتركتهم يسـيرون باقي الطريق إلى المنزل.

" من كده يمينه ، عرس المعرس

يعل ا يعينه ، عرس المعرس

ما خذ نبيه، وعينها نجمة سهيل

ما خذ نبيه، وراسها يربط الخيل "

أحست ريحانة أنها قادرة حتى على القتل، حالة من القوة والشراسة، والإحساس بالذات. جعلها تفتعل مشاجرة عنيفـة مع عمتها وبدأت في تحطيم كل شيء ثم نامت منهارة علـى

كرسي في غرفتها في السطح كما هي اليوم نائمة كان ذلـك آخر يوم يتذكره محراك قبل سفره من هناك.

- ٥ -

في بيت صنعو، مروج المخدرات، يسمع أم كلثوم، وفـي فرقة خموس يسمع شعرا جميلاً وكلاما سخيفًا وفـي منـزل العائلة يسمع طلال مداح يغني:

" حبك سباني و أنا جسمي نحل
والوصل اللي يودك ما حصل
ما يحق لك يا قمر مني الزعل
توعد وتخاف ويزداد العني
أنا أتمنى أعانق شلحتك
والباب مقفول جوا غرفتك
أنادمك ثم أشرب قهوتك
وأقول عش يا سرير ضمنا"

المفارقة تسعده تماما. يرى أمه تصعد إلى غرفتها متهالكة لا تعي شيئًا. جلس محراك وناصر صامتين لا أحـد منهمـا يتحدث إلى الآخر لكن بينهما هناك حوارا خاصا لا ينطقانه.

نصور يعلم أن محراكًا بدأ في الرقص والغناء مع فرقة خموس ويعلم أنه يرتب لتأسيس فرقة خاصة اتفق على إنشائها مع إسحاق وأخيه وإلماس وآخر أتى من عمان كان يطيل شعره إلى كتفيه ويصبغ وجهه ويضع ألوانًا على أظافره الطويلة، يتكلم بميوعة شديدة ورقة كاذبة ويبدو مستفزا بطبعه.

ألوان الطيف

- ١ -

هم نصور بالدخول إلى غرفته ليلاً. وجد إضاءة حمـراء تضيء غرفة محراك وجسدين عاريين متعـانقين لـرجلين أحدهما أخوه. لم يلحظ دخول أحد إلى البيت، قد تسال أحدهم إذن. ظل منكفئًا على نفسه فترة طويلة. وفي مرة أخرى حين أحضر محراك معه فتى صغيرا حاول اغتصابه وحين رفض واستغاث هدده بمسدس حبيب الذي أخذه من الجيش ولم يعده بعد استقالته لولا أن تدخلت صالحة وكانت في زيارة ريحانة وأخذت تهدد وتتوعد بصوت عالٍ وتحلف على محـراك أن يعيطها المسدس ثم أشارت للفتى أن يغادر المنزل سريعا قبل أن يستعيد محراك غضبه مرة أخرى قال لها الفتى:

- يا خالتي أنا مب مال جذي، أنا جيـت معـاه أشـوف الطبول والمزامير اللي اشتراها للفرقة وبس، ارحميني منه.

نظرت صالحة إلى محراك بغضب وقالت له:

- اترك عيال الناس في حالها، مب كل العيال مثلك أنت بغيت تكون جذه، لا تطلع عقدك على غيرك، يا أخي خـاف

ربك والزم حدودك والا تراه بيخبر أهلـه وبيقتلونـك أنـت وأهلك، شو تتحسب الدنيا بدون حساب، دور لك على لباسك وعلى إللي مثلك.

لم تتكلم ريحانة بل حاولت أن تثنى على كلام صـالوحة. رفعت رأسها الثقيل ونظرت إلى الأفق نظرة عميقة وطويلة، هزت رأسها وهي ترى محراكًا يقدم بخطى هادئة نحوهـا، جلس بجانبها لكنه تحول إلى وحش غامض، ثم إلـى طفـل صغير ابتسمت له ونظرت بعمق، لم يبق لها غير تلك العين ذات النظرة العميقة..

كان لابد أن تجري الأمور هكذا وإلا لماذا ظلـت تائهـة وهو في المرآة ذاتها يضع ألوانًا على وجهه بينمـا مسـدس والده في الدرج الأخير من الدولاب، تحت ملابـس والدتـه الداخلية.. وحين مات حبيب بحث عنه نصور طـويلاً فلـم يجده، ارتعشت مفاصله وظن أن أحداً قد سرقه إلى أن ظهر في يد محراك اليوم.

وها هو محراك يدخل غرفه ويغلقها ويظل عصبيا يكسر كل ما يقع تحت يديه، يأكل ويشرب ويرقص ويعـيش مـن

المساء إلى الصباح حياة لهو ومتع.. في الصباح يتحول إلى شخص عادي، شخص آخر، رجل.

في الفرقة كانت العلاقة بين إسحاق وإلمـاس وغيرهمـا علاقة شراسة غير عنيفة لكنها لا تفشي سرها. تكونت بينهم علاقة شبه عائلية، إذن هذه هي عائلته البديلـة الآن، عائلـة المساء.. يتبادلون فيها الأدوار، وتصبح العلاقات علاقات بها شبه استمتاع جمعي حتى وإن كان ناقصا. هي علاقات تنشأ أساسا من الشعور بالاحتياج الكامل روحيا، ونفسيا إلى درجة أنهم لا ينظرون إلى العايب أو المعيوب هم جميعـا كـذلك والرقص لديهم فعل إشباع، إرواء لرغبة إهدار روحي.

اليوم نصور يراه عاريا تماما من كل ألوان الطيف كمـا كانا صغارا وتحممهما ريحانة في حمام واحد، وهو يعلم الآن أن محراكًا يحاول الاعتداء، لأنه يريد انتهـاك العـالم مـن حوله. ناصر ليس حظه أفضل من محراك لكنه يبحث عـن حبيب وحيد مثله، عمن يتعامل معه بهـدوء ودون صـخب، وأن يكونا في الحياة شركة متساوية الحقوق والواجبات. لكنه يعلم أن المرأة لا تمثل له الكثير. كان يحب ابنة صلوحة، قال له محراك:

- طبعا لازم تحبها، خاصة أن أمها كتبت لها الكثير مـن أموالها.

لكنه كان يراها كما يرى عالمه الساخط والمشوه وكـان يبحث عن كينونة من خلال الدين. حين طلب الزواج منهـا وتزوجها بعد وفاة صالحة ترك المنزل وذهبا إلـى بيتهـا، كانت لا تزال صغيرة لكنه تزوجها وكان يرفض أن تتحرك من بيتها، رفض أن تتعلم، أن تزور أحدا، أن تفتح أي شباك، أن تذهب إلى أي مكان دونه، رفض أيضا أن تـزور أهلـه دونه خاصة إذا كان محراك هناك وكانت هي تبحث فقط عن رجل يضمها بعـد أن علمـت بحقيقتهـا. كلاهمـا مشـوه ومشروخ، يحاولان فقط أن يبدآن من نقطة مختلفة ويسيران بخط واحد على أن تتحجب.

وكان كلما رأى رجلاً ينظر إليه كان يدق قلبه ارتباكًا. لا يتحدث كثيرا ويلازم المسجد أو البيت. خصوصا بعد مـوت حبيب والذي كان يجد فيه مـلاذًا مـن إرث تلـك الأسـرة الخائب.

- ٢ -

قال له محراك:

- نفس أحاسيسنا على الدوام، أنت تهتم بصورة تحبها لي، تحب هذا المعنى الخاص بالرجولة والذي يمكنني أن أقدمه لك لكنني لا أحبه. أنا حين أنهض كأنني أخرج من قبر، أضحك كأنني طائر لكنك لا تصل إلى ما أفكر فيه، أنت تأخذ الخارج، يمكنني أن أتهيأ لك خارجيا.. وكان يقوم بأداء كل مشهد وكأنه على خشبة مسرح، يرفرف بيديه كأنها جناح ثم يقف رزينًا وعلى ملامحه بعض الجدة مخلوطة بالحزن حين يقول: - أما داخلي، الغائر، فلا أحد يمتلكه ولن أفشيه لأحد حتى لنفسي.

كان على ما يبدو يرى أن الناس يوجد بداخلهم أشخاص تحب الخديعة وأن يلعبوا أدوارهم بسذاجة، ويرتاحون لمن يقدم إليهم هذه المساحة لأدوارهم دون جهد.

أردف: - حين قلت إنك بحاجة إلي، كنت أعلم أنك تمر بأزمة ثقة كاملة في العالم، أنت موروط في هذا العالم وفينا لهذا قررت أن ألبس صورة تريحك وأتقدم إليك لأكون ملجأك لكنها صورة لا تعجبني ستكون فقط لفترة لكنني

سأعود لألعب ألعابي المسلية مع هذا المجتمع.. يمعن محراك التفكير بعد أن تخلص من ثقل كلامه الـذي أراد دومـا أن يصفع به ناصر، ينظر له بعين متفحصة إياه وهو يقـول: - أفعل أحيانًا أشياء لا أحبها مثلاً أتحدث إليك بهذا الود الـذي خلفته علاقتنا المنتهية فأشبه صورتي الحقيقية دون أي حيل، لكنني لا أعجبك أيضا لأنك تضع بذرة الشك بيننـا وتظـل فكرتك عني كما رسمتها أنا وقدمتها إليك. لم تبحـث عمـا بداخلي لنلتقي أنت مثلهم جميعا تنخدع وتحب الملائكة.

لست نادما على قطع علاقتنا ولا يظل سوى خـيط الـدم بيننا.

في المرآة امرأة خليعة

كلما نظر محراك في المرآة وهو يضع الألوان على وجهه يرى ذاته كما هي ملونة. يرى عمته، ويرى ريحانة، ويرى نفسه، والمرآة.

اليوم حين عاد إلى المنزل كان بملابس نسائية خليعة يضع ألوانًا على وجهه ويطيل شعره إلى كتفيه كان عائدا من زفة عرس مع فرقة خموس، بعد أن أصبح أحد أعضائها البارزين، وها هو يتفق مع إسحاق وإلماس وبعض أخوة إسحاق وآخرين أن يكونوا فرقة مستقلة بهم مجرد فرقة مختلفة كلها رجال تلبس ملابس نسائية وتضع ألوانًا على وجهها.

حين عاد إلى منزله جلس يخطط ويخطط لهذه الفرقة وسيشتري بعض الملابس اللازمة وبعض المكياج والروائح وأغطية الوجه والرأس، يتدرب مع فرقته على نوعية الرقص والعناء والموسيقى ظل هكذا ينام طوال يومه ويسهر طوال ليله.

يراهم كثيرا ولم يهتموا به واليوم حين ينظر إلى المـرآة يعلم أن محراكًا هذا هو الوجه الذي يراه في المرآة، امـرأة خليعة لكن العالم كله لا يستحق غير ذلك.

الجزء الخامس

" الصمت بلاغة المحب والبوح عمادة المودة "

بيناوبي

كل يوم تقوم صباحا، في الفجر تنتبه، تجلس ببطء شـديد على حافة سريرها، ثم تزلق قدميها حتـى تلامسـا الأرض متثبتة بالمشاية بكلتا يديها، وتقف متكئة عليها.

تبدأ السير، تسحب قدما وراء أخرى، ثم تحرك المشـاية بصوتها العالي إلى أن تصل إلى الحمـام. تتوضـأ وتعـود لتصلي الفجر وتقرأ بعض ما تيسير من القرآن، وتنتظـر أن ينتبه أحد من الخدم ليأتيها ببعض الفطور: كوب من الحليب، فنجان قهوة، قطعة صغيرة من الخبز وبعض السمن والسكر.

تنتظرني حتى آتيها.. أمشط شعرها ونحن نتضاحك قليلاً، ثم أقبلها وأذهب إلى الجامعة مشفوعة بدعواتها لي.

حين أعود، أدخل عليها وهي ترفو ثيابها:

- كل ما أدخل عليك أشوفك تخيطين، شو بيناوبي...؟

- منوه بيناوبي....؟

- بيناوبي هاي واحدة كانت تخيط ثيابها وتفكها، تخيطها وتفكها إلين ما أجاها حبيبها.

- وأنا منوه إن شاء ا حبيبي....؟

- لا حبيبتك، أنا.

نظرت إلي بمحبة، توقفت عن الخياطة وفتحت ذراعيهـا وهي تقول:

- حبيبتي، وقرة عيني بعد.

أدخل في حضنها، أضمها وأقبل جبهتها.

هذه مريم التي تجلس هادئة مستكنة، هـي نفسـها التـي تزوجت جدي الحاكم وطلقت منه. وهي نفسها ابنـة حـاكم الحيرة الذي.. وهي التي فتحت بيتها للثوار، ثـوار الجبـل الأخضر وخبأتهم، هي نفسها التي تستقبل الأفـراد ليشـتكوا إليها من الحاكم إذا حلت بهم مظلمة، فتدافع عنهم وتشد مـن أزرهم حتى من لا يستحق ذلك.

الجميع يهاب الحاكم إلا هي، أليست خالته وزوجة عمـه وأم زوجته.......؟

مشروع قلبي

- ١ -

هادف يضع كل شيء بيدي هـو ينظـر، يـتكلم، يهـتم بالشمولي من الأشياء ويسيسها، وعلي أنا، كباقي البشـر، أن أمجده وأعمل ما يراه هو.

لماذا تتغير وجهة نظري هكذا، هل بـدأت أخـرج مـن محبته..؟ أنا فقط ألومه، لكنني كلما لمته ألوم نفسـي علـى لومها إياه.

- إنه الحب يا ستي.. هكذا همست في سري.

بدأت أدافع عن مشروع قلبي، أنا أقول إنه مشروع قابـل للنجاح مثلما هو مفتوح على الفشل، وهو يصـر علـى أن يكون قضية.

قلت له: - كل حاجة تتحول إلى سياسة، كل حاجـة لازم تبقى شيء ضخم.. مع أن الحب شيء بسيط وجميل بس يـا ريت نعرف نحب، ولما نعرف نحب، نحب بجد ونحاول أن نحققه عن طريق استمراريته، واستمراريته تؤمن من خـلال اثنين لا من خلال فرد واحد.

نظر هادف إلى الأفق رافعا رأسه بشموخ ثم أسقط نظرته سريعا علي وهو يقول: - هناك فرق بين الشيء وتأويلـه.. التأويل نتيجة لما يحدث وما يفعله المجتمع وهنـاك فرصـة للإعادة والنظر في مشروع أو قضية من خـلال التجربـة وحساباتها. فالزمن صعب بين مستوى الحلم والواقع.

قلت له: - ده مجرد سؤال عابر في الحياة، نـوع مـن الغطاء والحماية لفكرة اكبر عن التاريخ الذي لم تعشه بشكل حقيقي فيصبح فانتازي، كأنه حكاية.. إحنا دلوقت مش قضية إحنا حكاية أو تأويل.. صدى صوت مش صوت حقيقي. أنا مش قادرة ولا أنت أن ننقل حياتنا من سريتها في الشـوارع إلى إعلانها في الواقع والمجتمع، ده تأسيس لفشلنا. نؤسس له لكي نضطر للتعامل بشكل قوي مع الطبيعة، وعلشـان كـده بتأجل القرار وتحمل الحب أحمال اكبر منه علشـان يبقـى قضية، والقضية لازملها مواجهة، والمواجهة غير موجـودة لأننا بنأجلها. علشان كده إحنا بنأسـس للفشـل فـي الأول وبنخلق منه موضوع، أو بنحول الحب من رومانسية باعتبار الرومانسية حالة سلبية إلى موقف أو قضـية فـي داخلهـا

رومانسيتها الخاصة. أنا عاوزة إجابة عن سؤال واحد، لماذا نستمر هكذا..؟

كل هذا الجدل الدائم مبني على نظرية الصـراع، الشـد والجذب، النتيجة والانتصار، الحياة والاسـتمرار، تتحـول العلاقة من علاقة إلى قيمة مناقشات في حد ذاتها، وتجزئتها من خلال مراقبة الهاجس في مشهد الحياة، في القلق، أو في عدم إعلانها بل بتأملها لمجـرد فلسـفة الوجـود وتشـكيله والاستمتاع بالحالة، وبالفكرة أساسا.

في الحياة حين تفقد من تلعب معه فـي الخـارج، تعيـد تشكيله في الأشياء، أليست الطبيعة خالقة لما هو مخلوق. إذن إذا اختفى هذا المخلوق فهو ما زوال في صور أخرى داخل الطبيعة.. وما علينا سوى أن نستدعي الصور الموجودة فـي الذاكرة كمشاهد.

جلوسنا كل يوم في الجامعة، رغبتي في التحرك من كلية إلى أخرى، تعرفي على مشاهدات كثيرة، أسـئلتي، رغبتـي ونهمي في المعرفة تجعلني أسأل كثيرا، وهادف لأنه معتـاد على التعليم كان لا يمل من أسئلتي لكنه كان يتعامـل معـي

وكأنني عجينة سهل عجنها لكي يسهل عليه تشكيلها بعد ذلك، لكن هذا ما لم يستطعه معي.

- ٢ -

كانت قدرة هادف على ضبط النفس حيال الانتظار السلبي، وحيال روحي التي لا تملك حيال هذه القدرة سوى الترقب المشبوب بتوتر ينفجر كل فترة في صور عديدة.. بدايتها معرفة ما يجول في ذهنه، أفكاره السرية والتي هي مفتاح هويته.. محاولة دائما تبوء بالفشل لعدم خبرتي وعدم دخولي إليه بشكل كبير، مما أدى إلى تمزيق حالاتي العديدة والتي استغرقت مدة من الزمن لأبني غيرها على شكل نفس متبقية، نتف، وعمل شخصية جديدة، حاول هو أن يزحزحها إلى منطقة الأيديولوجيا.

وكنت حين أعود إلى البيت أجدني أمارس على نفسي أكثر من دور، مما يؤدي بي في النهاية إلى الانفصال بين الفعل والسلوك، بين الخطاب والرغبة، وبين الحلم والتحقق.

أنا بذرة عائلية في مجتمع يملك بنيته الثقافية الحادة حتى ولو كنت إنسانًا متطورا على هذه الفكرة. ولأن العائلة انتقلت

من مكانها الطبيعي إلى مكان آخر، حاولـت بشـكل حـاد ومتعسف أن تحافظ على هذه البذرة بمـا يـوائم مجتمعهـا السابق لا المجتمع الذي هي فيه، بل كانت شـديدة التمسـك بذلك، ولهذا أصبحت ما بين أهلي وهادف آخذ أكثـر مـن صيغة في الدخول وهكذا أصبح كل منهم لا يرى سوى جزء مني، وفي ظل هذه الصيغة أصبحت أتعامل مـع الخـارج بجزء ضئيل فقط من نفسي المتعددة، بخاصة مـع الانتقـاد الحاد منه والصمت الدائم مني مما جعله بعد فترة شخصـية مسيطرة ومؤثرة.

كانت العلاقات العائلية بما لها من ثقافات وتحديـدات لا تدخل ضمن تحديد حياتنا بمعنى العمـل عليهـا. فأصـبحت صدى علاقة، علاقة في السطحي من الأشياء، علاقة صوتية أكثر منها علاقة حميمة بين محبين. وحين نفتقـد مقومـات الصراع لا نمتلك القوة فكل حركة بها تاريخ خفي أو مغلق.

لست متحررة، لأن فهمي للتحرر مختلـف ضـمن مـا أستطيع ممارسته من هذه الحرية وضمن ما أؤمن به منهـا، لكنني أرى أن حريتي حرية حركة تبدأ من الـذات مقابـل

حرية ذات، تبدأ من الآخرين تحت وطأة اعتراف الآخر بها أو حتى عدم الاعتراف.

- ٣ -

أحضرت معي بعض " الساندويتشات " من البيت رفـض هادف أن يأكلها، اعتبرني أطعمه، ما أغبـاه كنـت جائعـة وأحببت أن نتشارك في أكل بيتي، لكنه حساس وغير قـادر على أن يفرق بين مفاهيمه الطبقية والحب، بين الأيديولوجيا والواقع، بين الجوع والتنظير.

- يا سيدي كُل، وبعدين نظر.

- لا شكرا أنا حاكل فول، كُلي أنت

- فول، فول نأكل مـع بعـض، بـس مـش حـرام " الساندويتشات " ديه، دي لحمه.

- لا، معلش شكرا.

هكذا هو، حساس وغير واقعي. لقد قمت بعمـل هـذه " الساندويتشات " وأحضرتها سواء أكلها أم لم يأكلهـا، هـي موجودة بالفعل لكنها بالنسبة له موقف وقضية.

-٤-

قلت لهادف حين أبدى ملاحظة غيورة حول حديثي الدائم مع طه وأصدقائه بالرغم من أنها كلها مناقشات وحـوارات هو جزء منها:

- أنت بتتكلم في الأفكار بشكل أكثر حرية من كلامك في الأشياء اليومية.

- اليومي له علاقة بالآخرين، والآخرون أساسـا غيـر مؤهلين للأفكار الحرة.

- الأفكار لابد لها من أن تنطبق على الواقع، ولـو كـل واحد منا قال إن المجتمع غير مؤهل، يبقى مالناش ضرورة. أمال فين كلامك على اني لازم أتحرر من وضعي وتفكيـر أهلي هو كلام وخلاص....؟ طبعا ما ده جـزء مـن عـدم تواصلكم أساسا كحركة لأنكم شايفين إنكم أعلى من الواقـع وأن أفكاركم مقدسة.

- أنت بتخاطي الخاص بالعام. وبعدين طه يفضـل فـي الآخر ولو انه متحرر في أفكاره برضه متخاف في علاقتـه بالمرأة.

- بالعكس انت اللي علاقتك بالمرأة مش قادر تخلصـها من وضعها الاجتماعي. فين كلامك عن الحريـة والعدالـة والمساواة، وأنا كل ما آجي أدخل في نقاش مـع أصـحابك تسكتني وتغير الموضوع....؟

- انت مش عارفاهم كويس، وبعدين انت خبرتـك مـش كافية للنقاش.

- طب علمني.

ينظر إلى نظرة استعلاء وبابتسامة خفيفة تحمـل داخلهـا ابتهاجا بنفسه قال:

- ما تستعجليش.

إن تصورات هادف وأفكاره بعيدة عن الواقع، إنه شخص يبحث عن الانزواء. تذكرت لحظة المظاهرات كيـف كـان يتفادى المواجهة، وفي قراءته كان يحاول دائما أن يقنعنـي بأن الصراع مع السلطة صراع فكري، أخالفه الرأي لأننـي أرى أن الأفكار مهما بدت مجردة أو متعالية لابد لها من يـد تحملها.

– ٥ –

أحضرت الخبز، قطعت كل واحدة إلى قطعتين وبدأت أحشو كل قطعة. قطعتها بسكين حادة وحين بدأت، جرحت يدي

- وا   عنده حق هادف، بنت متدلعة ومش عارفة تعمل حتى " ساندويتش " مثل " ساندويتشات " ريحانة. كان لابد أن أخبره أنني تعرفت على " الساندويتش " مؤخرا فقط لم نكن نعرفه، وأنني حين أقوم بعمله أشعر بأنني أنجزت عملاً خارقًا، داخل نطاق معرفتي.

حين جرحت السكين يدي نزفت قليلاً وضعتها في الماء تحت صنبور في المطبخ وأحضرت " كلينيكس " ولففته عليها، وتركت السكين في الحوض.

نظرت إليها مضرجة بدمائي، سكين كبيرة ليست لقطع الخبز، إنها للذبح.. لكن ذبح من...............؟

تساءلت فيما بيني وبين نفسي: كيف تكون الفكرة ثورة على الواقع وهل تكون الجريمة كتفكير مبكر بها وتخطيط لقيامها يتوقف على الشر....؟ الشيء النابع منا والكامن داخل

شخصياتنا والعنصر المؤثر فعلاً، هل الشر هو الوجه الأول للجريمة....؟

-٦-

أنا التي تذبح، شمسة التي لم تر صديقتها شـهلة منـذ أن لبست كل منهما علما ثم افترقتا. أنا التي عاشت هنا، تربـت وأقامت وأحبت لكنني حين ذهبت لجدتي وقلت لها:

- أنا أحب هادقًا.

لم تعقب، لم تتكلم، اعتبرت الكلام مجرد دخـان بسـيط وسيرحل ولم تخبرها بأن عليونة تزوجت هاشما، لم تـذكر شيئًا.

في الأيام التالية أحضروا زوجا من أقربائي وأحضـروا مأذونًا وجاء أخي..

"يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر

ما أباه أبي وليد عمي بغترته وارداه".

حين أحبت ريحانة حبيبا ذهبت إلى أمي وأشـارت إليـه قالت:

- أنا أحبه وأريد الزواج منه، فزوجوها.

هي عبدة وتختار، والآن حين اختارت أن تتركهم لتعـود إلى زوجها قالوا خائنة، خائنة لهم لأنها تركتهم مـن أجـل حبيب، أما أنا فليس لي حرية الاختيار .

هذه أنا، ابنتهم، أتزوج من بينهم، هم يختارون لي.

قالو: - زوجناك لابن عمك.. أنت منذورة له.

قلت: - في هذا العصر، ومنذورة...........؟

ذهبت إلى هادف وقلت له: - هادف، أنا مش حرة.

فرد علي: - يعني أية.....؟ كل إنسان يقدر يحرك حياته ويختارها.

- ده مش حقيقي.

- انت اللي عاجزة، وبترضي بالسهل.

- تتصور كده....؟ لا أنا مش عاجزة، أنا عبـدة، عبـدة لتصوراتك وتصوراتهم، عبدة لخوفي ورعبـي مـن العـالم حولي، لأنك حتى أنت مش قادر تحميني.

قطعت الوردة ونثرتها على سريري، نمت فـي حضـن دمعتين من الورد الأحمر.

راعي البحر ما أباه

– ١ –

يسمع محراك صراخًا بل عويلاً كما سمعه من قبل، يـوم خرجوا إلى القاهرة يتبعون عمهم الذي ترك إمارتـه بشـكل درامي ولحقته العائلة وهو معهم، واليـوم هـا هـو يسـمع الصراخ أيضا. ها هو أبوه وأخته يتركـان العـالم، بشـكل درامي أيضا في حادث سيارة انقلبت بهما حين حاول حبيب قيادة سيارته وهو مخمور، كانت حليمة بجانبه واندفع بقـوة نحو الطريق، لم يستطع أن يتفادى بعض الجِمـال، كانـت الجمال تسير في الطريق وكلما رأت أنوار السيارات اندفعت نحوها بقوة وسرعة أكبر، ساقطة بكل قوتها فوقها، مهمشـة الجزء الأعلى فيهوي على من فيه. ولم تسلم سيارة حبيب من هجوم الجمال.

راحت ريحانة تحدث نفسها وهي بين وعيها وغفلتها:

- كم مرة قلت له لا تقد وحدك السـيارة، هنـاك سـائق خاص، كانت القيادة زمان بالنسبة له وظيفة وفن لا يستطيع إلا القليلون تعلمه، أما الآن فهو لم يعد قـادرا عليهـا فهـي تحتاج إلى التركيز ودقة الملاحظة وهما ما تفتقدهما. ها هو ذهب وأخذ أيضا حليمة معه لمجرد أنه لـم يسـمع كلامـي كأنني آمره وهو يغيظني، هكذا منذ أن عدت، وطلق فطوما، وترك العمل. يتهمني بأنني دمرت حياته، هو الـذي دمـر حياتي كلها، يتهمني أنا التي دمرت حياته وحولتها إلى سيرك كبير هو المهرج الوحيد فيه لأنني أصررت على أن نرجـع هنا، أصررت أن نبني هذا البيت ونعيش حياة كريمة لم يكن يحلم بها، ماذا كان هو؟ مجرد عامل يحمل ملابسـه تحـت إبطه، ولا يكاد يجد لقمة العيش. أنا التي أدخلتـه الحصـن، وأنا التي توسطت له ليكون الأقرب إلى عمتي، وأنـا التـي حين عدت وسامحته وظفته في الجيش الذي أعطانا تعويضا عن بيتنا هناك، هذا المال الذي عشنا به كملوك وأصـحاب ملايين. ومع ذلك ظل دائما ينظر إلى كعبدة، لم ينس ذلك.

هو الذي جعلني في داخلي أحاول أن أتخلص مـن هـذه النظرة، هو الذي جعلني أشرب وأسكر بأفعاله منذ أن تزوج

علي وحتى موته اليوم. وحين يموت يأخذ حليمـة معـه. لا يتركها لتؤنس وحدتي، كان يحبها ويراها أقرب من بالبيـت إليه. لم يحس بمحراك ولا بناصر، هي حليمة فقط التي تهمه في هذه العائلة وهي التي أخذها معه، وهو الذي كان يعيرني بالإدمان كان أكثر إدمانًا مني حتى أنه مات وهو سكران.

- ٢ -

نظرت ريحانة إلى صالحة التي حضرت لمواساتها وكأنها تقول لها: كيف ألفينا أنفسنا هكذا نظن الوقت طـويلاً، يمـر جسدانا كعابرين في المكان بل في الحياة كلها، الحياة عـابرة ومؤقتة إذن، لكننا بطرق عديدة يمكننا تلمس بعض الاستقرار النسبي لنتكيف معها، عسانا نحياها بحق.....؟

وكانت ترى نفسها وكأنها تعبـر المضـيق هنـا فـي " خورفكان "، وثمة أشباح تعبر معها تمر من خلال المضيق، مضيق هرمز، الذي مر منه هاشـم زوج أختهـا عليونـة، واختفى.

ثمة رجال تصطدم ظلالهم بظلها، بظله، جماعة كانوا لكن حبيبا ليس معهم وثمة نساء يغنين أغانيهن الخاصـة وهـو غائب.

قالت، وهي تنتفض من شدة الصدمة:

وحليمة، كيف تموت..؟ كنت قد حلمت بها من قبـل يـا صالحة، أخبرت نصورا أن حليمة ستموت يوم وصلت مـن السعودية. كان من الممكن أن يموت حبيـب وحـده لكنهـا تشبثت بأبيها، لم ترتد اليوم ثيابا مناسبة، كانت تتجهز للموت وتعلم أن كل الثياب ستسقط حال سقوطها، تسقط مـن علـو شاهق على أرض مسطحة تعلو لتسقط، ترتفع لتهوى مفككة، تكون أضعف، أقل، أبسط مثل ذرة الهواء لا حمولة لها بـل أخف من الهذيان.

ظهر عجزها، لا أب لها ولا علاقة، ها هي تستوحش في هذا العالم، ظهرها لا يستند على حائط، تتهاوى وتسـقط، لا تستكن روحها في مكان، أنها تسبح، تطير، ليست من هـذه الأرض ضيقة على مساحة الأشبار التي تتحرك فيها. تسحب روحها وجسدها في ملابس سوداء، تنزوي وتفقد كل يـوم. كما لو أن الحظ يقذفها بعثراته كلما ابتسمت قليلاً، كما لو أن

الروح خاوية، وطبقاتها تـتعفن. فهـل هـي التـي خلقـت تعاستها....؟

- ٣ -

كانت صالحة تبدو متماسكة بعدما استمعت إلى تعليمـات الطبيب حول مرضها الذي لم يعرفوا في البدايـة مصـدره وهي لا تحاول أن تفهم ما حدث بعد ذلك، حتى تظـل كمـا كانت من قبل متماسكة، ذات صوت أجش قوي يحمله جسـد فيه من الذكورة أكثر بكثير مما يعتقد، حتى أنها وهي تنظـر إليها تتذكر ما يحكي حولها من القصص في جلسـات ليليـة على سطح بيت جيرانها، الذين لم يكن لديهم أدنى شك في أن هذه المرأة مسكونة برجال كثيرين يتناوبون عليها فتتقمصهم دفعة واحدة أو كل فترة أحدا منهم.

كان بيت جيرانها على شاطئ البحر مباشرة تسـمع فيـه أصوات المراكب التي ترسو قربه، وسطح البيت يطل تماما على المساحة الأمامية من مدخل منزلها، بحيث يرى الواقف هناك من يدخل إليها ومن يخرج، وكان في آخـر الطريـق دكان صغير لبيع بعض الأشياء الخاصة بالمواد التموينيـة،

تمتلكه مع بضعة دكاكين أخرى للخياطة والتطريـز، كانـت تؤجر هـذه الـدكاكين لـبعض الهنـود أو الإيـرانيين أو السريلانكيين الذين يقومون بعملهم على أكمل وجـه. كـان أفراد المنطقة يلجأون إلى هذه المحـلات الصـغيرة لجلـب حاجاتهم السريعة منها. كانت ابنتها بالتبني تخرج دائما بحجة شراء بعض الأشياء طلبا لحرية مفقودة داخل المنزل، ولـم يكن خروجها إلى الدكان وإحضارها بعض المؤن سوى ملاذٍ وذريعة لتتنفس بعض الحرية. ولم تكن تلك الأحاديث الجانبية التي تحاول نسجها في هرولتها تجاه المنزل إلا محاولة منها لطرد الأشباح من الطريق كلما عادت ممتلئة ببعض الهـواء ومختنقة لدخولها المنزل، وهي تتساءل أي رجل منهم سأراه فيها اليوم وأي صوت سأسمعه.

لم تكن صلوحة إلا جارية صغيرة في بيت أحـد الأسـر الغنية التي تربت فيها دون أن تعلم من أين هي، وابنة مـن، بالرغم من أنها تعرف جيدا أخواتها وإخوانها والذين ورثوها بعد موتها بالرغم من عدم اهتمامهم بها في فترة مرضها.

إخوانها وأخواتها الذين توزعوا بعد ذلك في منازل أخرى حين باعهم رب الأسرة التي تربت فيهـا لكثـرتهم وعـدم

احتياجه إليهم جميعا وربما أهدى منهم أختها الصغرى التـي ذهبت إلى الإقامة في منزل الحاكم وتربت مع ريحانة منـذ صغرها ومع ذلك لم تكن صديقة لها بل كانتا تغـاران مـن بعضهما بعضا وكل منهما تتسلق إلى محبـة عمتهـا. هـي الأخت الأكثر قربا من صلوحة التي تربت مع أم عمة أختها. تربت معها حين كانتا طفلتين صغيرتين تذهبان إلـى البـر حيث تخيم الأسر فيه طيلة فترة المطر كنوع مـن التغييـر وكانتا تلعبان معا وقد ارتبطتا بذاكرة جمعتهما بعد ذلك فترة طويلة من الزمن وها هي تمرض بشدة بعد وفاة مريم.

كان ذلك في القديم حيث طفولتها وما إن بدأت تعي وتفهم وتتحرك خارج تلك المنطقة، حتى كانت روحها تهفـو إلـى الحرية إلى أن تتخفف من ذلك الثقل الروحي الذي يرغمهـا دوما على الخنوع، تود أن تمارس الطيران، وأن تتخلى عن مساحة الجغرافية التي لا تكفي سوى قدميها.

لو نظرت يوما إلى البعيد لوجدت أن بـلاد ا الواسـعة مبسوطة تحت قدميها، ولكانت تعلم بحسها أن لمـس الوتـد الأصم في بيت المعتمد البريطاني ليس بقـادر علـى فـتح مسامها لتستنشق الهواء كما ينبغي، ومع ذلـك قفـزت مـن

مكانها أزاحت عن قلبها الخوف الذي تراه ممتزجا بحرية لم تنلها بعد ولم تتذوقها من قبل، لكن طعمها يذوب في شـفتيها وينسل إلى أعماقها فتتوق بل تتحـرق لتجربـة الإحسـاس بالحرية ويظل هاجسها الأول والأخير أن تتحرر فقررت أن تمد يدها إلى تلك الحطبة وهي تعلم أنها تمد يدها لتلمس النار التي ستشتعل وتحرقها أولاً، وبلا ارتعاشة تتسلم صك حريتها من ذلك الرجل الأبيض القادم من البعيد، بحثًا عـن الـنفط المخبأ في عروق التربة حيث إن مفهوم الحرية هي ألا تكون عبدة.

ذهبت إلى بيت المعتمـد البريطـاني، رأت كثيـرا مـن العبدات يذهبن هناك ويلمسن تلك الخشبة المدقوقة في فنـاء بيته، وعلى إثرها يمتلكن صك حريتهن، وكثيرا أيضـا لـم يستطعن أن يفعلن الكثير بهذه الحرية، فعدن إماء وعبـدات لمالكهن أو لغيره لكنها كانت تبحث عن شيء آخر، عـن أن تكون حرة..

صالحوه، لم تمتلك من النساء الحرائـر لا الجمـال ولا الذهب والمال ولا حتى القوة والسيطرة. ولأنها تشبه الرجال

فلابد لها من السيطرة والقوة كي تكون بقوة الرجال، ولـديها الرغبة والطموح لأن تسعى خاف النداهة التي تناديها.

حين خرجت مع عمتها أخت أبيها مـن بيـت المعتمـد البريطاني حاملة صك حريتها، كانت كمن به داء، الكل ينفر منه، كانت تحلم وتحلم، خرجت بحريتها إلى العالم الخارجي دون قوة ودون حتى أدنى إحساس بالرعب، لم تدرك أبدا أن هناك من يتربص لهما في الوديان البعيدة التي لا يلبد فيهـا سوى قطاع الطرق لم تنتبه إلى هـذه الطرقـات إلا وهـي مسروقة حيث كانت الأسلحة والعبيد في تلك الأماكن البعيدة والتي لم تطلها يد الإنجليز فلم يستطيعوا الوصول إليها فـي ذلك العمق من الأراضي، ضاقت بها الأرض الواسعة قبـل أن تراها وانغلقت مسامها قبل أن تتنفس بعمـق هـواء لـم تستطعمه أبدا.

– ٤ –

كانت صلوحة تحب مريم وتأتي لها كثيرا. لم تنس أيامهما معا وهما صغار ولم تنس طيلة غيابها مريم فقد تربيتا معـا في سنوات العمر الأولى.

كانت صداقتهما تنمو حتى وعت صالحوه الفرق بين العبد والسيد، الفرق بين من يأمر ومن يؤتمر. فتوقف نمو الصداقة عند لحظة الوعي هذه. هي عبدة ومريم حرة، بل حرة وذات مكانة اجتماعية كبيرة، لكن علاقتهما تقترب من الصـداقة، هذه الصداقة ليست صـداقة اثنتـين فـي نفـس المسـتوى الاجتماعي. وإن كانت لم تستطع أن تنساها فظل هـذا الـود الطفولي معشَّشًا في خلايا نفسيهما.

ها هما يلتقيان بعد أن عادت كل منهمـا مـن غربتهـا الإجبارية. مريم من القاهرة ببقايا السلطة التي فقدتها وبمـال لم يتح لها إلا امتلاك بيت شعبي صغير تؤنسها خادمة واحدة على عكس صالحوه العائدة من أرض ا بمالها الوفير لتبني بيتا ضخما، فرشته بأفخر الأثاث فصار أكثر أناقة وجمـالاً بعد أن تلمعه خادماتها الآسيويات. اللاتي يتحـوطن مائـدة الطعام تحينًا لإشارة من يدها ملبيات أوامرهـا بابتسـامة لا تغيب حتى حين تنهر الطباخ أو السائق.

جلست على حافة المقعد قبالة مريم فـي بيتهـا الشـعبي وحاولت إخفاء أساورها الذهبية في خجل، فـرغم حسـابها البنكي الكبير والأرباح التي اشترت بها أرضا وأقامت عليها

مسجدا بغية أن يبني ا لها قصرا في الجنة. لم يجعلها هذا كله قادرة على أن تتواصل مع مريم مواصلة الأنداد، لأنها لا تستطيع أن تنساها.

- ٥ -

بعد وفاة حبيب بدأ البنك يطالب بسداد ديونه، لم يكن لدى ريحانة أو أولادها مال، كل ما كان لديها أنفقوه على مباهج الحياة، والرغبة في أن يكونوا محط أنظار الجميع لتحقق ريحانة لذاتها الوجود الذي لم يتحقق من خلال الشرف أو الإرث الاجتماعي، فحاولت تحقيقه من خلال المال وحين انفض عنها الجميع، ضاحكين مستهزئين بها مما جعلها تدرك حقيقة واحدة كانت تتهرب منها دائما، وهي أنها مهما حاولت أن تتغير، فإن الواقع لن يتيح لها ذلك إلا ضمن شرطه الخاص، فمهما خرجت من منظومتها تظل ضمن قسوة الواقع تقع في هامشه، وإن حاولت الدخول إلى عمقه فهو عمق الهامش مما يسقطها في أوهامها وتظل تسقط في شرفات أحلامها كل مرة أكثر حتى تقع في السحيق من الواقع، تصدم – وهي المصدومة أساسا – بما يسحقها أكثر فيطالها الحقد والكآبة مع الإدمان بشكل أخطر وأعمق.. حين

عجزت عن دفع ديونها أخذ البنك قصرها وأحلامهـا التـي بنتها من أعماق تجربتها ومن دمها المهدر علـى طرقـات المدينة كلها أخذ الموت حبيبا وحليمة وأخذ البنـك البيـت، وأخذت الدنيا محراكًا وأخذ الدين نصورا الذي أصبح اسـمه ناصرا كما كان وظلت هي هنا على شاطئ البحر تضـحك بصوت عال منكوشة الشعر تكاد عيناها تنطـان مـن بـين وجهها وهي تبحث عن سمكة البحر التي سـتعطيها لؤلـؤة كبيرة في محارة.

تتذكر لحظات وتغيب أخرى، تبكي ولا تنام كلما وجـدت أوراقًا أو علبا فارغة وضعتها على ثيابها، ولبسـت عقـودا كثيرة من الأوراق اللامعة داخل علب السـجائر، وضـفرت شعرها بجميع قصاصات القماش الصغيرة التي تجلبها مـن مخلفات محلات الخياطين، حتى أصـبحت ضـفائرها ذات ألوان كثيرة وطويلة.

أصبحت مثل أمها مهيرة الخبلة تركض فـي الطرقـات حاملة طبلة عبارة عن علبة صفيح، علبة سمن فارغة تـدق عليها بعصا صغيرة أو حصاة تجلس بجانب البحر، ثم تذهب إلى المدينة تعطيها النسوة بعض فتـات ويـركض وراءهـا

الأطفال يغنون وراءها مهيرة الخبلة، مهيرة الخبلة تنـزعج وتدق على طلبتها.

أن أكون نعامة

- ١ -

- طيب أنا عاجزة
- لا، أنت قادرة
- طيب أعمل إيه......؟
- انت اللي تقرري..

ومن انقضاء الوقت في التحاور إلى الاشتباه في الأشـياء تتشكل مراراتي وتنزلق غير عابئة بالتوتر.. هكذا أظل مـع هادف نتحاور دون أن نقطة اتفاق واحدة رجعت إلى المنزل ذهبت إلى جدتي لم تكن موجودة اختفت جدتي، عادت إلـى وطنها رحلت، طارت.

- أميه مريم، مريم... لم أجدها

وجدت المشاية في غرفتها، وجدت القرآن وشـريطًا لأم كلثوم وديوان لأبي فراس الحمداني. جلست مكانها، أمسكت

الشريط وضعته في الكاسيت، أسندت يـدا علـى المشـاية والأخرى سندت بها رأسي وسمعت.

" ولكن مثلي لا يذاع له سر "

- ٢ -

للمرة المائة يقوم انقلاب آخر في الإمارة ضـد الحـاكم ولكن للمرة الثانية فقط بعد ظهور الدولة. وحدها هذه الإمارة يندرج فيها مفهوم الشرعية ضمن وجود نظام أكبر يحتويها، وهو نظام الدولة. ولفشل الانقلاب الأول، ولأن الدولة تتدخل فقط في شئون الإمارات الداخلية التي تؤثر على النظام العام، ولخوف جميع حكـام الإمـارات الأخـرى مـن أن تعـود الانقلابات فيختل الاتحاد وتختل الدولـة، ولخـوفهم علـى أنظمتهم هم أيضا، وليس الإنجليز الذين لا يتدخلون في نظام الدولة أو الإمارة منذ أن كانوا قوة ذات أسطول قوي سـموا أسطول القواسم الذين يدافع عن نفسه ومكانـه، بالقراصـنة لأنهم يهاجمون سفنهم.. فشل الانقلاب الثاني بيد أخ الحـاكم لكن مفهوم الشرعية كان قد ظهر من جديـد، وإن حـاولوا طمسه خاصة مع ظهور الأوراق الضائعة الملوثة بالدم رغم

طول ضياعها.. ظهرت في يد مدبر الانقلاب الجديد كوسيلة أخيرة للتهديد في حال فشل انقلابه.. لكن هذا الانقلاب كـان سليما لم يضح بأحد فيه ولم يسجن أحد بل تم الصلح وعـاد الحاكم الأول وتمت مساومة مدبر الانقلاب الثـاني بأشـياء عديدة.

" ومشكلة الشارقة أن لها خلفية تاريخيـة – حضـارية. فالشارقة على الرغم من كونها إمارة صغيرة مرميـة علـى ساحل الخليج ومطلة على صحرائه كان لها من أبنائها ثروة هي كالنفط الذي حرمت منه بالكميات الكبيرة.

الشارقة قبل الاستقلال وقيام الدولة الاتحادية ويوم كـان الساحل المتصالح تحت رحمة بريطانيا العظمى ويوم كـان الساحل يغوص في خصم معارك ما سمي حرب القراصـنة في تلك الظروف المأوساوية كان أبناء الشارقة يتطلعون إلى الخليج وإلى ما وراءه. وحدهم في المنطقة كان يشدهم إلـى العروبة هاجس كبير ووحدهم يوم لم يكن الإعـلام المرئـي والمسموع قد برز في العالم كانوا يتحينون الفرص لاصطياد الصحف العربية من أي بلد كان، من بيروت من دمشق من بغداد ومن القاهرة ويشتركون في كل مجلة أو صحيفة تطبع

بالعربية تأتي متأخرة شهرا بل أشهرا عن طريق الهند، عن طريق البحر، عن أي طريق بحري تصل منه باخرة تحمـل لهم صحيفة أو ديونا أو كتأبا وهكذا كان أهل الشارقة علـى ترابط مستمر بالعالم العربي والتطورات فيه مـن سياسـية وثقافية واجتماعية ".

ـ ٣ ـ

هادف، أحبك فهل تحبني...؟

فقال: - لا

- ليش ما تريد تقول....ز؟
- لأني ما أحبك.
- لا، أنت تحبني وتموت في.
- طيب ليه بتسأليني....ز؟
- أحب أسمعها.
- وأنا رديت بس انتِ ما بتحبيش ردي.
- متى سنتزوج....؟
- لسنا مؤهلين للزواج.
- لماذا..........؟
- لم نتعارف جيدا وكل الأشياء في حياتنا مؤجلة.

- ليش مؤجلة.....؟

- لم نستوف شروطها.

- شروط ماذا....؟

- شروط قضيتنا.

- أية قضية هذه....؟

قلت لنفسي: لماذا دائما أضع قلبي على محـك العلاقـة ولماذا أستخدم كلمة العاطفة كثيرا...؟

ـ ٤ ـ

منذ فترة لم تظهر، كانت بوادر حمي شديدة واضحة علي وكنت أسأل نفسي كم من الوقت يكفي لمداومة الكتابة علـى الأوراق كي تمتلئ.

بهذا اليتم الذي يظهر علي كلما اسـتوحدت وأنـت وراء الباب مختبئ من محبتي التي أغمرك بها مثل زخـة مطـر كثيفة ثم تختفي.

دون إطلالة على عالمي.

دون إجابة تؤرجح هذه العاطفة التي أشـعلتها ورحلـت لتبقيها تتقد.

كتمارين على الوحدة سوف أغلق علي المحبة لتكون غذاء لي في الأيام المقبلة، سوف أنام ملء الخديعة، باكية كطفلـة تذهب إلى المدرسة دون حذاء أو دفاتر. ستكون المعلمة حتما عند الباب وبيدها النشيد المدرسي.

وتحت لسانها سيسيل الوطن مع اللعاب وكنت أرى العلـم كل يوم مثلما أرى وجهي في عينيك. إذن لماذا لا أراك كـل يوم......؟

ألست أنت مثل العلم أيضا. أليس الحب وطن الأيتام الذين مثلي في العالم، لا آباء لي ولا أمهات؟

لا ألاحظ تكوري مثل جنين في رحم ما.. لا ألاحظ أحمر الشفاه وهو على شفتي فقط تجربة في الحياة وعلم يرفـرف، ألتف به فتسألني عن معنى الوطن.

كلما حاولت التملص أجدني أقرب، وكلما حاولت الانفلات بعيدا وجدتني مخلصة دءوبا إلى القرب.

عدت إلى المنزل ابتلعت أربعين حبة من الباندول كانـت الأخبار تقول: إن إسرائيل ضربت صـابرا وشـاتيلاّ. وأن حاكما يعد لانقلاب على حاكم آخر، وأن العالم صـار بـلا قضية.

هذه الخاتمة هي التي تستحق الندم هكذا أسمع صوت ضميري أو صوت الكورس وراء مغنية ما. فعلت ريحانة مثلما فعلت عليونة حين أحرقت نفسها أو كأنما صعقت بالكهرباء وعدت أنا أخيرا إلى ذاتي نظرت إلى حياتي وتمعنت فيها:

الحيوات التي تمر لم نألفها، لم نعشها بأكملها ولهذا تربكنا. كل حياة نعيشها ليست حياتنا، كل حياة تداهمنا مثل حمى قبل أن تتحول إلى جزء من حياة سابقة.

أشهد أنني لم أعش. أنني مت منذ زمن، ارتكبت فعل موتي دون أن يدروا، وكلما تذكرت تلك الحالة داهمتني أفكار تخبط فوق رأسي وكأنها تفاجئني من نومة.

اعتقدت لفترة طويلة أن بإمكاننا امتلاك حريتنا الحقيقية بأن " نفعل " من وجهة نظرنا، ظللت أبحث عما هو حقيقي في البداية ثم بدأت أخون طفولتي بدأت أبحث عن عدو لي لأرفض، أرفض لمجرد الرفض، لأن نعم تعني الرضوخ ولا تعني أن أكون موجودة، لا ونعم لا خيار بينهما.

قلت أساتذتي فصديقاتي فأهلي فشخصي فعلاقاتي كلها ثم بدأت أنحسر. كلما شرعت في الدخول أغراني التراجع بعد

الخسارة ولا خسارة إلاي. وتحت رايـة التـدمير والحريـة تعلمت كيف أفقد وتحتها أيضا خسرت حريتي كي أمتلك هذه المرارة التي تسكن باطني جراء المعرفة الجارحة.

لم أعد أعلن هذا الموت، لم أعد أستطيع أن أجابه الموت في المكان. البيت يتصدع والأجسام كذلك. لذا لن ألوذ بهـا، فهي المحور الأساسي للجريمة والموت، للحياة والمتعة، ومع ذلك تظل مهانة ومستكبرا عليها في الوضوح.

كما لو أن هناك خيطًا ما يجمع صلوحة بريحانة وإسحاق بمحراك ويظل صنعو السنهوري، الوحيد ذو الوجه المنحرف قليلاً ناحية اليسار، الذي رأته ريحانة لأول مرة في ذهابهـا مع أم عايدة إلى منطقة الباطنية لتجرب عالم الحشيش والإبر المخدرة، وحده واقفًا هنا، أما أنا فسأظل ميتة ساكنة وأشـبه النعامة.

الجزء السادس

" الضحك يميت القلب "

المضيق

- ١ -

كعادته كل يوم يغتسل ويتوضأ ثم يهم مـتكلاً علـى ا ، ومع أذان الفجر يفتح باب البيت ويخرج سائرا بصمت، هادئًا كنفسه التي وجدت سكينتها أخيرا في الإتكاء على ما يحفظها من السقوط والانهيار، وعازلاً من فكره محراكًا وما يفعلـه. بل يدعو له بالصلاح والتقوى، متخلصا من عذاباتـه التـي تفتت كبده كمدا على انهيار عائلته بموت أبيه وأخته الوحيدة وبجنون ريحانة الذي لا خلاص منه، وبمحراك الذي كـان خلاصة هذا العذاب الدائم واليومي، حيث يراه أو يسمع عن حالاته وانهياراته في كل مناسبة، عن فرقته بعـد أن وجـد إسحاق مقتولا في حالة مزرية ومخيفة إذ لوحظ أن قاتليه قد عذبوه كثيرا قبل أن يقطعوا أوصـاله وأعضـاءه التناسـلية ويرموها في صندوق القمامة.

لأكثر من ثلاثة أيام ظلت عائلته تبحث عنه، وظنوه فـي البداية مع محراك، إلا أن الشرطة اكتشفت جثته حين أبلـغ عن العثور على بعض أشلائه أحد سائقي سـيارات البلديـة

التي تدور حول المدينة لجمع القمامة حين تم تفريغ ذلك الصندوق وتم العثور على باقي الجثة مرمية في خرابة قريبة أيضا في صندوق قمامة آخر، وبمشاهدة الجثة اتضح أنه قد سحل بالسيارة قبل طعنه وتعذيبه.

كل ما قالته أسرته إن هناك عدة اتصالات تمت قبل خروج إسحاق الذي كان على مدى يومين يتهرب من الرد عليها وفي آخر اتصال تغير وجهه وذهب ليلبس ملابسه ويخرج سريعا دون أن يعلموا وجهته. كانت المتحدثة امرأة تنتظره في سيارة أمام الباب، لكنهم لم يتحققوا ممن بها، هكذا قالوا.

بالطبع استجوب محراك ومن حسن حظه أنه لم يكن سكرانًا وإلا سيجلد ستين جلدة فما زالت هذه العقوبات موجودة برغم عدم وجود حطبة التوبة، ولكم خاف نصور عليه وعلى نفسه، لكن ستر ا كان عظيما إذ كان بعض القتلة من الفرقة والآخرون من خارجها، ولكنهم جميعا يتاجرون في المخدرات والنساء، وهي التجارة التي لم يكن محراك يعلم عنها شيئًا، فهو يتعاطى فقط ولذلك لم يتم القبض عليه، ثم إنه أصر على إنكار معرفته بما حدث.

حين استدعي محراك من قبل الشرطة، ذهب ناصر إلى المسجد في الفجر ظل يصلي ويبكي. كان خائفًا مرتبكًا يسير إلى المسجد كأنه يحمل ثقلاً على أكتافه. حين وصل ترك نعله عند الباب ودخل قبل الأذان، جلس بجانب الحائط يقرأ بعض سور يحفظها بعد أن صلى ركعتين تحية المسجد ثم تلاهما بركعتين ظل ساجدا في الركعة الأخيرة ما يقارب ربع الساعة حتى إن أحد الأخوة الذين كانوا بجانبه أمسك به وهزه فقام ووجهه مثل وردة حمراء والدموع تسيل على خديه. لابد أن محراكًا قد استخدم مسدس والده وقتل به إسحاق مثلما رفعه على ذلك الفتى الذي أتانا في البيت بعد وفاة والده.

وتساءل هل موت والده وأخته أقل وطأة من غياب محراك في السجن...؟ هو لا يصدق أن أخاه يمكن أن يقتل ويمزق جسد صديقه أشلاء ثم يلقي كل جزء في منطقة. إنه عاجز عن تصديق ذلك رغم أنه لا يحب إسحاق فهو يعرف الكثير عن مجونه وفجره اللذين يشاركه فيهما محراك، لكن أن يقتل وبهذه الطريقة الوحشية فهذا لا يقل عن فحش إسحاق ذاته.

حين جلس بجانب الحائط بعد أن أتـم صـلاته اعتـدل فاقترب منه ذلك الرجل بجلبابه القصير ولحيته الطويلة ألقى عليه السلام، فرد ناصر: وعليكم السلام. قال: - " قـل يـا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة ا ، ثم جلس بجانبه وظل يتحدث عن رحمة ا وعن الخلوص مـن مزاهد الدنيا وأن المصائب وإن كانت كبيرة فهناك أكبر منها فكيف لنا أن نستكبر مصائبنا وهنـاك فـي دول أخـرى لا يستطيع المسلم أن يصلي أو يجهر بإسلامه، نظر إليه بتمعن وهو يقول: إن إخواننا في أفغانستان مثلاً يحاربون ويقتلـون ولا يجدون من ينقذهم ونحن هنـا نبكـي علـى مصـائبنا الصغيرة يا أخي اتق ا وارحم إخوانك.

نظر ناصر إليه، كان الأذان قد بدأ فصلى وخرج مسرعا وذهب إلى بيت محراك. دق الباب بعنف شديد وحين فتح له، سأله: - عليك أن تخبرني الآن بصدق، أنت تعرف ما الذي جاء بي.. فرد عليه بتهكم: يالسعادتي، نصور يسـأل عنـي ويخاف علي...؟ الآن فقط تهتم بي؟ اذهب لشأنك يا نصـور واطمئن. ثم أغلق الباب في وجهه. كـان ناصـر يـرى أن الجريمة داخل محراك كتفكير مبكر بها، عنصر كامن داخل

شخصيته التي يحاول مسخها في الخنوثة، لهذا كان يرى أن من الممكن له أن يقوم بها كأداء أكثر اكتمالاً من أي شخص آخر. وكان صدى صوته يتردد في أذنيه حين عاتبـه علـى دخوله الغرفة: أنت ما عشت يعني شو تكـون عبـد ملـك وممكن تنباع في أي لحظة، أنا صحيح أبوي مب عبد ومـا كان ممكن أنباع بس إحساس أمي كان يأثر علي، خوفها لـو اتباعت وما يقدر أبوي يحررها شو بتسوي بتتنقل من بيـت لبيت وأنا بكون وياها وين ما تروح أنباع وياها أو تتركنـي ويا أبوي تربيني " مرة أبو " وبين إحساسك انك تبغي تسوي اللي تباه ودايما ما تقدر. عمرك ما انربطت في جذع شجرة ولا انضربت بالسوط.

ظل ناصر يذهب كل يوم إلى المسجد فيجد هذا الصاحب أو الأخ مرة وحده، ومرات مع أشخاص آخرين بنفس الهيئة والثياب القصيرة والذقون الطويلة، يتحدثون بجانبه ويدعونه إلى التحاور معهم، وهو صامت أو يسأله أحدهم عن أحواله قائلاً:

- كيف حالك يا أخي....؟ أدعو لك ا بصلاح الدين والدنيا جزاك ا الخير. بعد أيام أتاه وقال لـه إنـه

سيذهب ليحارب في أفغانستان ويدعو له أن يلاقيـه هناك وذهب.

- ٢ -

ظل ناصر مضطربا. هو لم يحتك بحرب من قبل غير ما ذكرت له أمه عن حرب ١٩٦٧ حين كان ما زال وليدا لكنه لم يع بها ولا بملابساتها هو يسمع عن حروب كثيـرة لكـن ليس لها علاقة به أو بأحد من الذين يعرفهم، يسمع عنها في الأخبار فقط ها هو اليوم يفكر في هذا الرجل الذي التقاه عدة أيام ثم اختفى مختارا الجهاد في سـبيل ا ، دون أن يكـون العدو عدوه المباشر حين قال ذلك انتفض الرجل وقائلاً:

- كيف يا أخي ليس عدوي أليس كل أعداء ا أعداءنا..؟ استغفر ا العظيم يا أخي، إن المسلمين أخوة وهم إخواننـا في ا وفي الدين.

ظلت تلك الكلمات ترن بعصبيتها الزائدة في أذنه، وكلمـا ذهب إلى المسجد بحث عنه حتى همس أحد هؤلاء الأخـوة يوما في أذنه بأنه استشهد وأنهم بعد الظهر مباشرة سيقيمون صلاة الغائب على روحه وسيقرأون القرآن ودعاه للانضمام

إلى صلاتهم. جلس مبهوتًا نسى أمه وأخاه نسى نفسه وظـل يقرأ ويقرأ ويصلي، في ذلك اليوم لم يتحـرك ناصـر مـن المسجد حتى أتت زوجته تسأل عنه قالوا لها: إنـه بالـداخل ناداه أحدهم لها فخرج صامتًا وحين عاد إلى المنزل ظل في غرفته لا يتكلم مع احد لا يأكل ولا يشرب. حاولت زوجتـه أن تلهيه بأمور الحياة اليومية حاولت أن تعيده إليها أو إلى ما حدث لمحراك واريحانة، لم يهتم ولم يكن مؤهلاً لسـماع أي شيء بدأت تباشر حياتها بنفسها تشتري الأكل وتخرج إلـى الأسواق، تسأل عن صديقاتها اللاتي هجـرتهن فـي بدايـة زواجها وتعيد علاقاتها بهن، ثم تعود إليه تحاول إطعامه ثـم تجلس تتحدث في الهاتف لساعات طويلة.

بعد غياب عدة أيام وانقطاعه عن العالم وعن المسجد أتاه احد الذين كان يراهم هناك، سأل عنه ودخـل إلـى حـوش البيت، رفض الدخول إلى المنزل، سأله عن حاله وطلب منه أن يخرج معه للحديث، جره إلى المسجد حيث صـلوا مـع الآخرين ثم ظل يتحدث معه نفس حديث صاحبه الأول الذي استشهد.

قال له: إن المصائب وإن كانت كبيرة فهناك أكبر منهـا وأن أخاهم في الإسلام قد استشهد دفاعا عن كلمة ا وإنـه مع الصديقين والشهداء ويااليتهم مثله. نظر ناصر إليه بصمت لكن الآخر أكمل حديثه وقال له: إن الجهاد هو الجهـاد فـي سبيل ا والنصر من عنده تعالى، سكت ناصر، اسمه تـردد كثيرا في معان لم يسمع بها من قبل.

بدأ ناصر يتردد علـى جلسـات الجماعـة وصـلواتهم والعبارات التي تتردد دوما تتسلل إليه. تدفعه إلى الإحسـاس بأن داخله يتواءم مع الزهد في ذلك العالم الذي يرتكز علـى حقيقة واحدة هي الفقد. الفقد بالموت أو الجنون أو الضياع.

ذهب مع تلك الجماعة إلى جلساتهم الخاصة وصلواتهم ثم انضم معهم للسفر إلى أفغانستان، كانت هذه الجماعات تحاول تستقطب الأشخاص من كل دول العالم ليـتم تجنيـدهم فـي أفغانستان.

في لحظة مباغتة بدت له كهروب من ذاتـه، وماضـيه، ومن واقعه الذي أصبح يحمل همه وحده، وخوفه وحده، أخذ بعض ملابسه وودع زوجته. لم يتوجه إلى ريحانة ولا إلـى محراك، ركب الطائرة مع بعض الصحابة وسافر دون إيمان

خالص بالفكرة، لكن نفسه التي تتوق إلى التخفف من عذاباتها فتحت له عالما وهميا انخطف إليه طلبا للسكينة. وما عـاد هناك شيء يوقف قراره الذي لم يتخذه، لكنه أرغم عليه تحت ضغط ووقاحة أخيه وتخبط حياته.

كانت بيشاور محطته الأولى في أفغانستان وبالتحديد فـي معسكر الأنصار حيث حط الرحال بين من أطلق عليهم لاحقًا اسم " الأفغان العرب " والذين وصلوا إلى أفغانسـتان كمـا وصل هو الآخر إليها عن طريق رابطة العـالم الإسـلامي لتجنيد العرب من اجل القضية الأفغانية.

– ٣ –

التقى ناصر في سفره الكثيـر مـن جماعـات الإسـلام السياسي، حاولوا ضمه بالرغم من عدم انتمائـه إلـى أيـة جماعة لا هو ولا رفاقه، أنهم مسلمون فقط، لذلك حين بـدأ تدريبهم على السلاح في برنامج مضغوط لسد الـنقص فـي صفوف قوات بن لادن التي استشهد منها الكثير. وبسبب هذا البرنامج المضغوط أبدى ناصر هـذه الملحوظـة فـألجموه بمقولات عديدة جعلت سؤال محراك يتضخم في رأسه. شعر

بأن استشهاده هنا سيكون مجانيا وبلا جدوى، كـان أغلـبهم قليلي المراس وقليلي الخبرة مما جعلهم من أكثر الأشـخاص استشهادا وكان ناصر يلاحظ استشهاد صحبه، كل يوم. لـم يرغب في الموت هكذا، إلا أنه رأى أن ذلك ما زال خيـرا من الحياة التي يستبدلون فيها بقانون ا القوانين الوضـعية. هكذا أقنع ذاته التي لم تكف عن محاورته فبدأ يداخله التردد والشك والخوف، واحتال بكل الطرق حتى لا يخوض معارك لا يعرف فيها قاتله ولا من سوف يقتله فالتجربة الوحيدة التي خاضها كان لا يلمح فيها غير كرات النار القادمة من الجهة الأخرى وهو يضغط على زناد رشاشه في مواجهة من يقذف بتلك القنابل.

كانت إصابته ملاذًا احتمى به للعودة. يعود حاملاً إصابته في وجه محراك الذي قال من شأنه، بل كان حديثـه يحمـل الرهان بأنه غير قادر على هذه المواجهة. تراكمت الأحاديث في ذاكرته متداخلة ومتشابكة لا يدري ممن سمعها هل مـن المرافق الذي عبر به إلى معسكر الأطباء المصريين علـى الحدود الأفغانية الباكستانية أم من ذلك الشاب البخاري الذي تسلمه وأتم له كل إجراءات العودة إلى وطنه مـرة أخـرى،

وهو يقول: - بيشاور منطقة وهابية ففي عام ١٨٢٤ أعلـن الشيخ الوهابي سعيد أحمد الجهاد ضد الفكـرة فـي منطقـة البنجاب، وكان يحارب بنفس أسلوب " بن لادن " الآن. وفي عام ١٨٣٠ احتل بيشاور وأنشأ فيها دولة كانت لهـا عملـة خاصة حملت اسم أحمد ولذا كانت الوهابية قوة فاعلة تـؤثر بأفكارها على المجتمع الأفغاني منذ قرنين، فما الذي دفعـك أنت إلى هذه الحرب وأنت لا تعلم عن حقيقتها شيئا.....؟

رد ناصر: - أتيت أبحث عن إجابة وأتم فرائضي وهأنـا راحل دون معرفتها. حين التقيت بذلك الـذي كـان ينـادي بالدعوة سكنت روحي أكثر. ظللـت بقربـه أتحـدث إليـه وأحاوره وأصلي بجانبه، كانت روحي شـفافة لا تسـتطيع القتل، ويدي مسالمة لا تستطيع أن تمسك سـلاحا وتصـوبه ضد شخص آخر حتى لو كان مختلفًا عني عقائـديا. وبعـد تدريبات عديدة عدت أكثر حزنًا وأكثر صمتًا. لقـد فقـدت كثيرا من الأصحاب ورأيت الحرب بأم عيني وتعرفت علـى أشخاص عديدين كنت كل يوم أكفن أحدهم وألتقـي آخـر، كانت تجربة صعبة وموجعة وكنت أريد أن تستكين روحـي وتهدأ بعد أن بدأت نوبات العذاب تـنهش دواخلـي وتفـتح

ناظري على حقيقة واحدة هي الموت في العراء غريبا وحيدا من أجل هدف أجهله ولا أمسك به. الفرار أو الموت. صمت قليلاً ثم تمعن في المعنى وهو يقول لنفسه:

- نحن لا نستطيع إلا أن نفر من الفرار، لا فـرق بينـي وبين محراك الذي كان يفر إلى قميص نوم عمتنا ومكياجهـا طالبا القوة لنفسه الهشة ولا فرق بيني وبين أمي ريحانة التي تفر إلى الجنون هربا من الواقع الذي يقسو عليها ولم تستطع أن تتخطاه وهأنذا أفر من الفرار إلى فرار آخر لست قـادرا عليه. شعر في هذه اللحظة برغبة عارمة في ضم محـراك إلى صدره لكنه تساءل هل ليحميه أم ليحتمي به....؟

ابتسم حمد الشاب البخاري مبـديا تعاطفـه التـام مـع المجاهدين وكذلك ناصر الذي أوحى له أنه مصدق له رغـم أنه يعلم تماما أن ناصرا رآه وهـو يسـاوم علـى تسـهيل إجراءات عودته ومن كانوا معه من الجرحى أو المرافقين.

عاد ناصر إلى البيت أكثر حزنًا وصمتًا وهشاشة وإعياء تغفو عيناه وهو جالس، ويصحو مفزوعـا مـن الكـوابيس والهلوسات التي تقفز إلى رأسه فيسمع أصوات من رافقـوه إلى الجبال الوعرة والتلال التي نبتت فيها الأشواك، عاد وهم

هناك جثث مشوهة واراها بيديه التـراب. تـذكر أسـماءهم وناداهم بصوت عالٍ وبكى كما لم يبك من قبل.

تحملت زوجته منه الكثير، وحين سألها عن محراك حدثته بأنها لم تعد تراه، ولم تسمع عنه منذ مدة. ألم يكن يبعدها عنه ويرفض أن تذهب إلى بيتهم وحدها إذا كان محراك هنـاك، ولم يرغب يوما أن يزورهم في بيتهم...؟ كما أنها هي ذاتها لا تحبه ولا تطيقه، سألها عن ريحانة فلم تتكلم لكن تعـابير وجهها كانت كمن لا يعرفها. خرج مسرعا يبحث عن آخـر خيط له بحث عن ريحانة عند بعض الأسر تكلموا عن مهيرة الخبلة لكنها كانت هناك منذ سنين وسنين. كانـت ريحانـة تحكي له عنها أنها رأتها في صغرها امرأة مجنونة تـذهب إلى البحر وتكلم نفسها، تتذكر لحظـات، وتغيـب لحظـات أخرى، تبكي ولا تنام، كلما وجدت أوراقًـا وعلبـا فارغـة وضعتها على ثيابها وضفرت شعرها بقصاصـات القمـاش الصغيرة التي تجلبها من مخلفات محلات الخيـاطين حتـى أصبحت ضفائرها ذات ألوان كثيرة وطويلة.

- أين ريحانة إذن...؟

ذهب إلى البحر، إلى محراك، إلى الأسـواق، إلـى كـل البيوت. دق أبوابها وسلم وسأل عن ريحانة، سـألهم عـنهم فحدثوه بأنها مهيرة الخبلة، إحداهن فقط قالت له بأن ريحانة قد ذهبت مع عمتها إلى القاهرة منذ زمن طويل ولم تعد.

قالت: - قالوا إنها أنجبت ولدا آخر اسمه نصور.

وقالوا: - إنها كانت في غرفة السطح في القاهرة لا تأكل ولا تشرب ولا تتحدث مع أحد، مرة. ذهبت مع أم عايدة التي تبيع الذرة بجانب مدرسة ابنتهم مع محراك وتركت نصـور لهم واختفت هناك.

لكن هو نصور.. ضـحكوا جمـيعهم وقـال: إذن أيـن ريحانة....؟

اختفت....؟ كيف.....؟

أليست معتادة الخروج صباحا تظل تسير على قدميها حتى تهلك روحها في السير.. ألم يتكلم محراك بهذا الشـأن عـدة مرات حين كانت تسير معه في شوارع القاهرة ممسكة يـده وهو يصيح ويصرخ من التعب دون أن تعي هـي معاناتـه كصغير، وهي التي اعتادت السير مع عمتها حين أتيا إلـى

القاهرة. كانا يجوبان الطرقات دون هدف غير السير ذاتـه، إنها معتادة ذلك...؟

دخل غرفتها وأشعل الضوء متأملاً كل شيء ثم عاد إلـى زوجته، إنه لا يصـدق أبـدا أن تختفـي ريحانـة، كيـف تختفي.....؟ إن المدينة صغيرة وكل شيء واضح وجلي، كل الأفعال تظهر ولا شيء يختفي حتى السر، حتى الكـلام، ولا يمكن لأحد أن يختبئ حتى قاتل إسحاق، حتى أفعال محراك، وحتى انهيارات ريحانة. قفز ناصر إلى الخارج تتردد علـى مسامعه كلمة: ريحانة جنت، ريحانة اختفـت. هـل كانـت زوجته تعني بالفعل أنها جنت ومـن ثـم اختفـت ريحانـة وأصبحت فقط امرأة مجنونة تعاود سيرة أمها مهيرة أم أنهـا جنت واختفت حقًا، أم أنها اختفت فقالوا: أنها جنت، لكـي لا يبحثوا عنها أصلاً.

أسند رأسه بين يديه، أحس أنه سينهار هو أيضا.. أحـس أن العالم يقفل نوافذه وأبوابه عنها. لماذا لا يجن هو أيضـا أليس من هذه السلالة المجنونة....؟

جلس على الكرسي.. اقتربت منه زوجته فقالت له:

- ناصر، شو فيك.. شو صار أنا ما قصرت بـس مـا أدري شو أسوي، أنا روحي ومحد معـاي وإنـت تركتنـي ورحت ومحراك إنت تعرفه.. وأنا حاولـت الاتصـال بـه وأخبرته سكر التليفون في وجهي بعد ما قال وشو يعنـي إذا اختفت. بترجع ولو ما رجعت أحسن بعد.. ناصر.. لا تزعل أرجوك، أكيد بتكون عند حد.. يمكن نسأل عنها عند أخواتها أو عند عمتها، أو يمكن ماتت ما أدري، تعرف يـا ناصـر تتذكر الأوراق اللي كانت ضايعة من عمتها واتهموا أمك إنها سرقتها تذكرها، وجدوها ظهرت أخيرا.. سمعت عنهـا ولاّ لأ؟ لقطوها عند اللي قام بالانقلاب بعد اختفاء ريحانة بأيـام، وحليلها ما عرفت. لكن الثوب.. ثوب عمتها وجدناه متعلـق فوق إريال التليفزيون في بيتنا وكأنه علم يرفرف. مـا أدري منوه حطه هناك، وأنا مب قادرة أشيله، شو رأيك يا ناصـر تطلع السطح وتنزله من فوق.

الصورة التي لم تلتقط

عدت إلى البيت اليوم، دخلت غرفتي وأقفلتهـا ورائـي، جلست أكتب قليلاً. كان والدي محبطًا كئيبا، قال لـي وهـو ينظر بأسى:

- أنا بموت وما عندي لكم الشيء الكثير.

قلت له:

- يكفي أنك تورثنا اسمك هذا أكبر شيء ويكفي أنك فـي يوم من الأيام كنت أبوي.

دخلت كان هناك حزن يضمني، وحـين مـات اهتـزت الأرض تحت قدمي.

ينخدع ويحب الملائكة

دخلت الغرفة، مددت يدي لأسلم عليه، اعتذر ناصر عـن السلام باليد، ووضع يده على صدره وأحنى رأسه وغض عينه عني قال: - وعليك السلام.

جلست: - كيف حالك يا ناصر وكيف محراك وريحانـة وأهلك....؟

كنت كلما نظرت إليه وجدت ملامحه غارقة في شعيرات ذقنه الممتدة بغير تناسق، وددت بصدق أن أسأله هـل أنـت نصور ذلك الطفل المدلل الذي كان عاريا في الصورة علـى كتف ريحانة....؟ تلك الصورة باهتـة الحـواف....؟ هـل أورثتك هذه المرأة ميراث التناقضات التي أورثتها محراكًـا فلم تنفك منها بل أخذتك إلى متاهات الازدواجيـة والأقنعـة المهمشة حين تتجسد الحقيقة أمامك وهما....؟

سكت ولم ينبس، فعدت أسأله:

- شو ربيت ذقنك كثير، ا يرحم لما صـورناك وإنـت عريان، عندي صورتك وانت طفل عمرك شـهور وكنـت أحملك عريان، ومحراك بملابس الشرطة.

قال: - الصغار يكبرون، هذي سنة الحياة.

قلت لنفسي، ماذا تفعلين الآن ما كنت تتحدين به ما هو إلا وهم. لكن عليك الآن تجميع كل تفاصيل ريحانة الصغيرة والكبيرة وعليك أن تتذكري ملامحها هل كانت حقيقة أم وهما هي الأخرى...؟

قلت: - عرفت أنك ذهبت لأفغانستان شو، رحت تبحث عن ريحانة.....؟

نظر إلي وأدرك أنني أسخر منه، فعدت أسأله: - كل الذين يذهبون إلى القتال لا يعودون إلا في نعوش.

قالت أمي بغضب: - شمسة وبعد وياك، ناصر جاي يسأل عن ريحانة ما في داعي لكلامك هذا.

لم يرد لكن ظلت ملامحه الحزينة صامتة مثله. إنما هناك شيء ما في صدره ما زال يتحرك.

قال: - لا حول ا ، لا حول ا .

استودع أمي التي ظلت في مكانها وخرج.

لم يعد ناصر بعد ذلك. كان يجلس مع أمي في المجلس يضع عينيه في الأرض ويردد لا حول ولا قوة إلا با .

قالت له جدتي:

- يا ابني ريحانة في غرفة السطح مع نصور ومحـراك ما تريد تكلم أحدا.

قال لها نصور:

- أنا ناصر يا عمتي أنا ناصر، كبرت، وريحانة تركـت السطح من ٢٥ سنة وأنا جاي أسأل عنها لأنهم قـالوا لـي رجعت مصر.

فقلت له:

- ريحانة جنت منذ فترة يا ناصر.

نظر للأرض ثانية مبعدا عينيه حتى لا تلاقي عيني قائلاً:

- قالوا أنها جنت، وكلما بحثت عنها لم أجد غير مهيرة.

سألته جدتي:

- هي مهيرة بعدها عايشة، مهيرة ماتت من زمان.

فسألها ناصر: - وريحانة وين.....؟

فرد عليه: - ريحانة....؟ صمتت ثم أضافت يمكن تكون مهيرة الخبلة، ويمكن تكون في غرفة السطح.

تهدج صوته وهو يقول: - هل أمي وهم....؟ صمت قليلاً ثم قال كمن يحادث نفسه:

- إذا كانت حقيقة فأين هي، وإن كانت مجرد وهم فمـن التي أنجبتني، من التي رضعتُ ثدييها....؟

نظر إلي لأول مرة قائلاٍ: - أنت ذاتك ألم تكـن ريحانـة حقيقة في حياتك....؟

تردد على مسامعي صوتها وهي تنشد: " يا ميه يا ميه يا مايه "

نادي ناصر أيضا: " يا اميه يا اميه ".. يا ريحانة

قلت بقسوة: - أنت من ضيعها عبـر توازنـات القـوة المتصارعة في تلال أفغانستان. وذهبت إلى غرفتي أحضرت له مفتاح السجن الذي ظل معي منذ أن تركتنا ريحانة لتعود. أعطيته المفتاح وأنا أقول له: - هذا ما ظل من ريحانة يمكن تقدر تفتح به سجنك.

ابتسم بحزن ينفطر له القلب. إنه ناصر الذي حملته وهو صغير وها هو الآن شخص آخر لا أعرفه مختلـف عنـي تماما. صمت قليلاً ثم قال:

- هل تعتقـدين أن هنـاك حريـة لمـن هـو أجـوف الروح.....؟

هالني هذا التوصيف وشعر بانبهاري فابتسم باستحياء قبل أن يسترسل في هدوء:

- هناك في المغارات انكشفت لي حقائق عدة. ما ينطبـق على الفرد يمكن أن يوصف به مجتمع بشكل أو بآخر ليست ريحانة وحدها من تجد الراحة في عبوديتها بل كلنا.

فقلت له: - هل انضواؤنا تحـت رايـة الإسـلام فـي أفغانستان بمساندة من أمريكا لصالح أهدافها إلا دليل علـى أرواحنا الجوفاء....؟ الكثيرون ممن ذهبوا كانوا يبحثون عن الخلاص لأنفسهم قبل الخلاص من أي شيء خـارجي أيـا كان....؟

لم يعلق، لكنه هز رأسه وكأنه يوافقني الرأي مما أربكني. قلت، ربما كان يكاشفني الآن بالحقيقة. اكتشفت أن ما قدمته من دراسات واضعة نصب عيني تنبيه المجتمع إلى أمراض طبقة ظلمت بانتهاك حقوقها ما كان إلا تعاليا على مآسـيهم ونوال الحظوة لدى من يتشدقون بالحقوق الإنسـانية علـى شاشات العرض السريع فقلت لنفسي إن فجيعتنا تتضـاعف حين تنقلب الحقائق أوهاما، لحظتها فقط نعرف أن الطمأنينة التي كنا نغرق فيها خداع وشرك نختبئ لأن مواجهة الحقائق

كما هي تفقدنا توازننا وتجعلنا نشك حتى في وجودنا فإذا كان ما حولنا وهما فكيف نكون نحن حقيقة...؟

خرج ناصر من بيتنا بعد أن ودع جدتي وأمي، ناظرا إلى نظرة لم أفهمها، تاركًا المفتاح الذي وضـعته أمامـه علـى الطاولة دون أن يمسه، واعدا أن يخبرنا عن ريحانـة فـور توصله لأي جديد. قبل أن يصل إلى الباب الخارجي أخبـر أمي عن الأوراق التي ظهرت وفستانها الذي وجـده علـى سطح بيته.. لم تكترث أمي وقالت له: وشـو الفايـدة مـنهم الحين، لا تهتم بهاي الأشياء خذ بالك من نفسك ودور علـى أمك.

قدمي المورثة

- ١ -

قال طه لهادف:

- لا يمكن أن تحب الروح بدون جسد، الحب بدون جسد حب ناقص، غير مكتمل، الروح تسكن جسدا ولهـذا حـين تحب لابد أن يظهر أو بالأصح يتجه الحـب إلـى الجسـد، شخص ما حتى وإن أحببت روحه الحب بدون جسـد هـذا الحب حب ناقص، رومانسي الروح بدون جسد موات.

قلت موجهة السؤال إليه:

- لأ.. ليه بتقول كده، الجسد بـدون روح جـنس مثـل الحيوانات.

- الحيوانات عندها أرواح أيضا بس نختلف عـنهم فـي قوانين الطبيعة بيننا وبينهم، القوانين تختلف لكـن الطبيعـة موجودة بالنسبة للجسد.

- أنا خلقـت موضـوعا عـن رومانسـيتي وباعتبـار الرومانسية حالة سلبية حولتها لموقف في داخله رومانسـيته الخاصة.

- انت قلقك يسبق طمأنينتك لهذا لا تتنازلين وحياتك مليئة بالاحتمالات.

- أنا فاقدة مشهدية حياتي وطبيعة مشهدي بشكل يتفق مع رغباتي في العالم، رغباتي تتحرك فيها الأزمات بشكل حـي وجميع أدوار الأسرة داخلي وإن هربت منهم حـاروح فـين لكنني لا أستطيع إعلان الكره بسهولة.

- انقلي حياتي من سريتها إلى الإعـلان عنهـا كتعبيـر نفسي.

- وانت بتعمل كده....؟

- بحاول.

- كده أبقى عاملـة زي ريحانـة وزي محـراك.. أنـا ماقدرش.

- محراك يستطيع إعلان الكره بسهولة ولهذا هـو غيـر قادر إلا على الشكل الغريزي، وهـو لا يلتـزم بـأي دور للأسرة بل تهرب منه، قوته مرتبطة بالعقل وهـو ضـعيف وهش. يحاول اختبار شخصه وتأسيس فشله لكـي يضـطر للتعامل بشكل قوي مع الطبيعة. لا يضع القيم في احتمالاتـه وحين يمارسها يبدو كأنه أفضل من يمارسها إذا أراد ذلـك

لكنه في النهاية يتجاوزها تماما ويكون خارجها أيضا لـيس من أجل المتعة لكن من أجل إثارة أفكاره، مشاعره قد تصبح ضده حين تنفلت منه هذه الأفكار السرية التي تتكون بـدون إرادة منه لقوة مضادة فتصبح مفتاح هويته.

بعد خروجه من السجن دخل غرفته نظر في المرآة فلـم يجد نفسه، كان بلا ملامح.

وحين يقلب السكر في كوب الشاي الـذي أمامـه يقلـب أفكاره كلها، بل حياته كلها يحس أنها تـدور حـول مركـز واحد، الملعقة، هي التي تدور حولها الأفكار، أفكاره.

الملعقة كيف تأخذ السكر، كيف تضعه في الكوب كيـف تذيبه دون أن يكون له أو لها أثر إذن كيف تصنع الجريمـة دون إثبات واحد، دون أثر، حين وضع فمه علـى طـرف الكوب رشف قليلاً من الشاي وانتبه إلى أنه محلي بالسـكر. إذن هناك دليل واضح على الملعقة والسكر.

حلمت ريحانة، لم يكن حلما، لم يكن هذيانًا، لأنها عاشت هذا الحلم من خلال أشياء تعطيها الحق في الفائض، فـائض التعاسة، هذا الذي تحياه وترى أن الجميع سبب لـه. ظلـت ريحانة تجتر هذه التعاسة، وتمهد لغليانها فلـم تجـد سـوى

مأزقها مكتوما، لم تجد سوى صرخة انهيار العالم حولها ولا شيء يدل عليها سوى هذا الهذيان، هي تهتم بالعالم وهـو لا يعتني بها، لو عرفت ما تريده لكانت اليوم تمتلـك مفـاتيح سعادتها لكنها كانت دائما تبحث عن مستحيل لا يتحقـق إلا بدمارها، بل وتحقيقه يعني نهايتها بالطبع.

نظرت إلى النيل ونحن نسير أنا وهادف وطـه. نظـرت بعمق وكأنني أغوص داخله، أخرجت المفتاح، قلت لهـادف: هذا هو مفتاح السجن في بيتنا، كان له نظير واحد فقط لـدى مرهون. كان في الخزنة وسرقته ريحانة ولـم تسـتطع أن تحرر المساجين حين فتحت الباب ولـم تسـتطع أن تحـرر نفسها حين عادت ولم أستطع أنا أيضا أن أتحـرر بوجـوده معي ولم يأخذه ناصر.

التقطه طه وقلبه بين يديه وهو يقول: مش قلت لك أريـد أن أقابل جدتك...؟

ابتسمت له، وهو يقول: - كان فيه عرايس نيل بنهديها له كقربان حتى يفيض وكان فيه مفتاح الحياة عنـد الفراعنـة وعندك مفتاح السجن اللي لازم يترمي هنا علشان تتحـرري من سجنك. وفي اللحظة ذاتها التي أسقط طه المفتـاح فـي

النيل، تحولت ابتسامتي إلى حزن شديد، رغبت في الصراخ لكنه أمسك كتفي وهو يقول لازم تتحرري يا شمسة سيبك من السجن ومن المفتاح خليك مع الحياة. بكيت بحرقة وتـركتهم بعد أن تابعت سقوط المفتاح في عمق النيل. لقد اختفى تماما ولن أحصل عليه ثانية. كان دليل خروجـي كمـا الأوراق. لماذا نظل معنيين بالمحافظة على الشكل الخارجي حتى لـو فقدنا داخلنا...؟ حين أعلنت رفضي لتاريخي نقلت التـاريخ من السماوي إلى الأرض، أرض الواقع، كـي أعبـر عـن رغبتي في الاختيار وكانت العاطفة مصدر قوتي، وكل قـوة مرتبطة بالعقل لكن عاطفتي رخوة، لم تسـتطع وحـدها أن تعلن عن نفسها في مواجهة الاجتماعي الذي نشأت فيه ما لم يرتبط بالعقل، كان كل ما يحكونه نوعا من الغطاء والحماية لفكرة التاريخ الذي لم أعشه إلا في الحكاية وها هو الـدليل الوحيد عليها، يسقط أمـام عينـي دون أن أسـتطيع حتـى الصراخ.

- ٢ -

هادف يحدثني وهو حزين، لم أعرف سبب حزنه، سـألته فلم يجب، ظل صامتًا كجدار طيلة اليوم وظللت أنا صامتة لا أعرف ما الذي يحزنه لكنني تكلمت معه عن حياتي، أسرتي، ريحانة، مباركة، الوحيد الذي لم أعاود الحديث عنه محراك والوحيد الذي ظل بملابس بيضاء لضابط شرطة.

وتكلم هادف، أخيرا تكلم. لكنه لم يفتح لي نفسه بكاملها لم يثق بقدرة استيعابي له. يتعامل كمعلم، كأب، كرجـل لهـذا يستمع إلي، ينصحني ولا يتكلم إلا قليلاً وحين يـتكلم كـان يعطيني العسل قطرة قطرةَ ويسحب مني الزبد لأخلص إلـى ذاتي. لكنني لا أحب العسل. لا أحب ملكة العسل أنها تقتـل الذكور من أجل تلقيحها لا أحب أن أكون ملكـة عسـل ولا نحلة شغالة، أنا أحب أن أكون ملكة ليل فقط، أحب أن أكون شمسة ذات المفتاح الأسود الكبيـر، ذات الحكايـات التـي أسقطوها مني دون أن أتخلص منها، ربما مازلت أحـب أن أكون نعامة.

-٣-

شعرت بالارتباك وأنا التي كنت أنتظر العودة إلى وطني لكي أضع يدي على آثار الانتهاك الإنساني الـذي شـاركت فيه، ولا تبرأ من ذنب لم تقترفه. أجد نفسي عاجزة عـن أن أمد يد العون لمن شاركني أيام الطفولة والغربة وأتي لاجئًـا باحثًا عن ريحانة أمه لكي أنقذه من ذلك الاختلال الذي بدت عوارضه حادة عندها، ومستترة لديه لملمت ذاتـي وألقيـت عليه السؤال كأنني أتخاص منه: - ناصر أنت جاي تسـأل عن ريحانة...؟

تلجلج وهو يقول: - نعم

سألته: - هل كنت تظنها هنا لدينا في القاهرة وهي التـي حاربت من أجل أن تعود...؟

فقال: - لا شيء يمكن الجزم به، الذي أعرفه أننا نتعذب بحرياتنا جميعا كما كانت تتعذب بعبوديتها.

سألت نفسي لماذا هذا الصمت وعدم القـدرة علـى إدارة حوار على أرضية مفتوحة، وأنا التي أكتـب عـن الآثـار النفسية للعبيد بعد الانعتاق وحدود مشاركتهم في المجتمعـات الجديدة، أليس الموضوع قديما بالنسبة لتطـور المجتمعـات

الآن؟ وإذا كانت النظريات والرؤى التي تقدمت بهـا علـى المستوى النظري قد أتاحت لي درجة الامتيـاز، فمـا هـي قدرتي على تطبيقها الآن على نموذج مادي...؟ أين قـدرتي التشريحية التي تصل بي إلى مركز الداء...؟

قلت لنفسي: إن الفرصة مهيأة أمامـك لتتبعـي الفـرض النفسي في ناصر والممتد كالحبل السري إلى ريحانة التـي ورثته عن والدها سعيد العبد الذي ورثه الأجداد. ماذا يعنـي أن يبحث عن ريحانة بعد عودته من أفغانستان؟ هـل وجـد ذاته ليبحث الآن عن ريحانة...؟

بدأت تحرير البحث الذي أشـتغل عليـه حـول الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المعتزلة.

بدأت بكتابة بضع فقرات حول ثورة ظفار.

بدأت الكتابة حول القواسم: هم قوة بحرية لها أكثـر مـن أسطول بحري، أسماهم المستعمرون القراصنة.

أخذت غرفة السطح لأجعلها غرفة خاصة بي.

ومن بعيد تناهي إلى أذني صوت مـريم يشـق عبـاءة السماء:

ولكن مثلي.. هل يذاع له سر.....؟

****

تنويه

تم الاعتماد على بعض المراجع فى الرواية منها: رواية بجعات برية، كتاب الإمارات العربية ، والخط الجوى البريطانى إلى الشرق ، وبعض الكتب التاريخية ، والحكايات والأغاني المروية.

ميسون صقر

- شاعرة وفنانة تشكيلية من الإمارات/ الشارقة.
- تخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.
- أصدرت عددا كبيرا من الدواوين منها: هكذا أسمي الأشياء – جريان في مادة الجسد – الآخر في عتمته – السرد على هيئته – رجل مجنون لا يحبني.
- أقامت عدة معارض تشكيلية منها: الوقوف على خرائب الرومانسية – السرد على هيئته – الآخر في عتمته.
- شاركت في عدد كبير من مهرجانات الشعر والفن التشكيلي في كثير من الدول العربية.

هذه الرواية

" ريحانة " رواية ذات مذاق خاص، ولدت من رحم أحداث مضت، لتعيش واقعا تغذيه المتناقضات والتساؤلات..

أبطال الرواية نماذج ثرية دراميا.. فريحانة عبدة لا تملك من أمرها شيئًا، تترك موطنها بصحبة سادتها حاملة طفليهـا إلى مصر، تاركة زوجها وبداخلها أفكـار تمـور وطمـوح للعودة.. هل يتحقق حلمها في ظل الأحداث..؟

وشمسة سيدة صغيرة، يتفتح وعيها على صراعات حول السلطة واستعمار يتسلل في جنح الظلام.. ترحل مع أسرتها إلى مصر، وتخوض غمـار تحـولات أسـرتها السياسـية والاجتماعية، فتبحث لنفسها عن منطق..

شمسة وريحانة خطان متوازيان كل منهمـا فـي مقابـل الآخر وذاهب في اتجاه معاكس.

" ريحانة " عمل أدبي يظهر في شكله الروائي بعد فتـرة اختمار طويلة، لذلك جاء مشحونًا بالـدلالات والإشـارات.. وإذا كانت كاتبته قد قالت في أشعارها:

" أقضى اليوم في تلمس أحداث تمضي أتحدث لأراني "

فإنها اليوم تحكي لنراها.. " ريحانة ".. دعـوة للقـراءة والتأمل.

****

تمت

ريحانة

بقلم

ميسون صقر

الجزء الأول

الأجنحة لا تترك أثرا في الهواء بل تهيئ الروح للانفلات

الطفل الموجود في الصورة

- ١ -

كانت "الرولة" في الصورة القديمة للجد الأول موجـودة، يستظل تحتها المحتاجون والآتون بمظالمهم وشكاواهم حتـى طلوع الحاكم فتشهد على خروجه وصدور الأحكـام، كمـا تشهد على ضرب المساجين فوق المدفعين دون أن تنطق.

كان بكاؤها جذورا تمتد في الأرض حتى السجن، فتلامس بعض أجسادهم بحنان أم رءوم.. لهذا حين تغير الحكم هـدم الحصن وقطعوا "الرولة" أيضا، ولأنها رمز أقاموا تمثالاً لها من الأسمنت بدلاً منها.

- ٢ -

في الدور الأسفل داخل الحصن كانـت غرفـة ريحانـة والعبدات الأخريات لا تختلف كثيـرا عـن بـاقي الغـرف المتراصة في الممر، وحين تنام تسـمع أصـوات صلصـلة

السلاسل في أقدام المساجين الذين يتحركون من غرفة السجن إلى الحمام بجانب الباب الكبير في الحصن.

كل شيء داخله: الحاكم، والسلطة، والمساجين، والعبيد، الكل داخله، ومرهون هو الوحيد الذي في يده مفاتيح كل شيء: البوابة الكبيرة، الباب الصغير داخل البوابة الكبيرة، السجن – الغرفة الكبيرة عند مدخل الحصن في اليسار –، ولا شيء أكثر من كونه حارسا يقف برشاشه الذي لا ينزل من على كتفه أبدا، هو وآخران يحرسان الحصن من الخارج بجانب المدفعين المتصدرين بوابة الحصن الخارجية، اللذين يجلد عليهما المساجين كل صباح.

هناك حراس آخرون يداومون على حراسة الحصن من أعلى، فوق "المحلوسة"، ذلك البناء القديم الذي يرجع بناؤه إلى فترة سابقة ولم يتجدد، ولم يتم تغييره. هؤلاء الحراس حين يجولون بأنظارهم من أعلى على القادم يمكنهم رؤية البحر من جهة، ورؤية "الرولة" من جهة ثانية، هذه الشجرة – شجرة الجميز – ارتبط وجودها بوجود الحصن، فلها التاريخ نفسه، وهي قريبة من عمره، لا تملك من السلطة سوى المحبة. فهي أعرق وأكبر شجرة، ووحيدة تضرب

جذورها في عمق الأرض، داخلة إلى أعماقها، ومتجذرة في المكان، وممتدة في جميع البيوت القريبة من القصر. حيـث نجد بعض عروقها في هذا البيت أو ذاك. وهي مصدر البهاء الوحيد، كل من يلفظه الحصن، يستظل تحتها. ويستظل تحتها أيضا من يأتون إلى الحصن فينتظرون إلى أن يفتح مرهون شُراعتي البوابة المدقوقة بفنية عالية، ومسامير ترسم أشكالاً وخطوطًا وهندسة جميلة، البوابة الكبيرة التي لا تفتح إلا في الأعياد وعند حضور ضيوف كبار لدخول الأهالي والضيوف أو لخروج السجناء إلى الباحة الخارجية، أو لخروج موكـب الحاكم أو خروج بعض من كان بالداخل.

وها هو قد هدم الحصن، هدموه ليهدموا تاريخه الحـالي ويبنوا مكانه حصنًا كما كان قديما كي يحمي التاريخ الحديث منه. حيث أزالوا القصر بكامله عام ١٩٧١ ولم يتبق منه إلا البرج الصغير "المحلوسة".

تحصن فيه أجداد الحاكم، ناموا وقاموا وفتحوا صـدورهم للقتال تنازعوا وتحاكموا قاتلوا واقتتلوا. هو رمـز السـلطة المتنازع عليها. وكان الحصن بيت الذاكرة وذاكرة لتـاريخ قديم يعود تاريخه لعام ١٨٢٠ بناه الشيخ سلطان بن صـقر،

وكان كل حاكم يضيف إليه ويوسعه حتى بلغ أوجه في عهد سلطان بن صقر الثاني ١٩٢٤.

ظل يتعاقب عليه الحكام منذ الأمير القاسم بن راشد بـن محمد القاسم ١٥٧٥ – ١٦٠٠، ثم محمد بن القاسم، ثم سيف بن علي بن صالح، ثم رحمه بن محمد بن القاسم، ثم مطـر بن رحمه القاسم، ثم رحمه بن مطر بن رحمة، ثم مطر بـن رحمه، ثم راشد بن مطر، ثم صقر بن راشد، ثـم سـلطان صقر بن راشد، خالد بن سلطان بن صقر، ثـم سـالم بـن سلطان، ثم صقر بن خالد، ثم خالد بن أحمد، ثم سلطان بـن صقر، ثم صقر بن سلطان..

له بوابة تبدو أمامها وكأنك أمام حكم أبدي يجـرك إلـى الماضي، حيث يحكي عن القبائل التي تنزح إلى الخليج مـن شبه الجزيرة، وتستقر في السكن هنا عند هذه البوابة، وحين تخرج منها تجد حريتك في الطريق وكان البشـر يمـلأون الشوارع بجانب الحصن، وكل يوم يساق المسـجونون فـي الظهيرة أمامهم، كي يجلدوا على المدفع الرابض والذي سمي بالرقاص ويتوسط ساحة الميدان أمام تلك البوابة. كان مدفعا برتغالي الصنع قديما، استولى عليه الشيخ سلطان بن صـقر

في معركة بين القواسم وآل بوسعيد وكان مداه ١١ كـم ولا يستعمل إلا في الأعياد وسمي بالرقاص لاهتزازه عند دفعه.

وفي المناسبات العامة والأعياد يجتمـع الأفـراد تحـت "الرولة" وتبدأ المراسم.

هنا، في هذا العيد رأت حبيبا تحت "الرولة" مباشرة، وهنا أحبته، ومن هنا دخل إلى البوابة ثم إلى الحصن ليكون سائق الحاكم وزوجا لها.

كان حبيب قد أتى من عمان عن طريق "خورفكان" إلـى الإمارة، وسط تضاريس قاسية وكثبان رملية وصحراء قاحلة إلا من أشجار الغاف والسدر. مارا بساحل الباطنة وهو سهل عند مدخل "خورفكان" به مزارع للتمباك الذي يصـدر إلـى أفريقيا والخليج العربي. من الباطنة أتى حبيب نازحـا مـن عمق عمان الداخل ليدخل إلى الحصن مباشرة – بيت السلطة – وهناك أصبح السائق المقرب إلى الحاكم، وزوج ريحانـة عَبْدَة زوجة الحاكم.

كما تشير المصادر:

" ألزم الإنجليز الشيوخ – حكام الإمارات – أولاً بمد يـد العون لهم في مراقبة ما يجري في البحر، وثانيـا بـإعلانهم

منح حق اللجوء لأولئك الذين يعتبرونهم عبيدا بـأن يطلبـوا حماية المندوب السامي أو القنصل البريطـاني أو إذا كانـت هناك ممثلية سياسية لـبلاده، وعلـى هـؤلاء أن يحمـوهم ويعتقوهم ويسفروهم إلى بلدانهم الأصلية. وعليه فقد صدرت التعليمات إلى الوكيل الوطني المقيم في الشارقة أن يعتق أي فرد يطلب اللجوء والعتق – فشهدت الثلاثينيات مـن القـرن توافد عدد كبير من أولئك العاطلين إلـى مقيميـة الشـارقة وغيرها من المقيميات في الخليج وأفادت التقارير البريطانية أن معظمهم لم يأت طلبا في الحرية أو العتق بل للتخلص من الديون المعلقة برقبته لسيده التاجر ".

– ٣ –

" أطلقوا على الإمارات أسماء ومسـميات منهـا "سـاحة القرصنة" و"المشـيخات المتصـالحة"، و"إمـارات السـاحل المتهادن"، و"ساحل الهدنة". فلقد كانت بريطانيا تزعم منذ أن وجدت لها وكالة سياسية في منطقة الإمارات عام ١٨٢٠ إثر تحطيمها قوة القواسم البحرية، التي كانت تهدد أساطيلها التي تمخر مياه الخليج بأنها تتبع سياسة عدم التدخل في الشـؤون الداخلية أي أن سبب وجودها السياسي في أرض الإمـارات

هو للمحافظة على أمن البحار، وأنها لن تتدخل فيما يجـري في الداخل من قضايا وأحوال".

كانت ريحانة قد رحلت مع العائلة التي تمتلكها، تركـت زوجها حبيبا وذهبت معهم، لم تستطع أن تخالف أمرهم حين أمروها بأن تهيئ نفسها للرحيل. هي عبدة تـؤمر فتطيـع، أمروها لأنها عبدتهم، ولم يأخذوا حبيبا معهم.

أعدت ريحانة ثيابها وثياب ابنها، بعد أن قررت العائلـة الرحيل إلى القاهرة إثر انقلاب على الحاكم من قبل ابن عمه، الذي ظل يترصد له، ويتحالف مع الإنجليز آنـذاك لتنحيتـه وأخذ السلطة منه، كان الإنجليز لا يحبون عمها الحاكم لأنـه كان ضدهم دائما، يساند الثوار في ظفار وينتمي إلى حركـة القوميين العرب، بل ويذهب إلى القاهرة التي كانـت كعبـة الثوار والمناضلين، لكي يساندوه ضـد الاسـتعمار وضـد الجهل، وحين اتفق مع جمال عبد الناصر على أن يزور عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية الشـارقة ليـرى عن كثب أحوال المدينة ولإعداد تقرير حول الأوضاع داخلها والترتيب لتوسيع تجربة فتح مدارس التعلـيم والتـي بـدأت

ببعض المدارس الصغيرة وبأعداد متواضعة، كان يطمح في معونة مصر أيضا في أشياء عديدة أخرى.

ما زالت ريحانة تتذكر حين طلب الإنجليز من الحـاكم أن يعتذر عن استقبال عبد الخالق حسونة، وبدلاً من أن يـذعن للأمر بدأ الإعداد لاستقباله كما يليق بحـاكم دولـة آنـذاك. سمعت الحوار الذي دار بين عمها الحاكم وعمتها حين طلبت منه أن يتريث ولا يواجه الإنجليز بعناد زائد، لكنه برغم ذلك أصر على أن يفعل ما يراه دون إذعان لهم، ودون أن يأبـه لتحذيرات أولي الأمر الذين يعلمون مقدار ما يترتب عليه هذا الاستفزاز، ودون الإصغاء لما تنصح به زوجته.

هيئ المطار للاستقبال وانطلقت المظاهرات العديدة التـي رتب الحاكم بنفسه خروجها، بل وقامت حدلة وبعض النسوة في الحصن بحياكة لباسين لابنته شمسة وصـديقتها شـهلة لحضور الاستقبال وتقديم الورد للضيف، حال نزولـه مـن الطائرة. وما زالت تتذكر كيف ألبست عمتها الصغيرة شمسة اللباس الذي على هيئة علم مصر أمـا صـديقتها فألبسـوها اللباس الذي على هيئة علم إمارتها، وكان علم مصر ذا ألوان كثيرة أبيض وأحمر وأسود، وبه نجوم خضراء في المنتصف

فرحت به شمسة، أما شهلة فكانت تلبس علم مدينتها الأبيض ذا المربع الأحمر في الوسط وكانت ريحانة غير بعيدة حـين ارتفعت السيارة وبها الأمين العام، والحاكم، وابـن الحـاكم، وبعض كبراء المدينة على أكتاف الهاتفين بالتحرر والمنادين بأن تساعدهم مصر في ذلك. وكأن الزيارة انقلبت من مجرد فتح مدارس أكثر ومساعدات عينية إلى المطالبة بمسـاندتهم ضد الإنجليز، ورأت عمتها الصغيرة وهي معلقة من إحـدى ذراعيها في الهواء لتستقر داخل السـيارة المحمولـة علـى الأعناق. كان السائق هو حبيب، وكان سعيدا وخائفًـا. رأت كل ذلك وهي الآن تجمع ملابسها وملابس ابنها لتغادر مـع عمها والعائلة، بعد أن أعد الإنجليز مع ابن عم الحاكم انقلابا سريعا حاسما، بعد أن فشلوا في ترويض عمها الحاكم ولـم يستطيعوا نسيان الجهر بالتحرر والاستقلال مخافة إن تناسوا تطفو الرغبة، وتعلو الأصوات في عدة أماكن أخرى متشبهة بما فعله وربما أكثر أيضا.

هي الآن ترحل معهم حاملة طفلها ابن الثالثة وحاملاً فـي شهرها السادس، ها هو هذا الطفل الموجود في الصورة مـع ابنة العائلة شمسة وهي تحمل أخاه الرضيع عاريا فيما يختال

هو بملابس ضابط شرطة، وكانت مـن الملابـس المحببـة للأطفال آنذاك.

" نصّور" هذا هو اسم الطفل الصغير المدلل ناصر الـذي ولدته ريحانة في القاهرة فسمي بهذا الاسم تيمنًا بجمال عبـد الناصر، أما محراك، محراكوه فهو الطفل الآخر ذو الملامح الشرسة والطباع الفاسدة منذ طفولته والذي يصـر علـى أن يلبس ملابس ضابط شرطة بيضاء ونظيفة دائما.

لم تربهما ريحانة كثيرا، كانت الأسرة جميعها تربـي محراكًا ونصّورا بعد وصولهم إلى القاهرة في رحلة طويلـة وشاقة، يستقرون فيها على أمل العودة التي ظلوا ينتظرونهـا ولا يعلمون متى ستأتي. هم رحلوا لوضع سياسي لا يعلمون متى ينتهي، لكنهم أتوا إلى القاهرة، كعبة المناضلين كما كان سيدها يقول دائما، وفي فترة انتظارهم انشغلوا بتربية طفليها، فبعد أن كان بيتهم يعج بالأطفال والكبار والسادة والعبيد، ها هم وحدهم هنا يدخلون حياة غريبة يكتشفون للمـرة الأولـى أبجدياتها ويعانون من الوحدة والفراق حتى وهـم يتناسـونه بالتذكر الدائم في جلساتهم اليومية، إنه واقع مخالف لطبيعتهم

وعاداتهم، لذلك ينشغلون بقضاء يومهم في العنايـة الفائقـة بأمور صغيرة.

أما هي، ريحانة، فبالإضافة إلى الاعتناء بطفلـة العائلـة شمسة – ابنة عمتها – الصغيرة، كانت تعتني بأمور البيـت والخدم وعمها وعمتها.

عمها وعمتها.. هكذا كانت ريحانة وجميع العبيد ينـادون من يمتلكونهم وأطفالهم وعائلاتهم جميعها، لهذا كانت ريحانة تنادي ابنة عمتها، الصغيرة شمسة، بعمتي شمسة أيضا.

" ولم يكن البريطانيون موفقين في معالجة الأوضاع التي يتدخلون فيها فحينما نادوا بالحرية والعتق للعبيـد وفتحـوا الباب على مصراعيه لهروب عدد كبير من الغواصين مـن أسيادهم فإن هؤلاء الهاربين وجدوا أنفسهم بعد فترة يعيشون في العراء بدون مسكن أو مأكل ففضلوا العودة إلى أسـيادهم والعيش في كنفهم".

في عام ١٩٢٩ كان عدد الأشخاص الذين طلبوا حـريتهم ٤٧ شخصا منح الإنجليز منهم ٢٧ شخصا فقط. " أمـا فـي عام ١٩٣٤ فكان عدد الأشخاص الذين طلبوا حريتهم شخصا واحداً ".

امتلأ البيت بالضوضاء والتساؤلات العديـدة والصـراخ والعويل، امتلأ بالنساء والرجال علـى السـواء بـالحراس وبالجنود الإنجليز أيضا الذين التفوا حول الحصن.

شردت ريحانة قليلاً وبدت كأنها تتـذكر حلمـا سـحيق الأغوار حين لفتْ حول خصر وظهر عمتهـا أوراق عمهـا الرسمية عند رحيلهم مثلما لفت عمتها شمسة من قبل بـالعلم المصري، فحين سمعت عمتها برحيل زوجهـا لـم تنتظـر لحظة. أمرتها أن تنسل من الجمع. ذهبت معها وحدها إلـى غرفته، فتحتا خزنته وأخذت عمتها الأوراق الموجودة بهـا، وضعتها في قطعة قماش ثم ساعدتها ريحانة على لفها جيـدا حول خصرها وعلى ارتداء ملابسها. أقفلت عمتها الخزنـة وأخذت المفتاح معها ووضعته في صدرها، كانتا قد وجـدتا مفتاحا كبيرا أسود داخل الخزنة عرفت ريحانة أنـه مفتـاح السجن الذي كان هناك مفتاح مثله لدى مرهـون الحـارس فأخذته وخبأته هي أيضا في صدرها مثلما فعلت، لـم تنتبـه عمتها لما فعلته ريحانة كانت منشغلة بحالها حيث انتفخـت

بشكل ملحوظ، لكن مع الضوضاء والجلبة الحادثـة لتسـفير زوجها لم يلحظ أحد سمنتها المفاجئة.

بدأتا بوضع ملابس عمتها وعمهـا الـذي رحـل قـبلهم وملابس عمتها شمسة أيضا في الحقائب وقبـل أن تغلقهـا، فتحت عمتها دولابها وأخرجت ثوبها الجديد الذي أعدته منذ شهور لحفل خاص بعد عودة ابنها وابنتها اللذين يتعلمان في مصر وبمناسبة تحولهم إلى بيتهم الجديد، تأملت عمتها الثوب بسرعة ووضعته داخل إحدى تلك الحقائب.

تذكرت كيف حصلت عمتها على ذلك الثوب حينما كانوا على ظهر مركب عند عودتهم من الهند حملت عمتها بابنتها شمسة وسط الماء. وكان على ظهر المركب مع عمها بعض التجار. كانت عمتها قد رأت بعض الأقمشة الملفوفة تـدخل إلى الكابينة السفلية للمركب فتعلق قلبها بقطعة قماش سوداء ذات نقش ذهبي على أشكال أوراق شجر تلمع. طلبت مـن زوجها أن يهديها لها بمناسبة حملها فارتبك وأشار إلـى أن هذه الأقمشة ليست ملكه وإنما هي ملك للتجار الذين معه ولا يعلم كيف يطلبها منهم. كانت تسمع صـوتها وهـي تدنـدن بأغنية أم كلثوم:

" على بلد المحبوب وديني ..زاد وجدي والبعد كاويني "

وكان عمها يعلم أن هذه الأقمشة يخبئ الثـوار والتجـار بداخلها بعض الأسلحة وبعض الذهب المهرب من الهند إلـى المنطقة، ظلت عمتها تلح عليه طيلة عودتهم، وعند وصولهم فاجأها بها دون أن يخبرها بما كانت تحمله داخلها.

فرحت عمتها بها كثيرا وظلت تحتفظ بها وفي كل مناسبة تخرجها لتفصلها، ثم تغير رأيها وتعيـدها مكانهـا بعـد أن تضمخها بالعطر والبخور إلى أن حان وقت تحويلهـا إلـى فستان مناسب لها، له مناسبته الحقيقية التي تستحق أن تلبس فيه مثل هذا الثوب الثمين والجميل، والذي لم تر مثل جماله عند كل السيدات اللواتي تعرفهن.

فصلت عمتها قطعة القماش بحيث تكـون ثوبـا مفتـوح الصدر والظهر على شكل سبعة، مكتنزا قليلاً عند الخصـر لكنه واسع من أسفل، تتلألأ عليـه أوراق الشـجر الذهبيـة اللامعة. وتتسع تدويرة الصدر بحيث تستطيع أن تلبس ذلـك العقد اللؤلؤي، الذي أحضرته من الهند وظل معلقًا في عنقها فترة طويلة من العمر.

" كان عالم اللؤلؤ هو العمود الفقري لجميع مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية عند أهل الإمارات والخليج العربي، فهم الذين غاصوا في أعماق البحـر واسـتخرجوا اللؤلـؤ وصنعوه وباعوه وتاجروا به فقدموا للعالم أفضل جـواهره، وهكذا وعلى محور عالم اللؤلؤ دار نظـام العمـل ونظـام التقسيم الطبقي والاجتماعي والكثير من الأنمـاط المعيشـية والممارسات اليومية والحياتية والفكرية عندهم. فلما أفل نجم اللؤلؤ حار الناس في أمرهم وبرزت مشكلات مالية خانقـة ومشكلات اجتماعية كثيرة كانت أهمها مشـكلة البطالـة، إذ سرعان ما وجد الكثير من النـاس خاصـة طبقـة التجـار والممولين أنفسهم بدون عمل، فراحوا يبحثون عن مجـالات عمل جديدة اتسمت معظمها بالمخاطرة، مثل تجـارة جلـب الأيادي العاملة من أفريقيا وبعض مناطق بلوجستان وتجارة الذهب مع الهند وتجارة السلاح والطعام مع إيران.

فالأولى كانت عندهم تجارة عبيد ورقيق، والبقية كانـت عمليات تهريب، لذلك فقد حرموا تداولها. غيـر أن التجـار والأهالي لم يكترثوا لذلك فراحوا يمتهنونها لكن الذي حصل بعد ذلك هو أن طبقة الحكام الذين سبق لبريطانيا أن جعلتهم

يوقعون على معاهدات يحرمون فيها هذا الضرب من الأعمال، أجبروا على عدم ممارساتها. فكان أن تحسنت أحوال التجار المادية بينما تدهورت أحوال الحكام.

لكن الصورة تغيرت بعد ذلك عندما جاء الإنجليز بموضوع الخط الجوي وطلبوا امتيازات من الحكام لقاء مبالغ مالية وأحكموا قبضتهم على فعاليات التجار ".

تذكرت شمسة خروجهم وهي تروي لهادف في أول تعارف بينهما في الجامعة عن طبيعة استقرارهم وكانا يجلسان أمام مكتبة جامعة القاهرة.

لبست أمي عباءتها السوداء فوق ملابسها غطت نفسها بالكامل حتى وجهها وضعت عليه وشاحا خفيفًا أسود وخبأتني معها داخل العباءة، كنت خائفة من العسكر والجنود الإنجليز الذين امتلأ بهم صحن الحصن وعند البوابة، لم أستطع أن أصرخ مثلما كنت أفعل دائما في مرهون حتى يسمعني ويفتح الباب الصغير لي وأنا قادمة أو ذاهبة من الحصن، ولم أستطع أن أذهب إلى جانب باب غرفة السجن وأدق عليه بأصابعي الصغيرة وأنا أسمع أصواتهم وصلصلة السلاسل في أقدامهم، ولم أستطع أن أشاهد وجه الحرس –

حرس والدي وهم يحملون الرشاشات فأركض وأهزها وهي على أكتافهم وهم يرتجفون خائفين أن أضع يدي على زنـاد أحد الرشاشات فتنطلق رصاصة طائشة تصيب أحدا ما، كما أصابت رصاصة ما طائشة من قبل أحد الرعايا فمات فـي الحال، واتهم حاكم المنطقة بقتله بلا دليل إلا دليل واحد وهو أن الإنجليز أرادوا أن يبعدوه فترة عن الحكم فأمسكوا بـه، وهو الحاكم، وسجنوه في عدن سبع سنوات عاد بعدها حاكما وكأن شيئا لم يكن.

خبأتني أمي تحت العباءة لخوفي بعد أن ظللت أبكي كثيرا وأنا أشاهد صورة أبي التي كنت أحملها وأنا صـاعدة سـلم الدور العلوي كي أدخل إلى غرفته تتكسر أمـامي وأسـقط متدحرجة بعد أن دفعني أحد هؤلاء الجنـود مـن الأعلـى فسقطت صورة أبي وسقطت متدحرجة قبلها، وبعد أن رأيت مسدسا موجها لرأسي مهددا أمي حتى تعطيهم مفتاح خزنـة أبي لينظروا فيها. لم تعطهم والدتي مفتـاح الخزنـة ظلـت محتفظة به في صدرها مدعية أنها لا تعرف عنه شيئًا، حتى لا يكتشفوا خلوها من الأوراق قبل خروجها مـن الحصـن. خبأتني لخوفي ولرغبتها في إشغال الآخرين بما يتحرك تحت

العباءة فلا ينتبهوا لكبر حجمها المبالغ فيه مع تلـك الأوراق التي أخرجتها عند وصولها إلى القاهرة ملوثة ببعض دمهـا بعد أن جرحتها الأوراق فظلت تتداوي لعدة أيام.

خرجت في ظلام العباءة يومها لم أودع أحدا ولم أشـاهد شيئًا من المكان سوى لحظة السقوط العنيفة ولحظة ركـوب الطائرة التي تقلنا إلى القاهرة. رأيت وأنا أخـتلس النظـر، ريحانة تتسلل بجانب باب حجرة السجن وتفتح بابها بهدوء ثم تعود بجانب أمي، لكن مرهونًا الحريص دائما، أحس بصوت صرير الباب وهو ينفتح فركض مسرعا إليه ظنًا منـه أنـه نسي قفله، ثم تذكر أن ريحانة قد فعلتها من قبل. أقفل البـاب مطمئنًا أنه ليس هناك أحد من المساجين يستطيع الهرب حتى في ظل هذه الجلبة الحادثة، ذلك لأنهم مقيدون بتلك السلاسل الحديدية التي تعيق حركتهم، والتي تسمع صلصلتها بقوة إذا ما حاول أحدهم التحرك.

نظر بتحدٍ إلى ريحانة التي بادلته النظرة نفسها، إنه يعلـم أنها هي التي فعلت ذلك، إنها لا تكف عن رغبتها في إطلاق سراح المساجين وفتح الأبواب المغلقة حتى وإن كـان بـاب الحصن مثلما فعلت من قبل. كل مرة تسرق منه أحد المفاتيح

وتفتح الأبواب وحين يمسكها متلبسة يذهب بها إلـى عمتهـا ويشتكي منها، تزجرها عمتها وتضربها أحيانًـا مهـددة إن عادت لفعلتها ستخبر زوجها الحاكم الـذي سـيجلدها أمـام الحصن، وها هي لم تتب برغم خوفها السابق.

عند وصولنا إلى القاهرة، دخلت أمي إلـى غرفـة فـي المنزل الذي كانت ضيفة فيه ومعها ريحانة، خلعت ملابسها وأخرجت تلك الأوراق التي وضعتها داخـل حقيبـة جلديـة سوداء صغيرة ملفوفة مع فستانها الأسود ذي أوراق الشـجر الذهبية إلى حين عودتنا.

من هذه الأوراق بعض رسائل بـين الحـاكم والمعتمـد الإنجليزي، أو بينه وبين بعض الحكام في الخليج أو المنطقة العربية ومنها أيضا رسائل إلى جامعة الدول العربية وبعض الأوراق التي تدل على حقه في الحكم بعد وفاة والده، كما أن بعضها الآخر هي أوراق خاصة بأملاكه المتنـاثرة والتـي صودرت فور خروجه. كذلك أختام الإمارة وبعض الأحكـام الصادرة وبعض جوازات السـفر أو شـهادات المـيلاد أو الطوابع الأولى التي صدرت للإمارة أو شهادات الجنسية أو أوراق المراسلات المطبوعة والمختومة.

قلة حيلتي

- ١ -

أنا ملك لعمتي، لهذا فأنا لست أمة لسيدي، لست مما ملكت يمينه ولم تهبني عمتي له، ومن ثم لا يستطيع أن يطـارحني الفراش، لكنني أخدمه كعبدة مخلصة وأمينة ولهذا اسـتطعت أن أتزوج حبيبا دون أية عقبات، عبدة ورثتني عمتـي مـن أبيها وحملتني معها كأمتعتها حين تزوجت. وحـين رحلـت كنت في البداية سعيدة بالسفر والمكان الجديد وكـأنني فـي رحلة سأعود منها وكنت أحمل داخلي حزن خروجنـا أنـا والعائلة بشكل متعسف، وحزن فراقي لزوجي، ومع طـول الوقت وزواج حبيب من فطوم فقدت السيطرة على نفسـي. دخلت حالة اكتئاب شديد، انزويت عن العائلة بـل أظهـرت عدوانية شديدة تجاههم خصوصا مع ازدياد إحساسي بالفرق عن والدي سعيد وقلة حيلتي تجاه زواج حبيب، وتربية ولديه بدون أب بالرغم من وجوده في بلد آخر واهتمام العائلة بهما وبي، العائلة التي تمتلكني، لكن للصبر حدودا وللملكية حدودا أيضا.

أنا أنتمي لهذه العائلة لا أعرف غيرها منذ طفولتي كل ما أعرفه أن أبي سعيدا كان خادما مطيعا لهـم ورثـوه عـن أجدادهم، أصبح العبد المشترى ملكًا لابن الحاكم ثم للحـاكم ذاته بعد وفاة أبيه ككل العبيد الذين كانوا معه فـي الحصـن ذلك الوقت.

لم أعرف أمي مهيرة، لكن أبي عهد بتربيتي إلى إحـدى العاملات بصناعة البراقع تسمى عذيجة وكانت تحـب أبـي حبا كبيرا، تزوجها ثم تركها وتزوج مباركة بعد أن كبـرت ودخلت الحصن كعبدة لصـاحبته التـي تعهـدت بتربيتـي وتزويجي وتربية اثنين من أطفالي حتى أنها حتى رحلت مع عائلتها، لم تأخذ معها غيري باعتباري التي تربيت في كنف هذا البيت، الحصن، وأنني بمثابة الابنة والعبدة أيضا، أعرف أسرارهم وأحفظها فمن سيكون أكثر حرصا عليهم في الغربة مني.

– ٢ –

بالطبع كنت سعيدة بالسفر والإقامة الجديدة. إنني أكتشف عوالم جديدة على، أرى نسوة يضعن ألوانًا على وجـوههن، يقصصن شعورهن، ويلبسن ملابس قصـيرة، وأحذيـة ذات

كعوب عالية، يحملـن بأيـديهن حقائـب صـغيرة وينـتفن حواجبهن. كنت قد رأيت مثلهن حين أتت بعض المدرسـات من القاهرة للمرة الأولى في مدرسة في الشـارقة. ذهبـت وجميع النسوة إلى بيت الحاكم لنرى هؤلاء النسوة المعلمات اللاتي حضرن من مصر ليعلمن الفتيات القراءة والكتابة بدلاً من المقرئين الذين يحفظونهن القرآن ويجلدونهن إن إخطأن.

كان عرسا حقيقيا نساء بلا رجـال يـأتين ليسـكنّ فـي المضيف وهو مسكن للحاكم يجعله كاستضافة لهن أثناء أداء واجباتهن المهنية لكنني لم أحتك بهن هكذا مثلمـا هنـا لقـد تغيرت الحياة حولي. أشكال النساء والرجال أيضا، أحاديثهم ولهجتهم، طريقة أكلهم ونوعية الأكل. للمرة الأولى أعـرف ما يسمى " ساندويتش "، عندما عادت عمتـي شمسـة مـن المدرسة وهي تبكي وتطلب أن أعطيها " ساندويتشًا " معهـا في المدرسة لأنها تجوع وجميع التلاميذ يحضـرونه معهـم سألتها:

- شو " الساندويتش " هذا؟

فقالت عمتي شمسة:

- خبز داخله شيء.

سألتها:

- أي شيء؟

فقالت عمتي:

- إيه، أي أكل.

في الصباح أخذت الخبز ووضعت داخله أرزا ولحما وخضروات كثيرة ثم لففته ووضعته في حقيبة عمتي. هكذا ستسعد عمتي شمسة اليوم ولن تجوع.

حين عادت عمتي من المدرسة كانت حقيبتها متسخة ومبللة بالمرق كذلك ملابسها وقميصها الأبيض وكانت عيناها مثل كاسات دم أحمر.

سألتها لماذا تبكين قالت إن الأطفال ضحكوا عليها كثيرا ولأنها جائعة اضطرت أن تأكل الخبز والأرز مع ضحكهم المتواصل.

تعلمت بعد ذلك كيف أصنع " سندويتشًا " ملائما مع مساعدة الخدم، خصوصا عم زكي وعم عبده النوبيين اللذين كانا يشاغبانني كثيرا.

- ٣ -

أحسست بعد عدة أشهر من سفرنا بآلام المخـاض، ولـم تعرف عمتي كيف سألد في المنزل كما كنا نفعل في بلادنـا ولا نعرف من يستطيع توليدي ومع اشتداد الألم اسـتنجدت عمتي بالجيران وأخذوني إلى أقرب مستشفى إلـى البيـت، هناك، أرقدتني الممرضة فوق سرير في غرفة بهـا سـرير آخر عليه امرأة أخرى في حالة مخاض أيضا، لا يفصل بيننا سوى ساتر من القماش الأبيض.

مع خروج رأس الطفل ركضت الممرضة وفي يديها كتلة من القطن تحاول إعادة رأس المولود إلى الـرحم بالضـغط عليه إلى الداخل انتظارا لحضور الطبيب.

لم تفهم عمتي ولا أنا التي استنجدت بها صارخة ما الذي تفعله تلك الممرضة لكنها بفطنة المرأة العارفـة، أسـرعت بجذب يد الممرضة الضاغطة بالقطن علـى رأس المولـود الخارج توا من بين فخذي كي ينزلق الطفـل منـدفعا إلـى الخارج في الوقت ذاته بين صراخ المرأة الأخرى وصراخي الذي كانت عمتي تزجرني بأن أخفضه لا بل أكتمه، وبـين صراخ الطفل، واندفاع عمتي لحمله، وتوبيخ الممرضة لهـا

على جذب يدها قبل مجيء الطبيب الذي سيوبخها حتما فور وصوله ككل مرة لا تستطيع فيها تأجيـل الـولادة للحظـة دخوله.

استغربنا أنا وعمتي انتظار الولادة للطبيـب وفـي تلـك اللحظة دخل وهو حانق ونظر بغضب إلى الممرضة التـي ارتعدت فرائصها كلها وقالت بخنوع شديد:

- وا   هما اللي شدو إيدي يا دكتور.

فرد بانفعال هادئ:

- حصل خير، حمد ا   على السلامة.

هكذا ولدت نصورا في شبه احتفال الصرخات والذي لـم يكن قد مر علينا من قبل، لا علي ولا على عمتي أيضا.

أخذنا الدواء الذي كتبه الطبيب لي، وعـدنا إلـى البيـت مستغربتين أن الطبيب لم ينصحني بأن أضع الملح على هيئة بيضة صغيرة يتم عجنها بقليل من الماء وتركها حتى تجـف ثم وضعها كل يوم مكان الطفل كمطهر طبيعي، حتـى يـتم شفائي وتندمل جروحي دون خوف من حمى النفاس، والتـي أصابت كثيرا من النساء في بلادنا، كما أصابت الكثير مـن الحوامل والوالدات بهلع ورعب أشد من رعبهن مـن تلـك

البيضات الحارقات وكأنهن يضعن نارا متقدة داخل أجسادهن تسير معهن طيلة النهار والليل بل وتجعل ولاداتهن التاليـة أشد صعوبة وألما، ومع ذلك لم يكن هناك مفر منها.

لم نقتنع أن تلك الحبوب البيضاء التي وصفها الطبيب لي، والغسول الذي طلب مني أن أغتسل به كل يوم ثلاث مرات هما بديلان لبيضة الملح اليومية.

أخذت عمتي الورقة من يدي ونظرت إلى قائلة:

- ما فينا تموتين هنا بعد، وقطعت الورقة.

رددت متهكمة:

- هذا ولا يعرف شيء يا عمتي، خلينا منه.

نصف ليمونة

أخذت عمتي نصف ليمونة ووضعت بها قليلاً من الملح ودخلت إلى الحمام فدخلت وراءها ابنتها عمتي شمسة وهي تسألها:

- أميه، شو تسوين؟

وضعت عمتي مرودا من العاج داخل نصف الليمونة بالملح وتكحلت به في عينها اليمنى، غسلته ثم وضعته في نصف الليمونة مرة أخرى وكحلت عينها اليسرى دون أن ترد عليها، صرخت عمتي شمسة فزعة وهي ترى دموع أمها تنساب غزيرة، وعينيها مثل قطعتي دم.

قالت لها:

- شو اللي تسوينه، هذا بيلهب عيونك.

وركضت عمتي شمسة تنادي أختها وتناديني كي ننجد أمها، فقالت لها عمتي:

- لا ها بيطهرهم من التراب، وبيقوي نظري.

ضحكنا على عمتي شمسة، فوضعت هي أيضا المرود في الليمونة بالملح ووضعته في عينيها، صرخت، وظلت عيناها ملتهبتين أسبوعا، أما عمتي فكانت عيناها مثل عقيق يلمع.

بيضة الملح اليومية

- ١ -

لم أستخدم أدوية الطبيب بل تحملت آلام وحريق بيضات الملح اليومية خوفًا من حمى النفاس، زائرة النساء الوالدات وقابضة أنفاسهن وأرواحهن، واعتقادا بأن الطب الذي يحاول إيقاف الولادة بإعادة المولود ساعة ولادته إلى رحم أمه حتى مجيء الطبيب ليس هو الطب الذي يوثق فيه، وكيف يمكن هذا والحكيمة " سارة هوسمان " التي حضرت مع كل من الحكيمة " سوزانة " والممرضة " مريم خاتون " في حملة تبشيرية من أمريكا حين ذهبن إلى عمان ومن ثم أتين إلى هنا، لم يعترضن أبدا على تلك الطريقة في المعالجة.

لقد التقين المعتمد البريطاني في ذلك الوقت والذي عرفهن بدوره على حاكم المنطقة الذي أهدى لهن عمه بيتًا أجره خصيصا من أحد التجار في دبي لكي يسكن في دوره العلوي ويمارسن عملهن كطبيبات في الدور السفلي منه باعتباره مستوصفًا مصغرا للولادة وعلاج بعض الجروح وأمراض النساء.

الحكيمة " هوسمان " كانت الأكبر سنًا ذات قـدم خشـبية واحدة، تتكئ في سيرها على عصا تسـتخدمها أيضـا فـي معاقبة بعض الصغار الذين يقتربون من جلستها في بيوتـات الأسر المعروفة ليلمسوا قدمها الخشبية ويحركوها. كـل مـا هنالك أنها تضع صورة يسوع وبجانبه الكثير مـن الشـمع وصليبا واحداً ثم تضع على السبورة التي أمامهـا صـورة أخرى للمسيح وتشير بعصاها إليه وهي تقول: إنه " اللهوا "، وتطلب من المريضات لديها أو المتعسرات في الـولادة أن يصلين له وأن يضئن شمعة من أجله لكي تتسهل ولاداتهـن ويشفين، مرددة صلاتها " أبانا الذي في السماء ".

كانت تلك المحاولات لا تقرب النسوة لها، ولا تجعلهـن يعتقدن في ذلك، لكنهن يذهبن إليها لاقتناعهن بقدرتها علـى مساعدتهن، وما إن يشفين حتى يذهبن إلى الحصن ليشـتكين من محاولة تنصيرهن أو تبشيرهن كما كانت تعتقد هـي، أو تغيير دينهن كما كن يرين.

لم تستطع دكتورة " هوسمان " أن تنصر إيا منهن لكنهـا ظلت تحاول إيمانًا منها أن ذلك لصالح الـدنيا والـدين، لـم تستطع أن تشكك إيا منهن في إيمانها، ولم تتقاعس أيضا عن

العلاج حتى بعد أن أنذرها الحاكم بعدم تدخلها في إيمان تلك المنطقة بعد أن اشتكيت له بعد ولادتي الأولى بمحراك لكنها تعاملت بشكل واعٍ وهدوء مع سكان المنطقة وعدم الخضوع المباشر لتلك الأوامر.

حتى الممرضة " شـاهناز " التـي تقـوم بـدور الدايـة الباكستانية المسلمة التي تذهب إلى بيوت تلك النسوة لتولدهن دون الذهاب إلى المستوصف وهـي الأكثـر اقترابـا مـن عاداتهن وتقاليدهن لا تحاول أن تتكلم في الدين سواء دينهـا أو دين الحكيمة " هوسمان " وهي التي تعمل عند الطبيـب " ماكولي "، الإنجليزي الأصل السكير الذي مات علـى يديـه الكثير، ومرض الكثير أيضا من سكره الدائم وإعطائه الحقن الطبية وهو يسأل المرضى: أيأور؟ أي هل يوجعك " إيعور " أم لا. لم يعترضا هما أيضا على الملح كمادة مطهرة يمكـن استخدامها كغسول للولادة دون أضرار.

عدت إلى المنزل مع ابني المولود وعمتي التـي تركـت للمرة الأولى محراكًا دون أن يذهب معنا، وبدأت تداعب هذا الابن المدلل نصورا.

حين دخلت عمتي غرفتها كان محراك يلبس أحد قمصان نومها ويجلس أمام المرآة واضعا كمية من بـودرة الجسـد البيضاء على وجهه وكمية من الفازلين على شعره وملونًـا شفتيه بأحمر الشفاه، وقد رش كل ما تبقى مـن عطـر فـي الزجاجة الموضوعة أمام المرآة على جسده، ذهلت عمته من منظره، ومن اتساخ قميصها الذي يلبسه، ومن حالة الغرفـة وقد انسكبت كميات كبيرة من العطر والبودرة والفازلين على أرضيتها.

ذهلت من تفكير طفل صغير يهفو إلى أشياء امرأة وليس إلى ملابس رجل ينظر إليها وقال:

- ليش جيتي؟ وخرج مسرعا مختبئًا في أحضان زوجها حتى لا تعاقبه.

ضحك زوجها كثيرا وقال لها إنه مـا إن تخـرج حتـى يتقمص شخصيتها.

لم تمر هذه الواقعة بسهولة فكان محراك معاقبا ومهـددا بأنه إن فعل ذلك مرة أخرى فسيكون العقاب أشـد. خاصـة وهي تخاف على بعثرة الأوراق وضياعها مثلما تخاف على

فستانها من الاتساخ، لكن تلك الغرفة كانـت تشـدّه دائمـا والألوان والروائح التي أمام المرآة وملابس عمته.

ليس ذلك فقط لكنه كان متعلقًا بها فلم تكن تخرج إلا وهو في يديها ولا يعود إلا وفي يديه الحلوى والملابس.

برغم تدليل العائلة لمحراك و" نصّور " فـإن شخصـية محراك كانت مربكة في المنزل، لا يهـدأ ولا يسـتقر فـي مكان، وكل يوم يعاقب بأنواع شتّى من العقاب الذي يستحقه أحيانًا والذي لا يستحقه أحيانًا أخرى.

يوما ما عاود دخوله إلى غرفة عمته في غيابها، كانـت تعاقبه بعدم أخذه معها كما عودته من قبل، فعاود لعبته وكأنه هو أيضا يعاقبها. خرج للعائلة بتلك الملابس وتلوين الوجـه وتقليد العمة في طريقة كلامها ومشيتها، ذهب يومهـا إلـى عمه وقال له:

- عمتي ماتت خلاص، أنا اليوم عمتي.

كان في تقليدها مغرما بها، وكأنه في تلك اللعبة يـتلمس تحقيق وجوده وتقليد حالاتها ووضعها في السلم الاجتماعي.

هل كان يقلدها أم يتطلع إلى الخـلاص منهـا بـتقمص وجودها؟ ربما حاول أن ينتقص من جبروتها الواضح لـه،

ومن هالة العظمة التي تبدو في هيئتها. فرغم سنواته الخمس كان يرى ذلك الحبل الخفي الذي يقيده وأمه بهذه الأسرة التي تقتنيه مثلما تقتني الأشـياء دون إحسـاس، وهـو يـتقمص وجودها لعله يفلت من الشرنقة التي تضيق عليه كلما اتسعت مداركه وكلما انفتحت مسارب الحياة، فلا يمتلك غير التطلع المرهون بما يمن به أعمامه عليه.

إنها العبودية التي أدركها بإحساسه البادئ في التفتح.

ضبط مرةً يجمع أعقاب السـجائر مـن شـرفة المنـزل ويدخنها حين سألوه ماذا تفعل، قال:

- أخمس.

انزعجت عمته مما فعله أكثر من مرة فأخذته إلى شـجرة في الحديقة وربطته فيها طيلة اليوم كعقاب له، بعد أن لحقوه في اللحظة الأخيرة قبل ذلك بساعات وهـو يـركض مـن المطبخ ممسكًا بسكين كبيرة إلى غرفتهم وحين سألوه:

- ماذا ستفعل بالسكين يا محراك؟

أجابهم بأنه سيخاص نصّورا من السرير، وحين ركضـوا وراءه كان يهم بقطع رقبة أخيه ليفصل رأسه الـذي اختنـق بين أعمدة سريره وهو يحاول النزول منه.

كيف يفكر الأطفـال هكـذا..؟ أيقتـل أخـاه كمحاولـة لتخليصه..؟

ربما من فرط مشاعره الدفينة قد تنفلت منه هذه المشاعر، وتصبح ضده حين يكشف عن أفكاره فقد يتنبأ وقـد يلـتقط صورا ثابتة يحركها ثم يلتقط طريقة الحركة وبكثيـر مـن النقصان قد تكتمل فقط في ذهنه كطفل حين تصـبح المـادة جاهزة.

هو يفكر كيف يخلص أخاه لكنه لا يفكر ماذا بعـد ذلـك، فقط صورة واحدة ثابتة ثم ينتقل مباشرة إلى صورة أخـرى مبنية في ذهنه بأن أخاه بلا أعمدة سرير. هكذا فكر محراك، لهذا ظل طيلة يومه مربوطًا في جذع شـجرة فـي حديقـة المنزل، الشجرة المقابلة لباب المنزل. كل من يـدخل يـراه وكل من يخرج أيضا، لم يصمت صراخه الذي عـم البيـت والحديقة والمنطقة كلها.

كان يريد أن يحرر أخاه من ذلك السرير الشرير، يخلصه من البكاء والصراخ ولقد حاول جذب رأسه فلم يتحرر، ثـم حاول جذب جسده فلم يفلح فماذا عساه يفعل سوى أن يفكـر

بفصل الاثنين حتى يستطيع أن يحرر نصور مـن اشـتباكه المعقد بهذا السرير.

رجلٌ بنطلون

– ١ –

لقد علمت بزواج زوجي من أخرى بعد أن فقـد صـبره على تحمل حياتنا، كل في مكان مخالف للآخر. لـم تصـبح الوحدة دائي بل أيضا المرارة والانكسار. لقد تزوج بفطـوم الصغيرة ابنة عوشانة صاحبة دكان العطور والدخون التـي كانت دائما تخجل ويحمر وجهها كلما رأت حبيبا زوجي يأتي ليأخذني من عند أمها وتنظر إليه باستحياء ودلال مفرطين.

فطوم التي دخلت الحصن متشبثة بثياب أمها، دخلت طفلة وظللنا جميعنا نتعامل معها هكذا إلـى أن تركـت المدينـة، ورحلت. لم أتصور أبدا أن هذه الطفلة التي تمسك بتلابيـب أمها ستكون في يوم من الأيام ضرة لي، حين كبرت وظلت تتغنج وتتكلم بدلال مفتعل لم يكن في حسباني أن ذلـك كلـه سيكون من أجل حبيب، حتى حين كنت أضحك معها عنـدما أذهب إلى الدكان لأشتري لعمتي العطور والدخون وأعود بها إلى الحصن إن لم تأت عوشانة إلينا وأقول:

- لن تحصلي عليه ولا على غيره، أنت كرجل بنطلـون لا يسير إلا بصاحبه وأقصد أمها القوية التـي تـتحكم فيهـا. أضحك وأحيي الأم التي تبتسم هي الأخـرى وأخـرج إلـى زوجي الجالس في السيارة اللاندروفر التي يقودهـا، أفـتح الباب بثقة وافتخار وأدخل كي أجلس بجانبه، أفـتح النافـذة وأحييهم ثم أنظر إلى حبيب وأشير إليه أن يسير، فرحة بـه وبنفسي، فأنا عبدة زوجة الحاكم لي أن آمر وأنهي الكثيرين باسم عمتي وأنا زوجة سائق الحاكم، وهو ليس بعبـد لكنـه تزوجني ولم يتزوج بأية واحدة من الأخريات في المدينة.

في ذلك اليوم حين ردت علي فطوم دون خجـل بعـد أن طفح الكيل بها:

- سأسرقه منك يا ريحانة وسأسرق جميع الرجال الـذين سيتوددون إليك الواحد بعد الآخر، سأجردك مـنهم جميعـا، انتظري أنا شابة جميلة وسأتزوج حبيبا يوما لأغيظك وآخذه منك وسترين رجل البنطون هذه ماذا تفعل، أنا لا أدرى مـا الذي أعجبه فيك أنت؟

أسكتتها أمها، فضحكت لأنني استطعت إغاظتهـا، كنـت أظن الأمر مجرد فكاهة نتندر بها، لكـن مـن الواضـح أن

الفكرة ظلت داخلها ولم تنمح، وأن كلماتي ظلت توجعها وها هي اليوم بعد أقل من ثلاث سنوات حققت ما تريد.

ها هي تتزوجه ويتركني لأجلها، ها هي تجرعنـي ألمـا أشد، كان يجب أن أغلق فمها في تلك اللحظـة ولا أجعلهـا تختزن كل ذلك الإصرار على سرقة حبيب مني.

ربما أخطأت حين أخبرت حبيبا، فمن الواضـح أن ذلـك صادف هوى في داخله هو أيضا ولم يفصح عنه في حينـه وإلا فلماذا تزوجها الآن بعد أن ذهبت أنا.

نظرت إلى وجهها في المرآة، هل هي كبيرة حقا؟

قالت لنفسها وهي تتأمل هذا الشـحوب الـذي اعتـرى وجهها:

- عندما يكون المرء كبيرا فعليه أن يفعل ما يريد، بـأي شكل وبأية طريقة فالوقت ليس في صالحه تماما.

وكانت تسأل نفسها وهي محتجبة في غرفة السطح:

- كيف أسترد ما سرق مني، كيف أعيد حبيبا إلـى دون أن أفكر الآن في الذي فعله، لدى وقت طويـل بعـد ذلـك لمحاسبته، إذن سأتقبل ما فعله الآن فقط لأرد عليـه وعلـى السارقة فطوم.

هم يهتمون بأطفالي كدمي وأنا أهتم بطفلتهم كواجب لكنني اليوم حين علمت بزواج حبيب لم أستطع أن أذهب لأحضـر عمتي شمسة من المدرسة، ولم أشرف بنفسي على البيت ولا على أي شيء. ظللت في غرفة في السطح أبكـي وأضـع للمرة الأولى سيجارة في فمي ثم بدأت أدخن وأدخـن، بعـد ذلك لم أبك لكنني خرجت أشتري زجاجة خمـر، أي نـوع منه، المهم زجاجة خمر وبدأت أشرب، لأول مـرة أشـرب خمرا ثم بدأت أشرب وأشرب. لكن الاكتئاب لا يزول. بدأت أبتلع بعض أدوية الكآبة والنوم والمهدئات. للمـرة الأولـى أستخدمها وبدأت أدخن وأشـرب وأبتلـع المهـدئات وأفقـد سيطرتي على نفسي وسلوكي، لا أهتم بالعائلـة ولا بطفلـي لكنني رفضت أن أتركهما لهذه العائلة، وضعتهما في غرفـة السطح وانزويت في ركني.

لم يحتمل جسدها تلك الروح المعذبة المهزومة المنهكـة، ولم تتحرر أيضا روحها من الجسد. كان خلاصها شكلاً من التحرر وكان التحرر بالنسبة لها مستحيلاً، والمستحيل هـو الاستمرار في هذه الحال.

الحب علاقة خيانة مع الذات وحين أحبت حبيبـا خانـت عبوديتها لهذه الأسرة، ظلت روحها تهفو هناك عند الحبيـب يظهر لها كصور تتتالي ثابتة الدلالة تناديها أن تخلع خنوعها وتعود إليه، كانت تحسب ذلك كارثة حقيقية تسحقها، كيـف يمكنها أن تتخلص من ذلك وكيف تختزل موقفًا نهائيـا لهـا ولأسرتها الصغيرة بشكل فريد واستثنائي لم تتعوده من قبل، أن ترفض انسحاقها في تلك العائلة حيث يمكنهم أن يستبدلوا بها أخرى وأن يتركوها، أن يتنازلوا عنها من أجـل نفسـها التي تجدها بقرب زوجها الذي خانها وتزوج غيرها... وهم كيف يتنازلون عنها وهم يحبونها؟ هي أيضا تحـبهم لكنهـا تحب حبيبا أكثر مما تحب نفسها فكيف تفشل في هذا الحب؟ إن حبهم مضاد للإنسانية والطبيعة أنهم يحبونهـا كعبـدة لا تقرر مصير نفسها إذن لابد من الشك في هذا الحـب وهنـا تتكون طبقات عديدة من الشك في كل تفصيلاته.

القاعدة الأساسية التي يمكن من خلالها التعبير عن الحب لديها هي التنازل، تنازلهم عن حقهم فيها ولا يعني ذلـك أن التعبير المماثل في حبها لحبيب هو أن تتنازل عنه لغيرها بل أن تمتلكه أكثر، أن تحيطه بها وبأولادهما وبحياتهمـا، هـذا

حب متوازن بين زوجين أما الآخر فهو حب الأعلى للأدنـى لأنه ملكه، وحب الأدنى للأعلى لأنه مملوكه، إنه حب مفتعل غير صادق وغير حقيقي مثل العملة لها وجهـان، الحنـان والحب مقابل الملكية والقسوة.

الحب عقد ضمني للعبودية بدون أدلة.. يكاد ذلك يكـون عكس ما تراه أصلاً لكنها لا تفهم غيره أيضا.

- ٣ -

بعد الولادة جلست في غرفتي أرضع نصّورا حين سمعت صفارات الإنذار وصراخ عم عبده العامل النوبي في البيـت وهو يقول:

- غارة يالا يا ريحانة أنت والولاد انزلوا البدروم. طفوا النور عندكم، أحسن يشوفوكم وشهلوا يالا الســت الشـيخة بتسأل عنكم.

أطفأت الأنوار سريعا، نزعت ثديي من فم نصّور وأدخلته سريعا في ثيابي، ظل ناصـر يصـرخ، أمسـكت محراكًـا وناصرا وخرجنا من الغرفة. مررنا على ممر طويـل إلـى السلم. كان البيت كله مظلما إلا الشمعة التي أمسك بها عـم عبده حتى نستطيع السير.

كل زجاج المنزل كان ملونا باللون الأزرق ظلت أنـوار السيارات تشع عليه حتى خبا نور الشمعة وأصبحنا في شبه ظلام دامس أزرق. نزلت إلى الدور الأول ثم إلى البـدروم كانت العائلة جميعها هناك تجلس بجانب بعضها بعضا. عند دخولنا مباشرة انتزع محراك يده من قبضتي وركض إلـى عمته، جالسا جانبها وبـدت أصـوات طلقـات الرصـاص والمدافع قريبة وكثيفة جدا مما جعله وعمتي شمسة يرتعدان خوفًا.

هذا ما حكته أيضا شمسة لهادف ضـمن حكاياتهـا عـن أسرتها، وعن تاريخها الذي كثيرا ما كان يتجـادلان حـول تحليله.

قالت: – هزيمة ٦٧ جعلتنا ننخلع من هزيمتنا الصـغيرة إلى هزيمة الوطن العربي بكامله. لم يستطع أبي أن يتكلم في هزيمته بعد ذلك. كيف يتكلم عن هزيمته في حكم إمارة وها هو الشعب الذي يؤمن به، الشعب العربي، يهزم بكامله. وها هو عبد الناصر يمر بأزمة، وها هي كعبة الثوار والمناضلين تدخل حالة استنزاف حاد، سيدخل هو أيضا فيها لتسـتنزف حياته.

قالت أمي بصوت مرتعش ونحن في البدروم:

- شو هالحالة اللي إحنا فيها هاي.

فرد سكرتير أبي الذي جاء لزيارتنا هو وزوجته حين بدأت الغارة فنزل معنا:

- جيبتك يا عبد المعين تعيني لقيتك... أهو إحنا اللي تعلقنا كده، الموضوع مش باين له حل سريع.

كان يرى أن خروج أبي من بلده على أساس ما يشده سياسيا إلى هنا، وأن هنا الآن أصبحت تبعده كثيرا عن هناك. فنظر له والدي بغضب مما أربكه، فصمت. كانت زوجته إحدى المدرسات اللاتي حضرن في أول بعثة مدرسات. حضرت هي وزوجها مدرس اللغة الإنجليزية الذي تقرب سريعا إلى الحاكم ومن ثم أصبح سكرتيره الخاص وحين ترك أبي الإمارة عاد معه إلى القاهرة على أمل أن يعود معهم حين يعودون.

كانت فكرة الرجوع تراود أبي كثيرا رغم أن الوحدة، والقومية، وعبد الناصر، انشغلوا في الهزيمة، فهي بوتقة الصراع الأساسي. أصبح الخليج وتهديدات إيران بشأن الجزر الثلاث التي تدعي ملكيتها مسألة مؤجلة بعد التحرر

من عبء الهزيمة. إلا أن هذا لم يستمر طويلا إذ لجأ عبـد الناصر بعد ذلك لتحرير المناطق الأخرى وتصدير الثـورة إلى كل من عدن وظفار، وليبيا كمحاولـة لتضـييق نطـاق الهزيمة بالالتفاف عليها ببدائل التغيير في تلك المناطق لعمل حزام قومي يساعد على إنعاش فكرة الناصرية والانشغال بها إلى أن تتم إعادة تقوية الجيش والاسـتعداد للحـرب مـرة أخرى.

– ٤ –

- لم أتكلم وأنا أرى ابني مربوطًا إلى جذع الشجرة، بـل كنت أساعد على ربطه معهم. لكن قلبي كان ينزف وينفطر. وأعلم أن ولدي بلا أب وأن أباهما هناك في بلاده متزوج من أخرى لأنني تركته وجئت مع عمتي التي تعاقب ابني الآن.

حبيب ليس بعبد عندهم مثلي، لا يفهم كيف تتركه زوجته لمجرد أن تذهب معهم أينما ذهبوا، تاركة زوجها سنوات عدة ولا تعرف متى ستعود بل لا تعرف أصلاً إن كانت ستعود أم لا، مجرد سديم زمني لا أعرف كيف أتخلص منه.

وكان الخيط في يديها تلفه مثل دائرة على إصـبعها، ثـم تفرده إلى آخره وتلفه دائرة على إصبعها، ثم تفرده بطولـه، مثل الزمن دائريا لكنه كالسهم.

تعبت العائلة من حالي وشربي وتدخيني وإدماني، ظللـت طيلة النهار منكوشة الشعر لا أخرج من غرفتي لا أنـا ولا ولدي إلا لشراء الخمر والسجائر والمهدئات والعـودة. بعـد ذلك ظللت أرسل من خدم البيت من يجلب لي ذلك وبـدأت أنزوي.

تدخلت أخت عمتي في زيارتها الأخيرة لنا بأن يتركـوني أعود معها أنا وولدي لأنني أصبحت حِملاً ثقيلاً عليهم بهـذه الحالة المزرية فلا يجوز أن يظهروا كمن يأوي فـي بيـتهم مدمنًا كما قالت وأردفت: - وإذا كان ابنها وهو ما زال طفلاً بهذه الصورة فما بالك حين يكبر؟ وحفاظًا علـى صـورتكم وعجزكم عن حل مشكلاتها أو مشكلاتكم معها سآخذها معي. وأثنت ابنة عمتي الكبرى على كلام خالتها، متواطئة معهـا على ترحيلي، هي التي لا تطيق وجودي بتلك الحالة.

فرضيت عمتي أن تتنازل عن ملكيتي مجبرة إلى أختهـا الشقيقة الوحيدة، التي أخذتني معها في رحلة عودتهـا إلـى

بلادها حاملة ناصرا بين يدي، ومحراك ممسك بثيابي ومرتد ملابس بيضاء لضابط شرطة، وواضع الكاب علـى رأسـه ومسدس بلاستيك في جراب حزامه.

تماما كما في الصورة السابقة وكما في الصورة التي لـم تلتقط.

- ٥ -

ظهرت عمتي في الشرفة، جلست على كرسي عـريض ونادتني، أتيت لا أعي، مغيبة عن العالم، لم تنظر إلى عمتي لكنها قالت:

- ستسافرين غدا مع عمتك صفية، جهزي نفسك.

احتجت إلى لحظات كي أعي ما أسمعه، لـم أسـتطع أن أفرح أو أحزن، الوقت قليل حتى في التفكير في أحدهما.

عدت إلى غرفة السطح، لملمت أغراضي وأغراض ولدي ووضعتهما في حقيبتين، ثـم حممـتُ محراكًـا ونصّـورا، وغسلت ملابسهما التي سيلبسانها في الغد. استحممت، وحين نزل الماء على رأسي كنت كمن يقشر جلدا سميكًا.

في الغد، بدأت صباحي بكي ملابسي وملابس ولدي ثـم ألبست الصغيرين ملابسهما مغسولة ومكوية. لم أهتم بـأمر

الغرفة وكيف سأتركها، كانت ممتلئة بزجاجات الخمر وعلب السجائر الفارغة، أما أعقاب السجائر فكانـت متنـاثرة فـي جميع أنحاء الغرفة وعلى السطح المقابل، كنت بعد أن أرميها يركض محراك ويدخن آخر نفس فيها وكنت أراه ولا أعقب أو أنزعج.

قبل خروجي نزلت عند عمتي وأسرتها، حاولت أن أُقبـل رأسها فرفضت، اكتفيت بتقبيل عمتي شمسة قُبلـة سـريعة، وركبت السيارة بعد أن أعطيتها مفتاح السجن الذي ظل لدى فترة من الوقت منذ أن تركنا الحصن. كنت قد علقتـه فـي رقبة محراك كما كان يفعل هاشم زوج أختي عليونة، كـان البعض يشير لها بأن هاشما يحمل مفتاح الجنـة الـذي قـد أودعه له الإمام في إيران لتوجهه إلى القتال لكنه هرب وجاء إلى هنا، والبعض قال إنه أخذه من الإمام لأنه جاء لتهريـب الأسلحة إلى هناك لمحاربة الشاه وأنه اعتبر مجاهدا ومن ثم فإن مات فهو شهيد، لم نكن نعرف الحقيقـة، ولـم تكتـرث عليونة إذا كان هاشم شيعيا أم سنيا، ولم تكترث إن كان قـد فرّ من القتال أو أنه يمتلك مفتاح الجنة.. إنها منشغلة عن كل ذلك. فرحت عمتي شمسة بالمفتاح. هي تعرفه جيدا ورأتنـي

حين فتحت به السجن يوم خروجنا. أمسكته بيديها وهي تنظر إلى. أدركت الآن أنني سأرحل دون ترك أية مسافة يمكنني من خلالها العودة، لقد تقطع كل خيط بيننا اليوم.

قال السائق لي:

- وا حتوحشينا يا ريحانة.. ابقى اكتبيلنا جوابات والا ابعتيلنا حاجة من هناك عشان نفتكرك بيها.

رددت بانفعال، وكان عم عبده ينظر إلى من بعيد وهو حزين جدا:

- لا أبعث رسائل ولا غيره ما أريد أتذكر هاي الأيام ولا اللي فيها، وأشحت بوجهي متجنبة نظرات عم عبده التي تخترقني. وهو واقف برداء أبيض وعمامة بيضاء أيضا مشيرا بيديه نحوي وحين ابتعدت العربة بي نظرت إلى الوراء، كان عم عبده بتلك الملابس مثل شراع مركب في مهب الرياح.

" على بلد المحبوب وديني ..زاد وجدي والبعد كاويني".

- ٦ -

حين سافرت ريحانة وعمتها الجديدة وبعض عبداتها اللاتي حضرن معها. اختفت الأوراق والثوب. وجدت عمتها

الحقيبة ملقاة تحت سريرها ظنت أن محراكًا عـاود لعبتـه وحين سجنتها صرخت غاضبة:

- سوتها ريحانة، سرقت الأوراق وثوبي وسافرت.

لكن الوقت كان قد انتهى. سافرت ريحانـة مـع عمتهـا الجديدة ولم يعد بالإمكان اللحاق بها فأوصت إلى أختها صفية أن تبحث عن الأوراق عندها، فأخبرتها صفية فـي الهـاتف أنهم وجدوا ذلك الثوب، وأن ريحانة لم تنكر وجـوده لكنهـا أخبرتهم أنها فوجئت به في ملابس محراك، وحين سألته قال لها إنه وجده مرميا تحت سرير عمتهم ولم يكن في الحقيبـة أصلاً، أما الأوراق فهي لا تعلم عنها شيئًا.

لم تصدق عمتها كلامها، وظلـت تتهمهـا بسـرقة كـل تاريخهم ودليل عودتهم .

– ٧ –

لم تتسرب العاطفة من بينهم، لم يبكـوا، لا العائلـة ولا العمة ولا ريحانة أو ولداها. كان وداعهم مشوبا بكثير مـن نقصانه.

قد تنفلت رعشة صوت يمكن إعادة تكرارها لنلتقط حالـة أحدهم. كان ما هو مدرك أقل بكثير مما هو غير مدرك فـي

المشاعر والأحاسيس، تماما كما لو أنها حالات إنسانية فائقة الروعة في لحظة تدمير أرواحها كلما سكنت إزاء وجودها، لكن ريحانة تهفو إلى حياة تعوضها ما حرمت نفسـها منـه لأجلها، حياة تخلقها وتعيش الوهم مقابل تركها الحيـاة أيـا كانت.

كيف تعي تعقيد الأشياء، بالعودة إلى ما كانت عليه..؟ هي لم تعِ أن هناك عناصر مفسدة دائما تدخل لتهـدم مقابـل لا شيء. لم تعِ أن المعرفة من خلال العالم، معرفـة جارحـة، وحين نتوغل تخدش ملمسنا الناعم، وحين نمتلك تلك الصبارة التي اسمها الوهم ويذهب بنا الحلم وتنفرط حبـات الحنـين سيقتنيها الآخرون ظنًا منهم أنها السعادة، يظلون هناك علـى أطراف أصابعهم حاملين أرواحهم على شفرة حادة.

هكذا ريحانة تعيش الإحساس المؤقت بالزمن بين الخـط والدائرة. الوهم يتحقق لأنه لا وجود له، وهي عـابرة فـي المكان هناك، خارج سياق أي شيء. هامـت روحهـا ولـم يحتملها الجسد. مشت كثيرا في القاهرة سيرا علـى قـدميها حتى خفت روحها في السير، كانت تسير مع عمتها وكأنهما

ستصلان نقطة ما حتما سيكون هذا السير إلى شيء ما، بحثًا عما هو خفي عنهما، إهلاك الروح وتصفيتها كل يوم.

والمسافة بينها وبين ما ترغبه ليست مستوية ولا متصـلة أيضا، حيث لا يمكن في الأساس العمل على وجود خط بين النقطتين.

الجزء الثاني

لم أر السمراء وإن رأيتُها

مقطع من أغنية

في المكتبة ابتسمت المشرفة عند دخولنا أنا وهادف وحيتنا، كانت تحب علاقتنا، علاقة الحب التي تنشأ في الوعي، بين طيات الكتب وبين المدرجات، ربما كان لها علاقة قديمة مثل هذه، وربما تشتاق إلى الحب كما نحب نحن، جلسنا، أنا أكمل بحثًا عن المعتزلة، وهو يقرأ في كتاب. أمامنا جريدة اليوم كتبت له عليها:

- " مشتاقة وعندي لوعة "

ضحك وكتب لي:

- وأنا كذلك.

قلت:

- هذا مقطع من أغنية لأم كلثوم.

فكتب: إنها قصيدة لأبي فراس الحمداني يا أستاذة، عرفي المكتوب بالكاتب.

فكتبت: حاضرين.

وقفت المشرفة على رأسي، ارتبكت، فدفنت رأسي بين أوراقي.

لكنها بادرتني بابتسامة وهي تقول:

- ممكن الجرنال عاوزه أقراه.

شطب هادف ما كتبناه على الجريدة بسرعة قبل أن يجيبها باسما:

- طبعا لحظة، وهو يبتسم.

ابتسمت وقالت:

- ما فيش داعي، أنا بس كنت عاوزه أقراه.

كان قد انتهى من شطب جميع الكتابات بيننا وكأنه يمحو بسرعة كبيرة ما بنيناه في فترة طويلة.

خجلت وأنا أقوم مع هادف تاركين أوراقنا على الطاولة، ركضت المشرفة لتعطينا الجريدة، فقال لها هادف:

- خليها، إحنا فقط رايحين نشرب الشاي ونرجع.

حين نزلنا عند بطة في الركن الصغير داخل مكتبة جامعة القاهرة في الدور السفلي، الركن الدافئ بالعاطفة وبدفء الشاي والبوتاجاز ابتسمت في وجهنا محيية:

- يا صباح الفل.

بطة تحبنا، تحب علاقتنا، تقدم لنا شـايا خاصـا، شـاي كشري غير مغلٍ، تضع الشاي في كـوبين وتضـع عليـه ملعقتين من السكر ثم تترك الملعقة في أحد الكوبين وتصـب الماء الساخن ثم تضع بجانبهما علبتيْ بسكويت، يحمل هادف الكوبين وأنا أحمل البسكويت ونقف أمام الغرفة فـي الممـر ونضع الكوبين على حافة الشرفة التي أمامنا حتى يبردا قليلاً وننعم بالدفء في هذا الجو البارد، كـل مرتـادي المكتبـة يعرفون بعضهم بعضا تقريبا خاصة من يأتون إلى بطة.

- بطة شبه ريحانة، الخالق الناطق. قلت لنفسي، تحـس حين يطلبون منها الشاي أنها تتكرم عليهم وتختار من تميزه في الأكواب ووضع السكر وطريقة وضع الشاي، هناك مـن تضع له الشاي المغلي، وهناك من تقدم له الشاي الكشـري، هناك من تضع له بنفسها السكر، وهناك من تقدم لـه آنيـة السكر ليضعه بنفسه من ملعقة موضوعة فيه عموما، وهناك من تخصه بملعقة خاصة مغسولة وأكواب غيـر مكسـورة حوافها، فبرغم صغر سنها، تستطيع أن تختار مـن تميـزه حسب قلبها ومعاملاتهم معها.

- أيوه يا سيدي حتى المشرفة وبطة بيحبوك.

- أنا؟

- طبعا.

دخل صديقه طه وقال:

- تبقى عبيطة لو افتكرتِ إن ده كله لهادف.

- أُمال لمين يعني.

- ده ليك وحياة عينيك.

ضحكت بابتسامة حيية وقلت:

- ده مقطع من أغنية جديدة؟

فغضب هادف منه ومني واعتبر التبسط يعيب الاحتـرام فعدت إلى وجومي، أما صديقنا فنظر إلى مودعا:

- ا يعينك عليه، سلام.

- ا يعيني.

دخلت الجامعة. هكذا تركض السنوات بي منذ أن دخلـت المدرسة في الصف الأول إلى اليوم، وحين التقيت هادفًا كان ذلك الطالب الذي يكبرني بعدة سنوات، يتكلم فـي السياسـة التي تركتها في المنزل فوجدتها مشتعلة أكثر في الجامعة.

كنت أرى تلك المشاحنات الدائمة بينه وبين صديقه طـه، أحد زملائي الذين أستطيع الحديث معهم، كنت أقـف أمـام إحدى صحف الحائط بجانب المدرج أقرأ ما فيهـا فـاقترب مني وقال لي:

- أنا إسمي طه، معاكِ في الكلية، ولي مقالة في المجلـة دي.. لما تقرئيها قولي لي رأيك.

نظرت إليه بتمعن ثم ابتسمت نصف ابتسامة بتحفظ شديد وكأنه اقتحم علاقتي بالصحيفة، وحين انتهيت وجدتـه عنـد باب المدرج يسألني: - ها ايه رأيك؟

رددت: - كويسه.

فقال: - يعني إيه، بس كده...؟

ابتسمت نصف ابتسامة أخرى، ودخلت المدرج.. بعد ذلك أصبح طه يأتي إلى ببعض الكتب، ويحكي لي عن أصـدقائه وصديقاته، وعن بعض المظاهرات التي تحدث في الجامعة.

قال لي: - يا ريتك يا شمسة كنت دخلت الجامعـة مـن بدري، كنت شفت النضال على أصوله.. وعنـدما عرفنـي على هادف كانت يدي ترتعش في يده وحين عدت إلى البيت كنت محمومة أهذي.

رجل أسمر ضعيف

- ١ -

كان بيتنا يطل على شارع المطار، دخلت على أمي وهي جالسة في الشرفة المطلة على شارع كبير يصـل المطـار بوسط البلد، الطائرات فوقنا لا تكف عن التحليق الواحدة إثر الأخرى.

- صباح الخير.

نظرت إلى وقالت: - مساء الخير، الحين الظهر

ابتسمت وجلست بجانبهـا. أمسـكت الجريـدة وبـدأت أتصفحها دخل عَلِىٌّ السباك علينا، رجل أسمر ضعيف لـيس وسيما لكن ابتسامته طيبة إلى حد ما.

- مساء الخير يا شيخة.

- أهلاً يا علي، شو الحمام بعده خربان.

- عاوز له شغل كتير، إزيك يا ست شمسة.

نظرت إليه بابتسامة عريضة: أهلاً، إزيك انت.

- أنا الحمد ، حمد ا على سلامتك أنا سـمعت أنـك مريضة.

- كنت، بس الحمد ا أنا دلوقتي بخير. قلت ذلك، وأنـا أنظر إليه فانقلب وجهه محمرا وارتبك، وظل واقفًا متسمرا، وأمي تحادثه. نهضت وأنا أضع الجريدة على الطاولة وأنسل من بينهما.

قال: - يا ست شمسة، فيه ورد عشانك

- لي أنا...؟

- أيوه عشان قمت بالسلامة.

- شكرا يا علي، ودخلت غرفتي.

ظل عليٌ يأتي كل يوم إلى أن انتهى من تصليح الحمـام وفي هذه الأثناء لاحظت أنه بدأ يتغير قليلاً لا يصلح بيـده، أحضر معه أكثر من صنايعي وهم الذين يعملون وهو فقـط يشرف عليهم.

مرة قلت له: - إيه يا علي أنـت بقيـت أسـطى كبيـر دلوقت...؟

فقال لي: - دا أنا باشمهندس يا سـت. ودول الصـنايعية بتوعي وكمان شويه حفتح محل سيراميك

- ربنا يوفقك.

- ا يخليك، دا أنا كمان حابني عمارة.

....

وظل على يأتينا كل فترة متحججا مرة بالحمـام ومـرة بالمطبخ ومرات بالسؤال.

مرة حاملاً الورد ومرة حاملاً عـروس حـلاوة المولـد ومرات علب شيكولاتة لي.

قلت لهادف: الظاهر علي ده بيحبني.

قال لي: يا مبروك خلينا نخلص منك.

- تصور بالأمس جاب لي عروسة حلاوة وابتـدا يلـبس بِدَلْ شيك، قال لي إنه أدخل أولاده مدارس أجنبية واشـترى سيارة مرسيدس، قلت له: وما لها الفيات اللي كانت معـاك، قال: لا.. الفيات للصنايعية لما بييجـوا شـايلين الحاجـات، والبيجو للمشاوير بس المرسيدس دي لما آجي ليكم .

تغير وجه هادف وانشغل بـالتخطيط فـي أوراق علـى المنضدة .

قلت: - خلينا في المذاكرة .

رماة الحدق

حين أخذت ريحانة أكواب الشاي من أمـام أمـي وأبـي ودخلت المطبخ كان عم عبده يغسـل الصـحون. وضـعت الأكواب في المغسلة أمامه وانشغلت بإعداد العشاء فقال لها:

- ومالُه أغسلك الكبايات والصحون والـدنيا كلهـا بـس ارضي يا جميل، سيبك من التُقل دا أنا حاهنيك واستتك بـدل الشحططة ديه.

فقالت له:

- وحبيب يا عم عبده؟

- سيبك منه إيه حبيب ده حتى اسمه مش حلـو، شـوفي عبده أحلى كتير. فقالت وهي تنظر إليه باستخفاف:

- مب كافي إننا عبيد، بعد اسمك عبده.

رد عليها:

- لا أنا مش عبد، أنتِ بس اللي عاوزه تبقي عبـدة، مـا تيجي أتجوزك وأكسب فيك ثواب، وأخليك كمان حرة.

ابتسمت وقالت له:

- ليش انت مب عبد؟

اشتط وترك الأطباق والصحون والأكواب، نزح الماء من على ذراعيه ونطره في الهواء بغضب وقال لها:

- عمر أهل النوبة ما كانوا عبيد، السواد ده أصلي يا بت دا إحنا كنا سادة وحاربنا، إحنا أولاد حابي اللي ضامم بـلاد الذهب بين كفيه من آلاف السـنين وإحنـا نخيـل الـوادي المتغربين لكن جبال النوبة ممكن تنطق أسامينا.

قاطعته قائلة:

- بس استعبدوكم.

- بعد إيه، إحنا دلوقتي أخذنا حريتنا مـش زيـك مـش عارفة تاخديها لحد دلوقت.

- أخذتوها ورجعتوا تشتغلوا عبيد.

- لا بإرادتنا نشتغل ولو مش عاوزين نسيب ، بس إنـت لا، يا بنت الحلال سيبك من وجع القلب وحبيـب والهـم ده ونتجوز، ده أنا شغال في الحكومة، ده أنا سفرجي قد الـدنيا ولما أسيب حيبقى لي معاش كويس.

ضحكت ريحانة بصوت عالٍ وهي تقول:

- ما أتعس من سيدي إلا ستي، تاركة المطـبخ، حاملـة الصينية العشاء لعمها.

بدأ عبده يردد لها الموالية النوبية بصوته الرخيم:

- " أنا لم أر السمراء وإن أراها، ولكنني أتغزل فيها مـع من رأوها إن ضحكاتكن للداخل تجعل الرجل مـع زوجتـه يرقصان أنت دائمة الضحك لا تغضبين أبدا وقد تعـودت – لحبي لك – هذه العادة فأنا أضحك دائما بلا سبب أنا لـم أر الفاتنة السمراء ولكنني أبكي الغرام من رأوها ".

- بلاد الذهب النوبة، بلاد الذهب، أشري أشري.

ابتسمت ريحانة وظلت تدندن بالكلام وهي حاملة الصينية متذكرة زوجة أبيها مباركة الزنجية التي اختطفت من زنجبار وأتت إلى مدينتها، مباركة عبدة أيضا ومن أفريقيا وعم عبده كذلك ربما كانوا من أصل واحد وربما ترجع عروقهم إلـى الجد نفسه مثلاً، لكنها لا تعرف عنها سوى أنها من زنجبار.

دخلت إلى عمتها وهي تدندن بكلام عم عبده دون أن تنتبه فقالت لها: شو هالخربطة شو أشرى أشري هاي...؟

- ها عم عبده كل ما يشوفني يقولي أشري أشري. كـلام نوبي يتكلمونه عم زكي وعم عبده ولما سألتهم قالوا لغـتهم القديمة النوبية وكل ما أتخانق معاهم قالوا لي إحنـا رمـاة الحدق، يعني شو يا عمتي رماة الحدق...؟

حطبة التوبة

سألت طه صديق هادف الصعيدي القـادم مـن جنـوب مصر:

- أتعرف رماة الحدق؟

قال بدهشة:

- وأنت إيه اللي عرفك بيهم؟

فقلت:

- " أشري أشري ".

نظر إلى بعين فاحصة:

- م أنت أهو بتعرفيهم.

- لا صحيح ليه اسمهم رماة الحدق ...؟

اعتدل في جلسته كأي حكاء قديم بدأ يروي لـي بعـد أن وضع قدما واحدة تحت الأخرى وأشعل سيجارة وهو يقول:

- لزوم الشيء يا ستي نبتدي من الأول، بعـد أن فـتح عمرو بن العاص مصر جهز جيشًا بقيادة عبد ا بن سـعد بن أبي سرح لفتح بلاد النوبة فشلت هذه الحملة بسـبب مـا أبداه أهلها من شجاعة ومهارة في رمي السهام. هـم قـاتلوا المسلمين في الفتح الإسلامي كانوا يصوبون علـى الأعـين

بسهامهم مباشرة وقد برعوا في تصويبها إلى حدقات العيون لهذا سموا " رماة الحدق " وكان أحد القادة العرب الذين فقدوا عيونهم في الحرب سهم بن أبرهة بن الصباح ومعاوية بـن جريح.

بعد فشل الاستيلاء على أرض النوبة لم يجد عبد ا بـن سعد بدا من أن يرضي بالحد الأدنى فعقد اتفاقية معهم يقـدم النوبيون بمقتضاها القوة العاملة من الفتيان والنساء ويحصل رماة الحدق من فرسان النوبة على معاهدة متكافئة نصـها " وللرعايا من كل الطرفين حق عبور الحدود على ألا يكـون قصدهم الإقامة " وبعد الاتفاقية أهدى ملك النوبة إلى عبد ا بن سعد منبرا للصلاة لوضعه في مسجد عمرو بن العـاص وظل هذا المنبر إلى عهد ذات قرة بن شريك أحد قادة الفتح الإسلامي.

ظلت النوبة على ديانتها المسيحية حتى عصر ابن قلاوون حيث جهز جيشًا كبيرا بقيادة الظاهر بيبرس الذي اسـتطاع فتح بلاد النوبة فسقطت دنقلة وقتل من أهلها الكثيـر وبـاع الأسرى كعبيد وإماء، انتقاما لما فعلـوه فـي الفـتح الأول، ولرفضهم الاستسلام.

هكذا كان النصر هو بوابـة الهـزائم وكاشـف ثغـرات الضعف ومهيج الغرور في النفس الـذي تحسسـه الظـاهر بيبرس، فحمل عليهم بخيرة جنده، سادة باعهم من كان يريد أن يشعر بتخلصه من عبوديته التي لم يـتخلص منهـا وإن جلس على عرش القلعة.

- ماذا تقصد أتريد أن تقول إن المملوك بـاع الأحـرار حتى يصبح الكل عبيدا في عبيد؟ أهمل ملاحظتي وواصل:

- هم يا ستي بقايا الدولة الفرعونية، في عهدها حكمـوا مصر لفترة طويلة في عهد ملكهم قوش ولا يزال هذا الوهم يعشش في أفكارهم، فهم لا يزالون يتزاوجون رجالاً ونسـاء من قبائلهم حتى اليوم. ولما دخلت المسيحية اعتنقوها لأنهـا التقت مع ديانتهم التي قامت على الثالوث المقـدس إيـزيس وأوزوريس وحورس.

بعد انتصار الظاهر بيبرس دخلوا الإسلام. وظلوا حتـى حررهم الخديو إسماعيل حين منع تجارة العبيـد، يسـكنون جوار قصر عابدين، والحقيقة أنهم أحـرار ويـرون أنهـم العنصر الوحيد غير المختلطة دماؤه، فكل أبيض في مصـر مختلطة دماؤه بدماء أخرى، وما زالوا يذكرون دولة قـوش

ملك النوبة الذي استطاع أن يحكم لفترة طويلة فـي العهـد الفرعوني.

- افدتمونا، شكرا، أتعرف أنتم حررتهم العبيد منـذ أيـام الخديو إسماعيل وظلت العبودية في مجتمعاتنا إلـى بدايـة السبعينات والآن مـا زال العبيـد موجـودين فـي بعـض الأُسَر....

وين راح يروحوا، كان لدينا عبيد في البيت وكانت جدتي تحكي لي أن في أيامها كانت هناك حطبة داخل بيت المعتمد البريطاني في فناء بيته مباشرة من يريد امتلاك حريته مـن العبيد والإماء عليه أن يأتي إلى بيـت المعتمـد البريطـاني ويلمس هذه الحطبة فيعطي صك حريته وكأن يا أخي الحرية تؤخذ بصك أنت أحق مني، نحن جميعا عبيـد، والا أقولـك عبيد ا وخلاص.

- تأخذون حريتكم بلمس حطبة وفين في بيـت المعتمـد البريطاني..!

- تصور ! لقد كانت لدينا حطبات كثيرة، كانـت هنـاك أيضا حطبة التوبة، هكذا سميت، فـي السـاحة الخارجيـة المقابلة للقصر أمام شجرة الرولة يحدها في المقابـل بـاب

القصر العتيد الذي يقف أمامه مدفع قديم جدا، كانت حطبة التوبة هذه للزناة يجلد عليها الزاني والزانية والسكارى أيضا.

- إيه الرعب ده...؟

نظر إلى بدهشة مفتعله وكأنه يتقن دوره وقال:

- أي رعب هذا يا سيدتي..؟

- الرعب..؟ لا هذا مثلث الرعب بين الحطبة والمدفعين والسجن الذي يوجد داخل الحصن، لم تكن مسألة قطع يد السارق مطروحة هنا كما في مناطق أخرى في الخليج لكن في فترات سابقة كانوا يسملون العيون أي يكحلونها بالنار حتى العمي وألغيت هذه العقوبة في فترات لاحقة، لكن الجَلْد ظل إلى فترة قريبة. وأذكر أن المحكوم عليه بالجلد كان يساق إلى أحد المدفعين بعد أن ألغيت الحطبة ويربط على أحدهما في الظهيرة ويجلد، ولا فوكو يا أخي في " المراقبة والمعاقبة ".

- وأنت من أحفاد هؤلاء؟

- تصور.

- تصورت، وأريد أن أقابل جدتك أكيد لديها الكثير، أكثر منك.

قلت: - بالتأكيد.

فقال له هادف:

المادة التاريخية لديهم غنية لا كمادة أرشيفية لكن كمـادة معاشة، والتجربة الإنسانية فيها وعي وإدراك كبير.

رددت:

- اتفضلها يا سيدي.

فرد:

شكرا، أنا إنسان واقعي، مع الإنسان وتطـوره ويمكننـي استيعاب هذا الواقع، لكن لا يمكن له أن يستوعبني، لأنـه واقع يعني بالحفاظ على شكله الخارجي فقط مـع فقدانـه شكله بالداخل وكأنه حالة استاتيكية.

وردة حمراء

- ١ -

قطعت وردة حمراء من الحديقة وحملتها وأنا ذاهبة إلـى الجامعة، وضعتها جانبي على المقعد المجاور فـي العربـة حتى لا تذبل ووضعت حقيبتي على المقعد الخلفـي وكتبـي أيضا.

- الوردة أولاً، هكذا قلت. يعني السباك يجيبلـي بوكيـه ورد وأنا اللي أجيب له وردة. مفروض هو اللـي يجيبلـي الورد مش أنا، نفسي يبقى رومانسي شوية، نفسي يحسسـني إنه مهتم بي بشوية هبل حتى.

عند باب الجامعة أوقفت العربة ونزلت. حملـت الحقيبـة والكتب وأمسكت الوردة بيدي. لم تذبل بعد.

- أيوه يا ورد، الورد شايل ورد النهارده.

- ده انتي اللي يتجابلك الورد.

- الوردة دي من مين؟

هكذا بدأ أصدقائي يشاكسونني، خجلت وبحثت عن هادف كي أعطيه الوردة، لم أجده لفترة وحين أتى كان نصف نائم.

- صباح الخير.

مددت يدي بالوردة. أخذها وقطف منها أوراقًا، وأكلها.

- يا نهاري انت بتاكل الوردة.

- أمال أعمل بيها إيه، أصلي لسه مفطرتش.

ثم أخذ بقيتها المهلهل ووضعه في وسط كتاب بيده.

- أنا اللي أستاهل.

- طب دوقي طعمها وقوليلي.

قدم لي ورقة من أوراقها، أخذتها وأكلتها وأنا أقول:

- ما همه برضه بيعملوه مربي، يالا زي الخرفان ناكل أي حاجة قدامنا.

- هو أنا لما آكلها مش أحسن من لو أخليها تدبل؟

خليه نافرة لا تشبه خلاياي الأخرى مجرد خلية غير مشبعة لا يدركها هادف، لا يظن أنها ذات أهمية قصوى لدي، بحاجة إلى وردة، فقط وردة. فكل فلسفة الجمال التي كونت لدى رؤية إنسانية ومنهج حياة لم تستطع أن تملأ مكان الوردة. يقول إنني رومانسية وكأن ذلك عيب في، وأقول أنني بحاجة إلى مجرد إحساس بسيط تسربه الوردة إلى روحي وهي تتفتح، برائحتها، ولونها، ورهافتها التي تذبل سريعا.. فينك يا باشمهندس عَلِي.

– ٢ –

خرجت مسرعة، ركبت سيارتي ووصلت إلى كافيتريا الجامعة قبل هادف، انتظرته ثم أخرجت كتابا أطالع فيه بدلاً من مواصلة التحديق في وجوه الآخرين، أحضر لي النادل كوب الشاي الذي طلبته.

أمسكت قطعة سكر ووضعتها في الشاي ثم وضعت قطعة أخرى في فمي، تماما كما كنت أفعل في طفولتي حين أضع قطعة سكر في فمي والأخرى في فم حصاني، ذلك الفـرس القوي في نادي الجزيرة والذي كان يأخذني أخي معه ليتدرب هو على القفز وأتدرب أنا على ركوب الخيل.

ليس من عادة هادف أن يتأخر هكذا ربما حدث له طارئ أو ربما فاجأه أحد أصدقائه. أمسكت القلم وكتبت: عادي زي كل مرة، وأقفلت الكراس.

أطل علي برأسه مع صديق لـه، ابتسـما وكـأنني أنـا المتأخرة لم أبد غضبا شديدا.

- فيه إيه؟
- عادي ولا حاجة بس طه جه وجابني معاه.
- طيب اتأخرتم ليه..؟
- أبدا.

اتفقنا أن نكمل حديثنا ونحن نسير ككل يوم من مكان إلى مكان وكلما تعبنا جلسنا في مقهى أو كافتيريا. قادتنا أقـدامنا خارج الجامعة إلى حديقة الحيوانات.

قلت:

- أنا مش عاوزه أدخل.

- ليه بس، دي النعامة اللي جوه تمام زيك، بتشبهك قوي.

- أنا لا أخبئ رأسي في الرمل يا أستاذ.

- صحيح لكن عينيها حنينة زي عينيك تمام.

لم أستطع أن أرفض هذه الدعوة إلى الدخول على الأقـل لأتأكد من أن النعامة تشبهني فعلاً في العيون والاختباء.

ونحن نسير تحدثنا كثيرا عن علاقتنا، عن نفسـي، عـن الوجود والعدم، كان يقول دائما: - أنت وجودية، وأنا أقـول له: – أنت معقد. كان يعلمني أبجديات الحياة، وأنا أضـيف إليها الكثير.

قرأت بالأمس مذكرات بابلونيرودا – أشهد أنني قد عشت – وسألت نفسي هل حقًا سأشهد يوما بأنني عشت. بـالطبع اليوم أقول إنني عشت. ألم أحب وأحزن وأفرح؟ أنا أخـذت وأعطيت، عشقت وعشقت، تعلمت عمق الحياة بكاملهـا إذن أنا عشت حتى وإن لم تكتمل هذه الحياة لكنني عشـتها. قـد أكون لم أولد بعد، لكنني أيضا ولدت مرات عديدة، ولدت في الغابات والأحراش ومرة أخرى أذكرها جيدا حين خرجـت من بيضة سمكة حمراء.

هذه الولادة التي عمدتها الشواطئ في بلدة الحيرة التي لم أرها في حياتي إلا مرة واحدة فقط كـان عمـري يتجـاوز السابعة عشرة، جلست أجمع القواقع يومها فذكرتني بحيـاتي تحت الماء، كانت الحيرة بين إمارتيْ الشـارقة وعجمـان، هناك فقط سلك حديدي يفصلهما. وقفت بمحـاذاة الشـاطئ أسترجع ذاكرتي حين خرجت سمكة من البحـر – السـمكة نفسها التي خرجت للفتاة التي كانوا يحكون لي عنهـا وأنـا صغيرة – كانوا يقولون لي إن فتاة يتيمة كانت تعـيش مـع زوجة أبيها القاسية والتي تجعلها كل يوم تذهب إلى الشاطئ تنظف الأسماك التي يجلبها الأب وتغسل الأطباق والأوانـي. مرة تحدثت معها سمكة من السمكات التي تقـوم بتنظيفهـا خافت الفتاة وارتعدت طلبت السمكة منها أن تتركها في البحر وستلبي لها الكثير من الأمنيات وتزوجها بأفضـل الرجـال خافت الفتاة أن تعود إلى زوجة أبيهـا دون تلـك السـمكة فتعاقبها أشد العقاب لكن الحلم والرغبة كانا أقوى لديها مـن خوفها لذا حررت السمكة بمجازفة أكبر كي تستطيع تحقيـق بعض أحلامها.

ها هي السمكة تخرج إلى مرة أخرى لكن لتخبرني عن تاريخي في البحر. سحبتني إلى الأعماق وعرفتني بالعالم أسفل الماء، قالت لي: إنني سمكة بحر. أنا أيضا أستطيع أن أتنفس من خياشيمي وأن أعوم بذيل رائع، انتظرت أن تهديني هدايا البحر مثلما فعلت مع تلك الفتاة أو تعدني على الأقل بما وعدتها به، لكنها اختفت منذ ذلك اليوم وبعد أن عدت مبللة من البحر أجمع القواقع في حِجْري. استدار جسدي في شكل سمكة وأصبحت أسير كما لو أنني أسبح وكل من يراني يقول لي: أنت تشبهين سمكة بحر. ولا أعرف كيف أشبه سمكة.

التفت إلى نفسي، نظرت لها في المرآة بحثت عن خياشيم اختفت وقلت أنا سمكة بحر. ملت تحت سريري، فتحت حقيبة بيضاء بها محارة كبيرة كانت قد أخذتها عنوة من هادف، سمعت أصوات الموج تناديني فأرتج وترتج معي الغرفة كلها، هدير الموج في أذني إذن هأنا سمكة البحر التي تحب أن تتحلى باللؤلؤ وتنام في حضن صدفة، وتؤمن بالصدف والأساطير والتي تخبئ تحت وسادتها البحر في شكل محارة وتغرق في الماء سريعا.

أنا ابنة اليابسة أيضا. هذه الأرض حملت بي وحملتني، أنتمي إلى ترابها ولي رئتان ضعيفتان لا تحتملان ملوحة البحر، إذن من قال إنني سمكة بحر؟

كان يقول دائما أنني أشبه النعامة لأن لي عينين ساحرتين ووجها نحيفًا.

كنت أغضب لأن النعامة تخبئ رأسها في الرمال ولا تواجه أبدا، كنت أخاف على نفسي أن أظل أشبهها حتى أراني أخبئ رأسي في الرمل مثلها.

كنت أرفض تشبيهي بالنعامة – برغم جمالها – ولهذا أرتعد كلما مررت بأزمة في حياتي وتذكرت شكل النعامة التي أشبهها. ومع ذلك يظل هناك شبه ما.

مرة وأنا أقلب صفحات مجلة ما رأيت أحد رسامي الكاريكاتير يشبه الشخصيات المعروفة بحيوانات تقترب من شكلها فرسمهم كقردة وكلاب وديكة منذ ذلك الحين ومنذ قراءتي ألف ليلة وليلة وسماعي بعض القصص القديمة ونسميها " الخراريف " ومفردها خروفة، أي قصة غير حقيقية وربما جاءت من كلمة خرافة وكان الساحر يتحول فيها إلى قط أو حيوان أليف في البيت، أقول منذ ذلك الحين

ظلت عيناي تلتقطان الأشكال والتفاصيل وتحاولان ردها إلى منابع أخرى أي المقارنة أو التشبيه، وكنت في دراستي أحب بحوث المقارنة حيث أجدني أفرق بين نظامين أو بحثين من حيث التحليل والمقارنة، لكنني كنت أقنع ذاتي بأن التحليـل مادة ذات خبرة عميقة وأنا أقل من تحملي لـ ذاتي بوجودهـا التحليلي إذ تجد ذاتك تخضع في علاقاتك وما يمـر عليـك ضمن منظومة تحليلية تجعلك في مختبر حياتي معقد، وأنـا أدخل ضمن الإبداع والتحـرر والسـذاجة الجميلـة أحيانـًا والجرأة المرتبطة بالتخبط بعض الشـيء وكسـر التحليـل والتقييم والانطلاق من منطلق الطيران لا الخضوع لنظريات ومنظومات مقررة وموضوعة سلفًا، أسـير عليهـا خطـوة خطوة ولا يعني هذا أن أسير دون هدى ودون حـدود فـي التصور، لكن لي أن أشطح وأتجاوز وأخطئ وأكون نعامة.

- ٣ -

لم يأت باشمهندس عَلِي منذ مدة.

لم يرسل وردا ولا عروسة حلاوة ولا شيكولاتة

لا أرى أية عربة من عرباته أمام المنزل

المرة الأخيرة التي أتي إلينا أخبرني أن ابنه الأكبر دخـل الجامعة وأن بقية أولاده ما زالوا في المدرسة وأنه اسـتطاع أن يبني لهم عمارة، لكل فرد شقة فيها وسـيهتم بحالـه الآن بعد أن اطمأن عليهم وأن المحلين محـل السـباكة ومحـل السيراميك يكفيانه.. بعد عدة أيام سألت أمي:

- وين باشمهندس عَلِيْ ...؟

فردت علي:

- سأرسل إليه، منذ مدة لم يأت.

دخلت المستشفى مصابة بأزمة حادة فـي التـنفس كـان أصدقائي يهدونني وردا أبيض كل يـوم ويقولـون صـباح الورد، أشكرهم وأظل أشمه طيلة اليوم زهور اللافندر كانت رائحتها جميلة وقوية. بعد أيام قليلة أصابتني أن أزمة حـادة في التنفس وحين جاءوا إلى زيارتي قلت:

- ابعدوا محبتكم عني، وأقصد الورد الذي حملوه معهم.

زرع أبي أيضا شجرة جميلة اسمها ملكة الليل في الصباح يذبل وردها وحين تغيب الشمس يتفتح وردها الأبيض ويشع ويطلق رائحة مذهلة في أركان البيت كله.

كنت أنا ملكة الليل، أتفتح حين تغيب الشمس وأكون أجمل وأرق لكنني لم أحتمل ملكة ليل غيري، أصابتني أزمة حادة في التنفس أزمة أخرى وقلت اختاروا بيني وبينها.

ملكة ليل، وسمكة بحر، ونعامة، وماذا أيضا....؟

اضطراب قلبي

في الجامعة اليوم رأيت د. سـامي، فـتح بـاب قاعـة المحاضرات، أدخل وجهه وجال بنظره ثم أقفل الباب ورحل، لا أدري عمن كان يبحث، لكنني أحسست أن قلبي يدق كثيرا كلما رأيته، أنا معجبة به، لكن لا أتصور أنني أحبه، كيـف ذلك لا أدري، أنا فقط أحب اضطراب قلبي كلما رآه.

عندما فُتحت القاعة كانت هناك أصوات عديدة والطـلاب جميعهم داخل الكلية، والكلية مغلقة أبوابها من الداخل سألت:

- فيه إيه...؟

قالوا هناك مظاهرات والحرس يطـوق بالجامعـة ومـن يخرج يضرب.

انفتح الباب قليلاً وجدت أكثر من عصـا تسـقط علـى رؤوس الطلبة وكثيرا من الدماء، وقع أحدهم علـى الأرض وسمعت أصوات هتافات بعض المتظاهرين في الخارج:

- " خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعـود "، إذن هي مظاهرات الجماعات الإسلامية في الجامعة ضد ذهـاب أنور السادات إلى إسرائيل.

وجدت طه أمامي فقلت له: - صباح الخير، خيـر فيـه إيه..

كان متضايقًا وحادا.. قال: - أبـدا الـولاد دولـه مـش هيجيبوها البر كل ما نتفق معاهم على حاجة يخالفوها..

فقلت له: - أنتم أصلاً مختلفين، إزاي عـاوزهم يتفقـوا معاكم.

رد: – مش وقت كلام دلوقت بس إحنا كلنا ضـد حاجـة ومتفقين على أن المظاهرات تكون سلمية وبدون عنف لكـن الظاهر مافيش فايدة، السلطة عاوزة العنف عشان ترد بعنف زيه، هي كده على طول، المفروض العنف ده يكون موحـد تجاه العسكر مش ننقسم على بعضينا كده. وتركني.

عند بوابة الجامعة الداخلية وجدت أحد زملائي يسلم علي فأجبته محييةً إياه، هو طالب خجـول لا يـتكلم مـع أحـد واستغربت حين حياني ثم اقترب مني وقدم لي كيسـا وهـو يقول لي:

- هذا لك، أرجوك اقبليه.

سألته: – ما هذا..؟

قال: – أرجوك لا ترديني.

لم أفهم، واختفى.

فتحت الكيس، كان به جلباب طويـل وخمـار ومسـبحة وقرآن. بحثت عن هذا الطالب طيلة النهار لكن دون جدوى.

في نهاية اليوم الدراسي وجدته منسـحبا مـن المـدرج، أوقفته وأرجعت له أشياءه قلت له:

- التحجب لابد أن يأتي من داخلي.

فقال: – ده فرض عليكِ.

قلت: – أنا سآخذ القرآن، بس الباقي أعذرني لا أسـتطيع أن أقبله.

أخذ أشياءه ممتعضا وهو يقول: - ا   يهديكِ

ولم أره بعد ذلك.

ا   يهديني..!

ا   يهديه.

ولكن مثلي لا يذاع له سِر

كانت رائحة الطعام تملأ البيت وكنت جائعة. ذهبت إلى غرفة جدتي قبلتها، كانت تقرأ القرآن أقفلت المصحف واعتدلت على كرسيها كانت عاجزة لا تتحرك إلا بمشاية خشب صنعها لها د. صالح حين أتى ليدربها على السير، وجد ركبتها مكسورة ولا تستطيع السير بمفردها نصح والدتي أن تصنع لها مشاية خشب، كانت ثقيلة وحين تسير بها في الليل إلى الحمام يصحو كل من في البيت بسبب صوتها العالي وهي تتلو:

- بسم ا الشافي، بسم ا المعافي، بسم ا الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء.

جلست بجانبها مسندة يدي على المشاية التي أمامها، سألتني:

- اليوم اتأخرت وايد.

فحدثتها عن المظاهرات والعسكر ولم أخبرها عن محمد الذي أعطاني الخمار أو عن هادف فسألتني.

- وشو صار.

- أبداً حاصروا الجامعة وهدأت المظاهرات، علـى كـلٍ هي مظاهرات سلمية تقريبا.

دخلت أمي فزعة وقالت:

- من بكرة ما بتروحين الجامعة إلى أن تهدأ المظاهرات وبعدين أنت ما تتدخلين مالك دعوة إحنا هنا ضيوف.

- بس هذي قضية عامة.

- أنا قلت ما تعمليلنا مشاكل.

- يعني أنا بس اللي أعمل مشاكل...!

أمسكتْ جدتي بيدي وضغطت عليها ونظـرتْ إلـى أنْ أسكت.

كنا منذ فترة أمام التلفاز أنا وجدتي وأمي وأختي وبعـض الأصدقاء حين نزل السادات من الطائرة في القدس فإذا بفردة حذاء تطير وتضرب التلفاز كانت أختي منهارة تبكي وحـين صافح مناحم بيجن سحبت فردة حـذائي وصـوبتها للتلفـاز التفتنا إليها مندهشين نعم كلنا غاضبون لكن ما ذنب التلفـاز ركضت إليه بسرعة وجذبت حذاءها الثاني وظلت تضـرب الشاشة بكعب الحذاء. حاولنا تهدئتها وإقفال التلفاز وخافـت أمي أن ينفجر في وجهها لم أكترث كثيـرا بخـوف أمـي

وحذرها سكت وأنا غاضبة وقلت: – أنا هاتغدى مع جـدتي، وقلت لها:

- شفتي يا جدتي شو أمي تقول لي؟ يعني أنا بس اللـي تعمل مشاكل؟

قالت: – هي أكبر منك وتعرف مصلحتك وبعـدين هـا الحين أبوك وأمك ما تقوليلها إلا حاضر قلت لها:

- يعني أنا بس اللي ما أشتغل سياسة، أبويا كان سياسـي وأخويا وهي وأختي وإنتِ بعد، بس جت عندي ولا.

ضحكت وقالت: - هي السياسة شغل، واللي يشتغل يتكلم؟

نظرت إليها بتمعن وفهمت وسكت.

أكلنا وهي تقول: - " ولكن مثلي لا يذاع له سر ".

فقلت لها: - خلصينا من أبي فراس الحمداني هذا.

فقالت: – أبو فراس الحمداني وبصوت أم كلثوم شو تبغين بعد؟

فقلت: - أبغى أشياء وايد.. أبغى أكون أنتِ.

ضحكت من قلبها وقالت: - هذا الشيء الذي لا تقـدرين عليه

- ليش طيب...؟

- لأنك شمسة مب مريم.

- وشو لو كنت مريم؟

فقالت: - كنت بتجلسين على هذا الكرسي وأمامك هـاي المشاية وبجانبك القرآن وشريط أبو فراس الحمداني.

كم هي امرأة قادرة وقوية لو كنت مكانهـا هـل كنـت أستطيع أن أتحرك في مساحة الغرفة والحمام فقـط دون أن أجعل روحي محصورة في مكانها هكذا؟

كانت قوتها ورباطة جأشها تبدوان واضحتين في نظرتها التي احتوتني بها، فسرت جرأتها إلى، اندفعت قائلة دون أن أحسب ما أقوله:

- أنا أحبه وأريد أن أتزوجه.

- ماذا...؟

- أريد أن أتزوج هادفًا.

قالت: - عليونة اتزوجت هاشما، عليونة الخادمـة عنـد جدتك.

- جدتي، هي عليونة شمسة، والا هادف هو هاشم.

- شو تقولين؟

صرخت:

- أنا أريد أن أتزوج هادقًا، وخرجت.

عليونة والنار مشتعلةٌ بها

عليونة إحدى بنات فرقة خموس كانـت عكـس أخوتهـا بيضاء وجميلة أحبها الإيراني القادم من طريق البحر وظـل يسكن في القصر ويهتم بالحظيرة، يطعم البقـر والأحصـنة والجمال والتيوس والخرفان. يجمع بيض الدجاجات، يحلـب البقر والجمال، يحمل البيض والحليب كل يوم إلى القصر إلى إحدى سيدتَيْ القصر زوجة الحاكم أو أمـه ومـع المنافسـة الشديدة بينهما أصبح ميزان القوة في يد الأم برغم اعتكافهـا وانزوائها، انزواءَ محتشدٍ في ذاته كشكل قوي في الحضور، وظل هاشم يحمل كل يوم البيض واللبن إليهـا وهـي التـي تتصرف به، ترسله إلى المطبخ عـن طريـق العبـدات أو تستبقي ما تستبقيه كوسيلة لإغراء بعض النسوة والأطفال بأن تقدمه كهدايا لهن أو لهم.

حضر عن طريق مركب صيد إلى تلك المنطقة من ميناء المحمرة بشط العرب، وكان يسمى " خورمشهر ". وأسقطوه في البحر بعد المياه الإقليمية بقليل في ليل ما، ظـل يسـبح حتى وصل إلى اليابسة وانتظر هناك.

شك بعضهم في أن يكون جاسوسا، واستدعاه الآخـرون ليتقصوا عن سبب حضوره. وكان لا يتكلم العربيـة، لكـن وجهه البشوش وشعره الأحمر وسكوته بل صمته الدائم أدخله بهدوء إلى تلك المدينة وإلى القصر مباشرة. إلا أن المفتـاح الذي كان يعلقه في صدره جعل الأهالي تشـك فـي سـبب وجوده هنا، خاصة أن هناك مشكلات على السلطة في إيران وكانت المنطقة في تلك الفترة مكانا لبيع الأسلحة.

لم يحتك بأحد غير حيوانات الحظيرة خصوصا الخيـول التي كان يعشقها فيدربها ويحممها، والإبل التي تتدرب هـي الأخرى على السباق الذي يقام كل شهر.

كانت تلك الإبل المعدة للسباق لا تشرب إلا السمن واللبن وحين تفوز الواحدة منها يصب على رأسها العطور الثمينـة والزعفران الأصفر ذو الرائحة الحادة فيصبح لـون رأسـها وبعض من رقبتها ذهبي اللون، خاصة الإبـل البيضـاء أو الفاتح لونها حين تسطع عليها شمس الظهيرة. كان يسـتمتع بصيد الصقور التي يلبسها البرقع ويضعها على ذراعه فـلا ترى إلا وقت الصيد حيث يرفع عنها تلك البراقع ويفك قيدها فتطير لتصطاد الغزلان والحباري والدجاج البري والأرانب.

حين دخل القصر لم يجد أحدا، ولم ينظر إلى أي من تلك العبدات. كان يعلم أن وظيفته لا تتعدى علاقته بسيدته في القصر، وإن ساعد قليلاً في حمل بعض المواد الغذائية أو تدريب الصغار على ركوب الخيل أو شرب حليب الإبل طازجا.

عليونة أخت ريحانة والابنة الأصغر لمباركة الزنجية التي اختطفت منذ طفولتها من أفريقيا. أحضروها إلى عمان في سفن صيد ظلت في البحر عدة أشهر ثم بيعت هنا من قبل صاحبها الذي اشتراها في عمان، اشترتها منه جدة الحاكم لأبيه وربتها مع ابنتها، ظلت معهم تخدم وتطبخ وتتعلم العربية بلكنة تتكسر أحيانًا والتي كانت حين تسمع طبول الفرق الكثيرة ينتفض جسدها كله كمن مسه جان وتسقط على الأرض مغشيا عليها وفمها يزبد ويرغي وتتهدج بكلمات زنجية لا يفهمونها. في تلك الأيام كان شراء العبيد لا يكلف شيئًا.

منذ اختطافها وهي تحمل في رقبتها حرزا متواضعا من جلد حيوان وحين كانوا يسألونها عنه كانت ترد عليهم بلغة سواحيلية لا تتذكرها جيدا أي إنه حرز من العين الحاسدة.

كانت مباركة من قرية الكايا التي تحوطها الأسوار بقوائمها الخشبية المدببة لتحتمي فيه القبائل من بطش القبائل القوية مثل الماساي والجالا والبرتغاليين قديما، وكانت تخاف كثيرا من الظل فهي ككل قبائل البانتو الذين يعتقدون أن الإنسان روح وظل. وأن الظل يتحرك وحده ويمكن الإمساك به وسجنه وهذا ما يتشابه مع عقائد الفراعنة عن الكا والبا كما أخبرني طه.

وكان سعيد زوجها منسجما مع هذه الفكرة وكلما خرج أخبر مباركة أنه سجن ظلها تحت حجرة فلا تستطيع أن تتحرك من مكانها حتى يعود.

كانت حين تفيق لا تعلم شيئًا عما حدث لها، لكن صوت تلك الطبول كان كمن يستدعيها إلى بلادها في الأدغال البعيدة، حيث كان العمانيون يذهبون هناك للتجارة واختطاف الأطفال والعودة بهم كتجارة رائجة لديهم، ثم بيعهم مرة أخرى لتجار العبيد حيث يتم شحنهم إلى السعودية ودول الخليج. وربما هذا ما يقصده المسعودي في سياق حديثه عن المحيط الهندي:

" والأسافل من بحرهم، هي أقاصي بلاد الـزنج وإليهـا تقصد مراكب العمانيين وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية البربري من بلاد الزنج والحبشة ويسمى " الخليج البربري "، وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة " قلنبو " من بحر الزنج. هـؤلاء القـوم الـذين يركبون البحر من أهل عمان، عرب من " اللازد " وينتهـي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قلنبو وإلى بـلاد السـفالة والواق الواق من أقاصي أرض الزنج وهي غاية مقاصدهم " ولقد وصفهم القلقشندي بقوله " ولهم متاجر مربحة وواصلهم إلى الهند لا ينقطع ".

تلك الطبول التي تشبه تماما طبولاً سمعتها في صـغرها حين كانت تعيش مع والديها في الأدغـال الأفريقيـة. كـان والدها واسمه العقل مال، قناص أفيال أصله من منطقة تسمي ياوو. اختطف هو أيضا، لكنه هرب في نجوجو ومنها أتـى إلى الكايا، استقر وتزوج وأنجب مباركة، وها هي تختطف.. ومنذ أن اختطفت وفي كل مرة تسمع هـذه الطبـول تعـود روحها إلى الرحيل إلى هناك وظلت هكذا حتى بعد زواجهـا

من سعيد بعد أن كبرت ريحانة قليلاً وأخذتها صاحبة القصر لتربيتها.

أنجبت منه كلثوم وعليونة، وحدها عليونة التي لم تشبههم بل تشبه هاشما لهذا حين رآها للمرة الأولى تزور مباركة في القصر هفا قلبه لها وظل متيما بها وهي التي كانت متزوجة وابنة ليل تعمل في فرقة خموس، ترقص وتغنـي وأحياناً كثيرة تكون علاقات خاصة برجال كثيرين تشرب كثيرا إلى حد السكر لكن روحها الجميلة وضحكتها الواضحة الصريحة تاف قلبه بحبل ناعم من الدلال، لم ير أحدا بمثل دلالها الفاتن والوقور أيضا لم تكن كمومس بل هي امرأة تختار حياتهـا، تتكلم بشكل هادئ وممتع تنظر بحياد وحـدة، ولا تبتسـم إلا قليلاً ربما لأنها تلبس البرقع على وجهها فلم ير فمها إلا في المرات التي كانت تلبس برقعا قصيرا حيث يرى سنا ذهبيـة واحدة تبرز من بين صفوف أسنانها كان يحلم بهـا كثيـرا، وحين طُلقتْ ارتعـدت أعضـاؤه كلهـا، ركـض لسـيدته واستعطفها أن يتزوجها، شتمته سيدته، كانت تريد له عبـدة صالحة لكنه يحب علياء، تزوجها في هدوء لم تكـن تحبـه فروحها معلقة بالخمر والغناء، وجسـدها معلـق بـالرقص

والرجال. لكنه كان يحبها كثيرا تحمل منها خيانتها وسـكرها الدائم تحمل ذهابها مع الفرقة. حاول كثيـرا أن يمنعهـا، أن يقنعها لكنه رضخ في النهاية لها وظل صابرا محبـا حتـى شوهدت والنار مشتعلة بها ورائحة الجاز تملأ المكان.

قالوا لقد سكبت على نفسها الجاز وهي سكرانة، واحترقت لكن حكايتها ظلت سرا لم يبح به على الإطـلاق، كثيـرون اتهموه بها، وكثيرون اتهموها بعد رحيلها بأكثر من تهمـة، لكنها أثرت كثيرا على فرقة خموس حيث كانت أجمل بنـات فرقتها وأحسنهن رقصا أو حتى دلالاً، تشرب حتـى تثمـل، لكنها تظل في جلستها كما هي وحين ماتت ظل هاشـم فـي الحظيرة فترة ثم اختفى تماما.

قلت: - أريد أن أتزوج هادفًا.

قالت أمي

- ١ -

لم تتجاوز المظاهرات حدود الجامعة، هكذا كان مقـررا لها وهكذا صار، بعض الأفراد فقط اقتربوا من باب الجامعة ثم تراجعوا بسرعة مذهلة.

كان يجب أن تكون أقوى كما كانت في نوفمبر ١٩٧٦.

وجدتُ طه، فقلت له: - طه.. " ما أنزلنا عليـك القـرآن لتشقى.. "

قابلته في الجامعة.. كان يوزع بعض الأوراق المصورة، قدم لي إحداها فسألته:

- إيه ده؟

- دي فسيلة خدى ازرعيها، " فمن كان في يده فسيلة يوم القيامة فليغرسها ".

ابتسمت وقالت:

- يا عيني، دي بقى فيها أي ثمر؟

فرد:

- دى يا ستي فسايل أنور كامل في آخر عمره وثمرهـا المرة دي ليبرالي.

- وقبل كده كان إيه؟

- كان " الخبز والحرية ".

- ومين بقى أنور كامل؟

- وا ما تعرفهوش؟ أمال هادف بيهرش دماغك طـول الوقت في إيه؟ في الحب من غير خبز ولا حرية؟

- عمره ما جاب سيرة حد..

- سيرة حد؟ يا بنتي دي سيرة حركة مش حد.

- سيبنا من أنور كامل كنت عاوز أتكلم معاك.

- أنا مش فاضي دلوقت.

- يا أخي إفضالي شوية، عاوزة أتكلم معاك، هادف مش عاوزني أتناقش معاك في أي حاجة خايف منك عليّ، فيه إيه بينك وبينه؟

- أبدا، اختلاف أيديولوجي يا ستي.

- أنا كل ما أكلم حد منكم يقول اختلاف أيديولوجي، فيـه إيه؟

- إحنا متخانقين من إمبارح.

- ليه؟

- في الأفكار، مالكيش دعوة.

- يعني إيه ماليش دعوه وهو أنا مش لـي رأي كمـان وبعدين تتخانقوا انتوا وأنا ذنبي إيه. وأفكار إيه اللـي انتـوا اتخانقتوا عليها؟

كان ذلك الحوار ما بين الماركسيين والتروتسكيين دائـم الحدوث. يرتفع أحيانًا إلى حد الاتهـام بالخيانـة، وتجنيـد بعضهم بعضا هذا الداء المتمكن في حركة اليسار عموما منذ الثلاثينيات لا يزال ينخر قوتها ويجعـل الهـم الاجتمـاعي يتراجع مع اندفاع الصراع الفكري.

فمنذ التقى " هنري كورييل " ذلك الفتى الصغير أخضـر العينين ذو الخصلة الساقطة على جبينه عند سفح الهرم لـم يتوقف أتباع هنري عن النظر إلى أنور كامل ومن معه على أنهم جماعة من الفنانين ذوي تعاطف مع الطبقة الفقيرة.

قال لي طه: - هذا حق يراد به باطل فمع جورج حنـين واطف ا   سليمان والبير قصيري كان هناك أفراد من سلاح الطيران ونقابات العمال انضموا إلى أنور كامل لاقتنـاعهم بالأفكار التي يطرحها وليس تعاطفًا مع ما كتبه.

أحببت أن أفهم تغيرت أمور كثيرة حول حركة الطلبـة، حاولت أن أتساءل وأنتقل من كلية إلى كلية ومن جماعة إلى أخرى، أن أجد من يجيب عن أسئلتي.

كلفت نفسي هذا الصيف بالكتابة حول ثورة ظفار، ذهبت إلى د. سامي وطلبت منه مساعدتي في البحث، نظر إلى من وراء نظارته بتمعن شديد وقال: ابدئي.

تجرني قدماي مع حركـة المظـاهرات دون إرادة نحـو العمق، أبحث عن هادف، عن وجوده، عن ظله، كـأن يـده على كتفي، هكذا سأرى العالم ما زال هادئًا بـرغم قسـوته الواضحة.

- ٢ -

فتحت عيني اليوم على صوت أمي. لا صوت لهـا فـي أذني، لكن وجودها مؤثر ومتحكم في البيت، ومع ذلك كلمـا كبرت استطاعت أن ترى قسوة العالم، كانت تقـول: لمـاذا يمتعنا ا بقوتنا ثم يسحبها منا، وكأنه يظهر لنا ضعفنا هكذا، وكلما كبرنا انسحبت منا القوة والسـيطرة حتـى علـى أدق الأشياء وأبسطها، وكانت تدعو أن تموت وهي ما زالت قوية

وعلى فراشها ولا تحتاج إلى أحد. حـين ماتـت أوصـتني وصية واحدة فقط قالت أمي: لا تذلي نفسك لأحد وماتت.

تقول أمي دائما: إن الحياة مثل غرفة بها بابان تدخل من أحدهما لتمر فيها وتخرج من الآخر وكأنك لـم تـدخل، أو كمجرد ضيف عابر، وكانت مع ذلك تقبل على الحياة برغبة عارمة في الاستمتاع بها بأشكال بسيطة وعميقـة، تمـثلان فرحها في تجمع البشر حولها، ومع ذلك كانت تؤمن بالمثـل القائل " لكل مقامٍ مقال " فلا تخلط الأشكال مع بعضها بعضا، ولا تجالس الضدين مع بعضـهما بعضـا. كانـت الحالـة الإنسانية هي التي تدخل من خلالهـا، وكانـت تقـول: إن الإنسان البسيط أجمل وأصدق في محبته فهو لا ينتظر منـك إلا المحبة الخالصة فقط، ومع ذك فهي تتعامل بهذه البساطة دون أن تنسى في لحظة أنها أميرة عليهـا أن تـوازن بـين حالتين بشكل هارموني جميل، لم أستطعه أنا التـي تتناسـى ذلك وتفاجأ به كل مرة، وكانت تعيب على ما تفعلـه هـي، لأنني أقوم به دون النظر إلى ما تحت قدمي. وكأنني أحبس الظل تحتي. أمي على حق، وربما كنت أنا أيضا على حـق، هذا ما أراه. فأنا أحاول بعقلي اقتلاع قدمي من جذورها، لكن

ذاتي ترنو إلى البعيد وإلى هذه الجذور، تتأملها وتمتص منها تراكمات ماضٍ بدأ يجمع ذراته على متـون الحيـرة مـارا بالإمارة ليستقر هنا في القاهرة لالتقاط أنفاس المقاتل، وكـأن الموج يمسح معه تلك الحيرة التي تغمرني كـي ألقـي درع المحارب وأرتكن في انتظار ما يوحي القدر.

لم تحدثني يوما وهي تلمس جذورها الممتدة إلى الحصـن والعابرة منه إلى سفن القواسم لكني ألمحـه كالشـفق فـي عينيها، أحداثه متداخلة لكنها تزيدها قوة، وحين ألمحها ترنو إلى البعيد وتتحسس بطنها أدرك تماما أنها تتحسـس أوراق أبي السرية التي لفتها قبل أن ترحـل عـن الـوطن الـذي غادرته، ولم تعد له إلا في تابوت ومعها أحداث طمست ولم تبح بها كما لم يبح بها أبي أو أخي من قبل حتى يتخففوا من ذلك الحمل.

ما زالت جالسة تستقي من مريم حنكتها، كي تخفـي مـا يدور بداخلها وتظل ملامح وجهها ثابتة لا تتغير على عكس ملامحي التي تفضح توتري وتدفعني إلى البوح والذي جعلها تمنعني من الذهاب إلى الجامعة حتى تتوقف المظاهرات التي

يحلم أفرادها بما كان زوجها يحلم به وتشاركه هي ومـريم ذاك الحلم.

محمد دولار

كنت أهم بالخروج، حين فتحت باب البيت وجدت محمـد دولار أمامي حاملاً بيديه سلة بها بعض الـدجاج المـذبوح، فقلت له:

- اللي مالوش أول، مالوش تاني. إيه ده يا محمـد أنـت رجعت تبيع الفراخ؟

- أيوه يا ست شمسة خلاص أهي دي الشغلة اللي الواحد عارفها من الأول مضمونة وفي حالها لا تدخل السـجن ولا تخليني هربان وكمان مـا عنـديش فلـوس كتيـر أعمـل مشروعات زي نجم كده.

- ياه هوه نجم بقى عنده مشروعات !

- يووه، هو إنت ما سمعتيش عنه، ده ربنا فتح عليه من وسع.

- لا وا ، أنا كل اللي عارفاه منك ومنه بس.

- ده بقى الحاج نجم، وعنده محلين صرافة قـد الـدنيا، وبقى أكبر مستورد للأدوات الكهربائية.

- نجم؟

- أيوه، ده اللي باين بس، ده بقى عنده بزنس كتير وعمال زي المنشار في السمسرة والعقارات وفي كل حاجة.. ربنا يرزقنا.

- طيب وانت..؟

- أنا..؟ ما لعِبْتْش معايا.

- هي إيه دي...؟

- الدنيا يا ست شمسة، كان الداخل زي الخارج أنا كنت بشيل البضاعة وأوصلها لكن معنديش مسالك هو اللي كان عارف الأساتذة الكبار اللي بيجيب منهم الفلوس.

- ليه هوه مش كان زيك...؟

- أيوه، بس هو فهلوي أكتر مني، وغامر ودخل سكك كتيرة عشان كده اتسجن أكتر من مرة وهرب أكتر من مرة من البوليس.

- ليه كل ده، وانت يا محمد؟

- أنا بخاف وعندي عيال عايزهم يعيشوا، بس لو كنت أعرف السكة صح وكان عندي فلوس ألعب بيها، ياه كنت زماني زيه كان عنده ناس واثقة فيه وبتديله يلعب بفلوسها

وياخد المكس ليه وبعدين دخل المكسب في اللعبـة ضـربت معاه، أنا كنت بس بوصل وبصرف ومـا عـرفتش أسـلك أموري.

- أمال إيه حكاية محمد دولار محمد دولار، ده الواحـد فاكرك الكل في الكل.

- سمعة بس وا .

- ودلوقت؟

- دلوقت اللي كانوا بيسموني محمد دولار بقوا بيسموني محمد فراخ. شايفة الزمن بيعمل إيه.

- معاش، ربنا يرزق.

- آه وا نفسي أعمل مزرعة فراخ، ما تشاركيني يا ست شمسة ده مكسبها مية مية.

- آه دى اللي ناقص كمان، أنا مستعجلة يا محمد معاش، ماما جيالك بعد شوية ألا قولي، هو أنت جبت كام فرخة؟

شخص طارئ في الحياة

لبست أمي فستانًا أسود وخرجت، سألتها حين عادت:

- أين كنت؟

قالت إنها ذهبت إلى التعزية في الأسطى عَلِي السباك.

- علي مات؟ شو كان فيه؟

سكتة قلبية، رحت أعزي أهله والحين مسكين ابنه خالـد يدرس في الجامعة ويشتغل في المحل ويصرف على البيـت وعلى إخوانه.

- علي مات؟ لم أكن أعلم أنني سأحزن علـى شـخص طارئ في الحياة هكذا. في لحظة أصبح هذا الشخص جـزءا من عاطفتي. لقد كان يهتم بأشـياء صـغيرة، مناسـبات لا يتذكرها أحد مثل العيد، المولد، رأس السنة، كان يبحث عـن أية مناسبة ليرسل الورد لي، أية مناسـبة.. وحـين لا يجـد مناسبة يأتي بالورد ويقول إن هناك مناسـبة سـعيدة عنـده أحضر لأجلها الورد، وكانت أمي ترسل الورد إلى غرفتـي وتقول: - من الباشمهندس علي. أنظر إليه باستخفاف وأطلب منهم أن يضعوه في أي مكان إلا غرفتي متحججـة بضـيق التنفس.

هأنذا اليوم لن أتحجج بشيء لأن باقات الورد قد انتهـت، ولم أعد أقطف الورد لهادف أيضا. بعد عدة أيام أرسلت أمي إلى الباشمهندس خالد ليحضر، هناك مشـكلة فـي الحمـام، حضر وكان يركب سيارة أبيه، ويلبس الملابس نفسها، هـو علي لكنه أصغر بأكثر من ٢٠ عاما ربما أكثر قلـيلاً، لقـد تزوج صغيرا وأنجب صغيرا حتى ابتسامته كانت مثل أبيـه إلا الورد لم يحضر وردا ولم يحضره بعد ذلك أبدا. تخـرج في الجامعة وبنى عمارة أخرى جعل دورها الأرضي كاملاً محلاً آخر للسيراميك وانتقل إلى العمارة الجديدة وجعل لكل ولد من أولاده شقة ولم يرسل لي هو ولا غيـره ولـو وردة واحدة.

قدم مريم

- ١ -

فتحت رواية " بجعات برية " وقرأت:

جدتي " رصيدها الأكبر كان قدميها المربوطتين تسـميان باللغة الصينية زنابق ذهبية بطول ثلاث بوصـات، سـان – تسون – عن – ليان، وكان هذا يعني أنها تمشي كأنها عـود صفصاف طري، غض في نسمة ربيعية كما كـان خبـراء النساء الصينيون يقولون تقليديا إذ كان يفترض بمنظر المرأة التي تتهادى على قدمين مربوطتين أن يكون له تأثير مثيـر في الرجال لأسباب منها أن انكشاف ضعفها يثير لدى الناظر إحساسا بالاحتماء. ربطت قدما جدتي عندما كانت في سنتها الثانية إذ قامت أمها التي كانت نفسها مربوطة القدمين بلـف قطعة من القماش الأبيض طولها حوالي عشرين قدما حـول قدمها طاوية كل الأصابع باستثناء الإصبع الكبير إلى الداخل تحت بطانة القدم ثم وضعت حجرا كبيرا فوقها لسحق قـوس القدم وكانت جدتي تصرخ من العذاب، وحين كانت تستعطف أمها أن تفك رباطها كانت أمها تأخذ في النحيب وتقول: لا.. إن القدمين غير المربوطتين ستخربان كل حياتها. وعنـدما

أنهت جدتي صلاتها سجدت لبوذا ثلاث مرات ولدى نهوضها فقدت توازنها قليلاً حيث كان ذلك سـهل الحـدوث بقـدمين مربوطتين ".

عندما أنهت جدتي صلاتها سجدت داعية مـن قلبهـا، ولدى نهوضها من الكرسي الذي سجدت من فوقه لأنهـا لا تستطيع السجود على الأرض فقدت هي أيضا توازنها قلـيلاً حيث كان ذلك أيضا سهل الحدوث مع قدم مكسورة لا تنثني أبدا.

تركت الكتاب وركضت لأساعدها على التوازن أمسـكت بها وأمسكت هي بالمشاية التي أمامها ومن ثم استطاعت أن توازن نفسها وتقف.

ـ ٢ ـ

كان والدي يقول لي دائما:

- سنضعك في صندوق صغير حتى تكبري لا يظهر منه إلا رأسك حتى لا تطولي أكثر مما أنت عليـه، شـو نخلـة بتستوين؟

فقد كنت أطول من في البيت أنا القصيرة بالنسـبة إلـى الآخرين، وكلما جلست معه نظر إلى قدمي وقال:

- لو كنت صينية لما تركوا رجلك تكبر هكذا.

إذن هو يعلم أشياء كثيرة عن الصين وأنا أتعرف عليها من خلال " بجعات برية ".

ذهبت اليوم إلى الجامعة ورأيت هادفًا، اتفقنا أن نسير مشيا على الأقدام من الجامعة إلى وسط المدينة لنشتري بعض الكتب من مكتبة تتوسط الميدان الواسع الكبير، لم أستطع السير كثيرا، قدمي موروثة من جدتي ومن جدة " يونغتشانغ "، إذْ أنها برغم كبرها، وبرغم أن والدي يسخر منها ويقول لي:

- كان لازم نربطها لك مثل الصينيين.

فإنها أصبحت مثلهم ولا أستطيع السير بها طويلاً.

أوقفت هادفًا وقلت له:

- لا أستطيع السير أكثر.

نظر إلى وقال:

- نحن ما زلنا في البداية، إيه ده بتتراجعي بسرعة وتضعفي، خليك جدعة شوية والا تربيتك تربية متدلعة؟

نظرت إليه بضيق وقلت:

- عمر الدلع ما كان عيب، أنا متدلعة بس جدعة أكتر منك ومتربية في المصاعب مش في السهولة، وتحملت آلام قدمي وواصلت السير إلى جانبه.

- ٣ -

مرضت مريم اليوم كانت ترتجف بحرارة عالية، يعاودها هذا الحال كثيرا، تنام عدة أيام، تهذي قليلاً وتقرأ القرآن إن أمكن لها ذلك. لا تأكل إلا قليلاً لكنها تواظب على شرب القهوة وعجن الزعفران بماء الورد ووضعه على قمة رأسها وفي أنفها ووراء أذنيها، وحين تنام تصفر الوسائد بلونه ويختمر مع دهن العود الذي تضعه في ثيابها وفي جلدة شعرها. حين تدخل غرفتها تبدأ بشم رائحتها المميزة ورؤية اصطباغ ثيابها وشراشفها باللون الأصفر.

منذ أيام تعاني من صداع شديد، أهملته كالعادة، ثم ازداد عليها فبدأت طقوسها. ستبقى هكذا عدة أيام أخرى ثم تصحو تنفض الغطاء من على جسدها كأن لم تكن بها علة أبدا، وكعادتها تومض عيناها بالوهج الذي يوحي بسطوتها وقوة روحها.

- خالتي مريم.

هكذا كان يناديها الحاكم دوما لكن هذه المـرة رأت فـي عينيه قلقًا يوحي بأمر مهم، فتبعته إلى غرفته التـي انتظـر على بابها حتى دخلت وأغلق الباب خلفها.

- شو علومك...؟

- مب زينه.

نظرت إليه مليا وأيقنت أن الأمر مهم، بل وربما يكـون خطيرا.

صمت قليلاً ونظر في عينيها مباشرة، ومنذ تلك اللحظـة أصبح منزل مريم مأوى لثوار الجبل الأخضر، لأن بيتها نعم المكان وهي بعيدة عن أعين الإنجليز وجواسيسـهم دون أن يلاحظ أحد ذلك بالرغم من أن بيتها مفتـوح دائمـا وكـان المترددون عليها كثيرين لكنها بقوتها المعهودة وثقتها بقدرتها هي العاجزة عن الحركة استطاعت أن يكون الأمـر لـديها عاديا جدا، يظلون لديها حتى تأتي عربات الفاكهة بالموز في الليل تحملهم في الخفاء إلى مدينة رأس الخيمـة " جلفـار " حيث تنتظرهم السفن والقوارب لتنقلهم إلى السعودية وبغداد. لم يكن هذا المنزل إلا مأوى كبيرا لثواب الجبـل الأخضـر يأتون إليها يسألون عنها بالإسم ليختبئوا عندها هربـا مـن

عمان والإنجليز وكل ما يمكنه الوشاية بهم فيفشـي سـرهم ويمسكون بهم ليعيدوهم إلى عمان مرة أخرى، حيث ينتظرهم مصير لا يعلمونه ربما السجن في قلعة ما وربمـا غيـره. فاتفقت مع والدي أن يختبئوا لديها لأن النظر موجه كله إليه وهو ذو سلطة ولهذا كان اختيار الحاكم لهـا. وكـان ممـن اختبأ عندها طالب وغالب.

لم تكن إذن مريم بالمرأة الضعيفة، بل امرأة قوية قادرة لا ينظر إلى جمالها برغم وضوحه لكـن شخصـيتها القويـة وعائلتها تجعلانها ذات مكانة لا يستطيع الآخر التعامل معها من منطق الرجل والمرأة.

– ٤ –

كانت مريم آتية من منزل إحدى الأسر القريبة من بيتهـا حين طلبوا منها مساعدتهم في توليد إحدى بنـاتهم فشـمرت عن يديها وتقدمت تسخن الماء وتمسد المتعسرة في الـولادة بحل الياسمين وهو زيت الياسمين ذو الرائحة الطيبة النفاذة. ظلت تضع أطراف أصابعها فيه ثم تبدأ بوضعها على بطـن الوالدة تمسحها بحركات دائرية حتى يستدير الطفـل داخـل

بطنها مع حركة أصابعها فيستطيع الخروج بسهولة بدلاً من اضطرارهم إلى الذهاب به إلى مستشفى الحكيمة "هوسمان".

بعد الولادة مباشرة أمسكت الوليد وربطت حبله السري ثم قطعته بموسى حادة ثم بسملت عليه ورفعت الأذان في أذنيه قرأت بعض سور من القرآن ثم عادت إلى منزلها.

كانت تداوي المريض وتسم بالنار بعض الأمراض التي تحتاج إلى الوسم، وهو الكي بالنار، مرة تضع عصا في رأسها دبوس حديدي تضعه في النار حتى يحمر ثم تضعه على الإصبع الأصغر في قدم المريض ومرة تضعه وراء أذنه اليمنى ومرة تحت الحجاب الحاجز بأربعة أصابع. لكل داء مكان للكي لا يعلمه إلا ذوو الخبرة والعارفون به مثل مريم.

ولكل عضلة طريقة لتخديرها وتدليكها مثلاً إذا كان المريض يعاني من عضلة تضايقه عند التنفس فيحس بأن هناك نغزة في القلب كلما بدأ في الشهيق فتنصحه بل تربط له زنده الأيمن وسط العضلة تماما وبعد ساعات تختفي آلامه أما من يحس بعضلة في كتفه فتدوسه بأطراف أصابع قدميها – قبل عجزها وقد استعاضت بيديها بعد ذلك – في إبطه ثم

في قاع يده بطرقة معينة، هكذا تعلمت بعض الطب الشـعبي وكيفية ممارسته واقتنع المرضى بذلك لأنهم يمارسونه أيضا كما تمارسه إذ إنه معروف لديهم.

" رسالة الحاكمة فاطمة بنت محمد " البيوت والعقول

" لم تكن المرأة غريبة عن دهـاليز الحكـم فـي العـالم الإسلامي، وفي سياق الأرض السواحيلية لم تكـن الحاكمـة فاطمة استثناء بأي شـكل مـن الأشـكال، فهنـاك ملكـات مشهورات في الساحل الشرقي منذ قديم الزمان وقد وصـلتنا أسماء منها السيدة عزيزة صاحبة زنجبار، والسيدة مكيسـي صاحبة ممباسا، والسيدة ماسورو صاحبة سيو.

وتقول أصل الرسالة بالسواحيلي:

بسم ا الرحمن الرحيم

١ – ميمي مقام أو كلو السلطان فاطمة، ابنـت السـلطان مقام محمد مكب ٤

٢ – ياانديل ١٥ موجب وات ميني ٦ جمع ٧ بن المرحوم السيد ٨ ميني كاج ٩ سلام بعد

٣ – يا ورق ١٠ كوجف ١١ كب نون ١٢ وال يامام ١٣ نوكيل يامام الشيخ على وترجمة الفقرات الثلاثة إلى العربية كالآتي:

بسم ا الرحمن الرحيم

١ – أنا الحاكمة فاطمة بنت السلطان الحاكم محمد الكبير.

٢ – هذا الكتاب موجه إلى السـيد/ جمعـه بـن السـيد المرحوم كاجي. بعد السلام:

٣ – هذا الكتاب لتعريفك أنني رأيت والي الإمام ووكيلـه الشيخ علي ".

البيوت والعقول

لماذا تحكم النساء البيوت وعقول رجالها؟، هكذا فكرت أول مرة حين تذكرت جدتي، جدتي الأولى أم أبي التي تزوجها جدي الحاكم بعد اتفاق تم بينه وبين جدي والد جدتي عبد الرحمن حاكم الحيرة بمساعدته على استعادة حكمه والذي استولى عليه أولاد عمه وكان الاتفاق يقتضي أن يتزوج الحاكم وأخوه ابنتي حاكم الحيرة، مقابل الولاء الكامل والمساعدة في الانقضاض على الحكم وعودتها إلى حاكمها الشرعي، والشرعية هنا مستقاة من الوراثة أي من الأب إلى الابن.

كانت جدتي هذه قد تزوجت من قبل حاكما آخر وكان عمرها آنذاك تسع سنوات وهو رجل يقارب الستين وله من الأولاد كثر، لكنها رفضته وعادت دون الدخول عليها إلى أهلها أما زواجها الثاني فكان بالحاكم والذي ستنجب منه عمتي وأبي والذي سيحكم بعد وفاة والده لكن جدتي هذه برغم قوتها ورباطة جأشها كانت الزوجة الأولى وتلتها زوجات أخريات كانت أهمهن خولة والتي كانت المحببة

والمقربة، وهي التي تحكم وتأمر وبيدها زمام الأمور البيتية بل وتنسحب إلى الخارج في كثير من الأحيان.

لم تكن جميلة كما قيل لي، لكنها ذات قوة ساحرة في انجذاب جدي لها، أما جدتي وكانت ذات قوام ضئيل وأنف معقوف وشعر ناعم وأسود وذات بشرة بيضاء تميل إلى الاحمرار وعيناها الساحرتان تسميان بالعيون الشهلاء وهي العسلي الفاتح ذات الرموش السوداء الكثيفة والطويلة يزينها حاجب كثيف أسود أما شفتاها فكانتا رقيقتين مثلها يذبلان سريعا كأوراق وردة حمراء.

جدتي هذه ظلت زوجة في الصمت ولم تكن جدة أمي بأحسن حظًا في زيجتها وهي التي تزوجت أخ الحاكم والذي تزوج معها ثلاثًا أخريات ومن المضحك أن جميعهن يسمين مريم ولكن جدتي انفصلت عنه وسكنت بمفردها وربما طلقت.

جدة أمي كانت الأصغر وكانت بيضاء البشرة، ذات سمنة ملحوظة. قصيرة القامة، ذات فم مكتنز أحمر وأنف يشبه أنفي أما شعرها فكان يميل إلى اللون الكستنائي، كانت ترى

الجن وتتحدث معهم بل كانت تعاندهم وترد عليهم وتطردهم من بيتها وكان من معها يسمعون صراخهم.

أما جدي فأيضا لا اذكر منه إلا يوما ذهبـت فيـه مـع والدتي، كان شيء ما ممددا على السرير لا أذكره، لا أذكـر له وصفا لكنني أعلم أن ما كان ممددا هناك كان جدي وكان مصابا بكسر في قدمه وحين عدنا من عنده إلى منزلنا قـالوا لنا إنه مات لم أذكر من جدي غير لحظة واحدة قبل موته، لا أدري لماذا كتب لي أن أراه ليظل معلقا في ذاكرتي بقدمـه المكسورة وجسده الممدد على السرير لحظة واحدة قبل موته، لحظة واحدة في الذاكرة، مجرد لحظة تعلقني في الماضـي، الذي أقرأه في عيون أهلي وكلامهم، وفي كتب التاريخ.

لكن لحظتي مختلفة، لحظة أرى فيها الشـخص بحالتـه الإنسانية وهو عاجز وراقد على فراش الموت كما لو أننـي رأيته هكذا كي أقي نفسي التاريخ المقروء الجامد السلطوي.

كانت الأقرب روحا لي وكنت الأقرب لها أيضا.

- كل هذا يا مريم.. " ولكن مثلي لا يذاع له سر ".

حين مرضت مرضها الأخير قامت بعد عدة أيام قضـتها في غيبوبة لم تنتبه فيها سوى لشرب القهوة ووضع الزعفران

على رأسها وفي أنفها ثم استنشاقه وإن استطاعت أكل بعض الأرز باللبن الرائب أو أكل بعض التمر مع القهوة لا تـتكلم لكنك تسمعها تدعو:

- يا أ   شوف حالي، ثم تنقلب على جنبها الآخر.

لم تكن لمريم غير أختها التي تزوجت وكان عمرها تسع سنوات رجلاً يقارب الستين له الكثير من الأولاد لم تسـتطع الرفض، زوجوها وحملوها كما كانت العادات آنـذاك فـي سجادة إلى غرفة زوجها حين رأته رفضـته وعـادت دون الدخول عليها إلى أهلها وكانت تسير فوق جمل بجانب البحر مع خدامها وخادماتها، وقفت أمام البحر رمت كل ذهبها الذي أهداه زوجها لها قبل التخلص من هذه الزيجة وكانت معها " مباركة " الخادمة الزنجية.

حين يذهب أهلها إلى البر للمصيف تسير بجانب مباركـة وأحيانًا مع أختها مريم بين التلال في الليل.

وكما يروون، قيل أنها ممسوسة وأنها وهي صغيرة قـد نطحها جدي أمام شاطئ بحر أمام خيمتهم كانت مع أختهـا وكانت معهما مباركة، ويقال أيضا إن هـذا الجـدي كـان ساحرا، يقال إن هذا الجدي كان ساحرا تحول من الشاة إلـى

الجدي ثم إلى ثور، حين رأتـه ركضـت فسـقطت وقبـل الوصول إلى الأرض نطحها فوجدت نفسها تطيـر مسـافة طويلة ثم تنزل على قدميها وتجلس وكأن أحدا ما يحتويهـا، كان القمر يومها مستديرا ومنيرا الدروب والمنحنيات وهـا هي حين يستدير القمر تتشنج أحيانًا وتضرب برأسها الحائط وكأنها تنطحه حتى يشج وتنزف أياما، أما مباركة فظلت كلما سمعت طبولا تدق، يشدها صوتها ممسوسة. وأن الجني الذي يتحدث بلسانها وبصوت رجل وبكلام غيـر مفهـوم، ربمـا يكون كلاما زنجيا، هو الذي أصاب عمتها وأن مباركة هـي المموسة وأن ذلك الجدي كان لها وليس لعمتها لذلك زوجـوا عمتها سريعا للحاكم وأقاموا الولائم والأعراس أما مباركـة فأرسلوا بها إلى منطقة أخرى مع بعض الخادمات والنسـوة لعمل زار بعيدا عنهم لعل الجن ينسل من جسدها، هذا الجن الذي حضر مع ساحر قادم من بهله في عمان وكان جائعـا فاختارها ليأكلها، لكنها ورثت مـع زنوجتهـا قـوة الـدفاع الطبيعية فيها، وحين تحول إلى ثور بعيـدا عنهـا دفعتـه، فأصاب عمتها ثم طار عائدا إلى مدينته قبل ظهور الشـمس، وتلبسها شيطانه منذ ذلك اليوم، والذي كانت تتحدث بصـوته

قالوا إنه ملك الجان ولهذا حين يحضر وتتكلم بصوته، كانت مباركة تتكلم وكأنها ملكة، تأمر وتزجر وحين يقوم برحلات ويتركها، يترك معها من يحرسها وهو جني مشلول لهذا تظل مشلولة لا تتحرك وحين يسألونها تقول إن زوجهـا سـعيدا سجن ظلها حتى يقرأوا عليها سورا من القرآن ثم يتلون: " يا موسى إني أنا ا فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طـوى " ثلاث مرات يكررون فيها قوله: " يا موسى إني أنا ا " سبع مرات فتستطيع أن تتحرك بعد ذلك.

برغش والعهود نامه

في زنجبار ١٧٧٣ ألغيت العبودية باتفاقيات " العهود نامه " بين ماجد وأخيه برغش وبريطانيا كان من قبل تجارة العبيد ثم ألغيت لكن بعد إلغائها صار الاقتصاد ضعيفًا.

وحين انضربت تجارة القرنفل بوجود مزارع في جـاوا " اندونيسيا " وتغيرت التجارة بدخول منافس قوي حيث دخلت زنجبار كميناء لتصدير العبيد، زنجبار العاصـمة، يجلبـون إليها العبيد من أعماق أفريقيا إلى السفن الراحلة من مـوانئ السواحل لتغير تجارة العبيد اتجاهها إلى الغـرب الأفريقـي ومن ثم إلى ليبيريا ثم أمريكا بدخولها كمنافس قوي فصارت زنجبار عاصمة تجلب إليهـا العبيـد مـن عمـق أفريقيـا لتصديرهم.

ولقد حرص برغش ابن عمه والي السواحل علـي بـن سيف على أن تتم التجارة كسوق سوداء كتجارة ثانيـة إلـى السواحل الشرقية ومن ثم إلى الخليج ثم إلى كلكتا في الهنـد وبدأت التجارة مع برغش الذي حكم زنجبار لمدة ١٨ عامـا منذ ١٨٧٠ والتي تتمحور حولها بلدان عديـدة منهـا تشـاد

والكونغو وتنجانيقا وتنزانيا " زنجبار " وهنا تتغير المـوانئ باتجاهات السفن، ففي الغرب الأفريقي من ليبيريا إلى أمريكا والثانية من سواحل الشرقية " زنجبار " إلى الخلـيج، ككلتـا كان عدد الأفارقة الذين سرقوا من أفريقيا وتوجر بهم كرقيق إلى مختلف بقاع العالم ٣٠ مليونا من الرقيق.

في زنجبار عاش العرب وتكلموا اللغة السواحيلية وهـي مزيج من العربية والأفريقية نشطوا كتجار خاصة في منطقة " أجانبوا " حيث كان الصيادون العرب يسكنون فيها كمحطة تجارية وأقاموا مستعمرات في مقديشو وبمبا.

كان العبيد يجمعون في بيت كبير في زنجبار ومنـه يـتم توزيعهم على السفن والتجار.

" اتجهت أفواج العمانيين بدءا من القرن الرابع الهجري، وذلك إلى زنجبار وكينيا والكونغـو وتنجانيقـا والجزيـرة الخضراء وموزمبيق. غير أن أول هجرة عرفها العمـانيون هي هجرة سليمان وجيفر حفيدي الجلندي بن المستكبر بعد ما دارت الحروب الطاحنة بينهما وبين الحجاج بـن يوسـف، وهجرتهما إلى شرق أفريقيا دون سائر بلدان العالم تدل دلالة واضحة على أن العلاقة بين العمانيين وبين أفريقيا الشـرقية

علاقة قديمة وأن للعمانيين وجودا هناك وإلا فما الذي كـان يدعوهما إلى ترك أرض فارس أو الهند وغيرها من بلـدان العالم والذهاب إلى شرف أفريقيا لولا أن العمانيين وجـدوا هناك، ويؤكد مصداقية تلك العلاقة اكتشاف أقدم مسجد فـي جزيرة بمبا أو الجزيرة الخضراء ويعود إلـى القـرن الأول الهجري، ومن المؤكد أن هذين الرجلين قد بنياه، وذلك دليل واضح على قدم تلك الهجرات ".

" وبعد تلك الهجرات الأولى، تدفقت الهجـرات وازدادت تبعا للظروف التاريخية والحضارية وكانت أكثـر هجـرات العمانيين تكثيفا إلى شرق أفريقيا في عهد الدولـة الأمويـة وهي هجرات كانت بغـرض التجـارة، إذ سـاعدت علـى وجودها الرياح الموسمية التي تدفع السفن في فصل الخريف في اتجاه الجنوب الشرقي ثم تعود في فصل الربيع متجهـة إلى الشمال الشرقي فتصل بها إلى بر العرب قادمة من بـر الزنج وهو اسم من أسماء زنجبار".

" علاقة عمان البحرية بأرض السواحل، علاقـة مغرقـة جداً في القدم. وأرض السواحل هي ما كانت تعـرف قـديما

بأرض الزنج، وتمتد من مقديشو شـمالا إلـى مـا يسـمى بجمهورية موزمبيق جنوبا، وتشمل سواحل كينيا وتنزانيا ".

يقول المسعودي:

" وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمـان، عرب من اللازد، فإذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بـين مـا ذكرناه، والأمواج ترفعهم وتخفضهم يرتجزون ويقولون:

بربرا وحافوني وموجها المجنوني

حافوني وبربرا وموجها كما ترى ".

الجزء الثالث

الجن لا يأتون هكذا بل يرتدون أشكالنا لكيلا نخافهم

الطفلة التي أخذتها السمكة

- ١ -

كانت ريحانة تسير معي، وتحكي لي مرة عن البئر التـي أسقط فيها يوسف مرة عن الشجرة التي تدلت عليهـا الحيـة وتحولت إلى امرأة جميلة للرجل الذي كان يسـير تحتهـا، عشقته وصارت له زوجة أرضية.. مرة وجد ورقـة شـجر مكتوبا عليها بعض حروف حاولت أن تخطفها لكنه وضعها في كوب ماء، شربه وابتلع معه الورقة ومن ثم اختفت مـن حياته وعند اختفائها ظلت تنشد:

" لأوقفن على الطريق وأشتكي
مـ ـن أي مظلوم وأنت ظلمتني
حاولتـني حتى ملكت حشاشتي
ولما ملكـ ـت حشاشتي تركتني
يا من هواه أعـ ـ ـزه وأذلني،
كيف الوصول إلى وصالك دلني "

ومرة عن علياء التي يحبها جني في البيت وكان يأتيهـا على شكل قط يتمسح فيها ويلعب بضفائرها الطويلة وحـين مرضت وماتت ظل يبكي بصوت إنسان فنادي عليه الجن:

- يا مهنا واش لهاكم اليوم عنا..؟

فرد عليهم:

" لهتني علياء العلوية، مقرونة الحيبة أم الشعر الطويـل، تتمر جحبه عليه "

مرة عن مريومة التي كانت تربيها، ومرة عـن كلثومـة التي كانت أمها الثانية، وعن السحرة الذين يطيـرون مـن عمان.

كانوا يقولون إن في عمان منطقة اسمها بهلة كل سـكانها جن وسحرة، إذا أتى الليل بدأوا يطيرون مثل الخفافيش مـن مكان إلى آخر.

وكانت تغني معي:

" يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر ما اباه

أبي وليد عمي بغترته وارداه "

إذ أن الصياد لا تريده لي وإنما ابن عمي الـذي يحمـل الخنجر والرداء.

- انت منذورة لابن عمك، لازم تتزوجينه.

- لا، كانت ريحانة تغني لي وأنا صغيرة.

" يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر ما اباه

أبي وليد عمي بغترته وارداه "

وكانت تحكي لي عن الطفلة التي أخـذتها السـمكة إلـى البحر وأعادتها جميلة وقالت أنها مثلي.

- إذن أنا ما أبى وليد عمي هكذا سأقول لهم. لا أريده

- لكنك منذورة له...؟

- أنا منذورة للأحلام.

الأحلام ليست في كونها تجسيدا ولكن بما تأويه في جوفها وبما تحمله من مكتسبات وبما تعنيه من لغو، أو تجميـع، أو إدراك، أو ربما ما خفى منه تسريب للعاطفة وتضـاد مـع الواقع إذا اعتبرنا أحلامنا هي التعويض الضروري لنا عـن الواقع الذي تفتقده.

البارحة حلمت أن طائرا كبيرا بأجنحة كبيرة حملني إلـى أعلى الجبال، وضعني في منطقة غائرة، وطار عني. لم يكن معي أحد، كانت الصخور حولي والسماء غطـائي، انتبهـت خائفة وركضت عند جدتي. نمت قربها، فانتبهت، وضـعت

يديها على رأسي، ظلت تقرأ القرآن حتى هدأت نفسي.. أينك يا محمد لترى جدتي وهي تقرأ القرآن على رأسي وتمسـح على شعري. نحن أيضا مسلمون.

- ٢ -

حين رفضت ريحانة إحضاري من المدرسة ذهبت مع عم خالد الجنايني أركبني وراءه على دراجته طوقت بكلتا يـدي بطنه حتى لا أقع، كان يلبس ملابس كاكيـة اللـون وكأنـه شاويش يضع على رأسه قبعة كبيرة باللون نفسه تقيه الشمس عندما يعمل في الحديقة.

كنت أركب وراءه على الدرجة وبجانبي سلة من القـش وفأس اضطر أحيانًا أن أمسكها بإحدى يدي.

وصلت إلى المدرسة، سألني التلاميذ مين ده يا شمسـة، أبوك...؟ لم أرد عليهم كنت سعيدة بركوب الدراجة وراء عم خالد. للمرة الأولى أذهب إلى المدرسة بالدرجة ومـن دون ريحانة.

بعد أن انتهى اليوم الدراسي كان عم خالـد ينتظـر فـي الخارج، وأنا ما زلت على سلم الطابق الثاني. حين وصـلت إلى الفناء الخارجي سمعت بعض الطلبة ينادون:

- يا شمسة باباك الجنايني وصل.

ركضت لآخذ مكاني وراء.. بابايا الجنايني، وعدنا إلى البيت.

تعودت أن أذهب وأجيء مع عم خالد الجنايني. أركب وراءه دائما إلا في أيام أخرى قليلة نجر الدراجة ونسير مشيا على الأقدام ثم يقف أمام فيلا قريبة من بيتنا يتحدث مع البستاني الذي في هذا البيت وأسمع أنا صوت البيانو من الداخل.

يعطيني البستاني وردة وأنا ذاهبة إلى المدرسة، ويتبادلان هما الحديث حول الدنيا والزراعة والورد والأسمدة.

لم آكل الوردة التي أعطاني إياها لكنني أبدأ بقطفها سأنجح، لن أنجح، سأنجح، لن أنجح.. تطير الأوراق في الهواء، تصبح مسربا من البيت إلى المدرسة، خطاً أحمر أستطيع أن أعود عليه من المدرسة وحدي بدون عم خالد.

لون أحمر.. من الورد وليس من الدم.

تقسيم العبدات

- ١ -

عدت أخيرا بعد خمس سنوات من التجربة والعذاب.

ظللت في منزل عمتي الجديدة، أتى إلى حبيب وهو مشتاق وبلا لوعة ويعلم أنني أحبه وبرغم ابتعادي وغيابي أحيانًا وعدم اعتنائي بنفسي لكنه كان يحب روحي القوية وجرأتها.

حين قلت أنني أريد أن أتزوجه كان سائقًا جديدا لم يعص أمرهم وهو يراني أختاره وأدفع من يأمره بزواجي. أحب أن يكون مرغوبا هكذا من فتاة قوية وجريئة، ومع قربي من عمتي وحبها لي جعلته أيضا مميزا لديهم. وحين تزوجنا أحس كم أنا حرة برغم عبوديتي، فأحبني.. وها هو اليوم حين رآني مرة أخرى لم يستطع إلا أن يضمني إليه ويعود إلى حبي ولأنني رفضت أن أكون زوجة ثانية. طلق زوجته التي تزوجها في غيابي معبرا بذلك لي أن زواجه كان زواجا بلا حب لأنه لم يستطع العيش بدون امرأة، مجرد امرأة. وها هو يعود إلى حين عدت إليه. لم أصدق ذلك لكنني أبديت

تصدقي كي أبدأ معه مرة أخرى.. إذن هأنا أنتقم منـك يـا فطوم فاخرجي دون عودة من حياتي.

قال لي: - بسك يا ريحانة، أنا بعدني حبيب، حبيبك.

نظرت إليه بعينين ينفجر منهما الغيظ، تـذكرت عمتـي وهي تعاود ترديد:

" إذا المرء لم يرعاك إلا تكلفًا

فدعه ، ولا تكثر عليه التأسفا

ففي الناس أبدال، وفي الترك راحة

وفي القلب صبرٌ للحبيب، ولو جفا "

أو وهي تردد بصوت أشبه بالهمس:

" احرص على ود القلوب من الأذى

فرجوعه بعد التنافر، يعسر

إن القلوب إذا تنكر ودها

شبه الزجاج كسره، لم يجبر "

صاحت ريحانة وهي تبكي: - هو لم يحـرص علـى ود القلوب يا عمتي بل نكر محبتي وكسر قلبي.

لم تستطع أن تتسامح معه وهي تعلم أن وضعها شارك في انهيار سعادتها معه، وحين اختارته، انهارت علاقتها بعمتها

وبأسرتها التي ربتها. لقد عادت إليه لكنها عادت مجروحـة منه ومقطعة الأوصال مع عمتها التي لم تعرف الحياة إلا من خلالها ومن خلال حياتها كيف تسـتطيع أن تحقـق حياتهـا الخاصة دونها الآن، ودون تلك الحياة العميقة فـي القصـر. القصر الذي تربت فيه، والذي كان تاريخًا وليس مكانا فـي الجغرافيا فقط.

حين وصلت لم تجد تلك الحياة التي تركتها بلا ظلال حياة فقط ليست كما كانت تتصورها. حتى القصر الذي يـذكرها بتلك الحياة، هدم كما هدمت حياتها السابقة وها هـي تهـدم جزءا آخر من حياتها بقوة وقسوة وها هي تعود مـن أجـل جزء من حياتها تخرب من أجل أن تكـون بقـرب حبيـب ووالديه.

أصبح المكان جوهرة الألم، ارتبط بتاريخ يحركها فيـه. وكما ترى الأماكن تمر في ذهنها، تعتقد أن ذلك من تـأثير إغماءة بسيطة ستنتبه منها حال دخولها حالة السكر والهذيان.

- أنني أشتاق إلى حبيب كرجل يضمني ويقبلني، وأشتاق إلى الحياة في هذا المكان الذي ألفته، أشتاق إليه كما كان يوم كنت فيه. ذهبت مع عمتي إلى القاهرة فانفصلت عن المكان

ودخلت مكانًا لا علاقة لي به.. عمتي في القاهرة لها أسبابها، وأنا لا صفة لي خادمة نعم، ولكنني عبدة.. قال لي عم عبده إن العبودية في القاهرة قد ألغيت منذ زمن، فكيف تقولين إذن إنك عبدة في مكان لا عبيد فيه...؟

إذن أنا حرة.. ولكنهم لا يعترفون بحريتي. فهل أعامـل كعبدة أم كحرة...؟

- كل من يتعامل معك يعاملك كخادمة من حقهـا تـرك عملها والعودة إلى وطنها يوما ما. هكذا قال لي عم عبـده، وحتى أم عايدة التي تبيع الذرة المشوية أمام مدرسة عمتـي شمسة حين كنت أقف بجانبها ونتحدث في انتظـار خـروج عمتي الصغيرة من المدرسة قالت لي:

- وليه يا أختي الشحططة دية..؟ ما ترجعي لجوزك مـا دام قادر يصرف عليك ويستتك، الست مالهاش غير جوزها وستك بقى زي ما جابتك، تجيب غيرك.

حقًا لماذا لم تصطحب غيري..؟ وما ذنبي في مأساة هذه العائلة.. نعم لقد ربتني مثلما ربت غيري؟ إذن لماذا أنا التي تتدمر حياتها وليست إحدى العبدات الأخريـات. لمـاذا أنـا وليست مريومة أو عذيجة أو سلموه. وهأنذا يمكنني العـودة

وهم يستطيعون أن يجلبوا غيري، أربع سنوات ظللت معهم، هذا يكفي لتأتي واحدة غيري وأعود أنا إلى زوجي.

وما دام لا عبيد هنا فأنا حرة، وأستطيع تقرير مصـيري، ومصيري أن أعود هناك، بذرة في أرضي حتى وإن عـدت عبدة فأنا حرة بين جدران بيتي، في سريري وفي أحضـان زوجي. أما هنا فأنا حرة لكنني عبدة وأكثـر عبوديـة مـن هناك، هناك أرضي وزوجي.

الزمن تغير. ظنت أن تجربة القاهرة هي التي غيرتها، لم تعرف إلا حين عادت أن الزمن تغير سريعا هذه الأيام، وأنها حين كانت هنا لم تلحظ التغيرات السريعة كما تلحظهـا الآن بعد خمس سنوات قضتها بعيدة وعادت.

- انتقلت مع ولدي وحبيب إلى بيت صـغير أعـده لنـا وظللت أخدم في منزل عمتي الجديـدة وحاولـت أن أعيـد توازن روحي معه ومع عمتي الجديدة ومع المجتمـع الـذي أعيش فيه الآن، لكن كل ذلك باء بالفشل الذريع، فأنا لم أحب هذه العمة التي تحاول فقد استدراجي في الكلام عن عمتـي السابقة، ولم أستطع أن أتسامح مع حبيب وإن عدت إليه لأنها عودة ناقصة، أما النسوة اللائي كنت أراهن في بيت عمتـي

صفية أو في الشوارع أو عند بعض المحـال التـي أذهـب لاشتري منها، فمن كن يكرهن عمتـي السـابقة وأسـرتها اعتبرنني دخيلة عليهن فلم يضممنني إليهن بل ابتعدن عني، ومن كن يحببن تلك العائلة اعتبرنني عديمة الأصل والأخلاق لأنني لم أضح بنفسي من أجلهم وهم الذين ربوني وتـركتهم لكي أعود إلى رجل تركني وتزوج غيـري حـال سـفري، وعلى كل فجميعهن ابتعدن عني مع إحباطاتي وعدم تكيفـي مع الوضع الحالي وإدماني الذي تفاقم، مما جعلني عدوانيـة للغاية إزاء أبسط تصرف تجاهي وصارت الرغبة في تحقيق ذاتي مسعورة إلى حدٍ كبير.

- ٢ -

عدت أخيرا، جلست في منزل عمتـي الجديـدة، عمتـي البيضاء التي تتكلم كثيرا وتتحدث إلى النسوة اللاتـي أتـين لزيارتها بحماسة وادعاء بطولة لأنها أحضرتني وأعـادتني إلى بلادي وزوجي.

- شو ذنبها تتغرب وتترك زوجها وبلادها.

قالت ذلك بكثير من الدهاء والمكر وهي تنظر إليّ بطرف عينيها:

- معلوم هي خادمة أختي ولازم تطيعها لكن عاد ريحانة ما تحملت وهي سوت لهم مشكلات كثيرة، مسـكينة أختـي ربتها وما ثمر فيها مثل ما يقولون: " يا من شراله من حلاله عله ".

كان غمزها يمضي باتجاه إدانتي بشكل أو آخر خاصـة أنني لم أصن معروفها كما يرون، ولم أحسبه أيضا، كل مـا هنالك أنني انتقلت من عبدة لسيدتي التي ربتني إلـى عبـده أخت عمتي التي كانت دائما تكيد لي، لأننـي أخـدم أختهـا وأحبها وعبداتها لا يحببنها لهذا أصرت علـى أن تأخـذني معها، وهي ترى أن علي أن أتعامل معها بشكل أفضل ممـا كنت أتعامل به مع عمتي الأولى خصوصا أنها قد أعـادتني إلى بلادي وزوجي، بل جعلت حبيبا سائق لديها وضـغطت عليه كي يطلق فطوم لتكون ذات فضل علي، لكنني أعلم أن عمتي هذه تفعل كل ذلك من اجل أن تكون أفضل من أختها، التي كانت زوجة الحاكم في يوم ما وأن تمتلـك شـيئا مـن ممتلكاتها وكأنها تحصل على ما هو حق طبيعي كـان مـن المفترض أو ربما كان لها.

ورثتني عمتي من أبيها كما ورثت عمتي الحالية سـعادة، لكنني كنت أكثر اقترابا ومحبة لعمتي، أكثر كتمانا لأسرارها، أكثر نشاطًا. بعكس سعادة التي كانت اكبر سنا ولا ترى جيدا وكسولة كما أنها لا تحب عمتها.. فكانت ترى أن أباهـا لـم يكن منصفا في تقسيم العبدات بينها وبين أختها. وأن أختهـا حظيت بأكثر من حقها لأنها فقط تزوجـت الحـاكم وهـي تزوجت أخاه الأصغر.

كان الحاكم يملك السلطة، ولكن إخوانه يعملون بالتجـارة والتي يملكون من خلالها المال الذي يفتح لهم آفـاق سـلطة كبرى إلا شرعية الحكم. ولهذا فكثير من الانقلابـات التـي تحدث هناك في المنطقة تكون من أخوة الحاكم الذين يملكون المال ويرغبون في امتلاك السلطة، أو أنهم يرون أنهم أحق بالحكم سواء لثرائهم أو لخوفهم من ضياع السلطة بتوريثهـا من الأب إلى الابن الأكبر الذي سيورثها لابنه الأكبر أيضـا فتضيع من الأخوة.

أعطتني عمتي صفية غرفة بجانب كراج السيارات التـي يخدم فيه حبيب بجانب الفيلا، كنت أذهب لأنام فيها مع حبيب

وولدي وكثيرا ما كان محراك، أو محراك ونصور ينامـان في الفيلا مع أولاد باقي العبيد وأظل مع حبيب هناك.

- ٣ -

في هذا العالم كثير من العبدات يرضـعن أولاد عمـاتهن وأعمامهن مع أولادهن. هي علاقة مجتمع خاص لا تنفصل فيه الطبقات وأيضا لا تنمحي، وكثير من العبدات كن أيضـا إماء لأعمامهن ويظللن في المنزل كما هن عبدات، ويسـمين بالسرايا جمع سرية أي يسرى إليها سيدها في السـر حـين يريد ذلك، فإذا حملت منه واعترف به أصبح ابنه وامتلكـت حريتها، وتحررت.

كثير من البيوت تضم بين عبيدها المخنثين أيضا، الـذين منهم من يلبس كالنسوة يتقصعون في حركـاتهم ويتكلمـون كالنساء تماماً أكثرهم مخصي.

لم يكن في هذا العالم مجانين كثيـرون وحـدها مهيـرة، مهيرة الخبلة أم ريحانة وذلك العبد الأسود رشود الذي يعيش في حجرة قميئة تتوسط المدينة.

على يمينه منزل زوجة الحاكم الأخيرة وأمامـه منـزل الحاكم وزوجته الأولى وهناك يظهر الحصن أمامه مباشـرة

بجانب منزل عم الحاكم والذي كان حاكما، بعد موت أخيـه إلى أن كبر الحاكم الأصلي الابن فتنازل له عن الحكم طوعا.

كان رشود ينام ويجلس في تلك الحجيرة القذرة ومعه كلب أسود، يتمدد دوما على عتبة الباب. أسود مثله ونحيف مثلـه أيضا ودائم النوم.

كلما خرج رشود خرج يتبعه وحـين يـدخل حجرتـه لا يسمح لأحد بزيارته وهم لا يزورونه أصلاً فلم يدق بابه أحد، ولهذا قرر رشود المجنون ألا يسمح لهم بزيارته في هذا القبو الذي لا يحده شيء، لكنه حين يختفي أياما يأتون إليه ويدقون بابه حتى يسمعون صوته بالداخل، فيضعون له بعـض مـا تيسر من الطعام ويذهبون وهو لا يسمع سوى هدير البحـر الذي يتسرب في أعماقه، ولا يرى سوى جذور الرولة التـي ترتطم أقدامه بها كلما تحرك داخل حجرته. يناديه الأطفـال بالمينون عكس مهيرة التي يلقبونها بالخبلة. وكلما مر أمـام الحصن زجره الحراس وقذفوه بالحجارة وكلما ضرب أحدهم هددوه بالمحلوسة لو عاد مرة أخرى. المحلوسة ذلك السجن الذي دخله من قبل وظل كلبه في الخارج يعوي.

هل كان ما قامت به مجرد حيلة، حين اختـارت العـودة وحين حاربوا انسلاخها ثم وافقوا عليه، مجرد حيلـة تنظـر إليها الآن بعين قط لئيم. أو ككاهنة في معابد الفراعنة، ولـم لا.. أو كأميرة أو كناسكة وطدت علاقتهـا بالغيـب وحـين تمتلئ بأرواح شاردة وشريرة أحيانًا تتقمص بداخلها قوة من قوة الرب داخل نطاق يضيق بمعالم تكوينها حتى ينفرج آخر جرح قابل للنزف. كل مرة كانت ريحانة تطمئن جسدها الذي لم يحتمل هذه الروح كثيرا، الروح المشاكسة، تقاوم أمراض نفسها والتي لا تدل على شيء سوى على ضـعف جسـدها تجاه هذه الروح من خلال فكرة تالفة عـن البسـاطة وعـن النموذج، نموذج عمتها.

المدينة تهادنها كي تبلغ روحها الهائمة، تلك القـوة التـي تطمئن لها في ضعفها، ولمستها بحنان جارح. حين مات أحد قادة الأسطول ودفنوه في البحر مثلما مات القراصنة قـديما، القراصنة الذين حاربوا الهولنديين في البحر وقتلوهم.

أو مثل صيادي اللؤلؤ الذين يرحلون عن اليابسة لأشـهر عديدة يركبون المراكب ويرحلون إلـى البحـر يصـطادون

اللؤلؤ ويعودون بوجوه يابسة وأجساد نحيلة أكل منها الجوع والخوف وربما أسماك القرش أيضا وربما أيضا لا يعودون.

مغمضة العينين تبدو في توهانها وهذه الروح المجنونـة تختار العزلة لتندمج ثانية كأعمى يفقد بصيرته بعد بصـره، أعمى يراود أحلاما كان يظن أنها سوف تأتي إليـه، لكنهـا وقعت في هوة عميقة.

– ٥ –

كان حبيب يدري أن ريحانة عادت، لكنه لم يـأت حتـى بعثت إليه عمتها أن يأتي لتحدثه.

لبس ملابسه البيضاء، الجلباب الذي أقفله حتـى آخـره، زرر يديه بأزرار ذهبية، وضع الطاقية ثم الغتـرة والعقـال الأسود ثم ثنى طرف الغترة الأيمن على ناحية اليسار.

نظر في المرآة وقال:

- ما زلت يا حبيب حلوا، وريحانة تحبك. أنـت أيضـا تحبها، تحب حياتها وحياتـك معهـا، هـي التـي رحلـت وتركتني.. أنا رجل لا أستطيع الحياة هكذا بدون امـرأة ولا أستطيع أن أستمر في علاقات نسائية خارج نطاق الـزواج

أنها علاقات باهظة الثمن لا أقدر عليها ولا أستطيع أن استمر فيها وأنا أعمل طوال الليل والنهار.

ها هي ريحانة عادت وسأعود إليها، وربما استطاعت أن تجعلني سائقًا عند عمتها الجديدة لا بأس بها هكذا أكون قد عدت لزوجتي وولادي.

أتى حبيب إلى منزل عمة ريحانة الجديدة، هو يعلم أن ريحانة تحبه، ويعلم أنه أيضا يحبها، يحب حياتها وحياته معها، لكن ما ذنب فطوم التي تزوجها كان يريد زوجة بدون حب، امرأة.. فقط امرأة، فتزوج فطوما التي كانت تتغنج له فهي صغيرة وجميلة ولم تطالبه بكثير يكفي أنه جميل ويعمل، ولديه دخل، إذن لم لا تتزوجه...؟ كان يحاول أن يثبت لنفسه أنه من العادي أن يتزوج الرجل بأكثر من واحدة، أبوه تزوج غير أمه التي كانت غنية وتعاونه ولم تنجب له غير حبيب، فتحجج بأنه يريد أولادا وتزوج فتاة صغيرة لم تتجاوز أربعة عشر عاما وترك أمه تعاني من فقدانه، وهامت في حبه وظلت تهيم حتى أواخر أيامها. كل صديقاتها ظللن ينصحنها أن تنساه وتربي هذا الطفل وحين تركها تماما مرضت ولم تشف من مرضها وحين نادوه كي

تراه لآخر مرة، رفض. تذكر حبيب حال أمه فخـاف علـى ريحانة ما زالت هي التي يحبها، هي التي تسـتحوذ علـى جسده، وتمتعه أكثر من فطوم الحرة، تمتعه لأنها تحبه، ولأن عبوديتها ليست ضمن الجسد بل إن جسدها يتمتـع بحريـة كاملة ويمتعه أيضا لأنه يحبها.

حين رآها كانت ذابلة تماما، عيناهـا شـاردتان بعيـدا، شعرها منكوش، لم تعتن بنفسها لأجله، هي مجروحـة منـه لكنها مثلما تزوجته بأمر سيعود إليها بأمر. هي واضحة وهذا ما يحبه فيها، روحها القوية وجرأتها التي جعلتـه يتزوجهـا حين كان سائقًا جديدا، لم يعص أمر عمتها وهو يراها تختاره وتدفع من يأمره بزواجها. أحب أن يكون مرغوبا، أن يكون الجانب الأضعف في العلاقة، هذا يمتعه أكثر.. يشده إليها من عجز أمه الضعيفة التي لم تعتن به كثيرا والتي لم تقو روحها لأجله. هذه المرأة هي الأقوى، هي التي تحميه مـن عجـزه السابق لهذا يشتهيها ويتمتع معها بقوتها.

ومع قربها من عمتها وحبهم لها جعلته مميزا لديهم وحين تزوجها أحس كم هي حرة برغم عبوديتها.. جسدها يسـتمتع بإرادة كاملة وينتفض برغبة عارمة ويحس بحرية حقيقيـة،

وهي تعبر عن نفسها وعن جسدها بشكل متحرر وواضـح، وضوحا يخاف منه ويهابه، بعكس فطوم المتغنجة المفرطـة الدلال وبرغم أنها حرة فان جسدها ليس حرا.. وها هو اليوم حين رآها مرة أخرى ورأى والديه نظر إلى محراك وقبلـه على رأسه ثم احتضن نصورا الذي لم يره منذ ولادته وقبله، كان " نصور " شبيها له، كأنه هو، ولم يستطع إلا أن يضمها إليه بشدة ويعود إلى هذه الأسرة التي تفتح له أيضا أبـواب العمل مع عمتها الجديدة التي لها قوتها فـي المنطقـة هـي أيضا.

حين أمرته عمتها أن يحضر لم يعـص أمرهـا، وحـين طلبت منه أن يستقر معها ومع أسرته في الغرفة التي ستكون بجانب الكراج والذي سيعمل فيه منذ اليوم لم يعص أيضـا، هو يعمل أن بإمكانه الرفض لكن معنى ذلك أن يترك المكان بأكمله إذن سيفقد عمله وريحانة ووالديه وأيضا فطوما لأنـه لن يستطيع حملها معه إلى مكان آخر لا يعلمه ولا يعلم كيف سيبدأ ثانية فيه. إذن كان من الأفضل أن يستقر مع عائلته ما دامت عادت إليه وأن يعود إليها.. أما فطوم فهـي صـغيرة وستجد من يتزوجها.

كان في البداية يساوم في عـدم الطـلاق لكـن ريحانـة رفضت أن تكون زوجة ثانية لها أي ضرة.

قال لها: - بسك يا ريحانة أنا بعـدني حبيـب، حبيبـك، وعماتك الحرات لديهن ضرائر، تجين أنت وترفضين. شـو أسوي فيها.

قالت له: - طلقها، أنا ما برجع لك وأولادك ما بتشـوفهم إلا يوم تطلقها.

حاولت عمتها أن تقنعها بأن تقبل الوضع القائم لكنها كانت تريد أن تجبر حبيبا على طلاق فطوم، فمثلما أمرته أختها أن يتزوج ريحانة، ها هي تجبره على أن يطلق زوجته من أجل ريحانة. إذن هي أقوى من أختها لها الأمر الآن بعد أن كانت هي وجميع العائلات يؤتمرن فيطعن وكأنهن عبدات لأختها، أختها الكبرى التي حظيت بجمال أخاذ وشخصية قوية وزوج ذي سلطان ولهذا لم تستطع إلا أن تكون الأخت التـي فـي كنف أختها هي التي ربتها وزوجتها وربت أولادهـا وهـي الأقوى. ها هي الآن تمارس دور القوة وتتذوقه.

نظرت ريحانة بعينين ينفجر فيهما الغيظ، هي عبدة لكنها كانت عبدة زوجة حاكم، إذن هي أكبر من العبيد الآخـرين

هي فوقهم هي عبدة داخل الحصن لكنها سـيدة تـؤمر مـن عمتها فتأتمر، لكنها تأمر باسم عمتهـا فتطـاع حتـى مـن الحرائر الأخريات ومن أهل عمتها، من تذهب إلـيهم بـأمر منها. إذن هي تملك الأمر وتملك قوة تميزها لهذا لا تستطيع أن تكون ضرتها ابنة عوشانة التي تدخل عندها وتأمرهـا أو حين تأتيهم في القصر تتعامل معها وكأنها العمة حين تكـون عمتها منشغلة فهي التي تحاسبها وهي التي تطلب منها وهي التي تتحكم في الشراء.. هذا غالٍ وهذا رخيص، هـذا جيـد وهذا لا. وكانت عوشانة تذعن لها طلبا في محبتها حتـى لا تفقد بيعتها أو دخولها الحصن وكانت فطوم تجلس بجانبهـا تتحمل استهزاء ريحانة لها إذا بكت أو طلبت شيئًا.

- ٦ -

لم تستطع أن تسامح حبيبا وهو الذي أهانها بزواجه لكنها تعلم أن وضعها وذهابها مع العائلة شارك في انهيار سعادتها معه، بل وانهيار وضعها كعبدة متحكمة وقوية في الحصـن الذي تتشارك فيه أكثر من سلطة: عمتها، وأم زوج عمتهـا، وضرة أم زوج عمتها.. كل منهن لها مناطق نفـوذ وعبيـد يأتمرون بأمرهن. إذن كيف ستتعامل معها عوشانة وفطـوم

وهي الجانب الأضعف اليوم، منسلخة من سـلطة عمتهـا، متروكة من زوجها، عمتها الجديدة ليست بقوة عمتها القديمة ولا تحبهـا فكيـف تسـتطيع أن تتحمـل ذلـك وكيـف سيعاملونها...؟

حتما سيدفعونها إلى الجنون وسيدفعها حبيب أكثر لـذلك كلما ذهب إليها.

حين اختارته وعادت انهارت علاقتها بعمتهـا وأسـرتها التي ربتها، وحين عادت لم تجد تلك الحياة التـي تركتهـا. عادت مجروحة منه ومقطعة الأوصال مع عمتها التـي لـم تعرف الحياة إلا من خلالها ومن خـلال حياتهـا.. جـاءت لأجله، لكنها جاءت إلى عالم آخر وإلى عمة أخـرى وإلـى حبيب آخر.

هي أيضا تغيرت فكيف تستطيع أن تحقق حياتها الخاصة دون كل ذلك مجرد مكان في الجغرافيا فقط، والذي تربـت فيه منذ أن دخلت من بوابته الكبيرة مع أبيها سعيد حين نادى بأعلى صوته:

- مرهون يا مرهون، فك الباب.

فتح مرهون البوابة الصغيرة. ظهر أمامها رجـل أسـود سمين ذو كرش، يعرج، فرفض سعيد أن يدخل معهـا لأول مرة من البوابة الكبيرة. ضحك مرهون وقال له:

- ليش يعني منوه هي، عمتي...؟

ومع ذلك فتح البوابة الكبيرة كنوع من المزاح مع والدها.

كانت عودتها عودة للحياة القديمة، لنظام اجتمـاعي مـن خلاله كونت علاقات ها هي تتهدم الآن وترى تغيراتها معها، بل فيها، فهي كذلك تغيرت دون أن تعي، لكنها تحس بالتغير داخلها، وعليها الاعتراف به.

- ٧ -

على الكرسي يسقط جسدها ينام طويلاً، الخمـرة علبـة النسيان حمالة السر، ربما لتتزود بكراهية أكثر تجاه التصاقه بها وكأنها الحياة.

تقودها أقدامها نحو المطبخ لتجاب كأسا نظيفة، تفتح درجا تمسك بسكين حادة وكبيرة تنظر إليها طويلاً وترى محراگـًا ممسكًا بالسكين ليخاص نصورا من السـرير، تـرى سـعيد مذبوحا أمام بوابة المسجد الكبير انتقاما للثأر وتـرى حبيبـا مضرجا في دم خياناته لها، تسقط اختياراتها الداخلية حـول

إمكانية أن تجعل من نفسها شخصا مهادنًا، تتـرك السـكين وتتذكر أنها تريد كأسا تحملها وتخرج مرتبكة إلى الشرفة.

المساء يهطل على جسدها الأسمر، كتفاها العاريتان فـي قميص النوم تسبح فيهما إضاءة بسيطة من أضواء الشـرفة العلوية تجعل جسدها يرتاح على جمال أخاذ بسيط.

منذ أسبوع لم تدعه يلمسها ولم يظهر رغبته فيها. همست لنفسها:

- نحن نلتقي وجها لوجه لا نسلم. فقـط يرانـي وأراه لا ألتفت ولا يلتفت فقط لحظة ونعبر كالعابرين لابد من خطـوة ثانية..

تلاحظ أظفارها تخربش الكأس، تسمع صريرا مـا، لقـد نسيت، الكأس فارغة.

كانت عيناه ترعبانها وكذلك صمته، أما حديثه فهي جديرة بأخذه على محمل الكراهية، قبل أن تضعه في تابوت مناسب وتدفنه مع الذكريات. هكذا تصبح للحضور دلالـة الغيـاب، الغياب الكامل، أما ذاتها ففي الطريق وهي مدركة أن الحنين خيط تجره بقوة في داخلها وتحملها معها إلى البيت.

عادت إلى كرسيها أمامه، هو نائم وهي كأنها تتحدث إليه: أجمل ما في الأمر الآن أننا هنا في هذه الغرفة مبتعدان عن الخارج.. وبالرغم من أن روحي بعيدة فإنني هنا معك كما في الصورة الأولى.. أنا وأنت فقط.

بالرغم مما تقوم به فهي تعتبر ما فعله مراهقات صغيرة لأنها قادرة على تدمير كل حيله تجاه فطوم أو غيرها بعد أن أصبحت الآن معه، قريبة منه وتستطيع مراقبته. وهو يحاول الوصول إليها مرة أخرى، ليس لأنها أجمل أو أذكى، لكنها امرأة أخرى هنا، تفتح له باب جسدها بأكمله وتتغنج محاولة إثارته.

ريحانة لا تعرف كيف تتغنج.. لكنها تحاول أن تثبت لذاتها أنها قادرة على أخذ حبيب منها ليس لأجله، فهي تعلم أنهما يبحثان عن طعم آخر للذة، لكنها ها هي هنا الآن وعليه أن يختار ولا يتراجع. إما هي، أو فطوم بلا عودة وهنا ستفتح باب جهنم عليه ولن يستطيع تبديل الأدوار، ريحانة هي التي أدخلت فطوما إلى حياته، هي التي قربتها بغبائها، فاستدرجته فطوم لها، وها هي تجدها في مواجهتها. فلينتظر إذن منها ما ستفعله إن لم يعد بكامله لها.

لم تستمتع بنوم هادئ طوال الليل لا بسـبب خلافاتهمـا اليومية على تفاهات صغيرة وإنما لأسباب تخص جسـديهما اللذين يثريانهما بالعناق ولا تتورد الشهوة فيهما.

قالت له: - لابد لي الآن، أن أستمتع لا بك بل بنجـاحي تجاهك وتجاهها.

ودت أن تكون زوجة من طراز خاص أن تكون ضـمن سياق عاطفي ولا تتورط في خلق حزام العفة حول جسـدها أو أحلامها، ليست ضد القيم، وليست معها لكنها لا تضـعها في احتمالها إلا من أجل المتعة. هي تعطيه كل ما يريده من امرأة، إذن لا حاجة لأخرى. وهي تتعامل معه كطفـل وأم، كعاشق وغانية لكنها تمارس أيضا دور الرجـل فـي هـذه الأسرة، الدور الأهم لاستمرارية الحياة وتقبلها كما لو أنهـا تقول له:

- أنت تحتاج إليّ، تمر بدوني بأزمة ثقة كاملة فألبس لك صورة تحبها أتقدم إليك كملجأ، وبالرغم ممـا تفعلـه مـن مراهقات صغيرة فإنني قادرة على تدمير كل حيلـك تجـاه الوصول إلى فطوم، كامرأة أخرى تفتح لك باب جسدها. هي أيضا تحاول أن تثبت لنفسها أنها قادرة على إغراء من يكون

معي، تريدك لإغاظتي وليس لأجلك لكنني أذكى منكمـا. لا أستطيع تبديل الأدوار لأنني أنا التي جعلتك تهتم بها. لتترك لي إذن فرحي الصغير باختيارك لي الآن وتركها، ونجـاحي تجاهها وتجاه هذا المجتمع الذي كان ينظر إليّ باستهزاء.

عليّ أن أفعل أحيانًا أشياء لا أحبها، مثلاً أن أحدق فيـك بهذا الود الذي خلفته علاقتنا المنتهية أصلاً، والتي لا نعترف بنهايتها بل نعيشها كأكمل حياة تعاش، أشبه صورتي الحقيقية بدون أي حيل، لكن أنت لا تعجبك إلا فكرتـك عنـي كمـا رسمتها وقدمتها لك.

ما زال نائما، لا تحب إيقاظه، فقط تطفئ أنوار الصـالة وتذهب إلى غرفتها، تنام على سريرها مستمرئة تلك الأفكار، وممتلئة بالفائض المتناثر مـن رغباتهـا المكثفـة لصـالح روحها .

ترقب زمنًا لا تعده لكنها تنفصل بطيئًا عـن نفسـها ولا تكون غيرها لا تكون بشرا.

تبدأ في دخول غربتها، مكان مختلف فـي هـذا الكـون الواسع. لا تتحول من بشر لبشر لكنها تصقل لمعانها لتصير

حفنة تراب قبل أن تموت. تستعجل اختفاءها دون أن تغيب. تختفي بانطفاء وهج بجانب شمعة وعود ثقاب.

على جبل راحت تسحب الحجارة التي تسقط فجأة وتطلع، الهواء يشح عند القمة صوت غناء ينوح على فقد. تصـعد، الوحدة وحدها، ترافقها الملائكة ودونهـم بعـض شـياطين صغيرة يجردونها من عبء هذا الجسد الذي أتلفته الثيـاب، الجسد الذي انحنى وبانت عروقه، هكذا تستطيع الانفصـال الآن. الانفصال الفجائي الذي يؤهلها لأن تمكث فجـأة فـي الكون بدون تسمية أو كينونة، تلمس القمـيص الـذي يعيـد استداراتها بكيمياء دمها. اللحم تمزق وبرزت العظام. يداخلها رعبها مرة ثانية وتفقد السيطرة على تفكيرها، ثمة جـراثيم ترعب هذا الحيز منها، لا تقاوم تدميرها لكنها تفكر في مدى فقدانها في هذه الحياة.

وجود له دراميته

أزمة ريحانة أن حبيبا لم يكن منقـذها كـان يمكـن أن يعالجها لكنه وقع في أزمتها، أزمة مرتبطة بواقعها وشرطها الذي تهرب منه، ومرتبطة بالآخر الذي كان من المفتـرض أن ينقذها فورطها أكثر في عدم انخلاعه عن نموذج حياتـه السابقة بالكامل. حين عاد إليها لم تكن في نمـوذج العائلـة المستقرة ولم تختبر أدواتها بالكامل لهذا أصبحت شخصـية مشوهة، الجميع لجأ إلى حسابها بشكل عنيف ومعقد ومن ثم تحولت أزمتها مع الخارج إلى أزمة داخلية مع جسدها.

هكذا حدثت هادئًا وكنا نسير معا. أتكلم، وهـو يضـرب بقدمه حبات الحصى التي يصادفها، كان ينظر إلى بين الحين والحين وأنا أحرك يدي في الهواء وكأنني استمد القوة

لأبوح له بذلك الثقل الذي يعذبني، قلت إن ريحانة لم تكن عبدة بالنسبة لي بل جزءا من حياتي رافقتني عبر تجـاربي الأولى. لم تكن عابرة، بل كنت أشعر بأنها تـود لـو يقـف الزمن عند خروجها وحين تعود، تعود كما كانت، وكما كان الجميع. لم يحدث ذلك، فانتظرت من علاقتهـا بحبيـب أن تكون المنقذ لها، لكن الواقع حكم بغير ذلك لأنه تغير حتـى

في نظرتها له، وتحول المجتمع بأكمله. إذن لم يعد بإمكانهـا سوى أن تعتمد على طاقاتها الخاصة لتخاص نفسها. عليهـا ألا تعول كثيرا على الآخر الذي فشل هو أيضا. وهذا ما لـم تستطعه هي.

كانت تعلم أن الحظ وحده قادر على إعطائها ما تسـتحقه دون عناء. ربما كان وجهها الذي لم يكن جميلاً بمسـاحيقه وضوضائه لم يحتمل أوصافًا تحفره في الذاكرة.

هي امرأة عادية تنظر إلى العالم كجزء من غنيمة الوجود وتحسب خساراتها بالشهوات المتناثرة حولها، لكنها تعـرف عمق الحب حين يتضاعف في هذا الكـون مئـات المـرات فتصاب بالذعر حين تغرق ويفشل هذا الحب المعبر عنهـا، فتبدأ في الشك. توقفت نظرت إلى هادف الذي ربتـب علـى كتفي وكنت أود أن يلملم خوفي أن أكون مثلها لكن خطواته سبقتني أوقفته وكأنني أردي أن أقول له مـا قالتـه ريحانـة لنفسها

إلى متى أؤجل حياتي؟ أفتح يدي ولا أملك سوى هذه اليد المفتوحة لتعيد صياغة نفسها واتزانها ومع ذلك لا تسـتطيع أن تخرج من أسر وجودها الحالي، تحرر الروح من جسـد

عبوديته أم تحرر الجسد من روح عبوديته...؟ كانت تعلم أن كليهما لغز الآخر، بل ربما لغز الوجود كله. فالمستحيل هـو الاستمرار كأيقونة تثبتها. كصورة ثابتة ذات دلالات كثيـرة. كيف تختزل موقفًا نهائيا وهي تعلم استحالة تحقيق الشـرف من خلال النسيان ومسح الذاكرة.. ومع ذلك فالباب مشـرع على احتمالات عديدة كمركب تدخل العاصفة. أولادها

حين تطرقنا أنا وهادف في الحديث عـن ريحانـة التـي ربتني وأولادها وكيف تركتنا كي تعود، قال لي هادف:

- لو عرفت ما تريده لكانت اليوم تملك مفاتيح سـعادتها لكنها كانت تبحث دوما عن مستحيل لا يتحقق، فتحققه يعني نهايتها هي بالطبع.

أي إنسان حين يخرج من مجتمعه يدمره هاجس تكوينـه يثور على وضعه. في مصر، لم تعش ريحانة واقعهـا بـل ثارت على وضع إنساني، اكتشفت المادة التي تملؤه ولأنهـا على صلة بتاريخها أصبحت محددة ضمن نظام هذا التاريخ، وأصبحت قدرته على محاكمتها قدرة مأساوية.

فقلت له: - الفرق بين حياتها وسهولة تضمينها وبين حياة متكررة ومتشابهة مع تجارب إنسانية أخرى هنا. إن أزماتها

تؤهلها لخلق وجود له دراميته. فهي ليست متحـررة لكنهـا تعبر عن نفسها بشكل متحرر، انهارت لأنها لم تفهـم هـذا التحرر إلا من خلال التقليد، فبين حياتها وبين حياة متكـررة ومتشابهة مع آخرين كان الفرق بين الحياة العادية والشـكل الدرامي المؤثر، المحدود ضمن نظام هذا التاريخ فأصـبحت قدرة هذا التاريخ على محاكمتها قدرة مأسـاوية، ولكـن لا تجربة أخرى تنقذها من نموذجها الخاص.

فقال لي: - هي نموذج لا يحمل قضية خاصة، اختارت، واختيارها كان تجاه سلطة عائلية ومن ثم عاشت تحت ضغط العودة، فوجدها العودة ستحقق مشروعية علاقتها مـع هـذه القضية. حتى ذلك قد يكون نموذجا سائدا لكن ليس هناك من تجربة أخرى تنقذها من نموذجهـا الخـاص، لا يمكنهـا أن تحتمل نفسها وأعباءها ولا حتى روحها.

طموحها القوي فرصة لبناء ذات جديدة لكن مشكلتها عدم الاعتراف الاجتماعي الذي يعيدها إلى حالتها القديمة.

نظر إليّ هادف، لم أتكلم.. أحسست أننا في حالة أقـرب إلى الانسلاخ، هادف يتكلم بموضوعية شديدة وصارمة أبعد ما تكون عن الشعور الإنساني الذي شعرت بحنوه ذات يوم.

قلت لنفسي ريحانة تملك ذاتًا إنسانية كبيرة ومشاعر متراوحة بين الفقد والامتلاك لكن هادئًا لا يرى إلا ما هو نظري في ظاهرة العبيد لدينا، شردت قليلاً فأحس بذلك، لذا أمسك يدي وهو يقول:

- هيه سمعت اللي بقوله....؟

هززت رأسي بالإيجاب فابتسم موحيا انه يعرف بأنني لم أستمع لشيء مما قاله فأعاده مرة أخرى:

- حدث تعامل برجوازي من خلال التوجيه والتعليم وأصبحت علاقتهم الطبقية والعبودية تشكل عقدهم التاريخية، ربما هي التي حولتهم – أحيانًا – إلى مرضى يصابون بخيبات أمل أو زهايمر علشان كده بقولك أهم شيء الوعي كيف نبني الوعي إذن...؟

رغبتي في الحديث تلاشت ولكني قلت له:

- تعرف، محراك شايف انه موضوع ضروري لتخلص حقه الطبقي هو شخصية معلنة عن نفسها في أقصى انفعالاته وهو أكثر من مرة يصل لأقصى القطبين أما ناصر فهو شخصية غير موجهة لذاته الخاصة لتكون قادرة على توفير مقومات إرادته، هو بحاجة ماسة للآخر، للخارج، لشيء

سماوي مع مراقبته الدائمة. إن هناك حكما مسبقا على الحياة لديه.

- التوجيه يجعل الإرادة في يد الموجه

- آه تقصد التلقين.

- طيب وأنت فين...؟ ما هو إنت عارفة تحللي كل حاجة أهو علمناها الشحاته سبقتنا على الأبواب.

- أنا، دا أنا أنا غلبانه، بس بجد، أنا لست ضـمن النمـوذج السائد ولست خارجة أيضا مضطرة أن يكون النموذج السائد كفرا لا يمكن تخطيه.

- إذن أنت غير مدركة وغير متجاوزة.

- ما انت شايف النماذج اللـي بتخـرج مـن فتراتهـا المرتبكة.

- أنا شايف أن محراكًا نموذج في الحياة، علاقته، بنيته، طموحه، ليس مع السائد ومن ثم كان يعيش نموذجه بشـكل آخر خفي، وموافق أيضا جبريا على الشكل السائد ومعايشته لاعتبارات عديدة لكنه كغطاء فقـط ولـيس واقـع وجـوده الإنساني، ده اللي فيه الأزمة الإنسانية.

- هو موافق على الشكل السائد..؟ فين ده، ده بيشوه ما يصنعه ويعيد صياغة ما يشوهه من جديد ليشوهه أكثر، لديه رغبة فظيعة في التحطيم، هو نموذج قادر على توريط الآخرين، هو بحاجة لتمرد، ولهذا يعيش النموذج السائد وتحته نموذجه الخاص به والذي يدمر النموذج السائد أساسا ويدمره هو أيضا.

- كلنا ضمن نموذج عربي فاشل لا يستطيع أن يحمل نفسه وأعباءه.

- أيوه ابتدينا مانشيتات لا إحنا نماذج سائدة ليست لدينا تجربة مخالفة تنقذنا من نموذجنا الحالي.

- نماذج لا تحمل قضية خاصة، أنت مثلاً اختيارك تجاه سلطة عائلية ومن ثم مشروعية علاقتك بيه مثلاً هو القضية، قضيتك الخاصة. أما ريحانة فكانت قضيتها العودة.

- يعني تقصد إننا أصحاب قضية لأننا نحب بعض.

- طبعا.

- يا سلام ده إيهام بمشروع حب قوي.

- الواقع غير محدود بجغرافيا عربية مصغرة.

- إيه ده، إيه النضال ده.

كمان هادف يشل تفكيري، لا أستطيع التفكير إلا بـه، ولا أرى إلا من خلال عينيه. لا أستطيع التحرك إلا بمنطقه هو. حياتي جزء من حياته، أبدأ يومي حين أراه وينتهـي حـين أودعه وأذهب إلى البيت، ما يحدث في البيت بدونه خـارج عن روحي، في اليومي من العلاقات أما هـو ففـي العمـق الداخلي.

عكس حياته التي تبدأ صباحا حين أجيء إليه، فيبدأ يومه وحين أودعه تبدأ حياته الثانية: السياسة والأصدقاء، الشوارع والعالم كله.

لا أدرى كيف انسلخت من قوقعته واسـتطعت أن أسـير خارج رقعة جبروته، حين التقيت به مصادفة كـان العـالم حولي مجرد فكرة تشكلت داخلي عن وضعي كفتاة تـتقاص أعضاؤها مع كل لحظة صمت تنبع من أفكار أمها: لا تحني ظهرك وأنت تسيرين، لا تجرجري قدميك وكأنك تسـحبين حملاً وراءك، استقيمي في سـيرك، أسـقطي الكتفـين ولا ترفعيهما، لا تهدلي شفتيك وأنت تتحـدثين، إجـذبي بطنـك للداخل. كانت تعتني بملء رأسـي بالأفكـار السـائدة فـي السلوكيات الأنثوية والأخلاقية لكن عقلـي كـان مهمـلاً لا

يعرف النقد ولا التدقيق إلا مع هادف، هـذا الـذي جعلنـي أعرف أن هناك أطروحات متعددة ومتصارعة علينا أن نعمل العقل فيها لكي نختار منها ما يناسـب تركيبتنـا النفسـية. الاختيار يشعرك بالتميز، يخرجك من الإطـار الـذي تـراه يتأرجح تبعا للمتغيرات التي تعترضها الظروف. هكذا أسمعه مع طه يكونان لي مسربا لتحريك العقل والبحث عن كينونـة لا تعتمد فقط على تاريخها وإن كان صلبا.

الإنسان في حد ذاته متغير، والتاريخ وإن كان حقيقيا فهو يتشوه مع من يرويه، وحين نسـير وراء المتغيـرات التـي يفرضها الواقع، علينا أن نتغير معه بما يتواءم مع ما نـؤمن به، وإن لم نتغير سنصبح في الهامش، نحيا على الأطـلال. لكن هذا الهامش الذي نرفضه قد يكون أكثر التصـاقًا مـع ذواتنا من الواقع الذي لا يتواءم مع تفكيرنا.. ويظل هـادف يشل تفكيري.

أسمع الآن صوت أمي تقول: - إنها كبرت، لهذا لم يبـق لها الكثير من الوقت. أصبحت أكثر فتنة وأرق روحا، لم تعد تدربني على أن أجذب نفسي إلى الداخل، ولا أظهـر مـن

حقيقتي إلا القليل، لا يعينها الأمر الآن، كانت تختار الملابس الملونة وتهتم بحالها كثيرا...

أحضر هادف كتاب شعر، وجلسنا إلى طاولة في مقهى.. طاولة لا تكفي لوضع كوبين من الشاي وحملنا الكتاب بـين أيدينا وقرأنا منه قليلاً.

الرقاص

سألني طه:

- ألا قولي لي يا شمسة همه المدفعين دول كانوا ماركـة إيه...؟

الجزء الرابع

" الأولة في الغرام "

كراسي الحكم

صباح اليوم أفضل من صباح أمس، وأفضل من الصباحيات الماضية بعد أن عاد الببغاء إلى صـاحبه الأصـلي وظلـت حديقة حيواناتنا تنكمش وتصغر حتى ظللنا فيها نحن البشـر فقط.

قالت أمي لأبي بالأمس:

- أنت ليش تسجن الطيور، مب كفاية إنك انسجنت، أنت مفروض ما تسجن حد بعد ما ذقت السجن. وحين جلسنا على منضدة الطعام، مكان اجتماعنا الأثير، جلست على الكرسـي ذي المسندين وأرجعت ظهرها إلى الخاف بعد أن وضـعت يديها على مسنديه، ونظرت إليه بابتسامة ماكرة قائلة:

- على فكرة، هي كراسي الحكم شو تفـرق عـن هـذا الكرسي، ولا شيء، ليش تتمسكون بها وهذا لا. أمسكها من ذراعها وسحبها عن الكرسي وتبادلا الأدوار وابتسـم وهـو

يجاس مثلها.. يرجع بظهره إلى الوراء، واضعا يديه علـى المسندين وهو يقول:

- يفرق كثيرا جدا، بس أنت ما ذقته، لهذا لـن تعرفـي الفرق.

كلما أمسكت بتلك الحمامة البيضاء لمدة طويلة حتى أفلتها لأنظر إليها، وهي ترفرف وكأنها تتعلم الطيران لأول مـرة، ترفرف كما يرفرف العلم ونحن تحته في طـابور المدرسـة لنحييه. كأنها تتعلم كيف تعاود الطيران، كيف تمتلك حريتها من جديد، وكانت عيناي تنظران إلى البعيد كمن يقرأ الغيب حين ألبسوني العلم، وكلما وقفت أمام الحائك لبست العلم في مخيلتي لأشعر بالانتماء. حلمت مرة في أحد الأيـام، أننـي لبست فستانًا بكتف واحدة فاضطررت أن أترك عري منسدلاً على الكتف الأخرى كي أخفي ما يظهره سقوط الجانب الذي لا يحمله سوى الحلم.

لو كنت أطول قليلاً

- ١ -

سألني هادف:

- قرأت جاك بريفير؟ ده أجمل شاعر علـى الإطـلاق، خذي بعض قصائد له واقرئيها، هو شاعر جميل..

فقلت له: - وأنت مش جميل يا جميل..؟

- أنا بكره نفسي وحياتي بكره الشعر والمثقفين.

- مش ممكن، أنت بتموت في الشـعر وبتحـب نفسـك لدرجة العبادة، بتحبها لدرجة إنك بتحبني ولدرجة إنك دايمـا نظيف في أفعالك وداخلك وبراك كمان.

- انت واثقة من نفسك ومخدوعة فيها

- لازم أكون واثقة في نفسي ومخدوعة فيها، لازم أكون واثقة من نفسي معاك.

كنت حين أسير بجانبه أصل إلى قلبه، لا أتجـاوزه أبـدا وأسعد بأنه طويل لدرجة أن عيني تصل إلى قلبه، هذا هـو الطول المناسب هذا هو المكان الذي أستطيع أن أكون قريبة منه، أحس بالحنان الذي لا يظهره أبـدا، أرى قلبـه وهـو

ينتفض، تنفسه وهو يخرج ويدخل فيظـل صـدره يصـعد ويهبط.

لو كنت أطول قليلاً أو لو كان هو أقصر لكانـت رأسـي ستتجاوز كتفه، وهنا سأجد العالم حولي، سأرى من خلفه إذا اختفيت.. أما الآن، فأنا لا أرى إلاه هو فقط، وحين أختبـئ من العالم يكون هو من يحميني.

ظللت داخل هذه القوقعة التي ظلت تقفل علـيّ صـدفتها حتى اكتملت الآن.

هادف لا يتصل بي، لا يأتي إليّ، لا يقـدم لـي هـدايا، وينسى أن يلمس حتى أصابعي، يتكلم قليلا، لكن كلامه دائما منطقي ثابت ومحدد.

مرة صرخت في وجهه:

- أنت زي أبويا تماما، بتحاول تعلمني وبس. يـا أخـي الدنيا حياة نعيشها مش جد وتعليم وبس.

- مين قال أنها جد بس، ومين قال غير كلامك ده...؟

نظرت إليه متحققة من سوء فهمي فبدأ بمحاضرة حول.. لا أذكر، فقط أذكر كم كان واثقًا من نفسه بالرغم من ادعائه العكس.

أنا أتحدث كثيرا، كلما بدأت الحديث حضرت إليّ مـريم وهي تقول:

- وأما الزبد فيذهب جفاء.

أسكت وأتمعن في الكلام الذي أقوله، لماذا يصبح الحديث زبدا...؟

الحديث مروحة الهواء.

- ٢ -

حدثت هادفًا عن حياتي أخبرته عن أفكاري وكيف أتعامل معها، أحلامي وكيف أهفو لتحقيقها، عن رغباتي المخبـوءة ضحكت بصوت عال وقلت:

- أتمنى أن أطير إلى هناك.

كنت جالسة معه على أسوار الجامعة وأشرت إلى سـاعة الجامعة وهي تدق.

قال:

- بسيطة، أنت في الزمن أساسا.

أحد أصدقائه قال لي:

- كيف تحبين هادفًا، إنه شيوعي.

- وأنت..؟

- أنا قريب من أفكارك.

- تقصد أفكار والدي..؟

- ولكن..

سألت صديقه الآخر:

- هادف يساري..؟

وكنت أريد أن أخفف من وقع الكلمة عليه وهو المتدين فقال:

- ا   أعلم أنا دايما أشوفه يصلي، ويصوم، وما بيشربش.

حين كنا على سور الجامعة قلت لهادف:

- أنت شو...؟

ضحك قائلاً:

- بني آدم بيحب وبيكره، بيحب الدنيا والبلد دي، وبيكره الظلم والتخلف.

- وانت منضم لإيه...؟

- منضم لنفسي وقناعاتي طبعا.

وبدأ يغني:

- يا داره دوري بينا، دوري دوري بينا، لننسى أساميهم، وننسى أسامينا.

صك انعتاقِها

- ١ -

حين طلبت ريحانة من عمتها الجديدة صفية أن تعتقهـا، أعتقتها بصك تثبت فيه أنها أصبحت حرة، بـل وتوسـطت لزوجها حبيب كي يعمل في الجيش الموحد الذي تم إنشـاؤه في العاصمة بعد أن ظهرت الدولة وخرج الإنجليـز منهـا، ظهر النفط وألغيت العبودية فتنفست ريحانة الصعداء. هـي حقا لم تكن تذهب لعمتها كثيرا، وعمتها الجديدة أيضا لم تهتم بها، فهي فقط أخذتها وأعادتها لتكون لها المنقذ.

كانت التجارة، والملاحة، والغوص بحثًا عن اللؤلؤ، هـي الأعمال التي يزاولها أهل المدينـة، أمـا الآن فبعـد قيـادة السيارات وبعد الحرية، صار العمل بالجيش هو الوحيد الذي يعطي لحريتها معنى، خاصة أن الراتب الشهري مجز إلـى حد ما.

فرحت ريحانة فهي تريد أن تبعد قلـيلاً، كانـت وظيفـة حبيب تعطيهم الحق في ملكية بيت مناسب في حي صـغير، وراتب شهري مناسب لبداية حياة كريمة. كان ذلـك بدايـة جديدة للخروج من مأزق تلك المنطقـة، والابتعـاد بحبيـب

وابنيها عن حبال فطوم التي تحاول أن تعيد حبيبا مرة أخرى إليها وللخلاص أيضا من كل ذلك الماضي الذي ظل يتعقبهم.

لم تترو بل سحبت وجودها قليلاً من الخارج، اختفت دون غياب، الغياب كما في القاهرة يقلقها، أما الاختفاء كمـا فـي العاصمة فهو استراتيجية ضد الشحوب والحزن، وللعودة من جديد.

لم يتغير المجتمع بل انقلب ولم يسمح بالتطور على مهـل من خلال فكرة مطروحة، لكنه تطور مـن خـلال الشـكل الاجتماعي السائد والمعاش بدون تغييرات جذرية تـذكر إلا بمعنى نفسي، ومن ثم كان النكوص أحيانًا يزداد فـي اتجـاه تعقيد السؤال الخاص بوجودها.

ظهرت الدولة، ومات جمال عبد الناصر. عاد أبي ومعـه بعض الحرس بعتاد قليل لترتيب انقلاب صغير على الحاكم، ظن أن خروج الإنجليز سيعبد له طريق العودة. أليسوا هـم من طردوه من إمارته بسبب اختلافه معهم...؟

الآن بعد موت جمال عبد الناصر ومـع ظهـور الدولـة وخروج الإنجليز هل يستطيع استعادة حقه الضائع، مثلما عاد

عبد الرحمن حاكم إمارة الحيرة بعد أن سجنه الإنجليز سبعة أعوام في عدن في سجن ربما يشبه سجن الكوت...؟

لم يعرف أبي أن الإنجليز لم يقيلوا عبـد الـرحمن مـن حكمه، لكنه هو وبعض الحكام الآخرين لم يرض الإنجليـز عنهم كحكام فأقاموا، قبل خروجهم بفترة ليسـت قصـيرة، انقلابات عديدة.. من خلالها تمت إقالتهم تماما من حكمهـم، ووضعوا في أمكانهم حكاما آخرين من أولاد عمومتهم حتى لا تصبح مسألة شرعية الحكم مثار صراع كبيـر، وهكـذا عملوا من وجهة نظرهم على استقرار حال المنطقـة كمـا يريدونه هم لا أصحاب المكان، لهذا كان لزاما على انقلابـه أن يفشل حتى وإن ضحى بحياة الحاكم الآخر ليـأتي حكـم جديد، حتى وإن أصبحت مسألة الشـرعية مجهولـة كمـا الأوراق التي اختفت فجأة ولم يعثر عليها إلى الآن.

في بيان وزع من جماعة الدفاع عن عروبة الخليج فـي فبراير ١٩٧٢ حول حقائق موجزة عن الأحداث تعرضـت الجماعة إلى فكرة الشرعية والحكم من حاكم إلى آخـر فـي فترة تغير الأوضاع السياسية والاجتماعية في تلك المنطقة.

عش لأمك زمانًا

- ١ -

على طاولة الطعام جلست بجانب أمي، أنـا علـى رأس الطاولة وهي على يميني وأختي على يساري. عندما مـات والدي صار أخي هو الذي يتـرأس الطاولـة وبعـد موتـه أصبحت أمي هي التي تترأس الطاولة.

كبرت أمي كثيرا بعد موته، لكنها ظلت صلبة ومتوازنـة ترفض أن تتنازل عن قوتها حتى على حساب نفسها.

الضعف أيضا إنساني لكنه في الأسر الكبيرة ذات التاريخ خاصة السياسي يعتبر انهزاما.

حين اضطررت لأن أجري عملية جراحية علـى قـدمي تنازلت لي أمي عن الكرسي بحجة أنني أستطيع مد قدمي هنا أكثر أمسكت بيدي ووضعتها على يـد الكرسـي، الكرسـي الوحيد الذي على الطاولة بيدين هو كرسي المنصة وأخلـت مقعدها لي كأنها تقول:

- أنت الآن مفوضة مني بأن تحملي راية العائلة، أنت من سيتحمل زمام البيت.

أية مسئولية تضعها على كتفي وهي تعلـم أننـي أحـب الضعف أكثر من القوة والفقد أكثر من الامتلاك والفشل الذي أخافه أيضا أكثر من النجاح.. هكذا علمني هادف.

الضعف قوة إنسانية أكبر بكثير من القوة التـي نـدعيها وهكذا كانت مريم وهي تقول لي " ولكن مثلي لا يـذاع لـه سر".

لكنك لست كذلك يا هادف، أنت مثلهم تدعي القوة والقسوة أيضا، تعلمت كيف تقسو على ذاتك كثيرا إلى الحد الذي لـم تر انك تقسو على الآخرين، أنت قاس على الآخرين دون أن تلاحظ ذلك، قسوتك الموجهة لـذاتك اخترقتـك، وطفحـت خارجك.

- أما الفشل فهو شيء عادي، هكذا قلت لكي أبرر عـدم استطاعتي فعل أشياء خارقة.

ضحكت يومها وقلت لي:

- أنت أصلاً بتموتي في النجاح، بتموتي فيه.

قلت لك:

- في مين

- في النجاح

- لا وا أبدا، دا أنا بأموت فيك أنت.

- يا فاشلة.

النجاح يتطلب أن ننجح وننجح، وكلما أخذنا نطلب المزيد، عكس الفشل يستقر الفرد في مكانه ويصمت، مثل الخوف والشجاعة، الشجاعة تستلزم الإقدام، أما الخوف فأمان أكثر، كانت أمي تقول قولتها الشهيرة:

- " استوي جبانًا وعش لأمك زمانًا ".

لماذا أمجد ما هو ليس بحقيقي داخلي، الشجاعة جميلة حقا، لكنها خرقاء. الملكية أجمل، لكنها تستلزم الدفاع عنها، النجاح حلو، لكنه يستلزم أن نحافظ عليه، إذن أنا أبحث عن انسحابي من العالم وأن أخلد إلى الضعف والانهزام.

لاحظت أن أمي تسعل كثيرا هذه الأيام وحين تجلس بجاني على منضدة الطعام تمسك ورق " الكلينكس " في يديها كلما سعلت وضعته على فمها.

تذكرت الأفلام القديمة التي تسعل فيها البطلة فينتهي الفيلم بوضعها في المصحة، ثم باكتشاف داء السل وموت البطلة. كنت أضحك بداخلي وأقول: " أنا كارنينا " تعيد نفسها أمامي.

هذه التهيؤات لا تطفو على السطح أبدا حتـى لا يختلـف الشكل العائلي المنتظم أمام طاولة الغداء.

نحن نجتمع مرة واحدة فقط على طاولة الطعام لهذا كنت أحاول جاهدة ألا أكـون فـي المنـزل، أتحجـج بمواعيـد المحاضرات التي تكون جميعها ما بـين السـاعة الواحـدة والنصف إلى الرابعة وبما أن كليتي بعيدة عن المنزل فأحتاج إلى ساعة إضافية حتى الوصول. هذا يعني انه لا أحد فـي المنزل يستطيع انتظاري، ولكن سينتظرني التوبيخ والكثيـر من المناقشات الحادة والكثير من الاسـتفزاز والطـرد مـن طرف والدي خاصة إذا كان مزاجه متعكـرا وكـان الحـل الوحيد ألا يراني ولأنني شجاعة، كما كنت أظن، كنت كثيرا ما أرفض ذلك خاصة انه لكي أصل إلى غرفتي لابـد مـن المرور على القاعة التي ينتظر هو فيها ويجلس طيلة يومه.

في كثير من الأيام التي أكون قد استوفيت فيها طاقتي في الشجار مع هادف لا أستطيع أن أتحمل أكثر، أضعف وأدخل غرفة جدتي وانتظر فيها الليل حتى ينام هو، لكي أذهب إلى الغرفة أو يأتوا إلي بملابس البيت، ألبسها وأظل هناك حتـى يسأل عني فآتيه وكأنني جئت منذ فترة طويلة. كنت أرى هذا

كذبا لا أستطيع فعله، كنت أتظاهر بالقوة مما جعل كم الشجار كثيرا ومحبطًا وجارحا أحيانا كثيرة. أكثر من أربع سنوات مرت في هذه الدوامة المحيطة بي ما بين مقولة أمي " عش جبانًا تعش لأمك زمانًا " وبين جدتي وهي تردد " ولكن مثلي لا يذاع له سر ".

اليوم أمسكت يدها وهي تبتعد عن فمها لأرى كم الدم الذي تنزفه، دم أحمر بلون الورد، ورد أسطى علي، وعم خالد، والبستاني الذي في الفيلا التي يسمع منها صوت البيانو صباحا في رحلتنا إلى المدرسة كل يوم.

دم والدي وأخي وتاريخنا الذي يتفتح كل صباح في المرآة، دم أمي الذي لم تنزفه إلا في شكل وردات صغيرة. أصبت بالرعب، لا أظن انه السل الذي أصاب الأفلام العربية.

- ما هذا...؟

- لا شيء، أسناني توجعني.

وعندما أتى الطبيب كانت تنزف بحدة اضطررنا لأن ندخلها المستشفى ولأن أرقد بجانبها فترة طويلة لم أر فيها أحدا، أنا وهي فقط لأكثر من شهر.

غنت لي ريحانة فيها:

" يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر ما اباه أبي   وليـد عمي بغترته وارداه "

" يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر ما اباه أبي   وليـد عمي بغترته وارداه "

وأنشدت أم كلثوم لحظتها:

"نعم أنا مشتاق وعندي لوعة   ولكن مثلي لا يذاع له سر"

وقالت أمي:

لقد أبليت بلاء حسنًا ويكفي أني أكلت شبابك.

أخذت معها مقولتها " عش جبانًا تعـش لأمـك زمانًـا " وأسرت لي.. ألا أخضع لأحد ولا أذل نفسي.

حملت ألبوم صوري وذهبت أقابله، وحمـل هـو أيضـا بعض صور له في ظرف صغير وأتى إلي.

جلسنا أنا وهادف في الحديقة المقابلة لجامعة القاهرة هذه المرة كان احتفال الربيع. ككل سنة، الحديقة مليئـة بـالورد والأشجار وشجر الظل والشمس، كان احتفالاً بنا أيضا ولـم تكن ملكة الليل غائبة ولا الورد الأحمر بلون الدم ولا باقات

الورد، لكن أبي وعم خالد والبستاني وطفولتي كانوا كلهم في مكان أمين داخل ألبوم صوري.

أظهرت صورة لأمي على كرسي كبير مذهب وقلـت: - هاذي أمي.

فتح الظرف الذي حمله وقدم لي صورة صـغيرة لوجـه هادئ وعرفها: وهذه أمي.

قلبت صفحة من الألبوم وأشرت بإصبعي على رجل يلبس الملابس الخليجية ويحمل سيفا. قلت: - انه جدي. أخرج من الظرف صورة أخرى صغيرة هي أيضا وقال:

- وهذا أبي.

قلبت صفحة أخرى وأشرت إلى صورة الحصن وقلت: - هذا هو بيتي الذي ولدت فيه.

نظر إلى بأسى قائلاً: - إبنة سلطة.

قلت بتوتر وكأنه أهانني: - أنا لست ابنة سلطة، وحياتي مؤسسة على الفقد.

أقفلت الألبوم ونظرت إليه قائلة:

- يريدون أن يزوجوني لابن عمي.

- طيب.

- يعني شو طيب.

- يعني أنت ماذا ستفعلين...؟

- كل شيء عليّ أنا...؟

قال:

- أنا لا أستطيع التدخل.

سيدة البيت

- ١ -

حملت ريحانة في تلك الأيام بابنتها الأولى حليمة وظلت هناك تعيش في شبه هدوء سنة، سنتين، أربعا، خمسا، وكل يوم يتكثف إدمانها شرب الخمر والسجائر. لم تستطع برغم حياتها الهادئة أن تخفف من إدمانها خاصة أنها استطاعت توفير بعض المهدئات والمخدرات أيضا، كان منزلها من البيوت الشعبية، يضم غرفتي نوم وصالة، علقت على أحد حوائطها إطارا ذهبيا به صك انعتاقها، ومطبخًا وحمامين، يشبه البيوت التي بجانبه وجميعها في حي خاص بالعاملين في الوظائف الخاصة في الجيش.

حين علمت بأن الدولة تريد هذا الحي لإعادة بنائه بشكل آخر وأن بيتهم أحد تلك البيوت التي ستهدم لشق شارع كبير في مكانه، فرحت كثيرا وفرح حبيب وأولادهما لأن الدولة ستعوضهم مالاً كثيرا يمكن أن يؤمن لهم بيتًا أكبر وعيشة أرغد.

ترك حبيب الجيش وأخذ المال. كان يحلم بإيداعه في البنك لكن حلم حبيب بأن يترك الجيش ويأخذ بيتًا صغير آخر

ويصرف من أموال البيت لا يليق بريحانة التي أصرت على أن تعود مرة أخرى فتشتري أرضا كبيـرة جـدا وتـرهن الأرض للبنك لبناء بيت فسيح يشبه ذاك البيت الذي سـكنته في بداية عمرها لتصبح هي سيدة البيت. أخيرا ستعود أفضل مما كانت، قالت لنفسها أخيرا سأربح.. سأشعر بطعم أسـمي ريحانة وسأربح الدنيا وحبيبا ومحراكًا وناصـرا وحليمـة، سيحبني حبيب وسيخاص لي محراك وسيجاهد ناصـر مـا استطاع لأجل سعادتنا أما حليمة، حلوم فهـي الحلـم الـذي تمسكت به حتى كسبت عودة حبيب لي، وهـي حلمـي الآن الذي بدأ يتفتح. نزعت الصك من إطاره، الصك الذي ظـل يذكرها بأنها عبدة والذي رفض حبيب تعليقه وكسره محراك من قبل، وها هو الآن لا حاجة إليه في البيت الجديـد. هنـا صك آخر – المال – الذي ستصبح من خلاله سيدة المكـان. ومع ذلك خافت أن تمزقه، ما زالت تراه قيمة قد تحتاج إليه برغم مرور الوقت. لفته جيدا وخبأته في احد الأدراج. لـم تكن مخلصة لفكرة عبوديتها كما لم تصبح مخلصـة أيضـا لفكرة حريتها.

اشترت سيارة فخمة واستخدمت كثيرا من الخـدم الـذين أحضرتهم من مناطق مختلفة وأصرت على أن تحيط نفسـها بهم لتصبح سيدة حقيقية تعزم النساء اللاتي رفضنها من قبل وتقيم الولائم وتجلس في صالون قصرها والخدم من حولهـا يتماوجون.

أما حبيب فقد اشترى سيارتي أجرة أجرهما ليعـودا لـه بعائد معقول يمكن من خلاله اعتماده كراتب يومي مناسب.

- ٢ -

كانت وليمة كبيرة عندما سكنا المنزل، بعثت للجميع مـن كان ضدي ومن لـم يكـن. لعمـاتي وللعبـدات السـابقات وعوائلهن، لبست فستان عمتي الأسود ذا الأوراق الذهبيـة، المفتوح الصدر على هيئة سبعة ورفعت شعري مثلما تفعـل ولبست عقدا من اللؤلؤ.

حين أقلد عمتي ليس ذلك بدافع الغيرة لكن بـدافع الحـب لأنني أرى أن عمتي هي الأجمل والأكمل لهذا أهفـو مـن خلال تقليدها بأن أتجمل وأكتمل.

أقلدها لأنها النموذج فلا أرى إلا من خلالها ولا أفعـل إلا كما كانت تفعل.

الملابس، الزينة، البيت، الحركة والمشي، تسريحة الشعر كله مثلها لأنني في داخلي أحبها مثلما أحب حبيبا لأنني لم أر غيرهما، لكنني دمرت هذا الحب من أجل استعادة حياتي وحين عدت إليه لم أجد داخلي سوى بقايا امرأة محطمة. اضطررت للهدم من أجل البناء، أن أفقد من أجل أن أمتلك، وحين امتلكت كانت نفسي جشعة في الامتلاك، أنا أريد امتلاك نفسي من خلال هذا العالم، لكن لا أعرف كيف أسجن بحريتي. كنت عبدة بجسدة حر، شوهت علاقتي بالعائلة، لن أعود لهذا، كان لابد أن أتركهم وابني داخلي حاجزا من الغلظة والكراهية أحاول ألا أتخطاه حتى لا أضعف، أنا أحبهم وها هو الحب يظهر بأشكال أخرى لم أدركها من قبل.

كل من أتى ظل يهزأ بي وظلت إشارات الغمز واللمز كثيرة للدرجة التي لم أحتملها تركتهم في صالون منزلي ودخلت غرفتي فانسحبن جميعهن الواحدة تلو الأخرى.

لم تتشوه العلاقة فقط بل كان التشوه مصبوبا داخلي، أغرقني ولكي أنسى لم أجد غير ملذات حاصرتني فيها الخمر والإدمان.

عدت لكنني لم أعد كما كنت، ولم يكن المكان كما كـان وحتى حبيب ما عاد حبيبا.

الحلم حارق والمكان يتغير بتغيير الروح والجسد والظل، والنهر يعدو حتى يصب دائما في البحر، والبحر كما يقولون ليس بملآن أبدا.

كان المكان من قبل أرضا وفكرة. أصبح الوطن أرضـا وسلطة والتزاما بنظام غير النظام الـذي ألفتـه، أصـبحت نموذجا آخر لم تحلم به وعليها الآن أن توجد أحلاما تناسبها كما هي الآن. لم يكن النموذج سهلاً لهذا استعانت بمـا فـي ذاكرتها أصبحت نموذجا لآخرين وحين تحقـق نموذجهـا. أصبح قنا خارجيا إذا قبلت به انتهت وانتهكت، وإذا مارست من تحته اللحظة أضحت مثار سخرية.

– ٣ –

تذكرت عمتي شمسة وسيرنا على الأقدام كل يـوم إلـى المدرسة. كنت ألبس ملابسي التي طورتها لتناسب القاهرة ؛ السروال الأبيض المطرز في نهاياته، والفستان الذي انحسر إلى ما بين الركبة أو تحتها، وضعت الطرحة علـى رقبتـي بدلاً من رأسي وكنت كلما ارتديت ملابس تذكرت أول مـرة

سرت بالملابس نفسها مع عمتي على نيل منطقة الجيزة حين صرخ أحدهم من بعيد معاكسا إياي:

- تعيش أنديرا غاندي

فطنت أن ملابسي أقرب للملابس الهنديـة والباكسـتانية. ضحكت، وظلت تلك النادرة تعاودني كل فترة كلما وضـعت الطرحة على رأسي.

لم أنس أول زيارة لأنديرا غاندي إلى القاهرة حين وصلت إلى المطار مرتدية الملابس الهنديـة التقليديـة " السـاري " ومنتعلة صندلاً، كانت أول زيارة لها وكان ذلك في مـؤتمر الحياد الإيجابي وعدم الانحياز.

بعد سنوات زارت أنديرا غاندي مصر للمرة الثانية. كتب أحد الكتاب في اليوم التالي لزيارتها أنها وهي تتقدم لمأدبـة العشاء التي أقيمت لأجلها وكان هو خلفهـا انثنـت قـدمها وكادت تقع للوراء فسندها، فقالت له: لقد استطعت أن تسندني قبل وقوعي، فرد عليها قائلا: - لقد استطعت أن أسند ظهر إنسانة تسند بحكمتها ظهر مليار من قلوب المساكين.

دخل " نصور " عليها، كانت ترضع حليمة نظر باستحياء لثديها المتكور في يد حلوم، تذكر نفسه. لم تفطمـه إلا بعـد

فترة طويلة وكان دائما يصر على الرضاعة حتى وهو فـي عمر الخامسة وكانت تعطيه ثديها حتى تتخاص مـن بكائـه خاصة عند النوم.

جلس بجانبها فبدأت تحكي له.

- اليوم جاني في الحلم مرهون فتح باب الحصن، البـاب الصغير، وما خلاني أدخل، كانت عمتي نايمه، أخذت ثيابها ولبست ما لاءمني وأحرقت الباقي. بعد أن احتفظت لنفسـي بفستان زفاف أبيض. كل العبدات صرخن وقلن: هذا ليس لك وأخذنه مني. لم أستطع أن آخذه عنوة منهن، دخلن في الحلم وبقيت أتقلب في سريري. انقلبت فسقطت في البحـر تحـت السرير، كنت أعلم أنني لا أعرف السباحة، لكن حلوما لبست فستانًا أبيض أيضا وركضت ورائي، سقطت في الماء وكـل العبدات لحقن بها وتحلقن حول البحر وانتشلنني بشبكة صيد، خرجت أضحك أما حلوم فلا أعرف من حملها مـن المـاء، كانت غريقة وبلا ملابس أمسكنها من قدميها وظللن يـربتن على ظهرها كان حبلها السري يشتد على رقبتها ما أعرف يا ناصر هاي البنت شكلها ما بتعيش.

أمسك ناصر بأخته قبلها وأخذ يلاعبها سأل عن والده ثـم خرج سريعا.

- ٥ -

رن الهاتف رددت عليه، كانـت مريومـة علـى الخـط أخبرتني بعودة صالحة من السعودية. صالحة صديقتي التـي أمضينا مع بعضنا أوقاتًا جميلة وحميمة هي اكبر مني بكثير أخت مريومة التي ترتب معي لكنني كنت أغار من مريومة لأننا كنا نتنافس على حب عمتنا أما صالحة فلا.

إذن عادت صالحة بما جمعته من تجارة والتي اسـتفادت فيها من علاقتها بخالتها أخت أمها أمة إحـدى الشخصـيات الكبرى هناك، وأم ابنه. استفادت من سفرها معهم ودخـولهم جميع الدول بدون تفتيش أو ضرائب، كانت تـاجرة شـنطة ماهرة مثلما تبيع الذهب والأقمشة تبيـع الخمـر والأسـلحة الخفيفة.

لم أسمع عنها شيئًا منذ مدة طويلة إلا ما كان يتردد حول تجارتها ولم أحاول أن أتقصى عن ذلك.

- قد اغتنت كثيرا فعادت واشترت بيتًا جميلاً ومحـلات عديدة تدر عائدا كبيرا وأحضرت خادمة لديها في المنزل يا

بختكم يا ريحانة أنت وصالحوه. اغتنيتوا وعشتوا وإحنا اللي تمينا مخلصين لعماتنا حتى بعد ما أخذنا حريتنا ما أخـذنا إلا الفقر.

" ويعزي السبب في انتشار تجارة الأسلحة واشتغال عـدد كبير من التجار بهذا النوع من التجارة إلى وجود طلب عليها في المناطق الثائرة ضد سلطة الحكومة داخل إيـران. ففـي الثلاثينات كان الكثير من مناطق إيران الفقيرة قـد رفعـت السلاح بوجه الحكومة فطلب السلاح. ممـا حـدا بالتجـار الإيرانيين، التوجه إلى كل مكان يمكن أن يحصلوا منه عليه، والذي لم يكن يتجاوز البنادق والمسدسات وعتادهما، وعليـه فقد جرت اتصالات مع الشاطئ العربي للحصول عليه مـن هناك وتهريبه إلى داخل إيران. فانتشرت مراكز بيع الأسلحة في الكويت، وقطر، والبحرين، وكانت إمارة دبي احد أهـم تلك المراكز. وكانوا يحصلون عليه وهو عبارة عن بنـادق قديمة ومستعملة ألمانية الصنع أو بلجيكية من مصادرها فـي أفريقيا ويتم إدخالها إلى الحجاز ثم إلى دبي ثم فتحت أسواق أخرى مع انتشارها بين أفراد القبائل البدويـة فـي داخـل

الإمارات مما أقلق الإنجليز خاصة القبائل التي تعـيش فـي المناطق الداخلية للإمارات ".

- ٦ -

كان يداعبها الشوق، يهزها فترتعد، يعصـرها بضـغط يخفق له القلب فتنتفض.

ها هي المكومة في شبه غيبوبة هنا حيث العـالم يـدور حولها والليل أقرب لأن يغمض أحلامها على هذا السـرير، أصبحت شبه عاجزة عن تجاوز حالتها الخاصة.

صديقتها صالحة التي حين كانتا عند الشاطئ يومـا مـا دخلت البحر وجذبتها الأمواج إلـى القـاع، بحثـت عنهـا وتذكرت قصة الفتاة التي تنظف الأسماك كل يوم، فسـرقتها الأسماك إلى القاع، غسلوا جوفها وأطعموها اللؤلؤ وأعادوها إلى الشاطئ، ظلت تتقيأ لؤلؤًا وحين تجرح عروقها يتسـاقط الدم على هيئة لآلئ جميلة كوردات بيضاء، وحـين تبكـي كانت اللآلئ تتساقط دموعها أغنت بها أهلها ومدينتها، وحين أحبت كانت كلمات الحب لؤلؤة كبيرة، وعمتها تلـبس عقـد لؤلؤ.

خافت ريحانة عليها وكانت تلبس فستانًا واسعا فظلت مثل وردة في الماء، غطست تبحث عنها حـين خرجـت كانـت صلوحة بجانبها تصرخ: يا ريحانة، يا ريحانـة.. ضـحكتا بعمق وتعانقتا. أحست ريحانة أنها تحضن امرأة بلا ملامـح أنثوية، أمسكت بحمامة لمدة طويلة وحـين أفلتتهـا نظـرت لأعلى كانت تفتح لها الأفق وهي تشق السماء بطيرانها انفتح لها التاريخ حين ذهبت ريحانة إلى بيت المعتمد البريطـاني، ولم تكن إلا عبدة تبحث عن تحررها، رأت كثيرا من العبدات يذهبن هناك ويلمس تلك الخشبة المدقوقة فـي فنـاء البيـت المعتمد البريطاني وعلى أثرهـا يمـتلكن صـك حـريتهن، كثيرات لم يستطعن أن يفعلن الكثير بهذه الحرية فعدن إمـاء وعبدات لمالكهن أو لغيره، لكنها كانت تبحث عن شيء آخر، أن تكون حرة حرة حرة.

– ٧ –

صالحة لم تمتلك من النساء الحرائر لا الجمال ولا الذهب والمال ولا حتى القوة والسيطرة، لكن كانت لـديها الرغبـة والطموح والنداهة التي تناديها كثيرا وتسعى خلفها.

حين خرجت من بيت المعتمد البريطـاني حاملـة صـك حريتها كانت كمن به داء، الكل ينفر منه وكانت تحلم وتحلم. خرجت بحريتها إلى العالم الخارجي دون قـوة، دون حتـى أدنى إحساس بالرعب، لم تدرك أبدا أن هناك من يتربص بها في الوديان البعيدة التي لا يلبد فيها سوى قطاع الطرق، لـم تنتبه لهذه الطرقات إلا وهي مسروقة ومحمولة إلى السعودية لتباع هناك هي وكثيرات غيرها أخذن حريتهن المسلوبة كي تسلب حياتهن كلها.

ضاقت الأرض البراح قبل أن تراها وانغلقت مسامها قبل أن تتنفس بعمق هواء لم تستطعمه أبدا.

بأحد أماكن البيع بيعت صالحة لأحـد بيوتـات الملـك الكبيرة، هناك وجدت إحدى المتحررات من أسـر عبوديـة الخليج أمة للملك، ومن ثم تحررت مع أول مولود ذكر لهـا، أخبرتها بأن عمتها أخت أبيها هي كذلك إحدى الإماء – مـا ملكت يمينه – وأنها حررت مع أول مولود ذكر لها، ذهبـت إليها فاشترتها وأعتقتها.

كانت صالحة تبحث عن حريتها لتظل عبـدة لمعـروف العمة وتظل تسكن بمفهوم العبدة لكن بإحساس الحرة الـذي

سكن داخلها واستقر. لقد اعتقت مرتين مرة بـالمنح، ومـرة بالشراء.. ومع ذلك ظلت تخاف أن تسير وحيدة في أمـاكن غير مأهولة لأنها سوداء، ويمكن أن تسرق مرة أخرى وتباع ولا تعرف حينئذ أين سيسوقها القدر، لذا كان أمانها أن تمتلك حريتها قرب عمتها.

أما ريحانة فكان رد فعلها تجاه إحساسها بالماضـي فـي تاريخها معاكسا لما تفعله، تشعر بأنها مثار سخرية. شـعور خاص بالتمرد والعودة تكثف بينها وبين نفسها. لم تكن تنظر إلى المستقبل، ما ينفتح أمامها هو الماضي.. كل ما هو ماض يتجلى ويتضح وتستمتع بتذكره، الماضي المرتبط بالمكـان. لهذا أرادت العودة لأن الحاضر في حضن الماضـي، أمـا الآتي فلم تضعه في حسبانها إلا من خلال ذكرياتهـا وأنـه سيأتي من خلال الاستقرار والعودة والحب الـذي سـيجعل للاستمرارية إمكانية ما. ربما لهذا كله، كان الحسم في العودة انتصارا على كل تعقيدات حياتها. إذن العودة إلى العبودية.. هزمت تماما، ففي القاهرة كانت تحلم بـالعودة، أمـا حـين عادت فما الذي تحلم به..؟ جذورها أصبحت جذورا مقطوعة مما جعلها، وبعد حريتها، إنسانًا عاما. لم يتفهم أهلها وسكان

منطقتها حتى أفضل صديقاتها حالتها بل جعلوها مثار سخرية.

في أحد الأيام التقت ريحانة بصالحة بعد فترة طويلة من الغياب، كانت صلوحة صديقتها التي طارحتها الغرام أحست أن الأيام تعود بها إلى سعادتها وطموحها، ها هي تحقق بعض طموحها وتستطيع من خلاله أن تعيش حريتها والقدر قد فتح لها ذراعيه بل أنعم عليها بالمال والزوج والمكان والثروة لكنها مع ذلك لم تتحرر من الداخل، ولم يتحرر المجتمع برغم إلغاء قانون العبودية فإن النظام ظل على الأوراق، أما في المجتمع ذاته فما زالت القيم كما هي لم تتغير، وظلت في نظرهم كما هي عبدة وإن امتلكت حريتها، وإن اشترت وجودها وأسست له، لكنها لم تعرف كيف تتحقق من خلال ذلك ولم يساعدها المجتمع على التحقق، كذلك صالحة لم تتعلم كيف تعيش لا تحلم فقط أن تعيش بسلام لو حلمت بذلك لتترك لها مساحة واسعة، لكنها تريد أن تتقمص أدوار آخرين وتصعد السلم الاجتماعي إلى آخره. طموحها أكبر بكثير مما حققته وإن كان ما حققته أيضا كثيرا.

لم تكن تبالغ في ذلك، لكن مع انشغالاتها الكثيرة عـادت صلوحة بما جمعته من تجارتها التي نجحت بفضل علاقتهـا بعمتها، أخت أبيها، أمة الملك، أم الأمير. وسـفرها معهـم ودخولها جميع الدول دون تفتيش حقيبتها، فكانـت " تـاجرة شنطة " مثلما تبيع الذهب والملابس تبيع الخمر والمخـدرات والأسلحة الخفيفة أيضا. اغتنت كثيرا، فعادت، اشترت فـيلا ومحلات عديدة تدر عليها عائدا كبيرا، أحضرت خادمة لديها في المنزل، وكانت تذهب كل عام لزيـارة عمتهـا وللمـرة والعودة بعد ذلك. وحين تسافر تترك خادمتها عند صـديقتها التي ترددت الشائعات عن علاقتهما الشـاذة والتـي كانـت موضع شبهة بل كانت مبرر عودتها الثانية.

حين عادت من عمرتها ووجدت خادمتها حاملاً من سائق صديقتها الذي هرب أبقتها حتـى وضـعت. لـم تلـد فـي المستشفى بل في البيت وأنجبت طفلة صغيرة أخذتها صلوحة وأصرت على عودة الخادمة لبلدها وحدها، وهي التي لـديها زوج وأولاد في بلدها، لا تستطيع أن تعود بطفلـة دون أب معها. حاولت الخادمة أن تستبقيها صـلوحة معهـا لتربـي

طفلتها وتكون بجانبها لكن صالحة هددتها بأن تشتكيها بالزنا فتجلد وتسجن قبل أن يتم تسفيرها.

في المطار ألغت فيزتها وختمت على جواز سفرها بعـدم العودة مرة أخرى، حتى لا تعود لأي منزل آخر وتزعجها، فتربت تلك الطفلة في كنفها.

نحن السادة

- ١ -

بدأ حبيب يشارك زوجته زهوة الحياة واعتبـرا نفسـيهما الملاك الجدد للحياة.

- انقلبت الدنيا وصرنا نحن السادة

هكذا تعاملا مع العالم وكما شاركها هذه الزهوة شـاركها أيضا المخدرات وبدلاً من أن تخرج مـن حالاتهـا انـدفنت داخلها أكثر، خاصة مع مشاركة أولادهـا لمزاهـي الحيـاة الغامضة التي أخذت تتقلب عليهم يمينًا ويسارا.

جلبت أسرة للخدمة مكونة من امرأة وأخيها وابنتهـا. الأم والابنة للعمل في المنزل والأخ كسائق لهم. ومع اختلاط القيم ولخبطة الحياة ظلت هذه العائلة في غرفتهـا فـي الطـابق

الأخير.. ومع إدمان حبيب الحبوب المخدرة وأنواعا أخـرى كثيرة، اعتمد كثيرا على رام السائق في تقضـية مصـالحة اليوميـة وشـراء الأغـراض ومتابعـة سـائقي التاكسـي ومراجعتهما ومحاسبتهما كل يوم، مما جعله يخفـي بعـض الأموال ويتاجر بها في أشياء أخرى عن طريق بعض الخدم الموجودين في المدينة. اشترى دكانًا في بلاده وظل كل فتـرة يبعث بمواد غذائية من هذه النقود تملأ دكانه هناك وجعل ابن أخته وشقيق الابنة كليانة مسؤولاً عن الدكان.

خافت الأم على كليانة من محراك، لم تخف من ناصـر لأنه هادئ الطبع قليل الكلام والشراسة، لكن محراك الشرس ذا المشكلات العديدة، خافت منه لذا حاولت أن تقربهـا مـن خالها كي يكون حماية لها ضدهم، لكن هذا الاقتراب أشـعل بصيص الرغبة التي كانت مزيجا من حب مختلط بين كليانة ورام، مزيجا من حب الابنة لخالها، ومن الحماية من رجـل قوي وأيضا جميل وصغير إضافة لامتلاكه الأمـوال التـي أسس بها نفسه كتاجر عند عودته لبلاده، كان رام لا يسكن مع العائلة في القصر الكبير لكنه يجلس في غرفة صغيرة بحمام مستقل في حوش المنزل.

وكانت كليانة تذهب إليه لتتحدث معه وتتسلى حين تنشغل أمها مع ريحانة وأطفالها خاصة أنها لا تخدم محراكًـا بـل تجعل أمها هي التي تتعامل معه.

- ٢ -

ذات مرة ذهبت إلى خالها، كان يغتسل في الحمام. ظلـت تنظف له الغرفة فوجدت بعض المجـلات الجنسـية التـي أربكتها وازدادت ربكتها مع خروجه من الحمام عاريا. لـم يلحظ وجودها لكنه أيضا ارتبك خاصة وهي تترك الغرفـة مسرعة تاركة مجلاته الجنسية على السرير.

لم تأت له بعد ذلك لفترة، وكان يتحاشى أماكنها لكنها في تلك الليلة بعد أن نامت أمها لم تجد نفسها إلا وهي مخـدرة تفتح باب غرفته وتندس بجانبه على السرير كما تفعـل كـل مرة لكن بإحساس آخر منها ومنه هذه المرة.

أحس محراك بتلك العلاقة السرية بين كليانة ورام، بـين الابنة وخالها، حاول أن يحول الدفة ويعتدي عليها لكـن الأم دافعت بضراوة ضد ذلك، وحين علمت بعلاقة الابنة بأخيهـا كان ذلك مناسبا لأن تدافع عنهمـا ضـد شراسـة محـراك

وريحانة واستسلمت لذلك الوضع مع ظهور بـوادر الحمـل على كليانة.

تركت كليانة ورام المنطقة وذهبا إلى بلادهما لـم يعـودا لمدينتهما لكنهما ذهبا إلى منطقة أخرى تزوجا فيها وعادا إلى أسرتهما كزوجين يحملان طفلهما الأول اشتريا منزلاً كبيـرا ملآه بالأجهزة الكهربائية والأثاث الفخم وفتح بـاب دكانـه وجلست كليانة كسيدة منزل ترعى أطفالها.

تحت وطأة الواقع والقوة المسيطرة الآتيـة مـن المـال اضطرت العائلة إلى أن تغض النظر عن مفهوم العلاقة بين الخال والابنة واعتبارهما زوجا وزوجة لديهما القدرة المالية والمحل الذي يعمل معه فيه أخ الزوجة وسيارة للشحن عمل عليها أخ له ومواد غذائية لدكانه ويمكنه أن يبيعها بقيمة أقل لدكان والدته وأشقائه لتحسين أحوالهما المادية هم أيضا.

وظلت والدة كليانة في منزل ريحانة بعد كل تلك المعاناة بل وأحضرت أخاها الآخر ليعمل مع حبيب بـدلاً مـن رام، وظلت هي تعمل لوحدها كخادمة في المنزل.

- ٣ -

انشغل حبيب بحالاته وانشغلت ريحانة في تقليد ملابس عمتها وتسريحات شعرها وتقليدها في الحديث، المشي، والمكياج، وكلما أخفقت عادت لشربها وإدمانها.

نظر محراك إلى جلستها في غرفة المعيشة كانت تقلد تسريحة عمتها وتلبس قميص نوم يشبه تماما ثوب عمتها ذاته الذي لبسه ذات يوم، أعاد القميص إليه إحساسا غامضا خرج من ذاكرة بعيدة حين خرجت ريحانة في اليوم التالي إلى السوق، دخل محراك غرفة نومها فتح خزانتها وظل يقلب ثيابها ويشمها ثم فتح الدرج الأخير في الخزانة أخرج ملابسها الداخليها ولمسها بيديه أخرج قميص النوم ذاته ولبسه ثم فتح دولابها، وأخرج ثوب عمته أخذ يشمه ويضمه ثم خلع قميص النوم ولبسه ووضع وشاحا على رأسه ونظر في المرآة مليا. اتجه إلى المرآة وضع كمية من البودرة على وجهه وأحمر الشفاه على فمه ووضع العطر ثم جلس ينظر إلى وجهه في المرآة.

دخلت ريحانة عليه الغرفة نظرت إليه مندهشة، ثم قالت:

- عادتك والا بتشتريها. اللي فيه داء..

غير ملابسه وأشاح بقميص نومها على السـرير وهـو يتمتم:

- وانتو شو أصلا....؟

أسرعت ريحانة وأخذت ذلك الثـوب وأعـادت ترتيبـه وتعليقه في دولابها بهدوء شديد.

كانت سرية العلاقة العائلية بمـا فيهـا مـن تعارضـات وانشقاقات لم تدخل ضمن تحديد حياة محراك.

خرج من الغرفة ووجهه مليء بالمكياج وأحمـر الشـفاه اتجه نحو غرفته، كان صديقه إسحاق قد حضر لتوه، اندهش إسحاق حين رآه هكذا، لكنه هو أيضا شخص غير سوي لـه العديد من الإخوة المدمنين والده " بلوشي " الأصل وكـذلك أمه، لا يتكلمون العربية إلا خارج المنزل، والدته دلالة تدخل البيوت الكبيرة حاملة صرة من الثياب والذهب وفـي يـدها إسحاق الذي يرى النسوة وهن يتضاحكن ويتغامزن، يـراهن بملابس نومهن وبلا براقـع أو أوشـحة. يـرى شـعرهن ووجوههن وتخرج من فتحات الثياب أثداؤهن مكشوفة بـلا حرج في نفس المنزل الذي نشأ فيه محـراك، ومـن قبـل ريحانة.

إسحاق ابن علي أكبر.. بائع كبـاب، وقماشـة أو هكـذا تسمى المرأة المفضلة داخل البيوتات التي تبيع بعض قطـع الملابس والأقمشة وتأخذ الذهب لترهنه عند البانيـان لتأخـذ عمولتها، أو توصيها النسوة بشراء بعض الأغـراض مـن الأسواق وتأتيهن بها، فهي بجانب ذلك تنقـل لهـن أخبـار البيوتات الأخرى ومن فيها وماذا كن يلبسن وفيمـا يـتكلمن وعلاقتهن بأزواجهن، وغيرها من الحكايات الصغيرة التـي ينشغلن بها وتصبح مثار حديث، خاصة وهن لا يخرجن إلا لماما، وكانت الدلالة والماشطة هما أهم شخصيتين في تلـك المنازل، إذا جاءتا رحبن بهما وإذا ذهبتا اشترين سكوتهما.

سمي أبوه بعد ذلك بالصفار حين ترك الكباب واشـترى محلاً لتبييض النحاس وعندما كبر ظل يداوم على فتح المحل كل جمعة بعد الصلاة، يجتمع معه أصدقاء له ثم يبدأ مباشرة بالعمل. لم يكن يستطيع العمل كثيرا، لكنه كان يقـوم بعمـل غطاء لبراد شاي وربما اثنين فقط ثم يقفل الدكان إلـى يـوم الجمعة التالية ويعود إلى بيته. لا يقوم بذلك لبيعه فهو يعلـم أن لا أحد سيحتاج إلى ذلك الآن، لكن يده يناديها النحاس.

تجلس قموش كل يوم جمعة على سطح بيتها تنتظره وحين يمر الصغار ينادونها:

- قموووش

ترد عليهم:

- واش تبغون، بلكنة تتكسر فيها اللهجة العربية فيتضاحكون عليها، وهي تردد بنفس الصوت وكأنه صدى لأصواتهم يرتد إليهم وها هي لا حيلة لها غير هذا الصوت الآن.

نظر محراك إلى إسحاق بغضب ودخل غرفته، تبعه إسحاق مندهشًا لكنه لم يستطع أن يتساءل، كل ما قاله: اليوم فيه جمعة عند ربيعنا إلماس.

لم يتكلم محراك، لكنه استلقى على الفراش شابكًا كلتا يديه وراء رأسه ناظرا إلى سقف الغرفة الذي انفتح أمامه مثل بوابة الحصن، وخرجت له عمته، أمسكت بيديه ودخلت السقف، انغلق السقف مرة أخرى. حين انتبه نظر كان راشد منشغلاً بوضع شريط في المسجل الموضوع أمام المرآة ووجهه في المرآة مقابلاً لوجه محراك وهو يجلس على

السرير نظر إلى تفاصيل وجهه بياضه هو أيضا لـم يكـن عبدا، أمه ريحانة صفراء قمحية ليست جميلة لكنها ذكية.

هو ورث صفارها وعنف تعابير وجهها وأيضا ذكاءهـا، أما نصور فقد ورث بياض أبيه وهدوءه وصـمته واتـزان جسده، أما محراك فكان أشبه بخيال مآتة وضع فـي حقـل ألغام، من يقترب منه ينفجر معه إلا الطيور والغربان التـي تنقره وتتآلف معه بالرغم من هلعها.

الطيور والغربان التي مثل إسحاق، أما عمتـه فالوحيـدة التي تأتي له في هيئة ملاك أو شيطان لتفرغـه مـن القـش وتنفخ فيه حتى يطير، ويصبح هواء.

– ٤ –

كانت عمته تحبه، تشتري له كل ما يريده وأيضا تعاقبـه وهو لا يرى غيرها، لا يرى ابنتها التـي تكبـره بسـنوات ويمكنها أن تلعب معه، لكنه يفضل أن يظل بجانـب عمتـه ككلب مدلل وحين تعاقبه يقسم بأن يعاقب ابنتها وأن يضربها أو يجذب شعرها. لم يفعل كل ذلك لكنه يقسم فقـط كعقـاب لعمته.

حين وصل نصور كل دلع العائلة وجه لناصـر الجميـل الصغير الهادئ الذي دخل إلى العائلة وهم بحاجة إلى شـيء جديد. ظل كل من بالعائلة يهتم بنصور يصـنع لـه الأكـل ويحمله إن صرخ أو بكي ويعنفون محراكًا إن اقتـرب منـه وأزعجه ويهشون عن وجهه الذباب.

تدليل محراك مختلف تماما عن تدليل نصور، لهذا حـين كبرا معا لم يتفقا أبدا كان كل منهما في طريق مختلف. كان نصور يرى محراكًا كشيطان ومحراك يرى نصورا وكأنـه ضمير متضخم وكان يقول له: أنت لم تعش الحياة من أولها. أنت أتيت في النعمة، نعمة وجودنا أحرارا تتحـرك دون أن يكون داخلك العبد الذي في داخلنا أنت مثل أبيك، وحدك مثل أبيك أما أنا فمثل ريحا...، عمتي

نظر ناصر إلى مكياج محراك وقال له: - واضح

افتعل محراك من تلك المناقشة الحادة مادة للعراك، بداية بالألسنة، ثم بالوسائل، ثم بالأيدي لكن ناصرا لم يكن بـالقوة التي يمتلكها محراك، هو يعلم أن الشر هو محراك لذلك كان يتحاشى كثيرا الوصول إلى عراك حقيقي بينهما، ولهذا حين

حاول إسحاق أن يترك المسجل ويفضـل العـراك تخلـص نصور من يد محراك وخرج مغلقًا الباب وراءه.

- قوم نطلع، قال إسحاق لمحراك، اغتسل محراك وغير ملابسه وخرجا معا.

كانت هناك مسافة حقيقية بين جسم محراك في تفكيـره، وقدرته على ترجمة هذا التفكير.

الزمن أصبح لديه سهما نافذًا وليس لحظات متقطعـة أو خيطًا يلفه كدائرة حول إصبعه ثم يفرده مرة أخـرى مثلمـا تفعل ريحانة.

الحياة تفترض المتعة، إذن ليتمتع عن طريق تدمير نفسه من خلال الخارج، وبشكل قاسٍ، لدرجة لم تعد لديـه معهـا ذات خاصة أو عامة، كل محاولات إثبات الذات كمؤشر قوي تفترض وجود هدف. ثم ماذا بعد ذلك الإثبات هـذا مـا لا يعرفه. فوجوده عائم، خفيف دوره ليس له ثقل عام، لكـنهم جميعا منذ طفولته كانوا يفتحون له مساحة للإرضاء سـواء رغب في شيء أو لعدم تجريحهم في حبهم. محـراك فـتح مساحة كبيرة للإرضاء من خلال الاعتـراض الـدائم مثـل ريحانة تماما، تعترض على أشياء كثيرة، وترضى بالقهر في

مقابل الحب. لكنه وبعد هذه السنوات لم يجـد سـوى ذاتـه وقبض الريح، لا شيء في يده، تجربته مشـروطة بأسـس نجاحها داخله. وقدرته على السخرية تجعله مسيطرا بـالقوة، أما ناصر فمهيأ للإنساني بشكل مفتوح ولهذا ربما كان فريسة لأنه يمارس على نفسه الصمت غصبا عنه.

بذرة عائلية محبة في أرض متحجرة تملك بنيـة مـدمرة بهاجس تكوينها، بذرة لم يعش تكوينها، لكنه يـرى واقعهـا مباشرة. لذلك يثور على هذا الوضع بتدمير ذاته أولاً.

– ٥ –

يلفونني بالعلم أنا وابنة عمي ثم أترك الوطن. تلبس هـي علم بلادها فيموت والدها في السجن داخل الوطن، وألـبس علم مصر فأترك الوطن وأذهـب إليهـا.. كانـت النداهـة تناديني. يشد أخي يدي من بين الجموع لأستقر فـي سـيارة مرفوعة على الأكتاف.. ينقذني أخي، ويموت في سيارة على طريق يؤدي إلى الوطن. وتسحبني يد العلم إلى مصر التـي التف بعلمها وتبدأ الهزيمة، أجد الشهداء تلتف أجسادهم بذات العلم، علم مصر الذي لفوني به من قبـل. كانـت هزيمتنـا صغيرة بحجمي وكانت هزيمة مصر كبيرة بحجم شـهدائها.

شرف الوطن في الدم المراق حوله وأعود إلى المكان علـى سبيل الحنين فقط.

نظر إليّ هادف وهو يسألني عن مفهوم الوطن.. كانـت أمي تنام وبجانبها راديو صغير وعبد الحليم يغني " نبتـدي منين الحكاية ".. ضحكت وقلت له: - عبد الحليم مات مـن زمان.

ثم أردفت: - أريد أن أكتب سيرة عبدة من خلال العـالم القديم منذ الستينات إلى الآن، أكتب عن العالم الهامشي الذي ينمحي من الذاكرة رغم أن العبودية ألغيت. لكن هناك حالات تصل إلى أقصى صراع وجودي، ريحانة مثلاً لم تكن تنظر إلى المستقبل كحلم، ما ينفتح أمامها هو الماضي، كل ما هو ماض يتجلى ويتضح وتستمتع بتذكره، الماضـي المـرتبط بالمكان لهذا أرادت العودة لأن الحاضر في حضن ماضـيه، أما القادم فلم تعرفه إلا من خلال ذكرياتها، وسيأتي من خلال الاستقرار والعودة والحب الذي سيجعل للاستمرار إمكاناته، من هنا كان الحسم في العودة انتصارا لها على كل تعقيـدات حياتها، العودة إلى العبودية هذا التوافق بينها وبين الرجوع.

قال لي: - مهم أن تكتبي عن خصوصية حالات تصـل إلى أقصى صراع وجودي لها وكل حالات هـذا الصـراع تؤكد وجودها وحركة الانفجار في الأعماق.

فقلت له: - سأكتب عن الحرية التي نحلم بها وهي قيـد آخر.

- المهم الهوية، كل الكائنات في السيرة لها نفس التأثير.

- لا.. أنا أريد أن أكتب عن ازدواجية الشخصية.

- أنت ترصدين عوالم شبيهة بعوالم البطلة، يمكنـك أن ترصدي أيضا التغيرات الاجتماعية والسياسية الحادثة ومدى تغير الطبقات زحزحة القيم بين السادة والعبيد المهمشين، بين المواطنين والوافدين المقيمين والوقوف عند صعوبة التعايش بينهم.

- هذا موضوع كبير أنا أريد أن أكتب عن الصراع مـع المحو والمواجهة القدرية مع الذات، هذا ليس تحولاً طبقيـا إنما تحولات ممسوخة ومفصولة عن طبقتها أساسا. من ينجح في هذا النموذج ينجح من خلال إعادة بناء نفسه، أما الباقون فيعانون من عدم الانسجام مع الذات، ذواتهم.

- من الأفضل أن تكتبي البطل والبطلـة كلسـان حـال البشر، قيمة، زمن..

- أريد متاهة بلا نهاية لأن فوضوية الكون تجعـل مـن العبث الوصول إلى شيء. الوجود مخيف وسـيطرة المـال عنصر مفسد لأيديولوجية الاختيار.

- لابد أن يكون هذا دون كتابة تاريخ مهزوم أو ذاكـرة معادة.

- ماذا أفعل إذن، توازن...؟

- سأكتب عن التحول من العبودية إلـى الحريـة لكنهـا للأسف حرية منقوصة، ظل العبودية كامن فـي الأعمـاق، تتشوه فيها أفكار فعالة. الطموح قوى وفرصة بنـاء الـذات الجديدة والقوية مطروحة، لكن الهدف كان هـو الاعتـراف الاجتماعي فقط فتنقلب الحياة مثل جورب.

- نظام متآكل أساسا ومع ذلك يحاول أن يظـل لأطـول فترة قبل انهياره. منجز السيرة لا يبدو مشجعا هكذا لابد من حتمية الصراع والتغيير والتي تفرض نفسـها. فـي القـرن الماضي كان الاستعمار وتم التحرر منه، الآن تقـدم العلـم

وتراجعت الأيديولوجيا، على كل يمكنك أن تقسمي السيرة إلى قسمين سياسة التشويه وبناء الشخصيات.

- لقد تبدلت المفاهيم وأصبحت الفردية هي التي تعمل وليست الجماعة، قرأت عن العولمة ما يعرفها بأنها فقدان الكائن لاتجاهه والمجتمع لانتظامه والاقتصاد لنظامه، بل هي فقدان الشأن السياسي لصدارته وأولويته من جراء الشبكات الإلكترونية التي جعلت علاقة البشر تتغير.

- زي ما قلت حتمية التغيير تفرض نفسها، في القرن الماضي كان التوسع الاستعماري والتحرر منه. الآن تقدم العلم وتراجع الأيديولوجيا، محراك مثلاً زي ما بتحكيلي عنه نسبة كبيرة من تعامله مع الآخر في الخارج أيا كانت صورته عبارة عن أداة يستخدمها ليستهلكها والشيء الذي يوصله بها الأداة، يوما كانت السكين ليخلص أخاه، ويوما المرآة وانعكاس صورته فيها كأنثى بالرغم من القسوة الموجهة تجاه الآخر في الخارج وتجاه استهلاك جسده في نظام آخر، تعلقه بأن يكون امرأة في المرآة ربما كان تاريخه يقدم إجابة سببت له نوعا من التوجه الداخلي ضد فرصته في الحياة بشكل طبيعي، لم تكن لديه أدوات للرد على الخارج

هو في الداخل ضعيف، مغترب عن وعيه بذاته، يمسك بيـد عمته وهي تسيره معها، الآن هو وحيد ومن ثم لجأ إلى العالم طبقًا لشخصيته باللجوء إلى حماية أو انتهاك ما أو اسـتهلاك النظام القديم.

- انتهازيته لم تكن موجودة بقصد وجودها لكنها بقصـد ثقل الماضي عليه، آليتها زمن يحركها والحصول على فكرة وجود نفسه من جديد غير متحكم فيه من الخـارج. منطقـة معروفة وسهلة بالنسبة له تصبح أكبر منطقة صالحة للهروب منها، وأصبح رد الفعل لديه لا يختلف عما حدث من قبـل، أي أنه رد فعل لفعل سابق. فعله كمرحلة لابد من المرور بها لعمل اتزان ما بين الفعل. ورد الفعل، الجريمة لديـه فكـرة مبكرة بها عنصر كامن داخل شخصيته لا يسـتخدمها لكنـه يحاول مسخ هذه الشخصية في الخنوثة.

أما نصور فلم تكتمل شخصيته ولا مشروع حياته، لأنـه يعيش الفكرة كطاقة داخلية أكثر منها كطاقة خارجية ومن ثم يستنفد طاقته الداخلية، والتي تقوم على عمل خارجي مستمر يستنفدها في جزء غير مكتمل من العمل، ومن ثـم يكـون الجهد المستنفد داخليا أقوى بكثير من الجهد الخـارجي بـلا

حلقة وصل، ربما هو جهل بالحيـاة فـي الخـارج. حياتـه مأسورة بزمن أعاشه الآخرون فيه. رغبة الحياة أكثـر مـن الحياة ذاتها هكذا كانوا يعيشون وكأن الحياة لحظة.

مراكب زعفران وعود

- ١ -

عند إلماس لاحظ محراك عدة طبـول موضـوعة علـى جانب الجدار، كان إلماس يتكلم في الهاتف بصـوت عـالٍ وضحكاته منفلته من فمه، تتردد في أرجاء الغرفـة كأنهـا طبول تدق، كان يتحدث مع امرأة ما، لكنه يتحـدث معهـا بمحبة عارمة هل هي أمه أم صديقته أم ماذا...؟ كان يـدخن وأمامه كؤوس ممتلئة بالخمر، دخل إسحاق ثم أشار بالسـلام وجلس على الأرض أمام الطاولة، وبدأ في صب كـأس لـه وأخرج سيجارة أشعلها، وبدأ يحتسي الخمر ويتقاسم ضحكاته مع إلماس وقف محراك بعناد أمام الباب نظر إلـى إلمـاس، للطبول، للخمر وجال بنظره داخل الغرفة، حتى شده إسحاق من يديه فجلس بجانبه صب له كأسا فشربها مرة واحدة ثـم ثانية ثم ثالثة، لم يكن في حالة جيدة كي يدخل معهما حالـة

الضحك والبهجة أشار إسحاق لمحراك على الطبـول التـي بجانب الجدار وقال: هذه طبول الفرقة، الطبل الكبير اسـمه الرحماني الأكبر والطبل الصغير هذا اسمه الكاسر. أمسـكه واخذ يدق عليه وهو يغني ثم قفز إلى " منحاز " القهوة يـدق فيه أيضا وقال: وهذا الهاون وهو يستخدم بدلاً من الصاجات مع التصفيق. بدأ يغني ويهتز بكامل جسده وهو يميل مـيلاً خليعا تارة على إلماس الذي يلامس بيده بعض جسده كلمـا اقترب منه، وتارة على محراك الذي ظـل يبتسـم ويشـاهد المشهد باستمتاع غريب وابتسامة بدأت تظهر على وجهـه. سأله إسحاق: - شو يا محراك ما تعرف تتشمت وتزفن...؟ " ترقص بشكل خليع وتغني " فظل محراك مبتسما، حين أقفل إلماس الهاتف سلم على إسحاق ومحراك وبدأ حـواره مـع إسحاق:

- وينك ماحد شافك من أيام...؟ خموس تسأل عليك وقلت لها بتيجي وياية اليوم، عندها عرس وتبغينا وياها.

- حاضرين. رد إسحاق

قال إلماس بعد أن نظر لإسحاق بطرف عينه:

- هات محراك وياك

- حاضرين. رد مبتسما ومنتظرا من محراك أن يوافـق أو يرفض.

لم يعقب محراك كان ما زال مندهشا من إلماس هذا العبد الطويل العريض الذي ينم شكله عن احترام تام لكنـه فـي لحظة ضحكته يتحول إلى شخص آخر شـخص لا يعـرف بماذا تصفه.

- ٢ -

كانت خميسة صاحبة الفرقة، فرقة المعلاية، لديها أكثـر من امرأة ترقص وتغني والأخريات يشللن عليها، أي يتعاقبن الغناء والقصائد المغناة وكان لديها الكثير من الذكور أيضـا يرقصون أحيانًا مثل النساء أو فقط يهـزون أكتـافهم فـي لحظات الانتشاء، والأكثر هم من يدقون الطبـل ويصـفقون ويرددون الغناء.

خموس هذه، سوداء داكنة السواد سمينة بحيـث يعوقهـا وزنها عن الحركة، وهي امرأة تعدت الخامسة والخمسـين. حركتها بطيئة تجلس، على يمينها صف من فرقتهـا وعلـى شمالها صف آخر وأمامها اثنتان في الوسط ترقصـان بهـز أردافهما، وفي لحظات النشوة تقومان بحركات خليعة. وفـي

لحظات أخرى يقلد أحد أفراد فرقتها حركات النسـوة بهـز أردافهن ومؤخراتهن، مما دفع حاكم المنطقة في فترة ما إلى منع نشاط هذه الفرق في منطقتـه، لكـن بعـض المنـاطق الأخرى كانت لا تمنعه، مما جعل خموس وغيرهـا يـتجهن إلى هناك لإقامة حفلات الزواج أو الاحتفالات الخاصـة أو بعض الحفلات العامة وإن كان ذلك في القليل النادر.

كانت إحدى المغنيات تنشد في دخول محراك وإسحاق:

" وا لابني قصر للوالدة خموس

وا لابني قصر غم على الحسود

وا لاشحن مراكب زعفران وعود "

وإلماس بجانبها يدق بأقصى طاقته علـى طبلـة كبيـرة مربوطة في عنقه وبجانبه أحدهم يحمل مزمارا ويـنفخ فيـه فترد خموس بصوت أكثر خشونة ودربة:

" أول شريت الهوى واليوم بابيعه

شروات زين المعاني خان بربيعه ".

تذكر حين كان جده سعيد يحكي أمامه عن الفرق العمانية، فالمعلاية من أصل عماني انتشرت في الإمارات الشـمالية.. فرق من المواطنين وبها عمانيون أيضا. أغلبهم من الرجـال

الذين يلبسون ملابس نسائية وعادة ما تكون أصولهم غربية، لكل فرقة لها مسئول أو مسئولة تسمى " الماما " أو " البابا "، أما أغانيهم فهي معروفة لكل الفرق، لكن بعضها يبدع أثنـاء الغناء على نفس الألحان المعروفة أيضا..

يقومون بأداء المعلاية في الزار، والأعراس، وأوقات دق الحب " القمح " في المواسم، أو عند عودة الصيادين كاحتفال بهم، وفي مناسبات الختان، والنذر، وعودة المسافرين. حكي له عن احتفالات عودة الغواصين وكيـف يسـتقبلون عنـد الشاطئ بالغناء والفرح والبكاء أيضا على المفقـودين مـنهم فكيف يمتزج الفرح بالحزن بالغناء.

وكثيرا ما كان يتم في الغناء المدح أو الهجاء كتحد للفرق الأخرى.

سميت بالمعلاية نسبة إلى أول فرقة أقامتها أم علاية فـي عمان، ثم بدأت تنتشر على اسم الأم الأولى لها.

لا تقل الفرقة عن ثلاثين شخصا أما رجـالاً أو نسـاء أو فرقًا مختلطة تضم الشواذ وسيئي السمعة.

وكانت أم خماس في الزمن القديم، كما كان قد حكي لـه جده سعيد، ذات فرقة قوية في دبي، لها نفوذ قوي على بنات

الهوى أو عيال الهوى.. وكان لها قوة كبيرة فإذا هرب أحـد أو شرد من عمومته، ولجأ إليها لا أحد يستطيع أن يـرده.. وكأنها " بيت دولة " أخرى وهي أيضا تأمر وتنهي في الفرق وعلاقاتهم الشاذة المتشابكة.

أم خماس أشهر صاحبة فرقة معلاية، لكنه يعرف أيضـا أن بابا علي وماما صالحة مدّية وماما خميسة سـالم وبابـا سليمان سيف لهم أيضا فرق قوية ومشهورة في دبي ومامـا جرموزه في الشارقة. وإن بن زيتون في عجمان أشهر مغني في المعلاية حيث كان مبدعا ويلحن في الوقت نفسه، يبـدع كلاما موزونًا سواء الكلام الشعري أو الخارج أي الذي بـه بوح.

ترددت أغنية " أم كلثوم " في أذن محراك:

" الأوله بالغرام والحب شبكوني، بنظرة عين

والثانية بالامتثال والصبر أمروني، وأجيبه منين

والثالثة من غير ميعاد راحوا وفاتوني، قولولي فين أقابل حبيبي "

كان قد سمعها للمرة الأولى حين ذهبت ريحانـة إلـى أم عايدة التي تبيع الذرة أمام مدرسة طفلة العائلة والتي تعرفت

عليها في رحلاتها اليومية وانتظـار عمتهـا شمسـة حـال خروجها من المدرسة وحـديثهما المشـترك حـول الحيـاة والأزواج، ومن ثم القاهرة وكيف ستعرفها عليها والحشـيش الذي كانت تأتيها ببعض سجائر ملفوفة منه، وعندما بـدأت ريحانة تأتيها ببعض سجائر ملفوفة منـه، وعنـدما بـدأت ريحانة تطلب أكثر منه عرفتها على صنعو السنهوري زوج بسيسة جارها الذي يسكن البيت ذاته، عزمتها عندهم علـى غداء واتفقتا أن يتقابلا هنا أمام المدرسة ويذهبا معا وذهـب محراك في يد ريحانة، دخل الثلاثة شارع التبليطـة الكـائن خلف جامع الأزهر، مالت أم عايدة على رجل يقـف علـى نصبة شاي استقبلها ببشاشة سألته عن صنعو وعندما أخبرها أنه سبقهم إلى المنزل عادت إلى ريحانة قائلة:

- ده خليل أخو صنعو بيبيع الشاي والحشيش.

ضحكت وهي تقول: - نصبة الشاي دي، بيداري وراهـا الحشيش المازوق في لـوح الخشـب المرصوصـة عليـه الكبايات.

نظرت ريحانة وراءها إلى حيث النصبة، لكنهـا لفتـت وجهها بسرعة خوفًا وهي تتساءل فـي ارتبـاك: - وشـو بيشتغل صنعو....؟

في الطريق بدأت أم عايدة التعريف بصنعو:

- صنعو السنهوري ده بياع حلاوة. رجل شهم وابن بلد، بيشتغل طول النهار في محل الحلاوة عند الحاجـة جمعـة. والحاج جمعة ده راجل بيعرف ربنا وكان متجوز بنت عمـه بس دلوقتي بقى حاجة تانية، اتجوز الست زينـب.. تعرفـي الحاجة زينب دي ما خلفتش منه ولما مات ورثـت المحـل وشقة في أرض الشريف على شمال شارع العشماوي اللـي كان فيه المحل.

لم تتكلم ريحانة وظلت أم عايدة كعادتها لا تتوقـف عـن الكلام في طريقهم إلى المنزل:

- أهو صنعو بقى دلوقت بيشتغل عندها في المحل، ومنه برضه بيوزع كام سيجاره هناك في العتبة أصل التوزيع هنا بقى صعب قوي. وكان معاه راجل اسمه أبو شهبا.. راجـل بعيون ضيقة كده، كان مطرب فـي فرقـة تلـف الموالـد والأفراح، مونولوجست يعني، أصله كان كومبارس في فيلم

لعبد الوهاب ولسه بيحلم يبقى مغني كبير. كان قوموسيونجي بيوزع البضائع على عجلة ويوزعها قطاعي على المحـلات بالعمولة، وبالليل مونولوجست بس ساب ده كله من يوم مـا اتجوز واشتغل حلواني مع صنعو فـي المحـل بـس لـو تروحيلهم يوم الأحد، بتبقى كل المحلات قافلة، يقوم أبو شهبا ده يا ريحانة يقف في الشارع قدام المحل ويغنـي بصـوت عالي، تقوم الحاجة زينب تشخط وتنطر وهو ولا كأنه هنـا، ست قوية خالص شغلات المحل هي واتنين من إخوانها بعـد موت جوزها، كان عندها اللهم احفظنا دوالي فـي رجليهـا وبتلبس شراب طبي وكان عنـدها فـي المصـنع، مصـنع الحلويات اللي قدام المحل شيال إنما أيه مرمطـون. شـيال وبينضف ويجيب الطلبات والخضار وكل حاجة، جابته مـن البدرشين، كان رفيع قوي وأبيض قوي وشعره ناعم كمـان بس بيحلقه على الزيرو، عشان النظافة يعني، وكان يومـاتي يشيل شوالات السكر والحمص والفول السوداني والسمسـم لزوم المصنع. وكان بيلبس جلابيته على اللحـم، يـاختي ده لوحده فيلم. كانت بتعمل فيه عمايل سودة تضربه علـى أي غلطه وتهينه وتقوله أنت مش راجل، كل شوية تديله علـى

دماغه وتبقى عاوزه تمحيه من على الأرض قدام الحلوانية ولما تيجي تروح يوصلها لحد شقتها ويدخل معاها أوضة نومها وتسيبه يقلعها الشراب، أصل لبسه وخلعه صعب قوي، أهو بقى فكري ده كل يوم يخلعها ويلبسها الشراب وهي محتاجة له قوي بس برضه مش ساكته له، اضحكي بقى، مرة جه لصنعو وهو مكسوف وسأله، قاله: - يا عم صنعو الحاجة بتخليني أخلعها الشراب وألبسه لها كل يوم ولما آجي أخلعه لها تلم رجليها جامد وتقولي بشويش وبعد كده تقعد تشتم فيه وفي اللي خلفوني والنبي قولي ده حرام والا حلال. آل مالاقاش غير صنعو يسأله حلال والا حرام ده قمرتي وبتاع كوتشينه وحظ، بس الحقيقة مش بتاع خمرة وشرب وحشيش. هو صحيح بيتاجر فيه بس ما بيلمسهوش.

نظرت ريحانة بحدة إليها فتداركت سريعا قائلة:

- ما أقصدش ياختي وا ، ده حتى الحشيش أعشاب ومش حرام، تعرفي قاله ده يبقى حرام لو أنت سبتها يا بني خليك راجل، سبع كده ومتخافش.

دخلت أم عايدة وريحانة ومحراك عمارة في أسفلها مخبز. اشترت أم عايدة بعض الأرغفة. أمام الباب في الدور

الأول كانت تقف امرأة سمينة جدا وبيضاء. سـمنتها تشـبه خموس لكنها بيضاء، وبدلاً من دقها على الطبل كانت تحمل أرغفة دائرية تضع فيها فولاً نابتًـا وأخـرى أرزا ولحمـا، حواجبها مثل خيط رفيع جدا وشعرها مبتل ومفـرود وهـي تلبس قميص نوم أسود " لاميه ". حين كانوا عند باب العمارة نظرت أم عايدة لأعلى وجدت غسيلاً منشورا فـي الطـابق الأول عبارة عن ملابس داخلية نسائية ورجاليـة. زغـردت بصوت عالٍ وطلعت أمامهم هنأت تلك المرأة وباركت لها ثم اقتربت من ريحانة وهي تقدم لها الرغيفين:

- أصله نذر من أم حسن لما يرجعلها جوزهـا، كانـت واحدة غاوياه متجوزة صاحبه، مبيض النحاس في الحسـين، واتفقت مع جوزها يطلقها وتتجوزه وتسحب منه كـام ألـف جنيه كده، أصله كسيب عنده عقبال أمالتك محل كشري فـي الجمهورية، وبعدين ترجعله، انشغل بيها وساب أم حسن لحد ما أولاد الحلال ضبطوا جوزها الأولاني معاها قاموا قالوا له وكانت خناقة لرب السما الحمد   طلعوهم مـن بـين إديـه بسلام والا كان راح فيهم. المهم رجع لأم حسن وأهيه ياختي متهنية بيه وناشرة غسيلها وغاسلة شعرها، يخليلهـا سـبعها

أحسن الوحدة وحدانية من غير راجل يلمها، ثم نظرت إلى ريحانة متسائلة: - هو جوزك فين يا ريحانة.......؟

انتقضت ريحانة وأحس محراك بأصابعه تنضغط في يدها، تأوه من الألم فانتبهت ومسحت وجهها سريعا ثم شهقت:

- مسافر.

- ٣ -

حين وصلا إلى الدور الثاني كان على الباب يافطة عليها اسم صنعو السنهوري. فتحت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها الباب. كانت جميلة ونحيفة وتربط يدها اليمنى:

- اتفضلوا.

قالت أم عايده لأنهار وهي تهم بالدخول:

- هي إيدك اليمين النهارده....؟ طب سلامتك يا جميل.

ابتسمت أنهار وقالت:

- ا   يسلمك.

نظرت أم عايدة لريحانة وهي تقول:

- آهي كل يوم على الحال ده كده. تربط إيد مـن إديهـا وتخرج تتقصع في الشارع عشان الرجالة تعاكسها ويقولـوا لها سلامتك يا جميل، بت صايعة من يومها.

مرة حبت واد مش معبرها، حطت بين صوابعها دبـوس وسلمت عليه قام غزه في إيده ولما صرخ قالت له ما أنـت أهو بتحس أمال مش حاسس بي ليه.....؟ شايفة بنات الأيام دي يا اختى.

دخلت عليهم بسيسة أم أنهار.. زوجة صنعو، وفي يـديها حلة محشي وهي تقول مش حتمر عليها السـنادي والنبـي لأجوزها وأخاص منها، دي مطلعة أيمـاني. نظـرت إلـى ريحانة وقالت: إزيك يا ست ده احنا زارنا النبي النهـارده، ونادت:

- يا صنعو تعالى فيه ضيوف عندنا.

أطل صنعو من وراء باب غرفة الضيوف المغلق وعندما رأى ريحانة قفز مرحبا بها وبابتسامة قال لها: يا أهـلاً يـا أهلاً بالعرب....؟

كان منزلهم عبارة عن غرفة وصالة. الغرفة للنوم وأيضا للتخزين، كانت مهنة صنعو الأساسـية أنـه مخزنجـي، أي

يخزن الحشيش ويـؤجر تخزينـه بـاليوم، ويعتمـد علـى ناضورجي في أول الشارع فإذا ما حضر البـوليس أو مـن يشتبه به يخبره بسرعة كي يتخلص منهـا. أدخلهـم غرفـة الضيوف وكان بها مجموعة من الرجـال والنسـاء، كانـت مأدبة لتغطية تجارة الحشـيش فهـم يخـافون أن يحملـوه ويخرجوا من الباطنية، لذلك يأتون ويحششون ثم يعودون.

سمع محراك لحظتها، حين فتحوا المذياع، أم كلثوم وهي تغني:

" الأولة في الغرام..

كان اللحن والموسيقى في " المعلاية " شـعبين عكـس " الليوا " التي تعتبر دخيلة والتي أتت من أفريقيا ومـا زالـت فيها أغان ذات كلمات أفريقية سواحيلية أتـت عـن طريـق البوابة العمانية أيضا وانتشرت في كـل الخلـيج والبصـرة واليمن.

أما " الحربية " و " العيالة " فهي عربيـة يـرقص فيهـا الرجال ومن الرقصات التي في الخليج أيضا " الهبـان " و" النوبان " و" اللارو " وهي رقصة بلوشـية و" الـيلال " و" الوهابية " و" الرواح " التي اشتهر بها الشحوح في الجبال.

- ٤ -

دق الطبل بصوته العالي وتحركت المجاميع، انتبه محراك لصوت خموس ووراءها الفرقة كلها.

" خطبناها من القبلة وجينا   شعاع الشمس يا نور المدينة

خطبناها والمعرس وراها   يجاب حظيتها بأيديه اليمينه"

في الزفة، بحث محراك عن إسحاق وعن إلماس لكنهمـا كانا منشغلين في طقوسهما ورأى محراك إسحاق ينتفض مثل سمكة وهو يرتعش، لم يفكر للحظة من قبل أنه مخنث. لـم يلاحظ ذلك أبدا لكنه اليوم يراه، يراه فعلاً هكذا هو وإلمـاس وكل هذا العالم، عالم الفرقة والعالم السفلي.

سبع ليالي وليلتين وليله

حتى وصلنا دار أبوك يالزينه

من باسها العرسي ومن سطر اللولو على رأسها

سبع ليالي وليلتين وليله.

حين رجع إلى البيت كانت ريحانـة نائمـة فـي غرفـة المعيشة منكوشة الشعر أمامها عدة كـؤوس وعلـى الأرض تنام خادمتها مع أخته الصغيرة أما والده فكـان نائمـا فـي

سريره مطمئنًا، لم ير نصوا ولم يلحظ اختفاءه أيضا ذهـب إلى غرفته، أغلق بابها وحاول أن ينام. كان شـكل والدتـه وهي نائمة يذكره بها حين أخذت لأول مرة إبرة مخدر. حين ذهبوا إلى شقيق صنعو صاحب نصبة الشاي الـذي أخـذهم معه إلى مكان جوار سور الأزهر إلى مكان يسمى سبيل أبي الدهب أمام وكالة الغوري، دخلوا خرابة مظلمة بهـا رجـل وفتاة شمرت الفتاة يد ريحانة وأمسكتها بقـوة بينمـا حقنهـا الرجل بالمخدر في الظلام ثم عادا إلى البيـت، حملـتهم أم عايدة إلى أول الطريق وأشارت لتاكسي وتركتهم يسـيرون باقي الطريق إلى المنزل.

" من كده يمينه ، عرس المعرس

يعل ا يعينه، عرس المعرس

ما خذ نبيه، وعينها نجمة سهيل

ما خذ نبيه، وراسها يربط الخيل "

أحست ريحانة أنها قادرة حتى على القتل، حالة من القوة والشراسة، والإحساس بالذات. جعلها تفتعل مشاجرة عنيفـة مع عمتها وبدأت في تحطيم كل شيء ثم نامت منهارة علـى

كرسي في غرفتها في السطح كما هي اليوم نائمة كان ذلـك آخر يوم يتذكره محراك قبل سفره من هناك.

- ٥ -

في بيت صنعو، مروج المخدرات، يسمع أم كلثوم، وفـي فرقة خموس يسمع شعرا جميلاً وكلاما سخيفًا وفـي منـزل العائلة يسمع طلال مداح يغني:

" حبك سباني و أنا جسمي نحل
والوصل اللي يودك ما حصل
ما يحق لك يا قمر مني الزعل
توعد وتخاف ويزداد العني
أنا أتمنى أعانق شلحتك
والباب مقفول جوا غرفتك
أنادمك ثم أشرب قهوتك
وأقول عش يا سرير ضمنا"

المفارقة تسعده تماما. يرى أمه تصعد إلى غرفتها متهالكة لا تعي شيئًا. جلس محراك وناصر صامتين لا أحـد منهمـا يتحدث إلى الآخر لكن بينهما هناك حوارا خاصا لا ينطقانه.

نصور يعلم أن محراكًا بدأ في الرقص والغناء مع فرقة خموس ويعلم أنه يرتب لتأسيس فرقة خاصة اتفق على إنشائها مع إسحاق وأخيه وإلماس وآخر أتى من عمان كان يطيل شعره إلى كتفيه ويصبغ وجهه ويضع ألوانًا على أظافره الطويلة، يتكلم بميوعة شديدة ورقة كاذبة ويبدو مستفزا بطبعه.

ألوان الطيف

- ١ -

هم نصّور بالدخول إلى غرفته ليلاً. وجد إضاءة حمـراء تضيء غرفة محراك وجسدين عاريين متعـانقين لـرجلين أحدهما أخوه. لم يلحظ دخول أحد إلى البيت، قد تسال أحدهم إذن. ظل منكفئًا على نفسه فترة طويلة. وفي مرة أخرى حين أحضر محراك معه فتى صغيرا حاول اغتصابه وحين رفض واستغاث هدده بمسدس حبيب الذي أخذه من الجيش ولم يعده بعد استقالته لولا أن تدخلت صالحة وكانت في زيارة ريحانة وأخذت تهدد وتتوعد بصوت عالٍ وتحاف على محـراك أن يعيطها المسدس ثم أشارت للفتى أن يغادر المنزل سريعا قبل أن يستعيد محراك غضبه مرة أخرى قال لها الفتى:

- يا خالتي أنا مب مال جذي، أنا جيـت معـاه أشـوف الطبول والمزامير اللي اشتراها للفرقة وبس، ارحميني منه.

نظرت صالحة إلى محراك بغضب وقالت له:

- اترك عيال الناس في حالها، مب كل العيال مثلك أنت بغيت تكون جذه، لا تطلع عقدك على غيرك، يا أخي خـاف ربك والزم حدودك والا تراه بيخبر أهلـه وبيقتلونـك أنـت

وأهلك، شو تتحسب الدنيا بدون حساب، دور لك على لباسك وعلى إللي مثلك.

لم تتكلم ريحانة بل حاولت أن تتثنى على كلام صـالوحة. رفعت رأسها الثقيل ونظرت إلى الأفق نظرة عميقة وطويلة، هزت رأسها وهي ترى محراكًا يقدم بخطى هادئة نحوهـا، جلس بجانبها لكنه تحول إلى وحش غامض، ثم إلـى طفـل صغير ابتسمت له ونظرت بعمق، لم يبق لها غير تلك العين ذات النظرة العميقة..

كان لابد أن تجري الأمور هكذا وإلا لماذا ظلـت تائهـة وهو في المرآة ذاتها يضع ألوانًا على وجهه بينمـا مسـدس والده في الدرج الأخير من الدولاب، تحت ملابـس والدتـه الداخلية.. وحين مات حبيب بحث عنه نصور طـويلاً فلـم يجده، ارتعشت مفاصله وظن أن أحداً قد سرقه إلى أن ظهر في يد محراك اليوم.

وها هو محراك يدخل غرفه ويغلقها ويظل عصبيا يكسر كل ما يقع تحت يديه، يأكل ويشرب ويرقص ويعـيش مـن المساء إلى الصباح حياة لهو ومتع.. في الصباح يتحول إلى شخص عادي، شخص آخر، رجل.

في الفرقة كانت العلاقة بين إسحاق وإلمـاس وغيرهمـا علاقة شراسة غير عنيفة لكنها لا تفشي سرها. تكونت بينهم علاقة شبه عائلية، إذن هذه هي عائلته البديلـة الآن، عائلـة المساء.. يتبادلون فيها الأدوار، وتصبح العلاقات علاقات بها شبه استمتاع جمعي حتى وإن كان ناقصا. هي علاقات تنشأ أساسا من الشعور بالاحتياج الكامل روحيا، ونفسيا إلى درجة أنهم لا ينظرون إلى العايب أو المعيوب هم جميعـا كـذلك والرقص لديهم فعل إشباع، إرواء لرغبة إهدار روحي.

اليوم نصور يراه عاريا تماما من كل ألوان الطيف كمـا كانا صغارا وتحممهما ريحانة في حمام واحد، وهو يعلم الآن أن محراكًا يحاول الاعتداء، لأنه يريد انتهـاك العـالم مـن حوله. ناصر ليس حظه أفضل من محراك لكنه يبحث عـن حبيب وحيد مثله، عمن يتعامل معه بهـدوء ودون صـخب، وأن يكونا في الحياة شركة متساوية الحقوق والواجبات. لكنه يعلم أن المرأة لا تمثل له الكثير. كان يحب ابنة صلوحة، قال له محراك:

- طبعا لازم تحبها، خاصة أن أمها كتبت لها الكثير مـن أموالها.

لكنه كان يراها كما يرى عالمه الساخط والمشوه وكـان يبحث عن كينونة من خلال الدين. حين طلب الزواج منهـا وتزوجها بعد وفاة صالحة ترك المنزل وذهبا إلـى بيتهـا، كانت لا تزال صغيرة لكنه تزوجها وكان يرفض أن تتحرك من بيتها، رفض أن تتعلم، أن تزور أحدا، أن تفتح أي شباك، أن تذهب إلى أي مكان دونه، رفض أيضا أن تـزور أهلـه دونه خاصة إذا كان محراك هناك وكانت هي تبحث فقط عن رجل يضمها بعـد أن علمـت بحقيقتهـا. كلاهمـا مشـوه ومشروخ، يحاولان فقط أن يبدآن من نقطة مختلفة ويسيران بخط واحد على أن تتحجب.

وكان كلما رأى رجلاً ينظر إليه كان يدق قلبه ارتباكًا. لا يتحدث كثيرا ويلازم المسجد أو البيت. خصوصا بعد مـوت حبيب والذي كان يجد فيه مـلاذًا مـن إرث تلـك الأسـرة الخائب.

- ٢ -

قال له محراك:

- نفس أحاسيسنا على الدوام، أنت تهتم بصـورة تحبهـا لي، تحب هذا المعنى الخاص بالرجولة والـذي يمكننـي أن

أقدمه لك لكنني لا أحبه. أنا حين أنهض كأنني أخـرج مـن قبر، أضحك كأنني طائر لكنك لا تصل إلى ما أفكر فيه، أنت تأخذ الخارج، يمكنني أن أتهيأ لك خارجيا.. وكان يقوم بأداء كل مشهد وكأنه على خشبة مسرح، يرفرف بيديه كأنها جناح ثم يقف رزينًا وعلى ملامحه بعض الجدة مخلوطة بـالحزن حين يقول: - أما داخلي، الغائر، فلا أحد يمتلكه ولن أفشـيه لأحد حتى لنفسي.

كان على ما يبدو يرى أن الناس يوجد بداخلهم أشـخاص تحب الخديعة وأن يلعبوا أدوارهم بسذاجة، ويرتاحون لمـن يقدم إليهم هذه المساحة لأدوارهم دون جهد.

أردف: - حين قلت إنك بحاجة إلى، كنت أعلم أنك تمـر بأزمة ثقة كاملة في العالم، أنت موروط في هذا العالم وفينـا لهذا قررت أن ألبس صورة تريحك وأتقـدم إليـك لأكـون ملجأك لكنها صورة لا تعجبني ستكون فقـط لفتـرة لكننـي سأعود لألعب ألعابي المسلية مع هذا المجتمع.. يمعن محراك التفكير بعد أن تخاص من ثقل كلامه الـذي أراد دومـا أن يصفع به ناصر، ينظر له بعين متفحصة إياه وهو يقـول: - أفعل أحيانًا أشياء لا أحبها مثلاً أتحدث إليك بهذا الود الـذي

خلفته علاقتنا المنتهية فأشبه صورتي الحقيقية دون أي حيل، لكنني لا أعجبك أيضا لأنك تضع بذرة الشك بيننـا وتظـل فكرتك عني كما رسمتها أنا وقدمتها إليك. لم تبحـث عمـا بداخلي لنلتقي أنت مثلهم جميعا تنخدع وتحب الملائكة.

لست نادما على قطع علاقتنا ولا يظل سوى خـيط الـدم بيننا.

في المرآة امرأة خليعة

كلما نظر محراك في المرآة وهو يضـع الألـوان علـى وجهه يرى ذاته كما هي ملونة. يرى عمته، ويرى ريحانـة، ويرى نفسه، والمرآة.

اليوم حين عاد إلى المنزل كان بملابس نسـائية خليعـة يضع ألوانًا على وجهه ويطيل شعره إلى كتفيه كان عائدا من زفة عرس مع فرقة خموس، بعد أن أصبح أحـد أعضـائها البارزين، وها هو يتفق مع إسحاق وإلماس وبعـض أخـوة إسحاق وآخرين أن يكونوا فرقة مستقلة بهـم مجـرد فرقـة مختلفة كلها رجال تلبس ملابس نسائية وتضع ألوانًـا علـى وجهها.

حين عاد إلى منزله جلس يخطط ويخطط لهـذه الفرقـة وسيشتري بعض الملابس اللازمة وبعض المكياج والروائح وأغطية الوجه والرأس، يتدرب مـع فرقتـه علـى نوعيـة الرقص والعناء والموسيقى ظل هكذا ينام طوال يومه ويسهر طوال ليله.

يراهم كثيرا ولم يهتموا به واليوم حين ينظر إلى المـرآة يعلم أن محراكًا هذا هو الوجه الذي يراه في المرآة، امـرأة خليعة لكن العالم كله لا يستحق غير ذلك.

الجزء الخامس

" الصمت بلاغة المحب والبوح عمادة المودة "

بينلوبي

كل يوم تقوم صباحا، في الفجر تنتبه، تجلس ببطء شـديد على حافة سريرها، ثم تزلق قدميها حتـى تلامسـا الأرض متشبثة بالمشاية بكلتا يديها، وتقف متكئة عليها.

تبدأ السير، تسحب قدما وراء أخرى، ثم تحرك المشـاية بصوتها العالي إلى أن تصل إلى الحمـام. تتوضـأ وتعـود لتصلي الفجر وتقرأ بعض ما تيسير من القرآن، وتنتظـر أن ينتبه أحد من الخدم ليأتيها ببعض الفطور: كوب من الحليب، فنجان قهوة، قطعة صغيرة من الخبز وبعض السمن والسكر.

تنتظرني حتى آتيها.. أمشط شعرها ونحن نتضاحك قليلاً، ثم أقبلها وأذهب إلى الجامعة مشفوعة بدعواتها لي.

حين أعود، أدخل عليها وهي ترفو ثيابها:

- كل ما أدخل عليك أشوفك تخيطين، شو بينلوبي...؟

- منوه بينلوبي....؟

- بينلوبي هاي واحدة كانت تخيط ثيابها وتفكها، تخيطها وتفكها إلين ما أجاها حبيبها.

- وأنا منوه إن شاء ا حبيبي....؟

- لا حبيبتك، أنا.

نظرت إليّ بمحبة، توقفت عن الخياطة وفتحت ذراعيهـا وهي تقول:

- حبيبتي، وقرة عيني بعد.

أدخل في حضنها، أضمها وأقبل جبهتها.

هذه مريم التي تجلس هادئة مستكنة، هـي نفسـها التـي تزوجت جدي الحاكم وطلقت منه. وهي نفسها ابنـة حـاكم الحيرة الذي.. وهي التي فتحت بيتها للثوار، ثـوار الجبـل الأخضر وخبأتهم، هي نفسها التي تستقبل الأفـراد ليشـتكوا إليها من الحاكم إذا حلت بهم مظلمة، فتدافع عنهم وتشد مـن أزرهم حتى من لا يستحق ذلك.

الجميع يهاب الحاكم إلا هي، أليست خالته وزوجة عمـه وأم زوجته.......؟

مشروع قلبي

- ١ -

هادف يضع كل شيء بيدي هـو ينظـر، يـتكلم، يهـتم بالشمولي من الأشياء ويسيسها، وعليّ أنا، كباقي البشـر، أن أمجده وأعمل ما يراه هو.

لماذا تتغير وجهة نظري هكذا، هل بـدأت أخـرج مـن محبته..؟ أنا فقط ألومه، لكنني كلما لمته ألوم نفسـي علـى لومها إياه.

- إنه الحب يا ستي.. هكذا همست في سري.

بدأت أدافع عن مشروع قلبي، أنا أقول إنه مشروع قابـل للنجاح مثلما هو مفتوح على الفشل، وهو يصـر علـى أن يكون قضية.

قلت له: - كل حاجة تتحول إلى سياسة، كل حاجـة لازم تبقى شيء ضخم.. مع أن الحب شيء بسيط وجميل بس يـا ريت نعرف نحب، ولما نعرف نحب، نحب بجد ونحاول أن نحققه عن طريق استمراريته، واستمراريته تؤمن من خـلال اثنين لا من خلال فرد واحد.

نظر هادف إلى الأفق رافعا رأسه بشموخ ثم أسقط نظرته سريعا عليّ وهو يقول: - هناك فرق بين الشيء وتأويلـه.. التأويل نتيجة لما يحدث وما يفعله المجتمع وهنـاك فرصـة للإعادة والنظر في مشروع أو قضية من خـلال التجربـة وحساباتها. فالزمن صعب بين مستوى الحلم والواقع.

قلت له: - ده مجرد سؤال عابر في الحياة، نـوع مـن الغطاء والحماية لفكرة اكبر عن التاريخ الذي لم تعشه بشكل حقيقي فيصبح فانتازي، كأنه حكاية.. إحنا دلوقت مش قضية إحنا حكاية أو تأويل.. صدى صوت مش صوت حقيقي. أنا مش قادرة ولا أنت أن ننقل حياتنا من سريتها في الشـوارع إلى إعلانها في الواقع والمجتمع، ده تأسيس لفشلنا. نؤسس له لكي نضطر للتعامل بشكل قوي مع الطبيعة، وعلشـان كـده بتأجل القرار وتحمل الحب أحمال اكبر منه علشـان يبقـى قضية، والقضية لازملها مواجهة، والمواجهة غير موجـودة لأننا بنأجلها. علشان كده إحنا بنأسـس للفشـل فـي الأول وبنخلق منه موضوع، أو بنحول الحب من رومانسية باعتبار الرومانسية حالة سلبية إلى موقف أو قضـية فـي داخلهـا

رومانسيتها الخاصة. أنا عاوزة إجابة عن سؤال واحد، لماذا نستمر هكذا..؟

كل هذا الجدل الدائم مبني على نظرية الصـراع، الشـد والجذب، النتيجة والانتصار، الحياة والاسـتمرار، تتحـول العلاقة من علاقة إلى قيمة مناقشات في حد ذاتها، وتجزئتها من خلال مراقبة الهاجس في مشهد الحياة، في القلق، أو في عدم إعلانها بل بتأملها لمجـرد فلسـفة الوجـود وتشـكيله والاستمتاع بالحالة، وبالفكرة أساسا.

في الحياة حين تفقد من تلعب معه فـي الخـارج، تعيـد تشكيله في الأشياء، أليست الطبيعة خالقة لما هو مخلوق. إذن إذا اختفى هذا المخلوق فهو ما زوال في صور أخرى داخل الطبيعة.. وما علينا سوى أن نستدعي الصور الموجودة فـي الذاكرة كمشاهد.

جلوسنا كل يوم في الجامعة، رغبتي في التحرك من كلية إلى أخرى، تعرفي على مشاهدات كثيرة، أسـئلتي، رغبتـي ونهمي في المعرفة تجعلني أسأل كثيرا، وهادف لأنه معتـاد على التعليم كان لا يمل من أسئلتي لكنه كان يتعامـل معـي

وكأنني عجينة سهل عجنها لكي يسهل عليه تشكيلها بعد ذلك، لكن هذا ما لم يستطعه معي.

ـ ٢ ـ

كانت قدرة هادف على ضبط الـنفس حيـال الانتظـار السلبي، وحيال روحي التي لا تملك حيال هذه القدرة سـوى الترقب المشبوب بتوتر ينفجر كل فترة في صور عديـدة.. بدايتها معرفة ما يجول في ذهنه، أفكاره السرية والتي هـي مفتاح هويته.. محاولة دائما تبوء بالفشل لعدم خبرتي وعـدم دخولي إليه بشكل كبير، مما أدى إلى تمزيق حالاتي العديدة والتي استغرقت مدة من الزمن لأبني غيرها على شكل نفس متبقية، نتف، وعمل شخصية جديدة، حاول هو أن يزحزحها إلى منطقة الأيديولوجيا.

وكنت حين أعود إلى البيت أجدني أمارس علـى نفسـي أكثر من دور، مما يؤدي بي في النهاية إلى الانفصال بـين الفعل والسلوك، بين الخطاب والرغبة، وبين الحلم والتحقق.

أنا بذرة عائلية في مجتمع يملك بنيته الثقافية الحادة حتـى ولو كنت إنسانًا متطورا على هذه الفكرة. ولأن العائلة انتقلت من مكانها الطبيعي إلى مكان آخر، حاولـت بشـكل حـاد

ومتعسف أن تحافظ على هذه البذرة بما يوائم مجتمعها السابق لا المجتمع الذي هي فيه، بل كانت شديدة التمسك بذلك، ولهذا أصبحت ما بين أهلي وهادف آخذ أكثر من صيغة في الدخول وهكذا أصبح كل منهم لا يرى سوى جزء مني، وفي ظل هذه الصيغة أصبحت أتعامل مع الخارج بجزء ضئيل فقط من نفسي المتعددة، بخاصة مع الانتقاد الحاد منه والصمت الدائم مني مما جعله بعد فترة شخصية مسيطرة ومؤثرة.

كانت العلاقات العائلية بما لها من ثقافات وتحديدات لا تدخل ضمن تحديد حياتنا بمعنى العمل عليها. فأصبحت صدى علاقة، علاقة في السطحي من الأشياء، علاقة صوتية أكثر منها علاقة حميمة بين محبين. وحين نفتقد مقومات الصراع لا نمتلك القوة فكل حركة بها تاريخ خفي أو مغلق.

لست متحررة، لأن فهمي للتحرر مختلف ضمن ما أستطيع ممارسته من هذه الحرية وضمن ما أؤمن به منها، لكنني أرى أن حريتي حرية حركة تبدأ من الذات مقابل حرية ذات، تبدأ من الآخرين تحت وطأة اعتراف الآخر بها أو حتى عدم الاعتراف.

- ٣ -

أحضرت معي بعض " الساندويتشات " من البيت رفـض هادف أن يأكلها، اعتبرني أطعمه، ما أغبـاه كنـت جائعـة وأحببت أن نتشارك في أكل بيتي، لكنه حساس وغير قـادر على أن يفرق بين مفاهيمه الطبقية والحب، بين الأيديولوجيا والواقع، بين الجوع والتنظير.

- يا سيدي كُل، وبعدين نظرْ.

- لا شكرا أنا حاكل فول، كُلي أنت

- فول، فول نأكل مـع بعـض، بـس مـش حـرام " الساندويتشات " ديه، دي لحمه.

- لا، معاش شكرا.

هكذا هو، حساس وغير واقعي. لقد قمت بعمـل هـذه " الساندويتشات " وأحضرتها سواء أكلها أم لم يأكلهـا، هـي موجودة بالفعل لكنها بالنسبة له موقف وقضية.

قلت لهادف حين أبدى ملاحظة غيورة حول حديثي الدائم مع طه وأصدقائه بالرغم من أنها كلها مناقشات وحـوارات هو جزء منها:

- أنت بتتكلم في الأفكار بشكل أكثر حرية من كلامك في الأشياء اليومية.

- اليومي له علاقة بالآخرين، والآخرون أساسـا غيـر مؤهلين للأفكار الحرة.

- الأفكار لابد لها من أن تنطبق على الواقع، ولـو كـل واحد منا قال إن المجتمع غير مؤهل، يبقى مالناش ضرورة. أمال فين كلامك على اني لازم أتحرر من وضعي وتفكيـر أهلي هو كلام وخلاص....؟ طبعا ما ده جـزء مـن عـدم تواصلكم أساسا كحركة لأنكم شايفين إنكم أعلى من الواقـع وأن أفكاركم مقدسة.

- أنت بتخلطي الخاص بالعام. وبعدين طه يفضـل فـي الآخر ولو انه متحرر في أفكاره برضه متخلف في علاقتـه بالمرأة.

- بالعكس انت اللي علاقتك بالمرأة مش قادر تخلصـها من وضعها الاجتماعي. فين كلامك عن الحريـة والعدالـة

والمساواة، وأنا كل ما آجي أدخل في نقاش مـع أصـحابك تسكتني وتغير الموضوع....؟

- انت مش عارفاهم كويس، وبعدين انت خبرتـك مـش كافية للنقاش.

- طب علمني.

ينظر إليّ نظرة استعلاء وبابتسامة خفيفة تحمـل داخلهـا ابتهاجا بنفسه قال:

- ما تستعجليش.

إن تصورات هادف وأفكاره بعيدة عن الواقع، إنه شخص يبحث عن الانزواء. تذكرت لحظة المظاهرات كيـف كـان يتفادى المواجهة، وفي قراءته كان يحاول دائما أن يقنعنـي بأن الصراع مع السلطة صراع فكري، أخالفه الرأي لأننـي أرى أن الأفكار مهما بدت مجردة أو متعالية لابد لها من يـد تحملها.

– ٥ –

أحضرت الخبز، قطعت كل واحدة إلى قطعتـين وبـدأت أحشو كل قطعة. قطعتها بسكين حادة وحين بدأت، جرحـت يدي

- وا   عنده حق هادف، بنت متدلعة ومش عارفة تعمـل حتى " ساندويتش " مثل " ساندويتشات " ريحانة. كان لابد أن أخبره أنني تعرفت على " الساندويتش " مؤخرا فقط لم نكـن نعرفه، وأنني حين أقوم بعمله أشعر بأنني أنجـزت عمـلاً خارقًا، داخل نطاق معرفتي.

حين جرحت السكين يدي نزفت قليلاً وضعتها في المـاء تحت صنبور في المطبخ وأحضـرت " كلينـيكس " ولففتـه عليها، وتركت السكين في الحوض.

نظرت إليها مضرجة بدمائي، سكين كبيرة ليست لقطـع الخبز، إنها للذبح.. لكن ذبح من...............؟

تساءلت فيما بيني وبين نفسي: كيف تكون الفكرة ثـورة على الواقع وهل تكون الجريمة كتفكير مبكر بها وتخطـيط لقيامها يتوقف على الشر....؟ الشيء النابع منا والكامن داخل شخصياتنا والعنصر المؤثر فعلاً، هل الشر هو الوجه الأول للجريمة....؟

-٦-

أنا التي تذبح، شمسة التي لم تر صديقتها شـهلة منـذ أن لبست كل منهما علما ثم افترقتا. أنا التي عاشت هنا، تربـت وأقامت وأحبت لكنني حين ذهبت لجدتي وقلت لها:

- أنا أحب هادقًا.

لم تعقب، لم تتكلم، اعتبرت الكلام مجرد دخـان بسـيط وسيرحل ولم تخبرها بأن عليونة تزوجت هاشما، لم تـذكر شيئًا.

في الأيام التالية أحضروا زوجا من أقربائي وأحضـروا مأذونًا وجاء أخي..

"يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر

ما أباه أبي وليد عمي بغترته وارداه".

– ٧ –

حين أحبت ريحانة حبيبا ذهبت إلى أمي وأشـارت إليـه قالت:

- أنا أحبه وأريد الزواج منه، فزوجوها.

هي عبدة وتختار، والآن حين اختارت أن تتركهم لتعـود إلى زوجها قالوا خائنة، خائنة لهم لأنها تركتهم مـن أجـل حبيب، أما أنا فليس لي حرية الاختيار .

هذه أنا، ابنتهم، أتزوج من بينهم، هم يختارون لي.

قالو: - زوجناك لابن عمك.. أنت منذورة له.

قلت: - في هذا العصر، ومنذورة............؟

ذهبت إلى هادف وقلت له: - هادف، أنا مش حرة.

فرد عليّ: - يعني أية.....؟ كل إنسان يقدر يحرك حياته ويختارها.

- ده مش حقيقي.

- انت اللي عاجزة، وبترضي بالسهل.

- تتصور كده....؟ لا أنا مش عاجزة، أنا عبـدة، عبـدة لتصوراتك وتصوراتهم، عبدة لخوفي ورعبـي مـن العـالم حولي، لأنك حتى أنت مش قادر تحميني.

قطعت الوردة ونثرتها على سريري، نمت فـي حضـن دمعتين من الورد الأحمر.

راعي البحر ما أباه

- ١ -

يسمع محراك صراخًا بل عويلاً كما سمعه من قبل، يـوم خرجوا إلى القاهرة يتبعون عمهم الذي ترك إمارتـه بشـكل درامي ولحقته العائلة وهو معهم، واليـوم هـا هـو يسـمع الصراخ أيضا. ها هو أبوه وأخته يتركـان العـالم، بشـكل درامي أيضا في حادث سيارة انقلبت بهما حين حاول حبيب قيادة سيارته وهو مخمور، كانت حليمة بجانبه واندفع بقـوة نحو الطريق، لم يستطع أن يتفادى بعض الجِمـال، كانـت الجمال تسير في الطريق وكلما رأت أنوار السيارات اندفعت نحوها بقوة وسرعة أكبر، ساقطة بكل قوتها فوقها، مهمشـة الجزء الأعلى فيهوي على من فيه. ولم تسلم سيارة حبيب من هجوم الجمال.

راحت ريحانة تحدث نفسها وهي بين وعيها وغفلتها:

- كم مرة قلت له لا تقد وحدك السـيارة، هنـاك سـائق خاص، كانت القيادة زمان بالنسبة له وظيفة وفن لا يستطيع إلا القليلون تعلمه، أما الآن فهو لم يعد قـادرا عليهـا فهـي تحتاج إلى التركيز ودقة الملاحظة وهما ما تفتقدهما. ها هو

ذهب وأخذ أيضا حليمة معه لمجرد أنه لـم يسـمع كلامـي كأنني آمره وهو يغيظني، هكذا منذ أن عدت، وطلق فطوما، وترك العمل. يتهمني بأنني دمرت حياته، هو الـذي دمـر حياتي كلها، يتهمني أنا التي دمرت حياته وحولتها إلى سيرك كبير هو المهرج الوحيد فيه لأنني أصررت على أن نرجـع هنا، أصررت أن نبني هذا البيت ونعيش حياة كريمة لم يكن يحلم بها، ماذا كان هو؟ مجرد عامل يحمل ملابسـه تحـت إبطه، ولا يكاد يجد لقمة العيش. أنا التي أدخلتـه الحصـن، وأنا التي توسطت له ليكون الأقرب إلى عمتي، وأنـا التـي حين عدت وسامحته وظفته في الجيش الذي أعطانا تعويضا عن بيتنا هناك، هذا المال الذي عشنا به كملوك وأصـحاب ملايين. ومع ذلك ظل دائما ينظر إلى كعبدة، لم ينس ذلك.

هو الذي جعلني في داخلي أحاول أن أتخلص مـن هـذه النظرة، هو الذي جعلني أشرب وأسكر بأفعاله منذ أن تزوج علي وحتى موته اليوم. وحين يموت يأخذ حليمـة معـه. لا يتركها لتؤنس وحدتي، كان يحبها ويراها أقرب من بالبيـت إليه. لم يحس بمحراك ولا بناصر، هي حليمة فقط التي تهمه

في هذه العائلة وهي التي أخذها معه، وهو الذي كان يعيرني بالإدمان كان أكثر إدمانًا مني حتى أنه مات وهو سكران.

- ٢ -

نظرت ريحانة إلى صالحة التي حضرت لمواساتها وكأنها تقول لها: كيف ألفينا أنفسنا هكذا نظن الوقت طـويلاً، يمـر جسدانا كعابرين في المكان بل في الحياة كلها، الحياة عـابرة ومؤقتة إذن، لكننا بطرق عديدة يمكننا تلمس بعض الاستقرار النسبي لنتكيف معها، عسانا نحياها بحق.....؟

وكانت ترى نفسها وكأنها تعبـر المضـيق هنـا فـي " خورفكان "، وثمة أشباح تعبر معها تمر من خلال المضيق، مضيق هرمز، الذي مر منه هاشـم زوج أختهـا عليونـة، واختفى.

ثمة رجال تصطدم ظلالهم بظلها، بظله، جماعة كانوا لكن حبيبا ليس معهم وثمة نساء يغنين أغانيهن الخاصـة وهـو غائب.

قالت، وهي تنتفض من شدة الصدمة:

وحليمة، كيف تموت..؟ كنت قد حلمت بها من قبـل يـا صالحة، أخبرت نصورا أن حليمة ستموت يوم وصلت مـن

السعودية. كان من الممكن أن يموت حبيب وحده لكنها تشبثت بأبيها، لم ترتد اليوم ثيابا مناسبة، كانت تتجهز للموت وتعلم أن كل الثياب ستسقط حال سقوطها، تسقط من علو شاهق على أرض مسطحة تعلو لتسقط، ترتفع لتهوى مفككة، تكون أضعف، أقل، أبسط مثل ذرة الهواء لا حمولة لها بل أخف من الهذيان.

ظهر عجزها، لا أب لها ولا علاقة، ها هي تستوحش في هذا العالم، ظهرها لا يستند على حائط، تتهاوى وتسقط، لا تستكن روحها في مكان، أنها تسبح، تطير، ليست من هذه الأرض ضيقة على مساحة الأشبار التي تتحرك فيها. تسحب روحها وجسدها في ملابس سوداء، تنزوي وتفقد كل يوم. كما لو أن الحظ يقذفها بعثراته كلما ابتسمت قليلاً، كما لو أن الروح خاوية، وطبقاتها تتعفن. فهل هي التي خلقت تعاستها....؟

– ٣ –

كانت صالحة تبدو متماسكة بعدما استمعت إلى تعليمات الطبيب حول مرضها الذي لم يعرفوا في البداية مصدره وهي لا تحاول أن تفهم ما حدث بعد ذلك، حتى تظل كما

كانت من قبل متماسكة، ذات صوت أجش قوي يحمله جسـد فيه من الذكورة أكثر بكثير مما يعتقد، حتى أنها وهي تنظـر إليها تتذكر ما يحكي حولها من القصص في جلسـات ليليـة على سطح بيت جيرانها، الذين لم يكن لديهم أدنى شك في أن هذه المرأة مسكونة برجال كثيرين يتناوبون عليها فتتقمصهم دفعة واحدة أو كل فترة أحدا منهم.

كان بيت جيرانها على شاطئ البحر مباشرة تسـمع فيـه أصوات المراكب التي ترسو قربه، وسطح البيت يطل تماما على المساحة الأمامية من مدخل منزلها، بحيث يرى الواقف هناك من يدخل إليها ومن يخرج، وكان في آخـر الطريـق دكان صغير لبيع بعض الأشياء الخاصة بالمواد التموينيـة، تمتلكه مع بضعة دكاكين أخرى للخياطة والتطريـز، كانـت تؤجر هـذه الـدكاكين لـبعض الهنـود أو الإيـرانيين أو السريلانكيين الذين يقومون بعملهم على أكمل وجـه. كـان أفراد المنطقة يلجأون إلى هذه المحـلات الصـغيرة لجلـب حاجاتهم السريعة منها. كانت ابنتها بالتبني تخرج دائما بحجة شراء بعض الأشياء طلبا لحرية مفقودة داخل المنزل، ولـم يكن خروجها إلى الدكان وإحضارها بعض المؤن سوى ملاذ

وذريعة لتتنفس بعض الحرية. ولم تكن تلك الأحاديث الجانبية التي تحاول نسجها في هرولتها تجاه المنزل إلا محاولة منها لطرد الأشباح من الطريق كلما عادت ممتلئة ببعض الهـواء ومختنقة لدخولها المنزل، وهي تتساءل أي رجل منهم سأراه فيها اليوم وأي صوت سأسمعه.

لم تكن صلوحة إلا جارية صغيرة في بيت أحـد الأسـر الغنية التي تربت فيها دون أن تعلم من أين هي، وابنة مـن، بالرغم من أنها تعرف جيدا أخواتها وإخوانها والذين ورثوها بعد موتها بالرغم من عدم اهتمامهم بها في فترة مرضها.

إخوانها وأخواتها الذين توزعوا بعد ذلك في منازل أخرى حين باعهم رب الأسرة التي تربت فيهـا لكثـرتهم وعـدم احتياجه إليهم جميعا وربما أهدى منهم أختها الصغرى التـي ذهبت إلى الإقامة في منزل الحاكم وتربت مع ريحانة منـذ صغرها ومع ذلك لم تكن صديقة لها بل كانتا تغـاران مـن بعضهما بعضا وكل منهما تتسابق إلى محبـة عمتهـا. هـي الأخت الأكثر قربا من صلوحة التي تربت مع أم عمة أختها. تربت معها حين كانتا طفلتين صغيرتين تذهبان إلـى البـر حيث تخيم الأسر فيه طيلة فترة المطر كنوع مـن التغييـر

وكانتا تلعبان معا وقد ارتبطتا بذاكرة جمعتهما بعد ذلك فترة طويلة من الزمن وها هي تمرض بشدة بعد وفاة مريم.

كان ذلك في القديم حيث طفولتها وما إن بدأت تعي وتفهم وتتحرك خارج تلك المنطقة، حتى كانت روحها تهفـو إلـى الحرية إلى أن تتخفف من ذلك الثقل الروحي الذي يرغمهـا دوما على الخنوع، تود أن تمارس الطيران، وأن تتخلى عن مساحة الجغرافية التي لا تكفي سوى قدميها.

لو نظرت يوما إلى البعيد لوجدت أن بـلاد ا الواسـعة مبسوطة تحت قدميها، ولكانت تعلم بحسها أن لمـس الوتـد الأصم في بيت المعتمد البريطاني ليس بقـادر علـى فـتح مسامها لتستنشق الهواء كما ينبغي، ومع ذلـك قفـزت مـن مكانها أزاحت عن قلبها الخوف الذي تراه ممتزجا بحرية لم تنلها بعد ولم تتذوقها من قبل، لكن طعمها يذوب في شـفتيها وينسل إلى أعماقها فتتوق بل تتحـرق لتجربـة الإحسـاس بالحرية ويظل هاجسها الأول والأخير أن تتحرر فقررت أن تمد يدها إلى تلك الحطبة وهي تعلم أنها تمد يدها لتلمس النار التي ستشتعل وتحرقها أولاً، وبلا ارتعاشة تتسلم صك حريتها من ذلك الرجل الأبيض القادم من البعيد، بحثًا عـن الـنفط

المخبأ في عروق التربة حيث إن مفهوم الحرية هي ألا تكون عبدة.

ذهبت إلى بيت المعتمـد البريطـاني، رأت كثيـرا مـن العبدات يذهبن هناك ويلمسن تلك الخشبة المدقوقة في فنـاء بيته، وعلى إثرها يمتلكن صك حريتهن، وكثيرا أيضـا لـم يستطعن أن يفعلن الكثير بهذه الحرية، فعدن إماء وعبـدات لمالكهن أو لغيره لكنها كانت تبحث عن شيء آخر، عـن أن تكون حرة..

صالحوه، لم تمتلك من النساء الحرائـر لا الجمـال ولا الذهب والمال ولا حتى القوة والسيطرة. ولأنها تشبه الرجال فلابد لها من السيطرة والقوة كي تكون بقوة الرجال، ولـديها الرغبة والطموح لأن تسعى خلف النداهة التي تناديها.

حين خرجت مع عمتها أخت أبيها مـن بيـت المعتمـد البريطاني حاملة صك حريتها، كانت كمن به داء، الكل ينفر منه، كانت تحلم وتحلم، خرجت بحريتها إلى العالم الخارجي دون قوة ودون حتى أدنى إحساس بالرعب، لم تدرك أبدا أن هناك من يتربص لهما في الوديان البعيدة التي لا يلبد فيهـا سوى قطاع الطرق لم تنتبه إلى هـذه الطرقـات إلا وهـي

مسروقة حيث كانت الأسلحة والعبيد في تلك الأماكن البعيدة والتي لم تطلها يد الإنجليز فلم يستطيعوا الوصول إليها في ذلك العمق من الأراضي، ضاقت بها الأرض الواسعة قبل أن تراها وانغلقت مسامها قبل أن تتنفس بعمق هواء لم تستطعمه أبدا.

– ٤ –

كانت صلوحة تحب مريم وتأتي لها كثيرا. لم تنس أيامهما معا وهما صغار ولم تنس طيلة غيابها مريم فقد تربيتا معا في سنوات العمر الأولى.

كانت صداقتهما تنمو حتى وعت صالحوه الفرق بين العبد والسيد، الفرق بين من يأمر ومن يؤتمر. فتوقف نمو الصداقة عند لحظة الوعي هذه. هي عبدة ومريم حرة، بل حرة وذات مكانة اجتماعية كبيرة، لكن علاقتهما تقترب من الصداقة، هذه الصداقة ليست صداقة اثنتين في نفس المستوى الاجتماعي. وإن كانت لم تستطع أن تنساها فظل هذا الود الطفولي معششًا في خلايا نفسيهما.

ها هما يلتقيان بعد أن عادت كل منهما من غربتها الإجبارية. مريم من القاهرة ببقايا السلطة التي فقدتها وبمال

لم يتح لها إلا امتلاك بيت شعبي صغير تؤنسها خادمة واحدة على عكس صالحوه العائدة من أرض ا   بمالها الوفير لتبني بيتا ضخما، فرشته بأفخر الأثاث فصار أكثر أناقة وجمـالاً بعد أن تلمعه خادماتها الآسيويات. اللاتي يتحـوطن مائـدة الطعام تحيناً لإشارة من يدها ملبيات أوامرهـا بابتسـامة لا تغيب حتى حين تنهر الطباخ أو السائق.

جلست على حافة المقعد قبالة مريم فـي بيتهـا الشـعبي وحاولت إخفاء أساورها الذهبية في خجل، فـرغم حسـابها البنكي الكبير والأرباح التي اشترت بها أرضا وأقامت عليها مسجدا بغية أن يبني ا   لها قصرا في الجنة. لم يجعلها هـذا كله قادرة على أن تتواصل مع مريم مواصلة الأنداد، لأنها لا تستطيع أن تنساها.

– ٥ –

بعد وفاة حبيب بدأ البنك يطالب بسداد ديونه، لم يكن لدى ريحانة أو أولادها مال، كل ما كان لديها أنفقوه على مبـاهج الحياة، والرغبة في أن يكونوا محط أنظار الجميـع لتحقـق ريحانة لذاتها الوجود الذي لم يتحقق من خـلال الشـرف أو الإرث الاجتماعي، فحاولت تحقيقه من خلال المـال وحـين

انفض عنها الجميع، ضاحكين مستهزئين بها مما جعلها تدرك حقيقة واحدة كانت تتهرب منها دائما، وهي أنها مهما حاولت أن تتغير، فإن الواقع لن يتيح لها ذلك إلا ضمن شرطه الخاص، فمهما خرجت من منظومتها تظل ضمن قسوة الواقع تقع في هامشه، وإن حاولت الدخول إلى عمقه فهو عمق الهامش مما يسقطها في أوهامها وتظل تسقط في شرفات أحلامها كل مرة أكثر حتى تقع في السحيق من الواقع، تصدم – وهي المصدومة أساسا – بما يسحقها أكثر فيطالها الحقد والكآبة مع الإدمان بشكل أخطر وأعمق.. حين عجزت عن دفع ديونها أخذ البنك قصرها وأحلامها التي بنتها من أعماق تجربتها ومن دمها المهدر على طرقات المدينة كلها أخذ الموت حبيبا وحليمة وأخذ البنك البيت، وأخذت الدنيا محراكًا وأخذ الدين نصورا الذي أصبح اسمه ناصرا كما كان وظلت هي هنا على شاطئ البحر تضحك بصوت عال منكوشة الشعر تكاد عيناها تفطان من بين وجهها وهي تبحث عن سمكة البحر التي ستعطيها لؤلؤة كبيرة في محارة.

تتذكر لحظات وتغيب أخرى، تبكي ولا تنام كلما وجـدت أوراقًا أو علبا فارغة وضعتها على ثيابها، ولبسـت عقـودا كثيرة من الأوراق اللامعة داخل علاب السـجائر، وضـفرت شعرها بجميع قصاصات القماش الصغيرة التي تجلبها مـن مخلفات محلات الخياطين، حتى أصـبحت ضـفائرها ذات ألوان كثيرة وطويلة.

أصبحت مثل أمها مهيرة الخبلة تركض فـي الطرقـات حاملة طبلة عبارة عن علبة صفيح، علبة سمن فارغة تـدق عليها بعصا صغيرة أو حصاة تجلس بجانب البحر، ثم تذهب إلى المدينة تعطيها النسوة بعض فتـات ويـركض وراءهـا الأطفال يغنون وراءها مهيرة الخبلة، مهيرة الخبلة تنـزعج وتدق على طلبتها.

أن أكون نعامة

– ١ –

- طيب أنا عاجزة
- لا، أنت قادرة
- طيب أعمل إيه......؟
- انت اللي تقرري..

ومن انقضاء الوقت في التحاور إلى الاشتباه في الأشـياء تتشكل مراراتي وتتنزلق غير عابئة بالتوتر.. هكذا أظل مـع هادف نتحاور دون أن نقطة اتفاق واحدة رجعت إلى المنزل ذهبت إلى جدتي لم تكن موجودة اختفت جدتي، عادت إلـى وطنها رحلت، طارت.

- أميه مريم، مريم... لم أجدها

وجدت المشاية في غرفتها، وجدت القرآن وشـريطاً لأم كلثوم وديوان لأبي فراس الحمداني. جلست مكانها، أمسكت الشريط وضعته في الكاسيت، أسندت يـدا علـى المشـاية والأخرى سندت بها رأسي وسمعت.

" ولكن مثلي لا يذاع له سر "

للمرة المائة يقوم انقلاب آخر في الإمارة ضـد الحـاكم ولكن للمرة الثانية فقط بعد ظهور الدولة. وحدها هذه الإمارة يندرج فيها مفهوم الشرعية ضمن وجود نظام أكبر يحتويها، وهو نظام الدولة. ولفشل الانقلاب الأول، ولأن الدولة تتدخل فقط في شئون الإمارات الداخلية التي تؤثر على النظام العام، ولخوف جميع حكـام الإمـارات الأخـرى مـن أن تعـود الانقلابات فيختل الاتحاد وتختل الدولـة، ولخـوفهم علـى أنظمتهم هم أيضا، وليس الإنجليز الذين لا يتدخلون في نظام الدولة أو الإمارة منذ أن كانوا قوة ذات أسطول قوي سـموا أسطول القواسم الذين يدافع عن نفسه ومكانـه، بالقراصـنة لأنهم يهاجمون سفنهم.. فشل الانقلاب الثاني بيد أخ الحـاكم لكن مفهوم الشرعية كان قد ظهر من جديـد، وإن حـاولوا طمسه خاصة مع ظهور الأوراق الضائعة الملوثة بالدم رغم طول ضياعها.. ظهرت في يد مدبر الانقلاب الجديد كوسيلة أخيرة للتهديد في حال فشل انقلابه.. لكن هذا الانقلاب كـان سليما لم يضح بأحد فيه ولم يسجن أحد بل تم الصلح وعـاد

الحاكم الأول وتمت مساومة مدبر الانقلاب الثـاني بأشـياء عديدة.

" ومشكلة الشارقة أن لها خلفية تاريخيـة – حضـارية. فالشارقة على الرغم من كونها إمارة صغيرة مرميـة علـى ساحل الخليج ومطلة على صحرائه كان لها من أبنائها ثروة هي كالنفط الذي حرمت منه بالكميات الكبيرة.

الشارقة قبل الاستقلال وقيام الدولة الاتحادية ويوم كـان الساحل المتصالح تحت رحمة بريطانيا العظمى ويوم كـان الساحل يغوص في خضم معارك ما سمي حرب القراصـنة في تلك الظروف المأوساوية كان أبناء الشارقة يتطلعون إلى الخليج وإلى ما وراءه. وحدهم في المنطقة كان يشدهم إلـى العروبة هاجس كبير ووحدهم يوم لم يكن الإعـلام المرئـي والمسموع قد برز في العالم كانوا يتحينون الفرص لاصطياد الصحف العربية من أي بلد كان، من بيروت من دمشق من بغداد ومن القاهرة ويشتركون في كل مجلة أو صحيفة تطبع بالعربية تأتي متأخرة شهرا بل أشهرا عن طريق الهند، عن طريق البحر، عن أي طريق بحري تصل منه باخرة تحمـل لهم صحيفة أو ديونا أو كتأبا وهكذا كان أهل الشارقة علـى

ترابط مستمر بالعالم العربي والتطورات فيه مـن سياسـية وثقافية واجتماعية ".

ـ ٣ ـ

هادف، أحبك فهل تحبني...؟

فقال: - لا

- ليش ما تريد تقول....ز؟

- لأني ما أحبك.

- لا، أنت تحبني وتموت في.

- طيب ليه بتسأليني....ز؟

- أحب أسمعها.

- وأنا رديت بس انتِ ما بتحبيش ردي.

- متى سنتزوج....؟

- لسنا مؤهلين للزواج.

- لماذا.........؟

- لم نتعارف جيدا وكل الأشياء في حياتنا مؤجلة.

- ليش مؤجلة.....؟

- لم نستوف شروطها.

- شروط ماذا....؟

- شروط قضيتنا.

- أية قضية هذه....؟

قلت لنفسي: لماذا دائما أضع قلبي على محـك العلاقـة ولماذا أستخدم كلمة العاطفة كثيرا...؟

ـ ٤ ـ

منذ فترة لم تظهر، كانت بوادر حمي شديدة واضحة عليّ وكنت أسأل نفسي كم من الوقت يكفي لمداومة الكتابة علـى الأوراق كي تمتلئ.

بهذا اليتم الذي يظهر علي كلما اسـتوحدت وأنـت وراء الباب مختبئ من محبتي التي أغمرك بها مثل زخـة مطـر كثيفة ثم تختفي.

دون إطلالة على عالمي.

دون إجابة تؤرجح هذه العاطفة التي أشـعلتها ورحلـت لتبقيها تتقد.

كتمارين على الوحدة سوف أغلق علي المحبة لتكون غذاء لي في الأيام المقبلة، سوف أنام ملء الخديعة، باكية كطفلـة

تذهب إلى المدرسة دون حذاء أو دفاتر. ستكون المعلمة حتما عند الباب وبيدها النشيد المدرسي.

وتحت لسانها سيسيل الوطن مع اللعاب وكنت أرى العلـم كل يوم مثلما أرى وجهي في عينيك. إذن لماذا لا أراك كـل يوم......؟

ألست أنت مثل العلم أيضا. أليس الحب وطن الأيتام الذين مثلي في العالم، لا آباء لي ولا أمهات؟

لا ألاحظ تكوري مثل جنين في رحم ما.. لا ألاحظ أحمر الشفاه وهو على شفتي فقط تجربة في الحياة وعلم يرفـرف، ألتف به فتسألني عن معنى الوطن.

كلما حاولت التملص أجدني أقرب، وكلما حاولت الانفلات بعيدا وجدتني مخلصة دءوبا إلى القرب.

عدت إلى المنزل ابتلعت أربعين حبة من البانادول كانـت الأخبار تقول: إن إسرائيل ضربت صـابرا وشـاتيلاّ. وأن حاكما يعد لانقلاب على حاكم آخر، وأن العالم صـار بـلا قضية.

هذه الخاتمة هي التي تستحق الندم هكذا أسـمع صـوت ضميري أو صوت الكورس وراء مغنية ما. فعلت ريحانـة

مثلما فعلت عليونة حين أحرقت نفسـها أو كأنمـا صـعقت بالكهرباء وعدت أنا أخيرا إلى ذاتي نظـرت إلـى حيـاتي وتمعنت فيها:

الحيوات التي تمر لم نألفها، لم نعشـها بأكملهـا ولهـذا تربكنا. كل حياة نعيشها ليست حياتنا، كل حياة تداهمنا مثـل حمى قبل أن تتحول إلى جزء من حياة سابقة.

أشهد أنني لم أعش. أنني مت منذ زمن، ارتكبـت فعـل موتي دون أن يدروا، وكلما تذكرت تلك الحالـة داهمتنـي أفكار تخبط فوق رأسي وكأنها تفاجئني من نومة.

اعتقدت لفترة طويلة أن بإمكاننا امتلاك حريتنا الحقيقيـة بأن " نفعل " من وجهة نظرنا، ظللت أبحث عما هو حقيقـي في البداية ثم بدأت أخون طفولتي بدأت أبحث عن عدو لـي لأرفض، أرفض لمجرد الرفض، لأن نعم تعني الرضوخ ولا تعني أن أكون موجودة، لا ونعم لا خيار بينهما.

قلت أساتذتي فصديقاتي فأهلي فشخصي فعلاقاتي كلها ثم بدأت أنحسر. كلما شرعت في الدخول أغراني التراجع بعـد الخسارة ولا خسارة إلاي. وتحت رايـة التـدمير والحريـة

تعلمت كيف أفقد وتحتها أيضا خسرت حريتي كي أمتلك هذه المرارة التي تسكن باطني جراء المعرفة الجارحة.

لم أعد أعلن هذا الموت، لم أعد أستطيع أن أجابه الموت في المكان. البيت يتصدع والأجسام كذلك. لذا لن ألوذ بهـا، فهي المحور الأساسي للجريمة والموت، للحياة والمتعة، ومع ذلك تظل مهانة ومستكبرا عليها في الوضوح.

كما لو أن هناك خيطًا ما يجمع صلوحة بريحانة وإسحاق بمحراك ويظل صنعو السنهوري، الوحيد ذو الوجه المنحرف قليلاً ناحية اليسار، الذي رأته ريحانة لأول مرة في ذهابهـا مع أم عايدة إلى منطقة الباطنية لتجرب عالم الحشيش والإبر المخدرة، وحده واقفًا هنا، أما أنا فسأظل ميتة ساكنة وأشـبه النعامة.

الجزء السادس

" الضحك يميت القلب "

المضيق

- ١ -

كعادته كل يوم يغتسل ويتوضأ ثم يهم مـتكلاً علـى ا ، ومع أذان الفجر يفتح باب البيت ويخرج سائرا بصمت، هادئًا كنفسه التي وجدت سكينتها أخيرا في الإتكاء على ما يحفظها من السقوط والانهيار، وعازلاً من فكره محراكًا وما يفعلـه. بل يدعو له بالصلاح والتقوى، متخلصا من عذاباتـه التـي تفتت كبده كمدا على انهيار عائلته بموت أبيه وأخته الوحيدة وبجنون ريحانة الذي لا خلاص منه، وبمحراك الذي كـان خلاصة هذا العذاب الدائم واليومي، حيث يراه أو يسمع عن حالاته وانهياراته في كل مناسبة، عن فرقته بعـد أن وجـد إسحاق مقتولا في حالة مزرية ومخيفة إذ لوحظ أن قاتليه قد عذبوه كثيرا قبل أن يقطعوا أوصـاله وأعضـاءه التناسـلية ويرموها في صندوق القمامة.

لأكثر من ثلاثة أيام ظلت عائلته تبحث عنه، وظنوه في البداية مع محراك، إلا أن الشرطة اكتشفت جثته حين أبلغ عن العثور على بعض أشلائه أحد سائقي سيارات البلدية التي تدور حول المدينة لجمع القمامة حين تم تفريغ ذلك الصندوق وتم العثور على باقي الجثة مرمية في خرابة قريبة أيضا في صندوق قمامة آخر، وبمشاهدة الجثة اتضح أنه قد سحل بالسيارة قبل طعنه وتعذيبه.

كل ما قالته أسرته إن هناك عدة اتصالات تمت قبل خروج إسحاق الذي كان على مدى يومين يتهرب من الرد عليها وفي آخر اتصال تغير وجهه وذهب ليلبس ملابسه ويخرج سريعا دون أن يعلموا وجهته. كانت المتحدثة امرأة تنتظره في سيارة أمام الباب، لكنهم لم يتحققوا ممن بها، هكذا قالوا.

بالطبع استجوب محراك ومن حسن حظه أنه لم يكن سكرانًا وإلا سيجلد ستين جلدة فما زالت هذه العقوبات موجودة برغم عدم وجود خطبة التوبة، ولكم خاف نصّور عليه وعلى نفسه، لكن ستر ا كان عظيما إذ كان بعض القتلة من الفرقة والآخرون من خارجها، ولكنهم جميعا

يتاجرون في المخدرات والنساء، وهي التجارة التي لم يكـن محراك يعلم عنها شيئًا، فهو يتعاطى فقط ولذلك لم يتم القبض عليه، ثم إنه أصر على إنكار معرفته بما حدث.

حين استدعي محراك من قبل الشرطة، ذهب ناصر إلـى المسجد في الفجر ظل يصلي ويبكي. كان خائفًا مرتبكًا يسير إلى المسجد كأنه يحمل ثقلاً على أكتافه. حين وصـل تـرك نعله عند الباب ودخل قبل الأذان، جلس بجانب الحائط يقـرأ بعض سور يحفظها بعد أن صلى ركعتين تحية المسجد ثـم تلاهما بركعتين ظل ساجدا في الركعة الأخيرة ما يقارب ربع الساعة حتى إن أحد الأخوة الذين كانوا بجانبـه أمسـك بـه وهزه فقام ووجهه مثل وردة حمراء والدموع تسـيل علـى خديه. لابد أن محراكًا قد استخدم مسدس والـده وقتـل بـه إسحاق مثلما رفعه على ذلك الفتى الذي أتانا في البيت بعـد وفاة والده.

وتساءل هل موت والده وأخته أقل وطـأة مـن غيـاب محراك في السجن...؟ هو لا يصدق أن أخاه يمكن أن يقتـل ويمزق جسد صديقه أشلاء ثم يلقي كل جزء في منطقة. إنـه عاجز عن تصديق ذلك رغم أنه لا يحب إسحاق فهو يعرف

الكثير عن مجونه وفجره اللذين يشاركه فيهما محراك، لكـن أن يقتل وبهذه الطريقة الوحشية فهذا لا يقـل عـن فحـش إسحاق ذاته.

حين جلس بجانب الحائط بعد أن أتـم صـلاته اعتـدل فاقترب منه ذلك الرجل بجلبابه القصير ولحيته الطويلة ألقى عليه السلام، فرد ناصر: وعليكم السلام. قال: - " قـل يـا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة ا ، ثم جلس بجانبه وظل يتحدث عن رحمة ا وعن الخلوص مـن مزاهد الدنيا وأن المصائب وإن كانت كبيرة فهناك أكبر منها فكيف لنا أن نستكبر مصائبنا وهنـاك فـي دول أخـرى لا يستطيع المسلم أن يصلي أو يجهر بإسلامه، نظر إليه بتمعن وهو يقول: إن إخواننا في أفغانستان مثلاً يحاربون ويقتلـون ولا يجدون من ينقذهم ونحن هنـا نبكـي علـى مصـائبنا الصغيرة يا أخي اتق ا وارحم إخوانك.

نظر ناصر إليه، كان الأذان قد بدأ فصلى وخرج مسرعا وذهب إلى بيت محراك. دق الباب بعنف شديد وحين فتح له، سأله: - عليك أن تخبرني الآن بصدق، أنت تعرف ما الذي جاء بي.. فرد عليه بتهكم: يالسعادتي، نصّور يسـأل عنـي

ويخاف علي...؟ الآن فقط تهتم بي؟ اذهب لشأنك يا نصـور واطمئن. ثم أغلق الباب في وجهه. كـان ناصـر يـرى أن الجريمة داخل محراك كتفكير مبكر بها، عنصر كامن داخل شخصيته التي يحاول مسخها في الخنوثة، لهذا كان يرى أن من الممكن له أن يقوم بها كأداء أكثر اكتمالاً من أي شخص آخر. وكان صدى صوته يتردد في أذنيه حين عاتبـه علـى دخوله الغرفة: أنت ما عشت يعني شو تكـون عبـد مالـك وممكن تنباع في أي لحظة، أنا صحيح أبوي مب عبد ومـا كان ممكن أنباع بس إحساس أمي كان يأثر علي، خوفها لـو انباعت وما يقدر أبوي يحررها شو بتسوي بتتنقل من بيـت لبيت وأنا بكون وياها وين ما تروح أنباع وياها أو تتركنـي ويا أبوي تربيني " مرة أبو " وبين إحساسك انك تبغي تسوي اللي تباه ودايما ما تقدر. عمرك ما انربطت في جذع شجرة ولا انضربت بالسوط.

ظل ناصر يذهب كل يوم إلى المسجد فيجد هذا الصاحب أو الأخ مرة وحده، ومرات مع أشخاص آخرين بنفس الهيئة والثياب القصيرة والذقون الطويلة، يتحدثون بجانبه ويدعونه

إلى التحاور معهم، وهو صامت أو يسأله أحدهم عن أحواله قائلاً:

- كيف حالك يا أخي....؟ أدعو لك ا بصلاح الدين والدنيا جزاك ا الخير. بعد أيام أتاه وقال لـه إنـه سيذهب ليحارب في أفغانستان ويدعو له أن يلاقيـه هناك وذهب.

- ٢ -

ظل ناصر مضطربا. هو لم يحتك بحرب من قبل غير ما ذكرت له أمه عن حرب ١٩٦٧ حين كان ما زال وليدا لكنه لم يع بها ولا بملابساتها هو يسمع عن حروب كثيـرة لكـن ليس لها علاقة به أو بأحد من الذين يعرفهم، يسمع عنها في الأخبار فقط ها هو اليوم يفكر في هذا الرجل الذي التقاه عدة أيام ثم اختفى مختارا الجهاد في سـبيل ا ، دون أن يكـون العدو عدوه المباشر حين قال ذلك انتفض الرجل وقائلاً:

- كيف يا أخي ليس عدوي أليس كل أعداء ا أعداءنا..؟ استغفر ا العظيم يا أخي، إن المسلمين أخوة وهم إخواننـا في ا وفي الدين.

ظلت تلك الكلمات ترن بعصبيتها الزائدة في أذنه، وكلمـا ذهب إلى المسجد بحث عنه حتى همس أحد هؤلاء الأخـوة يوما في أذنه بأنه استشهد وأنهم بعد الظهر مباشرة سيقيمون صلاة الغائب على روحه وسيقرأون القرآن ودعاه للانضمام إلى صلاتهم. جلس مبهوتًا نسى أمه وأخاه نسى نفسه وظـل يقرأ ويقرأ ويصلي، في ذلك اليوم لم يتحـرك ناصـر مـن المسجد حتى أتت زوجته تسأل عنه قالوا لها: إنـه بالـداخل ناداه أحدهم لها فخرج صامتًا وحين عاد إلى المنزل ظل في غرفته لا يتكلم مع احد لا يأكل ولا يشرب. حاولت زوجتـه أن تلهيه بأمور الحياة اليومية حاولت أن تعيده إليها أو إلى ما حدث لمحراك وإريحانة، لم يهتم ولم يكن مؤهلاً لسـماع أي شيء بدأت تباشر حياتها بنفسها تشتري الأكل وتخرج إلـى الأسواق، تسأل عن صديقاتها اللاتي هجـرتهن فـي بدايـة زواجها وتعيد علاقاتها بهن، ثم تعود إليه تحاول إطعامه ثـم تجلس تتحدث في الهاتف لساعات طويلة.

بعد غياب عدة أيام وانقطاعه عن العالم وعن المسجد أتاه احد الذين كان يراهم هناك، سأل عنه ودخـل إلـى حـوش البيت، رفض الدخول إلى المنزل، سأله عن حاله وطلب منه

أن يخرج معه للحديث، جره إلى المسجد حيث صلوا مع الآخرين ثم ظل يتحدث معه نفس حديث صاحبه الأول الذي استشهد.

قال له: إن المصائب وإن كانت كبيرة فهناك أكبر منها وأن أخاهم في الإسلام قد استشهد دفاعا عن كلمة ا وإنه مع الصديقين والشهداء وياليتهم مثله. نظر ناصر إليه بصمت لكن الآخر أكمل حديثه وقال له: إن الجهاد هو الجهاد في سبيل ا والنصر من عنده تعالى، سكت ناصر، اسمه تردد كثيرا في معان لم يسمع بها من قبل.

بدأ ناصر يتردد على جلسات الجماعة وصلواتهم والعبارات التي تتردد دوما تتسلل إليه. تدفعه إلى الإحساس بأن داخله يتواءم مع الزهد في ذلك العالم الذي يرتكز على حقيقة واحدة هي الفقد. الفقد بالموت أو الجنون أو الضياع.

ذهب مع تلك الجماعة إلى جلساتهم الخاصة وصلواتهم ثم انضم معهم للسفر إلى أفغانستان، كانت هذه الجماعات تحاول تستقطب الأشخاص من كل دول العالم ليتم تجنيدهم في أفغانستان.

في لحظة مباغتة بدت له كهروب من ذاتـه، وماضـيه، ومن واقعه الذي أصبح يحمل همه وحده، وخوفه وحده، أخذ بعض ملابسه وودع زوجته. لم يتوجه إلى ريحانة ولا إلـى محراك، ركب الطائرة مع بعض الصحابة وسافر دون إيمان خالص بالفكرة، لكن نفسه التي تتوق إلى التخفف من عذاباتها فتحت له عالما وهميا انخطف إليه طلبا للسكينة. ومـا عـاد هناك شيء يوقف قراره الذي لم يتخذه، لكنه أرغم عليه تحت ضغط ووقاحة أخيه وتخبط حياته.

كانت بيشاور محطته الأولى في أفغانستان وبالتحديد فـي معسكر الأنصار حيث حط الرحال بين من أطلق عليهم لاحقًا اسم " الأفغان العرب " والذين وصلوا إلى أفغانسـتان كمـا وصل هو الآخر إليها عن طريق رابطة العـالم الإسـلامي لتجنيد العرب من اجل القضية الأفغانية.

- ٣ -

التقى ناصر في سفره الكثيـر مـن جماعـات الإسـلام السياسي، حاولوا ضمه بالرغم من عدم انتمائـه إلـى أيـة جماعة لا هو ولا رفاقه، أنهم مسلمون فقط، لذلك حين بـدأ تدريبهم على السلاح في برنامج مضغوط لسد الـنقص فـي

صفوف قوات بن لادن التي استشهد منها الكثير. وبسبب هذا البرنامج المضغوط أبدى ناصر هـذه الملحوظـة فـألجموه بمقولات عديدة جعلت سؤال محراك يتضخم في رأسه. شعر بأن استشهاده هنا سيكون مجانيا وبلا جدوى، كـان أغلـبهم قليلي المراس وقليلي الخبرة مما جعلهم من أكثر الأشـخاص استشهادا وكان ناصر يلاحظ استشهاد صحبه، كل يوم. لـم يرغب في الموت هكذا، إلا أنه رأى أن ذلك ما زال خيـرا من الحياة التي يستبدلون فيها بقانون ا القوانين الوضـعية. هكذا أقنع ذاته التي لم تكف عن محاورته فبدأ يداخله التردد والشك والخوف، واحتال بكل الطرق حتى لا يخوض معارك لا يعرف فيها قاتله ولا من سوف يقتله فالتجربة الوحيدة التي خاضها كان لا يلمح فيها غير كرات النار القادمة من الجهة الأخرى وهو يضغط على زناد رشاشه في مواجهة من يقذف بتلك القنابل.

كانت إصابته ملاذًا احتمى به للعودة. يعود حاملاً إصابته في وجه محراك الذي قلل من شأنه، بل كان حديثـه يحمـل الرهان بأنه غير قادر على هذه المواجهة. تراكمت الأحاديث في ذاكرته متداخلة ومتشابكة لا يدري ممن سمعها هل مـن

المرافق الذي عبر به إلى معسكر الأطباء المصريين علـى الحدود الأفغانية الباكستانية أم من ذلك الشاب البخاري الذي تسلمه وأتم له كل إجراءات العودة إلى وطنه مـرة أخـرى، وهو يقول: - بيشاور منطقة وهابية ففي عام ١٨٢٤ أعلـن الشيخ الوهابي سعيد أحمد الجهاد ضد الفكـرة فـي منطقـة البنجاب، وكان يحارب بنفس أسلوب " بن لادن " الآن. وفي عام ١٨٣٠ احتل بيشاور وأنشأ فيها دولة كانت لهـا عملـة خاصة حملت اسم أحمد ولذا كانت الوهابية قوة فاعلة تـؤثر بأفكارها على المجتمع الأفغاني منذ قرنين، فما الذي دفعـك أنت إلى هذه الحرب وأنت لا تعلم عن حقيقتها شيئا.....؟

رد ناصر: - أتيت أبحث عن إجابة وأتم فرائضي وهأنـا راحل دون معرفتها. حين التقيت بذلك الـذي كـان ينـادي بالدعوة سكنت روحي أكثر. ظللـت بقربـه أتحـدث إليـه وأحاوره وأصلي بجانبه، كانت روحي شـفافة لا تسـتطيع القتل، ويدي مسالمة لا تستطيع أن تمسك سـلاحا وتصـوبه ضد شخص آخر حتى لو كان مختلفًا عني عقائـديا. وبعـد تدريبات عديدة عدت أكثر حزنًا وأكثر صمتًا. لقـد فقـدت كثيرا من الأصحاب ورأيت الحرب بأم عيني وتعرفت علـى

أشخاص عديدين كنت كل يوم أكفن أحدهم وألتقـي آخـر، كانت تجربة صعبة وموجعة وكنت أريد أن تستكين روحـي وتهدأ بعد أن بدأت نوبات العذاب تـنهش دواخلـي وتفـتح ناظري على حقيقة واحدة هي الموت في العراء غريبا وحيدا من أجل هدف أجهله ولا أمسك به. الفرار أو الموت. صمت قليلاً ثم تمعن في المعنى وهو يقول لنفسه:

- نحن لا نستطيع إلا أن نفر من الفرار، لا فـرق بينـي وبين محراك الذي كان يفر إلى قميص نوم عمتنا ومكياجهـا طالبا القوة لنفسه الهشة ولا فرق بيني وبين أمي ريحانة التي تفر إلى الجنون هربا من الواقع الذي يقسو عليها ولم تستطع أن تتخطاه وهأنذا أفر من الفرار إلى فرار آخر لست قـادرا عليه. شعر في هذه اللحظة برغبة عارمة في ضم محـراك إلى صدره لكنه تساءل هل ليحميه أم ليحتمي به....؟

ابتسم حمد الشاب البخاري مبـديا تعاطفـه التـام مـع المجاهدين وكذلك ناصر الذي أوحى له أنه مصدق له رغـم أنه يعلم تماما أن ناصرا رآه وهـو يسـاوم علـى تسـهيل إجراءات عودته ومن كانوا معه من الجرحى أو المرافقين.

عاد ناصر إلى البيت أكثر حزنًا وصمتًا وهشاشة وإعياء تغفو عيناه وهو جالس، ويصحو مفزوعا من الكوابيس والهلوسات التي تقفز إلى رأسه فيسمع أصوات من رافقوه إلى الجبال الوعرة والتلال التي نبتت فيها الأشواك، عاد وهم هناك جثث مشوهة واراها بيديه التراب. تذكر أسماءهم وناداهم بصوت عالٍ وبكى كما لم يبك من قبل.

تحملت زوجته منه الكثير، وحين سألها عن محراك حدثته بأنها لم تعد تراه، ولم تسمع عنه منذ مدة. ألم يكن يبعدها عنه ويرفض أن تذهب إلى بيتهم وحدها إذا كان محراك هناك، ولم يرغب يوما أن يزورهم في بيتهم...؟ كما أنها هي ذاتها لا تحبه ولا تطيقه، سألها عن ريحانة فلم تتكلم لكن تعابير وجهها كانت كمن لا يعرفها. خرج مسرعا يبحث عن آخر خيط له بحث عن ريحانة عند بعض الأسر تكلموا عن مهيرة الخبلة لكنها كانت هناك منذ سنين وسنين. كانت ريحانة تحكي له عنها أنها رأتها في صغرها امرأة مجنونة تذهب إلى البحر وتكلم نفسها، تتذكر لحظات، وتغيب لحظات أخرى، تبكي ولا تنام، كلما وجدت أوراقًا وعلبا فارغة وضعتها على ثيابها وضفرت شعرها بقصاصات القماش

الصغيرة التي تجلبها من مخلفات محلات الخيـاطين حتـى أصبحت ضفائرها ذات ألوان كثيرة وطويلة.

- أين ريحانة إذن...؟

ذهب إلى البحر، إلى محراك، إلى الأسـواق، إلـى كـل البيوت. دق أبوابها وسلم وسأل عن ريحانة، سـألهم عـنهم فحدثوه بأنها مهيرة الخبلة، إحداهن فقط قالت له بأن ريحانة قد ذهبت مع عمتها إلى القاهرة منذ زمن طويل ولم تعد.

قالت: - قالوا إنها أنجبت ولدا آخر اسمه نصور.

وقالوا: - إنها كانت في غرفة السطح في القاهرة لا تأكل ولا تشرب ولا تتحدث مع أحد، مرة. ذهبت مع أم عايدة التي تبيع الذرة بجانب مدرسة ابنتهم مع محراك وتركت نصـور لهم واختفت هناك.

لكن هو نصور.. ضـحكوا جمـيعهم وقـال: إذن أيـن ريحانة....؟

اختفت....؟ كيف.....؟

أليست معتادة الخروج صباحا تظل تسير على قدميها حتى تهلك روحها في السير.. ألم يتكلم محراك بهذا الشـأن عـدة مرات حين كانت تسير معه في شوارع القاهرة ممسكة يـده

وهو يصيح ويصرخ من التعب دون أن تعي هـي معاناتـه كصغير، وهي التي اعتادت السير مع عمتها حين أتيا إلـى القاهرة. كانا يجوبان الطرقات دون هدف غير السير ذاتـه، إنها معتادة ذلك...؟

دخل غرفتها وأشعل الضوء متأملاً كل شيء ثم عاد إلـى زوجته، إنه لا يصـدق أبـدا أن تختفـي ريحانـة، كيـف تختفي.....؟ إن المدينة صغيرة وكل شيء واضح وجلي، كل الأفعال تظهر ولا شيء يختفي حتى السر، حتى الكـلام، ولا يمكن لأحد أن يختبئ حتى قاتل إسحاق، حتى أفعال محراك، وحتى انهيارات ريحانة. قفز ناصر إلى الخارج تتردد علـى مسامعه كلمة: ريحانة جنت، ريحانة اختفـت. هـل كانـت زوجته تعني بالفعل أنها جنت ومـن ثـم اختفـت ريحانـة وأصبحت فقط امرأة مجنونة تعاود سيرة أمها مهيرة أم أنهـا جنت واختفت حقًا، أم أنها اختفت فقالوا: أنها جنت، لكـي لا يبحثوا عنها أصلاً.

أسند رأسه بين يديه، أحس أنه سينهار هو أيضا.. أحـس أن العالم يقفل نوافذه وأبوابه عنها. لماذا لا يجن هو أيضـا أليس من هذه السلالة المجنونة....؟

جاس على الكرسي.. اقتربت منه زوجته فقالت له:

- ناصر، شو فيك.. شو صار أنا ما قصرت بـس مـا أدري شو أسوي، أنا روحي ومحد معـاي وإنـت تركتنـي ورحت ومحراك إنت تعرفه.. وأنا حاولـت الاتصـال بـه وأخبرته سكر التليفون في وجهي بعد ما قال وشو يعنـي إذا اختفت. بترجع ولو ما رجعت أحسن بعد.. ناصر.. لا تزعل أرجوك، أكيد بتكون عند حد.. يمكن نسأل عنها عند أخواتها أو عند عمتها، أو يمكن ماتت ما أدري، تعرف يـا ناصـر تذكر الأوراق اللي كانت ضايعة من عمتها واتهموا أمك إنها سرقتها تذكرها، وجدوها ظهرت أخيرا.. سمعت عنهـا ولاّ لأ؟ لقطوها عند اللي قام بالانقلاب بعد اختفاء ريحانة بأيـام، وحليلها ما عرفت. لكن الثوب.. ثوب عمتها وجدناه متعلـق فوق إريال التليفزيون في بيتنا وكأنه علم يرفرف. مـا أدري منوه حطه هناك، وأنا مب قادرة أشيله، شو رأيك يا ناصـر تطلع السطح وتنزله من فوق.

الصورة التي لم تلتقط

عدت إلى البيت اليوم، دخلت غرفتي وأقفلتها ورائي، جلست أكتب قليلاً. كان والدي محبطًا كئيبا، قال لي وهو ينظر بأسى:

- أنا بموت وما عندي لكم الشيء الكثير.

قلت له:

- يكفي أنك تورثنا اسمك هذا أكبر شيء ويكفي أنك في يوم من الأيام كنت أبوي.

دخلت كان هناك حزن يضمني، وحين مات اهتزت الأرض تحت قدمي.

ينخدع ويحب الملائكة

دخلت الغرفة، مددت يدي لأسلم عليه، اعتذر ناصر عـن السلام باليد، وضع يده على صدره وأحنى رأسه وغض عينه عني قال: - وعليك السلام.

جلست: - كيف حالك يا ناصر وكيف محراك وريحانـة وأهلك....؟

كنت كلما نظرت إليه وجدت ملامحه غارقة في شعيرات ذقنه الممتدة بغير تناسق، وددت بصدق أن أسأله هـل أنـت نصور ذلك الطفل المدلل الذي كان عاريا في الصورة علـى كتف ريحانة....؟ تلك الصورة باهتـة الحـواف....؟ هـل أورثتك هذه المرأة ميراث التناقضات التي أورثتها محراكًـا فلم تنفك منها بل أخذتك إلى متاهات الازدواجيـة والأقنعـة المهمشة حين تتجسد الحقيقة أمامك وهما....؟

سكت ولم ينبس، فعدت أسأله:

- شو ربيت ذقنك كثير، ا يرحم لما صـورناك وإنـت عريان، عندي صورتك وانت طفل عمرك شـهور وكنـت أحملك عريان، ومحراك بملابس الشرطة.

قال: - الصغار يكبرون، هذي سنة الحياة.

قلت لنفسي، ماذا تفعلين الآن ما كنت تتحدين به ما هو إلا وهم. لكن عليك الآن تجميع كل تفاصيل ريحانـة الصـغيرة والكبيرة وعليك أن تتذكري ملامحها هل كانـت حقيقـة أم وهما هي الأخرى...؟

قلت: - عرفت أنك ذهبت لأفغانستان شو، رحت تبحـث عن ريحانة.....؟

نظر إليّ وأدرك أنني أسخر منه، فعدت أسـأله: - كـل الذين يذهبون إلى القتال لا يعودون إلا في نعوش.

قالت أمي بغضب: - شمسة وبعد وياك، ناصـر جـاي يسأل عن ريحانة ما في داعي لكلامك هذا.

لم يرد لكن ظلت ملامحه الحزينة صامتة مثله. إنما هناك شيء ما في صدره ما زال يتحرك.

قال: - لا حول ا ، لا حول ا .

استودع أمي التي ظلت في مكانها وخرج.

لم يعد ناصر بعد ذلك. كان يجلس مع أمي في المجلـس يضع عينيه في الأرض ويردد لا حول ولا قوة إلا با .

قالت له جدتي:

- يا ابني ريحانة في غرفة السطح مع نصور ومحـراك ما تريد تكلم أحدا.

قال لها نصور:

- أنا ناصر يا عمتي أنا ناصر، كبرت، وريحانة تركـت السطح من ٢٥ سنة وأنا جاي أسأل عنها لأنهم قـالوا لـي رجعت مصر.

فقلت له:

- ريحانة جنت منذ فترة يا ناصر.

نظر للأرض ثانية مبعدا عينيه حتى لا تلاقي عيني قائلاً:

- قالوا أنها جنت، وكلما بحثت عنها لم أجد غير مهيرة.

سألته جدتي:

- هي مهيرة بعدها عايشة، مهيرة ماتت من زمان.

فسألها ناصر: - وريحانة وين.....؟

فردّ عليه: - ريحانة....؟ صمتت ثم أضافت يمكن تكون مهيرة الخبلة، ويمكن تكون في غرفة السطح.

تهدج صوته وهو يقول: - هل أمي وهم....؟ صمت قليلاً ثم قال كمن يحادث نفسه:

- إذا كانت حقيقة فأين هي، وإن كانت مجرد وهم فمـن التي أنجبتني، من التي رضعتُ ثدييها....؟

نظر إليّ لأول مرة قائلٍا: - أنت ذاتك ألم تكـن ريحانـة حقيقة في حياتك....؟

تردد على مسامعي صوتها وهي تنشد: " يا ميه يا ميه يا مايه "

نادي ناصر أيضا: " يا اميه يا اميه ".. يا ريحانة

قلت بقسوة: - أنت من ضيعها عبـر توازنـات القـوة المتصارعة في تلال أفغانستان. وذهبت إلى غرفتي أحضرت له مفتاح السجن الذي ظل معي منذ أن تركتنا ريحانة لتعود. أعطيته المفتاح وأنا أقول له: - هذا ما ظل من ريحانة يمكن تقدر تفتح به سجنك.

ابتسم بحزن ينفطر له القلب. إنه ناصر الذي حملته وهو صغير وها هو الآن شخص آخر لا أعرفه مختلـف عنـي تماما. صمت قليلاً ثم قال:

- هل تعتقـدين أن هنـاك حريـة لمـن هـو أجـوف الروح.....؟

هالني هذا التوصيف وشعر بانبهاري فابتسم باستحياء قبل أن يسترسل في هدوء:

- هناك في المغارات انكشفت لي حقائق عدة. ما ينطبق على الفرد يمكن أن يوصف به مجتمع بشكل أو بآخر ليست ريحانة وحدها من تجد الراحة في عبوديتها بل كلنا.

فقلت له: - هل انضواؤنا تحت راية الإسلام في أفغانستان بمساندة من أمريكا لصالح أهدافها إلا دليل على أرواحنا الجوفاء....؟ الكثيرون ممن ذهبوا كانوا يبحثون عن الخلاص لأنفسهم قبل الخلاص من أي شيء خارجي أيا كان....؟

لم يعلق، لكنه هز رأسه وكأنه يوافقني الرأي مما أربكني. قلت، ربما كان يكاشفني الآن بالحقيقة. اكتشفت أن ما قدمته من دراسات واضعة نصب عيني تنبيه المجتمع إلى أمراض طبقة ظلمت بانتهاك حقوقها ما كان إلا تعاليا على مآسيهم ونوال الحظوة لدى من يتشدقون بالحقوق الإنسانية على شاشات العرض السريع فقلت لنفسي إن فجيعتنا تتضاعف حين تنقلب الحقائق أوهاما، لحظتها فقط نعرف أن الطمأنينة التي كنا نغرق فيها خداع وشرك نختبئ لأن مواجهة الحقائق

كما هي تفقدنا توازننا وتجعلنا نشك حتى في وجودنا فإذا كان ما حولنا وهما فكيف نكون نحن حقيقة...؟

خرج ناصر من بيتنا بعد أن ودع جدتي وأمي، ناظرا إليّ نظرة لم أفهمها، تاركًا المفتاح الذي وضـعته أمامـه علـى الطاولة دون أن يمسه، واعدا أن يخبرنا عن ريحانـة فـور توصله لأي جديد. قبل أن يصل إلى الباب الخارجي أخبـر أمي عن الأوراق التي ظهرت وفستانها الذي وجـده علـى سطح بيته.. لم تكترث أمي وقالت له: وشـو الفايـدة مـنهم الحين، لا تهتم بهاي الأشياء خذ بالك من نفسك ودور علـى أمك.

قدمي المورثة

- ١ -

قال طه لهادف:

- لا يمكن أن تحب الروح بدون جسد، الحب بدون جسد حب ناقص، غير مكتمل، الروح تسكن جسدا ولهـذا حـين تحب لابد أن يظهر أو بالأصح يتجه الحـب إلـى الجسـد، شخص ما حتى وإن أحببت روحه الحب بدون جسـد هـذا الحب حب ناقص، رومانسي الروح بدون جسد موات.

قلت موجهة السؤال إليه:

- لأ.. ليه بتقول كده، الجسد بـدون روح جـنس مثـل الحيوانات.

- الحيوانات عندها أرواح أيضا بس نختلف عـنهم فـي قوانين الطبيعة بيننا وبينهم، القوانين تختلف لكـن الطبيعـة موجودة بالنسبة للجسد.

- أنا خلقـت موضـوعا عـن رومانسـيتي وباعتبـار الرومانسية حالة سلبية حولتها لموقف في داخله رومانسـيته الخاصة.

- انت قلقك يسبق طمأنينتك لهذا لا تتنازلين وحياتك مليئة بالاحتمالات.

- أنا فاقدة مشهدية حياتي وطبيعة مشهدي بشكل يتفق مع رغباتي في العالم، رغباتي تتحرك فيها الأزمات بشكل حـي وجميع أدوار الأسرة داخلي وإن هربت منهم حـاروح فـين لكنني لا أستطيع إعلان الكره بسهولة.

- انقلي حياتي من سريتها إلى الإعـلان عنهـا كتعبيـر نفسي.

- وانت بتعمل كده....؟

- بحاول.

- كده أبقى عاملـة زي ريحانـة وزي محـراك.. أنـا ماقدرش.

- محراك يستطيع إعلان الكره بسهولة ولهذا هـو غيـر قادر إلا على الشكل الغريزي، وهـو لا يلتـزم بـأي دور للأسرة بل تهرب منه، قوته مرتبطة بالعقل وهـو ضـعيف وهش. يحاول اختبار شخصه وتأسيس فشله لكـي يضـطر للتعامل بشكل قوي مع الطبيعة. لا يضع القيم في احتمالاتـه وحين يمارسها يبدو كأنه أفضل من يمارسها إذا أراد ذلـك

لكنه في النهاية يتجاوزها تماما ويكون خارجها أيضا لـيس من أجل المتعة لكن من أجل إثارة أفكاره، مشاعره قد تصبح ضده حين تنفلت منه هذه الأفكار السرية التي تتكون بـدون إرادة منه لقوة مضادة فتصبح مفتاح هويته.

بعد خروجه من السجن دخل غرفته نظر في المرآة فلـم يجد نفسه، كان بلا ملامح.

وحين يقلب السكر في كوب الشاي الـذي أمامـه يقلـب أفكاره كلها، بل حياته كلها يحس أنها تـدور حـول مركـز واحد، الملعقة، هي التي تدور حولها الأفكار، أفكاره.

الملعقة كيف تأخذ السكر، كيف تضعه في الكوب كيـف تذيبه دون أن يكون له أو لها أثر إذن كيف تصنع الجريمـة دون إثبات واحد، دون أثر، حين وضع فمه علـى طـرف الكوب رشف قليلاً من الشاي وانتبه إلى أنه محلي بالسـكر. إذن هناك دليل واضح على الملعقة والسكر.

حلمت ريحانة، لم يكن حلما، لم يكن هذيانًا، لأنها عاشت هذا الحلم من خلال أشياء تعطيها الحق في الفائض، فـائض التعاسة، هذا الذي تحياه وترى أن الجميع سبب لـه. ظلـت ريحانة تجتر هذه التعاسة، وتمهد لغليانها فلـم تجـد سـوى

مأزقها مكتوما، لم تجد سوى صرخة انهيار العالم حولها ولا شيء يدل عليها سوى هذا الهذيان، هي تهتم بالعالم وهـو لا يعتني بها، لو عرفت ما تريده لكانت اليوم تمتلـك مفـاتيح سعادتها لكنها كانت دائما تبحث عن مستحيل لا يتحقـق إلا بدمارها، بل وتحقيقه يعني نهايتها بالطبع.

نظرت إلى النيل ونحن نسير أنا وهادف وطـه. نظـرت بعمق وكأنني أغوص داخله، أخرجت المفتاح، قلت لهـادف: هذا هو مفتاح السجن في بيتنا، كان له نظير واحد فقط لـدى مرهون. كان في الخزنة وسرقته ريحانة ولـم تسـتطع أن تحرر المساجين حين فتحت الباب ولـم تسـتطع أن تحـرر نفسها حين عادت ولم أستطع أنا أيضا أن أتحـرر بوجـوده معي ولم يأخذه ناصر.

التقطه طه وقلبه بين يديه وهو يقول: مش قلت لك أريـد أن أقابل جدتك...؟

ابتسمت له، وهو يقول: - كان فيه عرايس نيل بنهديها له كقربان حتى يفيض وكان فيه مفتاح الحياة عنـد الفراعنـة وعندك مفتاح السجن اللي لازم يترمي هنا علشان تتحـرري من سجنك. وفي اللحظة ذاتها التي أسقط طه المفتـاح فـي

النيل، تحولت ابتسامتي إلى حزن شديد، رغبت في الصراخ لكنه أمسك كتفي وهو يقول لازم تتحرري يا شمسة سيبك من السجن ومن المفتاح خليك مع الحياة. بكيت بحرقة وتـركتهم بعد أن تابعت سقوط المفتاح في عمق النيل. لقد اختفى تماما ولن أحصل عليه ثانية. كان دليل خروجـي كمـا الأوراق. لماذا نظل معنيين بالمحافظة على الشكل الخارجي حتى لـو فقدنا داخلنا...؟ حين أعلنت رفضي لتاريخي نقلت التـاريخ من السماوي إلى الأرض، أرض الواقع، كـي أعبـر عـن رغبتي في الاختيار وكانت العاطفة مصدر قوتي، وكل قـوة مرتبطة بالعقل لكن عاطفتي رخوة، لم تسـتطع وحـدها أن تعلن عن نفسها في مواجهة الاجتماعي الذي نشأت فيه ما لم يرتبط بالعقل، كان كل ما يحكونه نوعا من الغطاء والحماية لفكرة التاريخ الذي لم أعشه إلا في الحكاية وها هو الـدليل الوحيد عليها، يسقط أمـام عينـي دون أن أسـتطيع حتـى الصراخ.

هادف يحدثني وهو حزين، لم أعرف سبب حزنه، سـألته فلم يجب، ظل صامتًا كجدار طيلة اليوم وظللت أنا صامتة لا أعرف ما الذي يحزنه لكنني تكلمت معه عن حياتي، أسرتي، ريحانة، مباركة، الوحيد الذي لم أعاود الحديث عنه محراك والوحيد الذي ظل بملابس بيضاء لضابط شرطة.

وتكلم هادف، أخيرا تكلم. لكنه لم يفتح لي نفسه بكاملها لم يثق بقدرة استيعابي له. يتعامل كمعلم، كأب، كرجـل لهـذا يستمع إليّ، ينصحني ولا يتكلم إلا قليلاً وحين يـتكلم كـان يعطيني العسل قطرة قطرةً ويسحب مني الزبد لأخاص إلـى ذاتي. لكنني لا أحب العسل. لا أحب ملكة العسل أنها تقتـل الذكور من أجل تلقيحها لا أحب أن أكون ملكـة عسـل ولا نحلة شغالة، أنا أحب أن أكون ملكة ليل فقط، أحب أن أكون شمسة ذات المفتاح الأسود الكبيـر، ذات الحكايـات التـي أسقطوها مني دون أن أتخاص منها، ربما مازلت أحـب أن أكون نعامة.

- ٣-

شعرت بالارتباك وأنا التي كنت أنتظر العودة إلى وطني لكي أضع يدي على آثار الانتهاك الإنساني الـذي شـاركت فيه، ولا تبرأ من ذنب لم تقترفه. أجد نفسي عاجزة عـن أن أمد يد العون لمن شاركني أيام الطفولة والغربة وأتي لاجئًـا باحثًا عن ريحانة أمه لكي أنقذه من ذلك الاختلال الذي بدت عوارضه حادة عندها، ومستترة لديه لملمت ذاتـي وألقيـت عليه السؤال كأنني أتخاص منه: - ناصر أنت جاي تسـأل عن ريحانة...؟

تلجلج وهو يقول: - نعم

سألته: - هل كنت تظنها هنا لدينا في القاهرة وهي التـي حاربت من أجل أن تعود...؟

فقال: - لا شيء يمكن الجزم به، الذي أعرفه أننا نتعذب بحرياتنا جميعا كما كانت تتعذب بعبوديتها.

سألت نفسي لماذا هذا الصمت وعدم القـدرة علـى إدارة حوار على أرضية مفتوحة، وأنا التي أكتـب عـن الآثـار النفسية للعبيد بعد الانعتاق وحدود مشاركتهم في المجتمعـات

الجديدة، أليس الموضوع قديما بالنسبة لتطـور المجتمعـات الآن؟ وإذا كانت النظريات والرؤى التي تقدمت بهـا علـى المستوى النظري قد أتاحت لي درجة الامتيـاز، فمـا هـي قدرتي على تطبيقها الآن على نموذج مادي...؟ أين قـدرتي التشريحية التي تصل بي إلى مركز الداء...؟

قلت لنفسي: إن الفرصة مهيأة أمامـك لتتبعـي الفـرض النفسي في ناصر والممتد كالحبل السري إلى ريحانة التـي ورثته عن والدها سعيد العبد الذي ورثه الأجداد. ماذا يعنـي أن يبحث عن ريحانة بعد عودته من أفغانستان؟ هـل وجـد ذاته ليبحث الآن عن ريحانة...؟

بدأت تحرير البحث الذي أشـتغل عليـه حـول الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المعتزلة.

بدأت بكتابة بضع فقرات حول ثورة ظفار.

بدأت الكتابة حول القواسم: هم قوة بحرية لها أكثـر مـن أسطول بحري، أسماهم المستعمرون القراصنة.

أخذت غرفة السطح لأجعلها غرفة خاصة بي.

ومن بعيد تناهي إلى أذني صوت مـريم يشـق عبـاءة السماء:

ولكن مثلي.. هل يذاع له سر.....؟

****

تنويه

تم الاعتماد على بعض المراجع فى الرواية منهـا: روايـة بجعات برية، كتاب الإمارات العربيـة ، والخـط الجـوى البريطانى إلى الشرق ، وبعض الكتب التاريخية ، والحكايات والأغاني المروية.

ميسون صقر

- شاعرة وفنانة تشكيلية من الإمارات/ الشارقة.
- تخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.
- أصدرت عددا كبيرا من الدواوين منها: هكذا أسـمي الأشياء – جريان في مادة الجسد – الآخر في عتمته – السرد على هيئته – رجل مجنون لا يحبني.
- أقامت عدة معارض تشكيلية منهـا: الوقـوف علـى خرائب الرومانسية – السرد على هيئته – الآخر في عتمته.
- شاركت في عدد كبير من مهرجانات الشـعر والفـن التشكيلي في كثير من الدول العربية.

هذه الرواية

" ريحانة " رواية ذات مذاق خاص، ولـدت مـن رحـم أحداث مضت، لتعيش واقعا تغذيه المتناقضات والتساؤلات..

أبطال الرواية نماذج ثرية دراميا.. فريحانة عبدة لا تملك من أمرها شيئًا، تترك موطنها بصحبة سادتها حاملة طفليهـا

إلى مصر، تاركة زوجها وبداخلها أفكـار تمـور وطمـوح للعودة.. هل يتحقق حلمها في ظل الأحداث..؟

وشمسة سيدة صغيرة، يتفتح وعيها على صراعات حول السلطة واستعمار يتسلل في جنح الظلام.. ترحل مع أسرتها إلى مصر، وتخوض غمـار تحـولات أسـرتها السياسـية والاجتماعية، فتبحث لنفسها عن منطق..

شمسة وريحانة خطان متوازيان كل منهمـا فـي مقابـل الآخر وذاهب في اتجاه معاكس.

" ريحانة " عمل أدبي يظهر في شكله الروائي بعد فتـرة اختمار طويلة، لذلك جاء مشحونًا بالـدلالات والإشـارات.. وإذا كانت كاتبته قد قالت في أشعارها:

" أقضى اليوم في تلمس أحداث تمضي أتحدث لأراني "

فإنها اليوم تحكي لنراها.. " ريحانة ".. دعـوة للقـراءة والتأمل.